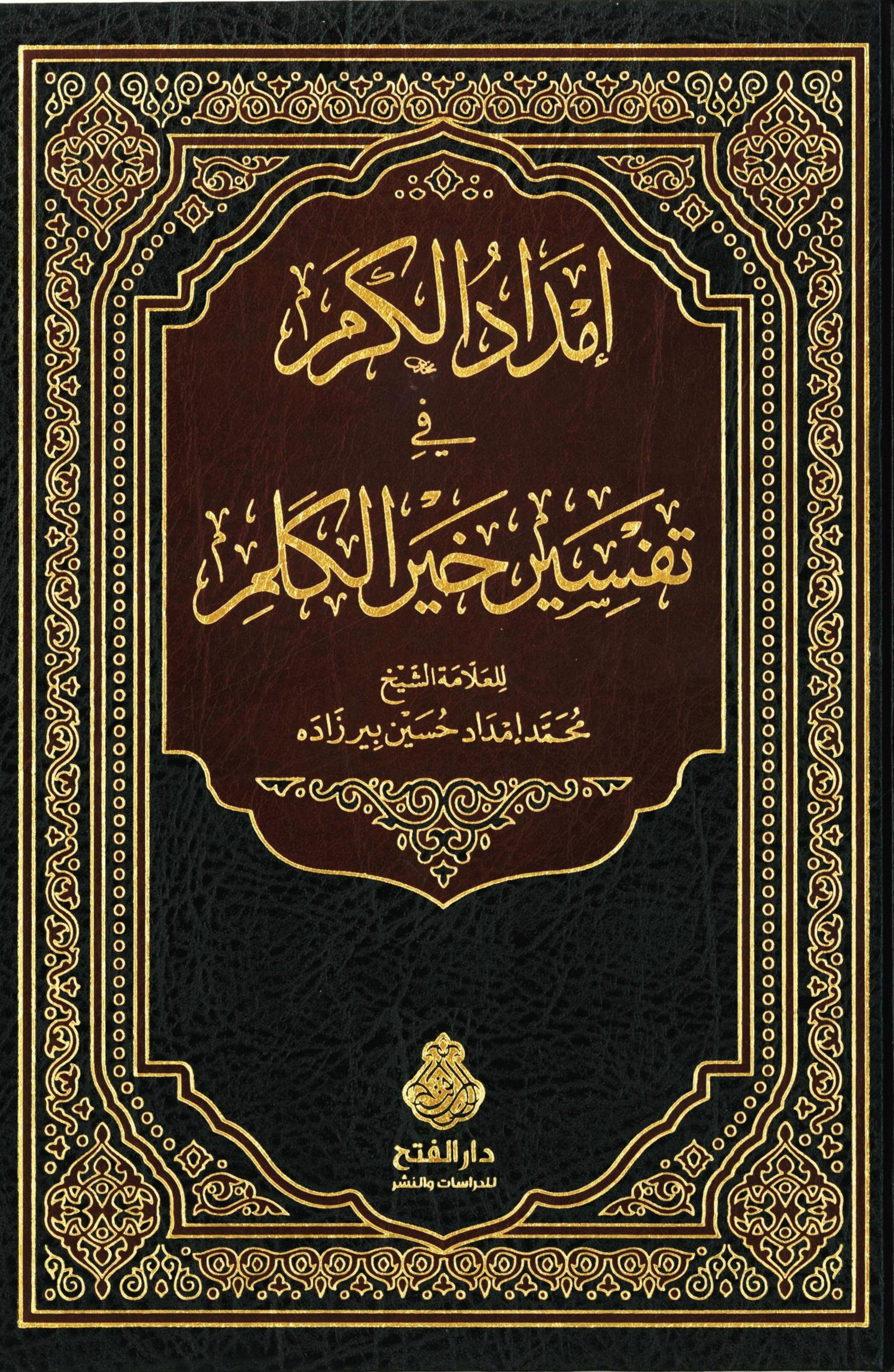

إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده
دار الفتح
للدراسات والنشر


إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده

إمداد الكرم في تفسير خير الكَلِم
للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده
نقله عن الأردية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد
الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قياس القطع: 17 × 24
الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٤٢١-٨ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٧٥٧/٤/٢٠١٧)





هاتف: 4646199 6 (00962)
جوال: 777925467 (00962)
ص.ب: 183479 عمّان 11118 الأردن
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الناشر بالمملكة المتحدة:



Al-Karam Publications
Eaton Hall
Retford
Nottinghamshire
DN22 0PR
England, United Kingdom
Tel: +44 (0) 1777 702555
Email: info@alkarampublications.com
Website: www.alkarampublications.com



للعلامة الشيخ

محمد إمداد حسين بير زاده

نقله عن الأردية

أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد

الجزء الثالث



دار الفتح

للدراسات والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس مضامين

المجلد الثالث

فهرس مطالب
المجلد الثالث

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها «يوسُف»؛ لأنّ فيها بيانًا لأحوالِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام الحَياتيّة، ولم يأتِ بيانٌ لقصّةِ أحدٍ من الأنبياءِ في القرآنِ الكريم بالتفصيلِ الذي جاءت به قصّةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام في «سُورةِ يوسُف»، وقد ذَكَرَها اللهُ تعالى بلقبِ ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

وقد سَرَّى اللهُ تعالى بقصّةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ عن نَفْس نبيِّنا الكريم ﷺ بأنْ لا يُبالي بمخالفةِ أهل مكّةَ له، وسوف تَفشَلُ خُطَطُهم المُغرِضةُ مثلَما فَشِلت خُطَطُ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلام من قبلُ، وسوف يُضْطَرُّونَ في نهايةِ الأمر إلى الخضُوع لكَ والتسليم بك، هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَر دعا اللهُ تعالى أهلَ مكّةَ إلى التفكُّر والتدبُّر؛ بأنّكم ـ بسببِ حسَدِكم ـ تفعَلونَ اليومَ معَ أخيكم مثلَما كان إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام يفعَلونَ معه، ولكنّ اللهَ تعالى ـ في نهايةِ الأمر ـ جاء بهؤلاءِ الإخوةِ عندَ أقدام سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وهم الذين ألقَوْا به في البئر بلا رحمةٍ، وبنَفْس الطريقة سيأتي عليكُم يومٌ تَسْتَجْدُونَ فيه الرحمةَ من أخيكم هذا الذي تحاولونَ القضاءَ عليه.

وهنـاك جوانبُ عديدةٌ من حياةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وحياةِ النبيِّ الكريم ﷺ متشابهةٌ إلى حدٍّ كبير، على سبيل المثال:

* حاولَ إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام قَتْلَه بإلقائه في البئر، وخَطَّطت قُريشٌ لقَتْل النبيِّ ﷺ ليلةَ الهجرةِ من مكّة.

* حاولت زَلِيخا إغواءَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام بإغرائه بالمُغْرِياتِ الدُّنيوية، ولكنّه رَفَض، مما نتَجَ عنه دخولُه السِّجنَ، وبنفس الطريقة حاولَ الكُفّارُ إغراءَ النبيِّ صلى الله عليه بالمُغْرِياتِ الدُّنيويّة ليتخلّى عن مخالفةِ الأصنام، ولكنّه رَفَض، مما نَتَج عنه محاصرتُه ﷺ في شِعبِ أبي طالب.

* أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام بحُكم مِصرَ، وفي نهايةِ المطافِ جاءه إخوتُه وخَضَعوا له، وعَفا سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ عن إخوتِه، وبنفسِ الطريقة أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا محمّدٍ ﷺ بحُكم مكّةَ، وعَفَا ﷺ عن أعدائه اللَّدُودينَ قائلًا: أقولُ لكم ما قالهُ يوسُفُ عليه السَّلامُ لإخوتِه: لا تثريبَ عليكُم اليوم، اذهَبوا فأنتم الطُّلَقاءُ.

حياة سيدنا يوسف عليه السلام باختصار:

كان سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام يُقيمُ في مدينةِ الخَليل (حَبْرونَ) بفِلَسطين، وكان له اثنا عشَرَ ولدًا، من بَيْنِهم اثنانِ ـ يعني: سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام وأخاه الصغيرَ بِنْيامين ـ من زوجتِه (راحِيل)، والعشَرةُ الباقونَ من زوجاتٍ أُخْرَيات، وقد ماتت (راحِيلُ) بعدَ ولادةِ ابنِها بِنْيامينَ بعدّةِ أيام، وهكذا حُرِم سيّدُنا يوسُفُ عليه السّلام وأخوه بِنْيامينُ من حنانِ الأُمِّ منذُ طفولتهِما.

يقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي: إنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام رأى ـ في المنام «**وهو ابنُ ثِنْتَيْ عشْرَة سنةً ـ الشّمسَ والقمرَ والكواكبَ تَسجُدُ له، فقَصَّها على أبيه فقال: لا تذكُرْها لهم فيكيدوا لك كيدًا**»[1]؛ لأنّ تفسيرَ هذا الحُلم

---

(١) التفسير الكبير، سورة يوسف (١٢): الآية ٤.

واضحٌ تمامًا، ففيه بيانٌ لعظَمتِك، وإخوتُك يحسُدونَك منذُ البداية، فإذا عَرَفوا بهذا الحُلم سيزدادُ حسَدُهم لك، والشّيطانُ هو العدوُّ المُبينُ للإنسان، وسوف يُغري إخوتَك، وقد يؤذونَك بتحريضِه.

يقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ: «**الكواكبُ: إخوتُه، والشمسُ: أُمُّه والقمرُ: أبوه ... وقال قَتادةُ أيضًا: الشمسُ: خالتُه؛ لانّ أُمَّه كانت قد ماتت، وكانت خالتُه تحتَ أبيه**»[1]، والخالةُ - على أيّةِ حال - تُعتَبرُ بمثابةِ الأُمِّ، وخصُوصًا عندَما يتزوَّجُها الأبُ، وعندَئذٍ من الطبيعيِّ أن يُسمِّيَها «الأُمَّ».

كان سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ - باعتبارِ الصُّورةِ والسِّيرة - لا مثيلَ له بينَ إخوتِه، وكان سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ يحبُّه كثيرًا، وهو ما زَرَع الحسَدَ في قلوبِ إخوتِه، فتشاوَروا فيما بينَهم بأنْ يُلقُوا بسيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام في البئرِ ليتخلَّصوا منه، وبالفعل استَأْذَنَ الإخوةُ من أبيهم في اصْطحابِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام معَهم بحُجّةِ الذهابِ إلى الصَّيد والتنزُّه، وبالفعل ألقَوْا بسيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ في البئر، وصَبَغوا قميصَه باللَّونِ الأحمرِ بدماءِ شاةٍ، وجاءوا أباهم وقالوا له: كنّا نتسابقُ في الجَرْي، وترَكْنا يوسُفَ عندَ متاعِنا، وفي تلك الأثناءِ جاء الذِّئبُ وأكلَ يوسُفَ عليه السَّلام، ونحن في غايةِ الأسَف، ونعتذرُ إليك كثيرًا.

وكان في قَعْرِ البئرِ حَجَرٌ كبيرٌ يَعْلو على مستوى سَطْح الماءِ فيه، مَكَث سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام فوقَه لثلاثةِ أيام، إلى أنْ جاءت قافلةٌ من الشام متَّجِهةً إلى مِصرَ بمَحْض الصُّدفة، وجاء أحدُهم ليستخرجَ الماءَ مِن البئر، وأَخْرجوا سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام، واصْطَحبُوه معَهم إلى مِصرَ، وباعوهُ هناك غلامًا.

واشتَرى «عَزيزُ مِصرَ» وزيرُ الخِزانةِ في مِصرَ إذْ ذاك سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام،

---

(١) تفسير القرطبي، الموضع السابق نفسه.

واحتَفظَ به في بيتِه، وحاولتْ زَلِيخا زوجةُ عَزيزِ مِصرَ وصديقاتُها استمالةَ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام إلى الفاحشة، ولكنّه رَفَض، وعندَئذٍ اتَّهموه كذِبًا وزُورًا وبُهتانًا، وأدخَلوه السِّجنَ، وكان السُّجناءُ جميعًا، بل والسَّجَّانُ أيضًا، يحترمونَ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام ويُجِلُّونَه في السِّجن بسببِ خُلُقِه العظيم وسُلوكِه الرفيع، كما اشتُهر سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام في السِّجن كثيرًا بتفسيرِه للأحلام.

وفي تلك الأثناءِ رأى مَلِكُ مِصرَ حُلمًا فَحْواه: أنّ سبعَ بقَراتٍ ضِعَافٍ يَأكُلْنَ سبعَ بقراتٍ سِمَانٍ، وسبعَ سُنْبلاتٍ خُضْرٍ، وسَبْعَ سُنبُلاتٍ يابِسات. سأل المَلِكُ رجالَ بَلاطِه عن تفسيرِ الحُلم، فأجابُوه بأنه حُلمٌ غيرُ واضح المعالِم! وليس أكثرَ من أفكارٍ متناثِرة، ولهذا لا نستطيعُ تفسيرَه، فقال واحدٌ من رجالِ البَلاط ـ وكان قد مَكثَ في السِّجنِ معَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ لفترة ـ هناك شابٌّ صالحٌ في السِّجن يُدعَى يوسُفَ، وهو الذي يستطيعُ تفسيرَ هذا الحُلم، فإذا أَذِنْتَ لي أذهبُ إليه وأسألُه عن تفسير الحُلم وأعودُ إليكم، وقال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ في تفسير الحُلم: المرادُ بالبقراتِ السَّبع السِّمان والسَّبع سُنْبُلاتِ الخُضْر: أنّ السبعَ سنَواتٍ القادمةَ ستكونُ سنواتِ رفاهيَة ورَغَد في العَيْش بالنِّسبة لكم، حيث ستُنتجُ الأرضُ محصولًا وفيرًا، والمرادُ بالسَّبع بقراتِ العِجَاف والسَّبع سُنْبُلاتِ اليابِسات: أنّ السبعَ سنواتٍ التاليةَ ستكونُ سنواتِ قَحْطٍ شديد، حيث لن تُنتجَ الأرضُ محصولًا بالمرَّة، وحَلُّ هذه المصيبةِ أن تجتهِدوا في زراعةِ الأرض في السّنواتِ السَّبع الأُولى غايةَ الاجتهاد، وقوموا بتخزينِ الغِلالِ استعدادًا لسنواتِ القَحْطِ التالية.

ولمّا سَمِع المَلِكُ هذا التفسيرَ لحُلمِه أعجَبَه كثيرًا عِلمُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وحِكمتُه، واعتَرفَ بعظَمتِه، فأصدرَ أوامرَه أنْ أحضِروا يوسُفَ إليَّ هنا، ولمّا ذَهَب المبعوثُ المَلَكيُّ إلى السِّجنِ حاملًا الأمرَ بالإفراج عن سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، رَفَض سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ الخروجَ قائلًا: ارجعْ إلى المَلِك وقلْ له:

إنّني لا أستطيعُ أن أَخْرُجَ وأنا متَّهمٌ هكذا، لا بدَّ من التحقيقِ في التُّهمةِ الموجَّهة إليّ، والتي دَخَلتُ السِّجنَ بسببِها منذُ اثنَيْ عشَرَ عامًا[١]. فلمّا استدعَى المَلِكُ زَلِيخا والنِّساءَ الأُخْرياتِ محلَّ التحقيق وسألَهنَّ عن الأمر، شَهِدْنَ كلُّهنَّ بعِفَّةِ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، حتّى أن زَلِيخا نفسَها اعترفتْ وأقرَّتْ بأنّ الذَّنبَ ذنبُها هي، وأنّ سيِّدَنا يوسُفَ عليه السّلام صادقٌ تمامَ الصِّدق. وبعدَ هذا التحقيق ازداد تقديرُ الملِكِ لسيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وكان في أشدِّ الشَّوق لرؤيةِ هذا الإنسانِ ذي الصِّفاتِ الملائكيَّة، وكان عُمُرُ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ في ذلك الوقتِ ثلاثينَ عامًا[٢].

وحين أُفرِج عن سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وأُخْرِجَ من السِّجن، وجيءَ به إلى المَلِك، نَزَل المَلِكُ من فوقِ عرشِه، وسَجَد لسيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، ثم أَجْلسَه بجانبِه على العرشِ وسأله: ماذا علَيَّ أن أفعلَ الآنَ بخصُوص الحُلم الذي رأيتُه؟

قال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام: «**أرى أن تجمَعَ الطّعامَ، وتَزرَعَ زرعًا كثيرًا في هذه السّنينَ المُخصِبة، فإنّك لو زَرعتَ على حَجَرٍ أو مَدَرٍ لَنَبَتَ، وأظهرَ اللهُ فيه النّماءَ والبرَكَة، ثمّ تَرفَعُ الزَّرعَ في قصَبِه وسُنْبِله تَبْنِـي له المَخازنَ العِظام، فيكونُ القَصَبُ والسُّنبل عَلَفًا للدّوابّ، وحبُّه للنّاس، وتأمُرُ النّاسَ فيَرفعونَ من طعامِهم إلى أَمرائِكَ الخُمُسَ، فيكفيك من الطّعام الّذي جَمَعتَه لأهل مِصرَ ومَن حولَها، ويأتيك الخَلقُ من النّواحي يَمتارُونَ منك، ويجتمعُ عندَك من الكنوزِ ما لم يجتمعْ لأحدٍ قبلَك، فقال المَلِك: ومَن لي بتدبيرِ هذه الأمور؟ ولو جَمعتُ أهلَ مِصرَ**

---

(١) «لمّا رجع الشّرابيّ إلى الملك وعرض عليه التّعبير الّذي ذكره يوسف عليه السّلام استحسنه الملك فقال: ائتوني به، فعاد الشّرابيّ إلى يوسف عليه السّلام قال: أجب الملك، فأبى يوسف عليه السّلام أن يخرج من السّجن إلّا بعد أن ينكشف أمره وتزول التّهمة بالكلّيّة عنه». التفسير الكبير، سورة يوسف (١٢): الآية ٥٠.

(٢) وكان في ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة». التفسير الكبير، سورة يوسف (١٢): الآية ٥.

جميعًا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أُمَنَاء، فقال يوسُفُ عليه السَّلام: اجعَلْني على خزائنِ أرضِك، إنّي حاسبٌ كاتب»[١].

لم يقُمْ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ بإخبارِهم عن مصيبةِ القَحْطِ فقطْ واكتفَى بذلك، وإنّما أَخْبَرهم عن طريقةِ التعامُل معَه والتخلُّصِ منه أيضًا، وحينَ لم يجدْ المَلِكُ الشّخصَ المناسبَ للقيام بهذه المسئوليَّة، عَرَض سيّدُنا يوسُفُ أن يقومَ هو بها، ليُنقذَ الناسَ من المشاكلِ ويَحميَهم من الهلاك.

وقد تأثَّر المَلِكُ كثيرًا بعِلم سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ وبشخصيَّتِه وإخلاصِه إلى درجةِ أنه عَهِد إليه بكلِّ السُّلُطاتِ في الحكومةِ المِصريّة[٢]، وبعدَ تولِّي مسئوليّةِ البلاد أقام سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ جوًّا من العدلِ والإنصافِ في البلادِ بحيث أحبَّه أهلُها جميعًا، إلى درجةِ أنّ المَلِكَ أَسْلم على يدِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام[٣]، وأَسْلم بعدَه مِصريُّونَ آخَرون[٤].

يقولُ أهلُ العِلم في تفسير الآية رقم ٥٥ من سُورة يوسُفَ: «**في هذه الآيةِ ما يُبيحُ للرّجُل الفاضل (في الإسلام) أن يعمَلَ للرّجُل الفاجِر، والسّلطانِ الكافر، بشَرْطِ أن يَعلَمَ أنّه يُفوِّضُ إليه في فعلٍ لا يُعارضُه فيه فيُصلحَ منه ما شاء»**[٥].

---

(١) التفسير الكبير وتفسير القرطبي، الآية ٥٤.

(٢) «فلما سمع الملك منه تعبير رؤياه، أعجب به وبعلمه وحسن أدبه، وأعزّه وأنزله لديه مكانة عالية، وآمنه على نفسه، وائتمنه على كلّ شيء، وسلّمه مقاليد الحكم والسّلطة، وفوّض إليه تصريف وإدارة الأمور السياسيّة والماليّة في جميع أنحاء مصر». التفسير المنير، سورة يوسف (١٢): الآية ٥٥.

(٣) «وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام». التفسير المنير، سورة يوسف (١٢): الآية ٥٦.

(٤) «لما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به وأقام فيهم العدل فأحبّه الرجال والنساء». تفسير القرطبي، الآية ٥٦.

(٥) تفسير القرطبي، الآية ٥٥.

وهكذا عَهِد المَلِكُ بتسيير حُكم مِصرَ كلِّه إلى سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، فأخَذ يحُثُّ الفَلّاحين على زيادةِ المِساحةِ المزروعةِ وزيادةِ المحاصيل، وقام بتخزينِ كميَّاتٍ كبيرةٍ من الغِلال في الصَّوامع المُعَدَّة لذلك، وطبقًا لتفسير الحُلم فإنه حينَ بَدَأتِ السَّنواتُ السَّبعُ العِجَافُ، ولم يَعُدْ لدى الناسِ غِلال، تمَّ توزيعُ المخزونِ من الغِلال على النـاسِ حسَبَ الحاجة، وبهذا نجا أهلُ مِصرَ من مخاطرِ القَحْط، أمّا البلادُ المحيطةُ بمِصرَ فلم يكنْ بها غِلالٌ على الإطلاق، وحينَ عَرَف أهلُ تلك البلادِ أنّ مِصرَ لديها مخزونٌ من الغِلال، توجَّهوا إليها للشِّراء، وكان سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ قد قرَّر إعطاءَ كلِّ أجنبيٍّ من الغِلال وَزْنًا محدَّدًا بما يمكنُ أن يقومَ به جَمَلٌ واحد، وكبقيَّةِ الناس أرسَلَ سيّدنا يعقوبُ عليه السَّلامُ أبناءه لشراءِ الغِلال من مِصرَ، فلمّا وَصَلوها عَرَفَهم سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام وهم إخوتُه، لكنَّهم لم يعرِفوه؛ لأنه كان قد مضَى أربعونَ عامًا منذُ أنْ ألقَوْا به في البئر، وكان سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ في ذلك الوقتِ طفلًا صغيرًا، والآنَ تغيَّرت ملامحُه كثيرًا بوجودِ اللِّحية على وجهِه، كما أنّه لم يكنْ أحدٌ منهم يتصوَّرُ أنّ الأخَ الذي ألقَوْا به في البئرِ سيكونُ هو اليومَ حاكمَ مِصرَ. على أيّة حالٍ أحسَنَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ ضيافتَهم، وأعطاهم الغِلالَ، ودَعاهم للمجيءِ مرّةً أخرى ومعَهم أخوهم الصَّغير، وفي نهايةِ الأمرِ وفي المرّةِ الثالثة عرَّفَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ نفسَه بإخوتِه، وعَفَا عن أخطائهم، واستَدعَى العائلةَ كلَّها لتأتيَ إلى مِصرَ وتستقرَّ بها.

وهكذا، حينَ هاجَر والدا سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ وإخوتُه من فِلَسطين، ووَصَلوا إلى بَلاطِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام في مِصرَ، «**سَجَد له أبَواه وإخوتُهُ الباقونَ، وقد كان هذا سائغًا في شرائعِهم؛ إذا سَلَّموا على الكبيرِ يَسجُدونَ له**»[١]،

(١) تفسير ابن كثير، الآية ١٠٠.

وحينَئذٍ قال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام لوالدِه: هذا تأويلُ رُؤياي التي أخبَرتُكَ بها في طفولتي، وقد حقَّقها اللهُ اليومَ بعدَ أربعينَ سنة[1].

وبعدَ ذلك «**أقام يعقوبُ عليه السّلامُ عندَ ابنِه يوسُفَ عليه السّلامُ أربعًا وعشرينَ سنةً، وحضَره الموتُ، فوصَّى يوسُفَ عليه السَّلامُ أن يَحمِلَه ويدفِنَه عندَ أبيه، فمضَى بنفسِه ودَفَنه ثَمةَ، ثم عاد إلى مِصرَ، وأقام بعدَه ثلاثًا وعشرينَ سنةً**»[2].

الأربعاء ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٦م،
الموافق ٢٨ من ذي القَعدة ١٤٢٧هـ.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَينِ بيرْزَاده

❊ ❊ ❊

(١) «كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة». تفسير ابن كثير، الآية ١٠٠.

(٢) التفسير المنير، الآية ١٠٠.

سُورَةُ يُوسُف (١٢)،

مكية (٥٣)، آياتها (١١١)، ركوعاتها (١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

﴿الٓر﴾

١- هذه حروفٌ مقطَّعة، وهي سرٌّ بينَ اللهِ تعالى وحبيبِه المكرَّم سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، ولمزيدٍ من التوضيح راجعِ الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

٢- يقولُ الإمامُ ابنُ كَثيرٍ رحمَه اللهُ تعالى: أُنْزِلَ القرآنُ المَجيدُ باللُّغةِ العربيَّة، «**وذلك لأنّ لغةَ العربِ أفصحُ اللُّغاتِ وأبينُها وأوسَعُها**»[١]. قال أبو جعفرٍ: «**يقولُ**

(١) تفسير ابن كثير.

تعالى ذِكرُه: إنّا أَنْزلنا هذا الكتابَ المُبِين، قرآنًا عربيًّا على العرب؛ لأنّ لسانَهم وكلامَهم عربيٌّ، فأَنْزلنا هذا الكتابَ بلسانِهم ليعقِلوه ويفقَهوا منه»[1]، ويقال «العربُ» لأولادِ إسماعيلَ عليه السَّلام، وكانت لغتُه العربيَّة[2].

ويقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: **قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «أحِبُّوا العربَ لثلاثٍ؛ لأنّي عربيّ، والقرآنُ عربيّ، وكلامُ (لسانُ) أهلِ الجنّـةِ عربيّ»**[3].

كلُّ لغةٍ من لغاتِ العالَم يحدُثُ فيها تغييرٌ بشكل أو بآخَرَ بمرورِ قرنٍ من الزَّمن عليها، لكنّ اللُّغةَ العربيَّة لا تزالُ على حالتِها الأَصْليّة، رَغْمَ مرورِ أكثرَ من أربعةَ عشَرَ قرنًا عليها، وستبقَى دائمًا على نفسِ الحالة؛ لأنها لغةُ القرآنِ الكريم، وسيبقَى القرآنُ الكريمُ دائمًا على حالتِه الأَصْليّة.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

٣ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ الصَّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم قالوا: «**يا رسولَ الله، لو قَصَصتَ علينا، قال: فنَزَلت:** ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾»[4]، يعني: أنّنا نقُصُّ عليك أحسَنَ القَصَصِ ممَّا لم تكنْ تَعرِفُه من قبلُ.

وهناك أسبابٌ عدّةٌ لتسمية قِصّةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ بأحسنِ القَصَص، على سبيل المثال: لم تُذكَرْ قصّةُ أيِّ نبيٍّ في القرآنِ الكريم بهذا التفصيل الذي ذُكِرَتْ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) «العرب كلها ولد اسماعيل». تفسير روح المعاني.

(٣) المستدرك، ٤: ٩٨، كنز العمال، برقم **٣٣٩٢٢**.

(٤) تفسير القرطبي.

به قصّةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وفيها أحداثٌ كثيرةٌ للتعلم والاعتبار، وتُعَدُّ بمثابةِ مَعْلَم الطريقِ لهدايةِ بني الإنسان، كما أنّ الأحداثَ التي وَقَعتْ بيْنَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وإخوتِه تُشبهُ تلك الأحداثَ التي حدَثَت فيما بعدُ بيْنَ النبيِّ ﷺ وقُريش، وفيها تسرِيةٌ عن النبيِّ ﷺ، وفي نفس الوقت دعوةٌ لقُرَيشٍ من أَجْل التفكُّر والتدبُّر، ويمكنُ معرفةُ تفصيل ذلك بالرجوع إلى التّقديم لهذه السُّورة والتعريفِ بها.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾

٤ـ رأى سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ منامًا في عمُرِ الثانيةَ عشْرةَ، وهو: أنّ الشمسَ والقمرَ والنُّجومَ تسجُد له، فقَصَّ ما رأى على أبيهِ سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام، فقال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام: لا تَقُصَّ رُؤياك على إخوتِك، وإلّا تآمَروا ضدّك؛ لأنّ تفسيرَ هذا الحُلم واضحٌ تمامَ الوضوح، ففيه بيانٌ لعظَمتِك، وإخوتُك يحسُدونَك أصلًا، فإذا ما عَرَفوا بأمرِ هذا الحُلم ازدادَ حسَدُهم لك، والشّيطانُ عدوٌّ مُبينٌ للإنسان، ويمكنُ أن يُوسوِسَ لإخوتِك فيؤذُوك بتحريضٍ منه، ولمعرفةِ المزيد عن هذا الحُلم راجعْ تقديمَ السُّورةِ في الصَّفحاتِ السابقة.

الحلم الجيد والحلم السيئ:

قال النبيُّ ﷺ: **«إذا رأى أحدُكم رُؤيا يُحبُّها فإنّما هي من الله، فلْيَحمَدِ اللهَ عليها، ولْيُحدِّثْ بها، وإذا رأى غيرَ ذلك ممّا يكرَهُ، فإنّما هي من الشّيطان، فلْيستعِذْ من شرِّها، ولا يَذكُرْها لأحدٍ، فإنّها لا تَضُرُّه»**[1].

---

(١) البخاري، كتاب التعبير، باب ٣ برقم ٦٩٨٥.

رؤية النبي ﷺ في المنام:

قال رسولُ الله ﷺ:

١ـ «مَن رَآني في المنام فقد رَآني، فإنّ الشّيطانَ لا يتخيَّلُ بي»[١].

٢ـ «مَن رَآني في المنام فسيَراني في اليَقَظة، ولا يَتمثَّلُ الشّيطانُ بي»[٢].

ويقولُ الإمامُ السُّيوطيُّ رحمَه الله «**قيل: كم رأيتَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم يقَظةً؟ فقال: بضعًا وسبعينَ مرةً**»[٣].

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

٥ـ كما أنّ اللهَ تعالى أراك هذه الرُّؤيا العظيمةَ، كذلك سيختارُكَ للأعمالِ العظيمة، وسيُنعمُ عليكَ بمَلَكةِ تفسيرِ الأحلام وفَهْم الأمور، وكما أتمَّ اللهُ تعالى نِعَمَه الظاهرةَ والباطنةَ على آبائك وأجدادِك: سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا إسحاقَ عليهما السَّلام، وتَوَّجهُم بتاج النبوُّة، سيُتِمُّ نِعَمَه الظاهرةَ والباطنةَ أيضًا عليك وعلى آلِ يعقوبَ عليه السَّلام، وهكذا أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ بالنُّبوّة، وحقَّق رُؤياه عمَليًا بأنْ أَنْعم عليه بحُكم مِصرَ أيضًا.

واللهُ تعالى يَعلَمُ حقيقةَ منام كلِّ إنسان، ويُفيضُ عليه طبقًا لإمكانيّاتِه، ولا يخلو عمَلٌ من أعمالِه من الحِكمة.

---

(١) البخاري، كتاب التعبير، باب ١٠ برقم ٦٩٩٤.

(٢) البخاري، كتاب التعبير، باب ١٠ برقم ٦٩٩٣.

(٣) الكواكب السائرة، ١: ٢٢٩.

۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾

٦ـ حينَ وَصَل خبَرُ الإسلام إلى المدينةِ المنوَّرة، أرسَلَ يهودُ المدينةِ بعضَ رجالِهم لكي يتعاونوا معَ أهلِ مكّةَ في اختبارِ النبيِّ ﷺ، ويسألوهُ: إن كنتَ نبيًّا حقًّا فأخبِرْنا عن النبيِّ الذي أُخِذ ابنُه من الشّام إلى مِصرَ، وفَقَد أبوه البصَرَ من كثرةِ بُكائه عليه. وكان يهودُ المدينة يَعرِفونَ أنّ سيّدَنا محمّدًا لا يقرأُ ولا يكتُب، كما أنه لا يوجَدُ في مكّةَ عالِمٌ بالتَّوراة، ولهذا لن يكونَ سيّدُنا محمَّدٌ ﷺ على عِلمٍ بهذا الأمر.

وردًّا على هذا السؤالِ أَنْزلَ اللهُ تعالى سُورةَ يوسُف، وبيَّن فيها قصّةَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام بقَدْرٍ من التفصيل لا يوجَدُ حتى في التَّوراةِ كتابِ اليهودِ المقدَّسِ

أيضًا، كما أنّ هذا يُعتبَرُ بمثابةِ الدَّليل الواضح على أنّ هذا كلامُ الله تعالى، وأنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ نبيٌّ حقًّا، وبعدَ مجيءِ الإجابةِ عن السُّؤالِ بهذا الشَّكل المُقْنع، إذا لم يؤمنِ السائلونَ به ﷺ، فإنّهم ـ في النِّهاية ـ سيَندَمُونَ أشدَّ النَّدم مِثلَ إخوةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام.

وفي هذه الآيةِ آياتٌ كثيرةٌ من العِبرةِ والهدايةِ ليهودِ المدينة وكُفّارِ مكّةَ، بمعنى: أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ نبيٌّ حقًّا، كما أنّ الإنسانَ الذي يَثبُتُ في خِضَمِّ تقلُّباتِ الحياة، ويَصبرُ على المصائب، ويَعْفو عن الأعداء بعدَ المقدِرة عليهم، سينجَحُ بالضَّرورةِ في نهاية الأمر.

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

٧ـ كان سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام يُحبُّ ولدَيْهِ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام وأخاه بنْيامينَ كثيرًا؛ لأنّهما كانا أصغرَ إخوتِهما، وكانت والدتُهما قد تُوفِّيت من قبلُ، كما أنّ الاثنَيْنِ، وخاصّةً سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ، كانا يتَّصِفانِ بجمالِ الصُّورة وحُسنِ السِّيرة بينَ باقي الإخوة، وليس لهما نَظيرٌ بينَهم، ولكنْ تولَّد الحسَدُ في قلوبِ الإخوةِ العَشْر بسببِ طريقةِ تعامُل والدِهم، وتشاوَروا فيما بينَهم على أنّهم الأكثرُ عددًا، وهم شبابٌ وأقوياءُ، وهم الذين يتحمَّلونَ نفَقاتِ البيتِ كاملةً، ولهذا همُ الأكثرُ استحقاقًا للمحبَّة، وحُبُّ والدِهم لأخوَيْهم الصَّغيرَيْنِ أكثرَ منهم خطأٌ صريحٌ وظُلمٌ واضح، وليس المرادَ هنا خطأُ العقيدة، وإنما قلّةُ فَهم المعاملاتِ الدُّنيويّة.

تعريف الحسد والغبطة:

الغِبْطةُ هي: أن ترى شخصًا في حالٍ جيِّدٍ، فتفرَحَ له، وتتمنَّى أن تكونَ مِثلَه، وتحاولَ العملَ على ذلك، والغِبطةُ أمرٌ محبَّب.

بينَما الحسَدُ هو: أن ترى شخصًا في حالٍ جيِّدٍ، فتحقِدَ عليه، وتتمنَّى أن يتحوَّلَ من الحالِ الجيِّد إلى الحالِ السيِّئ، وتحاولَ العملَ على ذلك، والحسَدُ أمرٌ في غايةِ السُّوء، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «**إيّاكم والحسَدَ، فإنّ الحسَدَ يأكلُ الحسَناتِ كما تأكلُ النّارُ الحطَب، أو قال: العُشْب**»[1].

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾

٨ـ حينَ زاد حسَدُ إخوةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ له، تشاوَروا فيما بينَهم على أنه في وجودِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام لا يمكنُ أن يَفُوزوا بحبِّ أبيهم الشَّيخ، ولا أن يحظَوْا باهتمامِه، ولهذا ينبغي أن يَقتُلوا سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام، أو يُلقُوا به في منطقةٍ بعيدةٍ مجهولة، بحيثُ لا يستطيعُ أن يعودَ إلى البيتِ ثانيةً، وبعدَ ذلك يتوبونَ من هذا الذَّنب، ويصبحونَ صالحينَ، وبهذه الطريقة تنتهي حالةُ القلقِ والانزعاج وعَدَم الراحة التي يعيشونَها، ويهتمُّ بهم أبوهم.

ولم يكنْ أمرُ بِنْيامينَ يُهمُّهم كثيرًا، فربَّما كانوا يعتقدونَ أنّ المِحوَرَ الأساسَ لمحبّةِ الأبِ الزائدةِ هو سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام، وأنّ محبّةَ سيّدِنا يعقوبَ لابنهِ بِنْيامينَ إنّما هي تابعةٌ لمحبّتِه لسيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

٩ـ قال أحدُ إخوةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام: لو أنّكم قرَّرتُم إزاحةَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام من المشهَد تمامًا، فلا تقتُلوه، وإنّما ألقُوا به في بئرٍ عميقٍ في منطقةٍ بعيدةٍ عن المدينة، فربَّما مرَّت قافلةٌ به تبحثُ عن الماء، فتعثُرُ عليه، وتَصطَحِبُه معَها إلى بلادِهم، وبهذه الطريقة يتحقَّقُ ما نَصْبو إليه من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ

---

(١) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٥٢ برقم ٤٩٠٣.

لا نُلوِّثُ يدَنا بدماءِ أخينا بغيرِ حقّ، وهكذا اقتنع الجميعُ بهذا الرأي واتَّفقوا على تنفيذِه.

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾

١٠ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّهم حاولوا اصطحابَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ معَهم خارجَ البيتِ قبلَ هذه المرَّة، وأنّ الأبَ قد رَفَض ذلك، ولهذا فهم في هذه المرَّةِ يقولونَ لأبيهم بتأكيدٍ أكبر: يا أبانا، نَرجو أن تثقَ فينا، إنّنا نحبُّ يوسُفَ ونتمنّى له الخير، ائذَنْ لنا أن نصطحبَ يوسُفَ معَنا في الغدِ خارجَ البيتِ لنذهبَ للنُّزهة والصَّيدِ معًا في الغابة، حتى يأكلَ ويشربَ ويلعبَ جيِّدًا، ولا تخشَ من حدوثِ مكروهٍ له، فإنّنا سنحافظُ عليه بكلِّ ما نملِكُ من قوة.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾

١١ـ ذَكَر سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ تحفُّظَيْنِ هما: أولًا: أنّ فراقَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ سيَحزُنُه، وثانيًا: أنكم إذا ذهبتُم به للنُّزهةِ والصَّيد، وابتَعدتُم عنه لسببٍ أو لآخَرَ، وهو طفلٌ صغير، فأخشَى أن يأكلَه الذِّئبُ عندَئذٍ. وهكذا رَغْم أنّ سيّدَنا يعقوبَ عليه السَّلامُ كان يخشَى على سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ من إخوتِه، ولكنّه تعَلَّل هنا بالذئب.

﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

١٢ـ قال الإخوة: لو أكلَ الذّئبُ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ في وجودِنا، فنحن إذًا لا قيمةَ لنا، ولذا لا تحزَنْ ولا تغتمَّ، فنحن جماعةٌ من عشَرةِ إخوةٍ، ونملِكُ من القوَّة ما نستطيعُ بها الحفاظَ عليه وحمايتَه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

١٣- أَذِن سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ لهم - في نهايةِ الأمر - على مَضَضٍ، وهكذا اصْطَحَبوا سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ معهم، وطبقًا للخُطّةِ المتَّفَقِ عليها مسبَقًا فيما بينَهم ألقَوْا به في بئرٍ مُظلم، فأَنْزلَ اللهُ تعالى الوحيَ على سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ تسريةً عنه أنْ لا تخَفْ، فنحن سنَحفَظُك، وسنُنعمُ عليك بمقام رفيع، وسيأتيك إخوتُك ذاتَ يوم متسوِّلينَ على بابِك، وستُخبِرُهم بأنّكم قد ألقَيْتُم بأخيكم في البئر، ولن يَخطُرَ ببالِهم مطلقًا أنك أنت يوسُفُ عليه السَّلام.

وتقولُ جماعةٌ كبيرةٌ من المحقِّقينَ والباحثين: إنّ الوحيَ الذي جاء ذِكرُه في هذه الآية المرادُ منه النُّبوةُ والرسالة[1]، «**ثمّ القائلونَ بهذا القولِ اختَلَفوا في أنّه عليه السَّلامُ هل كان في ذلك الوقتِ بالغًا أو كان صَبِيًّا؟ قال بعضُهم: إنّه كان في ذلك الوقتِ بالغًا وكان سِنُّه سبعَ عشْرةَ سنةً، وقال آخَرون: إنّه كان صغيرًا إلّا أنّ اللهَ تعالى أكمَلَ عقلَه وجَعَلَه صالحًا لقَبولِ الوَحْي والنُّبوّة كما في حقِّ عيسى عليه السَّلام**»[2].

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾

١٤- جاء إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ إلى أبيهم وقتَ العشاءِ وهم يبكُونَ بكاءً مصطنَعًا قائلينَ: يا أبانا العزيزُ، لم تكنْ تثقُ فينا من قبلُ فيما يخُصُّ أمرَ يوسُفَ عليه السَّلام، والآنَ إن صَدَقْناك القولَ فلن تُصدِّقَ ما سنقولُ، لكنّ

(١) «أنّ المراد منه الوحي والنّبوّة والرّسالة، وهذا قول طائفةٍ عظيمةٍ من المحقّقين». التفسير الكبير.
(٢) التفسير الكبير.

الحقيقةَ هي أننا ذهَبْنا نتسابقُ جَرْيًا، وتَركْنا يوسُفَ عند متاعِنا، وفي تلك الأثناءِ جاء ذئبٌ وأكلَ يوسُفَ عليه السَّلام.

كانت هذه هي القصّةَ الكاذبةَ التي اختَلَقوها بغَرَض إخفاءِ جريمتِهم.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

١٥ـ خَلَع الإخوةُ قميصَ أخيهم سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ عنه وقتَ أنْ ألقَوْه في البئر، وذَبَحوا شاةً، ووَضَعوا من دمائها على القميص، ونَسُوا أنْ يُمزِّقوا القميصَ! وأرَوْا أباهم هذا الدّمَ الكاذبَ، مؤكِّدينَ له على أنّ الذئبَ أكلَ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام، فلمَّا رأى سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ القميصَ قال: ما أعجَبَ هذا الذئبَ الذي مزَّقَ الطفلَ وأكلَه، ولكنْ لم يُمزِّقْ قميصَه! إنّ الحقيقةَ هي أنّ هذه القصّةَ كاذبةٌ ومنَ اختراعِكم أنتم، ولكنّي سأصبِرُ، وأدعو اللهَ تعالى أن يُظهِرَ حقيقةَ ما تقولون.

وهناك ثلاثةُ أحداثٍ مرتبِطةٍ بقميصِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام:

١ـ حاوَلَ الإخوةُ خِداعَ أبيهم بوَضْع الدّم على قميصِه عليه السلام.

٢ـ قدَّم قميصُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ دليلًا في واقعةِ زَلِيخا، بمعنى: أنه لو كان القميصُ ممزَّقًا من الأمام فإنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام مجرم، وإن كان ممزَّقًا من الخَلْفِ فإنّ زَلِيخا هي المجرمة، وكان القميصُ ممزقًا من الخَلْفِ بالفعل، ولهذا ثَبتت براءةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام.

٣ـ كان قميصُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام السببَّ في عودةِ الإبصارِ إلى سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام.

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾

١٦- ظلَّ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ ثلاثةَ أيام في البئر[1]، وكان في البئرِ حجرٌ كبيرٌ يعلو مستوى سطح الماءِ بالبئر، وهو الذي مَكَث عليه سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ ثلاثةَ أيام، وفي تلك الأثناءِ مرَّت قافلةٌ من هناك متَّجِهةً إلى مِصرَ، فأرسَلوا واحدًا منهم لِيجلِبَ الماءَ لهم من البئر، وحين ألقَى دَلْوَه في البئرِ أمسَكَ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ بالدَّلو، وهنا رأى هذا الرجلُ الذي كان يأتي بالماءِ طفلًا صغيرًا جميلًا في البئر، فأَخْرجَه منه، وبشَّر مَن معَه بالقافلة بعثُورِه على طفل، فاعتبَره أصحابُ القافلةِ بضاعةً يمكنُ بَيْعُها، وأخفَوْه حتى لا يراهُ أحدٌ من أهلِه حسبَما ظَنُّوا، وعَقَدوا عَزْمَهم على بيعِه في مِصرَ حين يَصِلُونَ إليها.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

١٧- اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أنّ إخوةَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام لم يَقدُرُوه حقَّ قَدْرِه منذُ البداية، والآنَ أَخَذه أصحابُ القافلةِ باعتبارِه غُلامًا وعبدًا، ولكنَّهم لم يكونوا يَعلَمونَ أنّ هذا الطِّفلَ سيكونُ في المستقبَل حاكمَ مِصرَ، وفي هذا تسريةٌ عن قلبِ سيّدِنا النبيِّ محمّدٍ ﷺ، بأنّنا نَعلَمُ تمامَ العِلم أنّ كُفّارَ مكّةَ الذين لا يَقدُرُونَك حقَّ قَدْرِك اليومَ، ولو شئْنا لَدمَّرناهم في لمحةٍ واحدة، لكنّ حِكمتَنا تقتضي أن نَدَعَهم يختبرونَ قوّتَهم، وفي النِّهاية سيكونُ النّصرُ لك كما كان لسيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام.

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾

١٨- باعَ أصحابُ القافلة سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ في مِصرَ بثمنٍ زَهيدٍ للغاية، ولم يكونوا راغبينَ في الاحتفاظ به أصلًا؛ لأنّهم كانوا يخافونَ من أن

---

(١) «مكث يوسف في البئر ثلاثة أيام». التفسير المنير.

يراهم أحدٌ من أهلِه ويُمسِكَ بهم، ولهذا حاوَلوا التخلُّصَ منه سريعًا، كما أنّهم قد عَثَروا على الطِّفل بغيرِ جُهدٍ منهم أو تعبٍ أو حتى ثمن، والشيءُ الذي يأتي مَجّانًا بهذا الشكلِ لا يكونُ مقدَّرًا بالشكلِ الذي يَستحِقُّه.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١٩ـ كان وزيرُ الخِزانةِ المصريُّ، والمعروفُ باسم عَزيزِ مِصرَ، هو الذي اشتَرى سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام، وقال لزوجتِه زَليخا: أكرِمي مَثْواه، وأحسِني معاملتَه، فهذا الطِّفلُ يبدو ذا طالع سعيد، وسوف يُفيدُنا، أي: سوف يُساعدُنا في أمورِ الحُكم، أو أن نتَّخذَ منه ولدًا لنا؛ لأنّهم لم يكنْ يولَدُ لهم، وهكذا مثلَما نَجّى اللهُ

تعالى سيّدَنا يوسُفَ من ظُلُماتِ البئرِ واستعبادِ أصحابِ القافلة، مَنَحَه إقامةً كريمةً ومحترمةً في بيتِ وزيرِ الخِزانة المِصريِّ، ولهذا مهما تبدُ الأمورُ في الظاهرِ سيّئةً وغيرَ مناسبة، فإنّ اللهَ غالبٌ على كلِّ شيء، ويفعَلُ ما يشاء، لكنّ أكثرَ الناسِ يعتمدونَ على الأسبابِ الظاهريّةِ فقط، ولا يفهَمون قُدرةَ الله تعالى على حقيقتِها.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

٢٠ـ حين أصبح سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ في رَيْعَانِ الشباب، أَنْعم اللهُ تعالى عليه بالنُّبوّةِ والحِكمةِ والشَّريعة وعِلم تفسيرِ الأحلام، وبنفس الطريقة فإنّ اللهَ تعالى يجزي الصّالحينَ خيرَ الجزاء.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

٢١ـ ذاتَ يوم أَغْلقَت زَلِيخا البابَ، ودَعَت سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ إلى نفسِها، فقال عليه السَّلام: «**عياذًا بالله من فعلِ السُّوء، إنّ اللهَ ربِّي أحسَن مَثْوايَ إذْ نَجّاني من الجُبِّ، وأقامَني في أحسنِ مقام**»(١)، ولأنّ دعوتَكِ هذه ذنبٌ عظيمٌ وظلمٌ أعظم، ولا يُفلحُ الظالمُ أبدًا.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

٢٢ـ لقد عَزَمتْ زَلِيخا على فعلِ الفاحشة معَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ، إلا أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ كان قد رأى البُرهانَ الواضحَ من اللهِ سبحانَه وتعالى من قبلُ، لذا لم يكنْ يَنْوي ارتكابَ الفاحشة أصلًا، فماذا كان ذلك البرهانُ الواضح؟ يقولُ سيّدُنا جعفرٌ الصّادقُ رضيَ اللهُ عنه: «**البُرهانُ: النُّبوّةُ الّتي**

---

(١) تفسير البحر المحيط.

أَوْدعَ اللهُ في صدرِه حالتْ بينَه وبينَ ما يُسخِطُ اللهَ عزَّ وجلَّ ... وهذا أصوَبُ الأقوالِ عندي»[1]؛ لأنّ النبيَّ معصومٌ منَ ارتكابِ الذُّنوب، سواءٌ قبلَ بَعْثتِه أم بعدَها، ويَعرِفُ ـ بفِطرتِه ـ حقيقةَ أنّ الزِّنا حرام، ولهذا ما أنْ دعَتْه زَليخا إلى نفسِها حتى قال من فَوْرِه بناءً على هذا العِلم الفِطريِّ والفِراسة النّبويّة: أعوذُ بالله، لا يمكنُ أن أفعلَ هذا، فهذا حرامٌ قطعًا.

وكان لهذه العمليّةِ هدفٌ آخَرُ، وهو أن تَعرِفَ الدُّنيا كلُّها أنّ تَقْوى النبيِّ تكونُ على درجةٍ عالية، بحيثُ تُجنِّبُه ارتكابَ الفاحشة وأفعالَ السُّوء، حتّى في أكثر المواضع حَرَجًا، إذ كانت هذه مجرَّدَ امرأة، لكنّ الشّيطانَ استَسْلم أمامَ تَقْوى النبيِّ، واعترفَ بفشَلِه أمامَ الله تعالى قائلًا: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣]، بمعنى: أنَّني لا سُلطانَ لي على عبادِكَ الذين اختَرتَهم أنت وأَخْلصتَهم لنفسِك، وسيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ من عبادِ الله المختارينَ أولئك، فكيف يمكنُ أن يكونَ لزَلِيخا سلطانٌ عليه إذًا؟!

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

٢٣ـ حينَ أصرَّت زَلِيخا على فعلِ الفاحشة، هَرْوَل سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ إلى البابِ محاوِلًا الخروجَ، وهَرْوَلتْ من خَلْفِه زَلِيخا، وجَذَبتْه من قميصِه منَ الخلفِ محاوِلةً إيقافَه، وحين لم يتوقَّفْ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام، تمزَّقَ القميصُ من الخَلْف، وحين خَرَج الاثنانِ من البابِ في خِضَمِّ هذا الصِّراع، وَجَدا زَوْجَ زَلِيخا واقفًا أمامَهما، عندَئذٍ حاولتْ زَلِيخا إخفاءَ جُرمِها، فاتَّهمت سيّدَنا يوسُفَ بأنه هو الذي أراد فعلَ السُّوءِ معَها، ولذا ينبغي أن تسجِنوه أو تعذِّبوه عذابًا شديدًا.

---

(١) التفسير المظهري

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

٢٤ـ لم يُرِدْ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ ـ بدافعٍ من شَرَفِه وعِفَّتِه الفِطْريّةِ في الغالب ـ أن يَفضَحَ سرَّ زَلِيخا، ولكنْ عندَما اتَّهمتْ زَلِيخا سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ كذبًا، حينَئذٍ أَظْهرَ حقيقةَ الأمر، إبطالًا للتُّهمةِ وإبعادًا لسُوءِ ظنِّ عزيزِ مِصرَ به، قائلًا: إنها تكذبُ، والحقيقةُ أنّها هي التي حاولتْ دعوتي إلى نفسِها، وأنا الذي رَفَضتُ، ولهذا هَرْوَلَت ورائي من الخَلْف، ومزَّقت قميصي أيضًا. وبينَما كان هذا النقاشُ على أشُدِّه، إذْ جاء أحدُ أقاربِ زَلِيخا بمَحْضِ الصُّدفة، فاستشارَه عَزيزُ مِصر؛ كيف يَفصِلُ في هذا الأمر؟ فقال: أوّلًا ليس هناك من يشهدُ على ما حَدَث، ولهذا فإنّ القرائنَ يمكنُ أن تدُلَّنا على أنه؛ إن كان قميصُ يوسُفَ عليه السَّلام ممزَّقًا من الأمام، فالمرأةُ صادقةٌ، إذْ لا بدَّ أنها حاوَلتِ الدِّفاعَ عن نفسِها، مما نَتَج عنه تمزُّقُ قميصِ يوسُفَ عليه السلام، وإن كان القميصُ ممزَّقًا من الخَلْف، فهذا يعني أنّ يوسُفَ عليه السَّلام صادقٌ، إذْ لا بدَّ أنه حاوَلَ أن يهرُبَ منها، لكنّ زَلِيخا جَذَبتْه من الخَلْف محاوِلةً إيقافَه، فتمزَّق قميصُه.

﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

٢٥ـ حين رأى عزيزُ مِصرَ قميصَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ ممزَّقًا من الخَلْف، تأكَّد له أنّ زَلِيخا كاذبةٌ، ولهذا قال لزَلِيخا: من المؤكَّدِ أنّ هذا من مكرِ النِّساء وكَيْدِهنَّ، ومكرُ النِّساءِ وكيْدُهنَّ عظيم.

في هذه الآيةِ حَكَم عزيزُ مِصرَ على النِّساءِ جميعًا أنّهنَّ ماكراتٌ، بعدَما رأى ما فعلَتْه زوجتُه، وليس هذا من حُكم الله تعالى، وإنّما هو رأيُ عزيزِ مِصرَ نفسِه، وبالتالي ليس صحيحًا أن نتَّخذَ من هذه الآيةِ أساسًا لنَحكُمَ على النِّساءِ بأنّهنَّ كلَّهنَّ ماكرات، إذ إن كثيرًا من النِّساءِ لهنَّ شأنٌ عظيم، وبيَّنَ اللهُ تعالى عظَمتَهنَّ في

القرآنِ الكريم، صحيحٌ أنّ النِّساءَ إذا مَكَرْنَ كان مكرُهنَّ أخطرَ من مكرِ الشَّيطان نفسِه، ولكنْ ليس النِّساءُ كلُّهنَّ ماكراتٍ على أيِّ حال.

﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴾

٢٦ـ قال عزيزُ مِصرَ لسيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام: لقد أخطَأَتْ زَلِيخا، ولْتعفُ عنها، ولا تَذكُرْ ما حَدَث لأحد. ثم قال لزَلِيخا: لقد أخطَأْتِ أنتِ، وتتَّهمينَ يوسُفَ عليه السلام كذبًا، فاطلُبي العفوَ من يوسُفَ عليه السَّلام.

۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾

﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

٢٧ـ رَغْمَ أنّ عزيزَ مِصرَ حاوَلَ أن يُخفيَ الواقعةَ، لكنَّها اشتُهِرت في المدينةِ بشكلٍ أو بآخر، وانتَقَدتِ النِّساءُ ما فعَلتْه زَلِيخا بأنّ زوجةَ وزيرِ الخِزانة تَهيمُ عشقًا بغُلامٍ لها! وتدعوهُ إلى نفسِها، وهذه حماقةٌ صريحةٌ منها وخطأٌ فادحٌ ارتكبَتْه.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾

٢٨ـ عندَما سَمِعتْ زَلِيخا ما تقولُه نساءُ المدينةِ عنها من كلام جارح، دعَتْهنَّ إلى بيتِها، ووَضَعت أمامَهنَّ الفاكهةَ والسَّكاكينَ، ثم قالت لسيّدِنا يوسُفَ

عليه السَّلام: تعالَ أمامَ هؤلاءِ النِّساء! وحين رأتِ النِّساءُ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ أَخَذَهنَّ جمالُه، إلى درجةٍ أنّهن جَرَحْنَ أيديَهنَّ بالسَّكاكين، وقُلن بغيرِ إرادةٍ منهُنَّ: إنّ هذا ليس بشرًا، إنما هو مَلَكٌ كريم.

ولا يعني هذا أنّ الملاكَ يكونُ أجملَ من الإنسان، والحقيقةُ أنّ أجملَ المخلوقاتِ شكلًا هو الإنسانُ، ولكنْ لأنّ تلك النِّسوةَ لم يَرَيْنَ إنسانًا جميلًا إلى ذلك الحدِّ قبلَ ذلك، لهذا قالوا عنه: إنه ملاكٌ، كما أنه لا شهوةَ للملائكة، وحين رأت تلك النِّسوةُ أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ لم يرفَعْ بصَرَه إلى أيِّ واحدةٍ منهُنَّ، عندَئذٍ قُلْن في البديهةِ تأثُّرًا من شَرَفِه وعِفّتِه: إنه مَلَكٌ عظيمٌ في صُورةِ إنسان.

رَوى الإمامُ ابنُ أبي حاتم بسَنَدِه في تفسيرِ هذه الآية: «**وأَعْتَدَتْ لهُنَّ متَّكأً وآتَتْ كلَّ واحدةٍ منهُنَّ سِكّينًا، قال: قالت للقيِّم: أدخِلْه عليهِنَّ وألبِسْه ثيابًا بِيضًا، فإنّ الجميلَ أحسَنُ ما يكونُ في البياض، قال: فأدخَلَه عليهِنّ وهنّ يَحزُزْنَ ما في أيديهنّ، فلمّا رأَيْنَه حَزَزْنَ أيديَهُنّ وهنّ لا يَشعُرْنَ من النّظرِ إليه، فنَظَرْنَ إليه مُقبِلًا، ثمّ أَوْمأتْ إليه أنِ ارجِعْ، فنَظَرْنَ إليه مُدبِرًا وهنّ يَحزُزْنَ أيديَهن بالسَّكاكين، لا يَشعُرْنَ بالوَجَع من نَظَرِهنّ إليه، فلمّا خَرَج نَظَرْنَ إلى أيديهِنَّ، وجاء الوَجَعُ فجَعلْنَ يُولْوِلْنَ، وقالت لهنّ: أنتُنَّ مِن ساعةٍ واحدةٍ هكذا صنعتُنّ، فكيف أصنَعُ أنا؟ قُلنَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾**»[1].

وجاء في روايةٍ أخرى للإمام ابن أبي حاتم: «**فلمّا وَلَّى عنهُنّ قالت: هذا الّذي لُمتُنَّني فيه، فلقد رأيتُكنّ تُقطِّعنَ أيديَكنّ وما تَشعُرنَ، قال: فنَظَرْنَ إلى أيديهِنَّ فجَعَلنْ يَصِحْنَ ويَبْكِينَ، قالت: فكيف أصنَعُ أنا؟ فقلن: حاشَ لله ما هذا بشَرًا، إنْ هذا إلّا مَلَكٌ كريمٌ، وما نَرى عليكِ من لومٍ بعدَ الّذي رأَيْنا**»[2].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٧: ٢١٣٥.

(٢) المرجع السابق، ٧: ٢١٣٧.

ويقولُ الإمامُ جلالُ الدِّين السُّيوطيُّ عليه الرحمةُ في تفسيرِ هذه الآية: «**ابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه قال: كان وَجْهُ يوسُفَ عليه السَّلام مِثلَ البَرْق، وكانتِ المرأةُ إذا أَتَتْ لحاجةٍ سَتَر وجهَه مخافةَ أن تُفتَنَ به**»[1].

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾

٢٩ـ قالت زَلِيخا لأولئك النِّسوة: هذا هو الشَّخصُ الذي لُمتُنَّني بسببِه، لقد هِمتُنَّ به بنظرةٍ واحدةٍ إليه، لدرجةِ أنّكنَ قَطعتنَّ أيديَكن، أخبِرْنَني الآنَ إذًا: كيف يكونُ حالُ هِيَامِ تلك التي تعيشُ معَه ليلَ نهارَ؟ وبالإضافة إلى هذا اعترفَتْ زَلِيخا قائلة: إنّني أنا التي حاولتُ كثيرًا دعوةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ إلى نفسي، لكنّه لم يُبالِ بي، واسمَعْني جيِّدًا يا يوسُف، لئن لم تُنفِّذْ رغباتي، فسوف أُرسلُك إلى السِّجنِ ذليلًا مُهانًا، وقد حاوَلَتِ النِّساءُ الموجوداتُ في المجلس استمالةَ قلبِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ إلى زَلِيخا، قائلاتٍ له: أطِعْها فيما تريد، إنّها ذاتُ فَضْلٍ عليك.

ويُعلَمُ من كلام زَلِيخا أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام ظلَّ عفيفًا طاهرًا، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر أنّ الفاحشةَ لم تكنْ شيئًا يعابُ في المجتمع المِصريِّ إذْ ذاك، وإنّما كان أمرًا عاديًّا مثلَ المجتمعاتِ الغربيَّةِ الآنَ، ولهذا نجدُ زَلِيخا تدعو سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام إلى نفسِها مرةً ثانيةً في مجلسٍ مليءٍ بالنِّساء، بل وتُهدِّدُه بالسِّجن في حالةِ الرَّفضِ والإنكار.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

٣٠ـ حينَ تشفَّعتِ النِّساءُ لدى سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام بعدَ تهديدِ زَلِيخا له، رَفَع سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ يدَه إلى الحضرةِ الإلهيَّة قائلًا: إلهي، إنّ السِّجنَ

---

(١) تفسير الدر المنثور، ٤: ٥٣٢.

أحبُّ إليَّ من الذّنبِ الذي تَدْعُوني إليه هؤلاءِ النِّسوةُ، إذ بالسِّجنِ أَنْجو من عصيانِك، لذا نَجِّني يا إلهي من مَكْرِهنَّ وكَيْدِهنَّ؛ لأنكَ إن لم تُنجِّني من مَكْرِهنَّ وكَيْدِهنَّ، فسَأميلُ إليهنَّ، وسأكونُ من الجاهلين. قال رسولُ الله ﷺ فيما رَواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «**سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلّا ظِلُّه: الإمامُ العادل، وشابٌّ نشَأ في عبادةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُه مُعلَّقٌ في المساجد، ورجُلانِ تحابّا في الله اجتَمَعا عليه وتفَرّقا عليه، ورجلٌ طلَبَتْه امرأةٌ ذاتُ منصِبٍ وجمالٍ فقال: إنّي أخافُ الله، ورجلٌ تصَدَّق أخفى حتّى لا تَعلَمَ شِمالُه ما تُنفقُ يمينُه، ورجلٌ ذَكَر اللهَ خاليًا ففاضَتْ عيناه**»[1].

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

٣١ـ استجابَ اللهُ تعالى دعاءَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ، وثبَّت قدمَه على الحقِّ، بحيث لم يستطعْ كيْدُ النِّساءِ ومكرُهنَّ أن يُزلزلَ أقدامَه.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

٣٢ـ ظَهَرت علاماتُ عِفّةِ وطهارةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ، على سَبيل المثال: القميصُ الممزَّقُ من الخَلْف، واعترافُ زَليخا نفسِها بأنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ ظلَّ عفيفًا طاهرًا برَغْم محاولتِها المستميتةِ، وعَدَمُ رَفْع بصرِه عليه السَّلامُ إلى النِّساءِ في المجلسِ الذي اجتَمعْنَ فيه بدعوةِ زَليخا وغيرُ ذلك، وقد تأكَّد الجميعُ بعدَ رؤيةِ كلِّ هذه العلاماتِ أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ طاهرٌ وبريء، واستمرَّ النقدُ موجَّهًا في المدينةِ كلِّها إلى وزيرِ الخِزانة وزوجتِه، وللتخلُّص من هذا الخِزْي رأى الوُزراءُ في الحكومة أنّ من المناسبِ أن يُدخَلَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام السِّجنَ لفترة، حتى يَعلَمَ الناسُ أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام كان مذنبًا، ولذا أُدخِلَ السِّجنَ.

---

(١) البخاري، كتاب الآذان، باب ٣٦ برقم ٦٦٠.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

٣٣ـ عندَما أُرسِلَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ إلى السِّجن، دَخَل معَه السِّجنَ في ذلك الوقتِ وبمَحْضِ الصُّدفة شابّانِ، أحدُهما خَبّازُ مِطبخ الملِك، والآخَرُ ساقي الحانة، وأُلقيَ القبضُ عليهما بتُهمةِ التآمُرِ بدسِّ السُّمّ للمَلِك، وهكذا كانا يقضِيانِ عقوبةَ السِّجن، وذاتَ ليلةٍ رأى الاثنانِ منامًا، فذَهبا إلى سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ يسألانِه تفسيرَه؛ لأنّ جميعَ السُّجناء، بل والسَّجّانُ أيضًا، كانوا يُقدِّرونَ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام ويحترمونَه نظرًا لأخلاقِه العالية وشخصيَّتِه الطيِّبة، وبناءً على هذه السُّمعةِ الطيِّبة ذهبَ الاثنانِ إليه ليفسِّرَ لهما منامَهما.

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

٣٤ـ رأى سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ من المناسبِ قبلَ أن يفسِّرَ لهما منامَهما أن يَدعُوَهما إلى التوحيد، وهكذا طَمْأَنهما قائلًا: سأُخبِرُكما بتفسير منامِكما قبلَ أن يأتيَكما طعامُكما، ولكنْ يجبُ أن أُبلِّغَكما أنّني لستُ كاهنًا ولا مُنجِّمًا محترِفًا للتنجيم والكَهانة، ولهذا فإنّ التفسيرَ الذي سأُخبِرُكما به لن يكونَ بأسلوبِ الكُهّانِ ولا المنجِّمين، والذي يَحتمِلُ الخطأَ والصّوابَ كلَيْهما، لكنّ هذا التفسيرَ جزءٌ من تلك العلوم الصّادقةِ التي عَلَّمني إياها ربِّي، فأنا على وَجْهِ التأكيد تاركٌ لدِين أولئك الذين لا يؤمنونَ بالله ولا باليوم الآخِر، ومتَّبِعٌ دينَ آبائي، يعني: دينَ سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا يعقوبَ عليهما السَّلام، ولا يجوزُ لنا نحن بني الإنسانِ أنْ نُشركَ بالله شيئًا، وعقيدةُ التوحيدِ هذه فَضْلٌ من الله تعالى وإحسانٌ على بني الإنسان، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يشكُرون، بمعنى: لا يؤمنونَ بالتوحيد.

وهنا أمرٌ لطيفٌ يستحِقُّ التمعُّنَ، وهو: أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ واجَهَ مشاكلَ عديدةً، على سَبيل المثال: إخراجُ القافلة له من البئرِ واتِّخاذُه عبدًا، وبَيْعُه في مِصرَ، وشراءُ عزيز مِصرَ له، ثم دخولُه السِّجنَ بعدَ واقعةِ زَليخا سابقةِ الذِّكر، وقد صَبَر سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام على كلِّ هذه الابتلاءات، ولم يُخبِرْ أحدًا أنه من بيتِ عائلةِ النُّبوّة، عائلةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، ونورُ عيونِها، معَ أنه لو كان قد أَخْبَر بأنه من أولادِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، لَكان من الممكنِ أن لا تَسلُكَ معَه القافلةُ سلوكَ العبيد، لكنّه ـ عليه السَّلام ـ لم يعتمدْ على شَرَفِ عائلتِه لكي يحصُلَ على الراحةِ والاحترام الدُّنيويِّ، وإنّما أثبتَ رِفعةَ أخلاقِه وعُلُوَّ منزلتِه،

ورَوْعةَ شخصيّتِه في السِّجن، وبعدَ ذلك تحدَّث عن عائلتِه العظيمة، بأنه من أولادِ سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا إسحاقَ عليهما السَّلام.

ويُعلَمُ من هذا أنه ينبغي للإنسانِ أن يُثبِتَ أولًا عظَمتَه ورِفعةَ أخلاقِه، ثم بعدَ ذلك يزيدُ في شَرَفِه وعظَمتِه بذِكْرِ عظَمةِ آبائه وأجدادِه، لكنّ الذي يريدُ أن يحصُلَ على الاحترام والتقديرِ لمجرَّدِ سُمعةِ آبائه الطيِّبة، ولم يكنْ سلوكُه مُوافقًا لهم، فإنّ هذا يُعَدُّ بمثابةِ الطَّعن في آبائه وأجدادِه والإساءةِ إليهم.

في لقاءٍ لي معَه في (بلاك بِرن) بلندن، أخبَرني السيّد محمَّد شُعَيْب شاه ابن شيخ الحديثِ العظيم السيِّد محمَّد يعقوبَ شاه من كيرانواله بإقليم الكجراتِ بباكستان، أنّ والدَه العزيزَ قد تلقَّى تعليمَه في مختلفِ المدارس، ولكنّه لم يَذكُرْ لأحدٍ أبدًا في أيِّ مكانٍ بأنه من نَسْل الأشراف، وكان دائمًا يقول: نحن من الذين يعمَلونَ بالزِّراعة، وكان هدَفُه من وراءِ ذلك أن يَصِلَ هو أولًا في عِلمِه وسلوكِه إلى المقام الذي يَليقُ بكونِه من عائلاتِ الأشراف، ثم بعدَ ذلك يُظهِرُ انتسابَه إلى عائلتِه العظيمة بفَخْرٍ واعتزاز.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾

٣٥ـ اتَّخذَ الناسُ آلهةً كثيرةً بزَعْمِهم يعبُدونَها، فمنهم مَن صَنَعها من الذَّهب، ومنهم من صَنَعها من الفضَّة، ومنهم من صَنَعها من الخشَب، ومنهم من صَنَعها من الحَجَر، ومنهم منِ اتَّخذَ للمطر إلهًا، وللشّفاءِ إلهًا، وللرِّبح إلهًا، وللرِّزقِ إلهًا.

يا صاحبَيَّ في السِّجن، فكِّروا بالعقلِ قليلًا وأخبِروني؛ هل هذه الأربابُ المتفرِّقةُ التي صُنِعت لأهدافٍ محدودة، أفضَلُ أم اللهُ تعالى الواحدُ القادرُ على كلِّ شيء، الذي يُنزِلُ المطَر، ويَمُنُّ بالشِّفاء، وينفَعُ، ويرزُق؟ بالطَّبع الأفضَلُ أن تتَّجهَ إلى بابٍ واحد تجدُ فيه كلَّ شيء، خيرٌ من أن تدورَ على أبوابٍ كثيرةٍ لتحصُلَ على أشياءَ مختلفة.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٣٦ـ الأشياءُ التي تعبُدونَها من دونِ الله لا تستحِقُّ أن تُعبَد، فقد أطلقتُم أنتم عليها أسماءً مختلفة، وجعَلتُموها آلهةً، وليس لديكم دليلٌ عقْليٌّ على هذا، كما أنّ اللهَ تعالى لم يُنزِلْ دليلًا يُصدِّقُ ما تفعَلون، في حينَ أنّ الحقَّ الأصليَّ في تقريرِ الجائز من غير الجائزِ هو للهِ تعالى فقطْ، وهو لم يأمُرْ أبدًا بعبادةِ غيرِ الله تعالى، وإنّما كان أمرُه دائمًا هو أن تَعبُدوا اللهَ تعالى فقطْ، وهذا هو الصِّراطُ المستقيم، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يُحاولونَ فَهْمَ هذا الأمر.

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

٣٧ـ بعدَ أنْ دعاهما سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ إلى التوحيد، قال مُفسِّرًا منامَهما: إنّ الساقيَ سيَسقي سيّدَه خمرًا، بينَما سيُصلَبُ الخَبّاز، وستبقَى جُثّته معلَّقةً مصلوبةً، وسوف تنهَشُها الطُّيور، وهذا التفسيرُ صادقٌ تمامًا، وهذا قرارٌ قد صَدَر بالفعل في التقديرِ الإلهيِّ، وهذا ـ بالفعل ـ ما حَدَث، وبعدَ ثلاثةِ أيام أُعيدَ الساقي إلى عملِه الأولِ من جديد، وصُلِب الخَبّاز.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

٣٨ـ قال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ للساقي: عندما تتمُّ إعادتُك إلى وظيفتِك مرّةً ثانية، اذكُرْني عندَ سيِّدِك، وقلْ له: إنّ هناك مسجونًا آخرَ سُجِن بغيرِ حقّ.

لكنّ الشَّيطانَ أنسَى الساقيَ ما قاله له سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام، ومَكَث سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ في السِّجن بضعَ سنينَ أخرى.

ويُعلَمُ من هذا أنّ البحثَ عن الأسبابِ المشروعةِ للخروج من مصيبةٍ ما، والاستعانةَ بغيرِ المسلم، لا يتنافَى معَ التوكُّل على الله.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾

٣٩ـ ذاتَ ليلةٍ رأى مَلِكُ مِصرَ حُلمًا، وهو المذكورُ في الآية، فسأل رجالَ بَلاطِه عمّا يمكنُ أن يكونَ تفسيرًا للحُلم، فقالوا: إنّنا لا نستطيعُ له تفسيرًا؛ لأنه حُلمٌ غيرُ واضحِ المعالم، وأفكارٌ متناثرةٌ لا أكثرَ، ولهذا لا يمكنُ أن يكونَ له تفسير.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾

٤٠ـ عندَئذٍ تذكَّر الساقي الذي خَرَج من السِّجن سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام، فقال للمَلِك: يوجَدُ في السِّجن رجلٌ يمكنُه تفسيرُ هذا الحُلم؛ لأنه قد فسَّر حُلمي تفسيرًا صادقًا، لهذا اسمَحْ لي أن أذهبَ إليه في السِّجن، وأسألَه، ثم أعودَ إليكم.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

٤١ـ ذَهَب الساقي إلى السِّجن وسأل سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام: إنك صادقٌ، وقد فسَّرتَ حُلُمي من قبلُ تفسيرًا صادقًا، والآنَ رأى مَلِكنا حُلمًا، ولم يستطعْ أحدٌ من رجالِ البَلاطِ تفسيرَه، فأخبِرْنا عن تفسيرِه، حتى يَعرِفَ المَلِكُ ورجالُ البَلاطِ هذا التفسيرَ، ويَعرِفوا عُلوَّ مرتبتِك، وعظَمةَ عِلمِك.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

٤٢ـ لم يشُكَّ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ لكرَم أخلاقِه الرَّفيعة في عَدَم وفاءِ الساقي بالوَعْد، وإنّما فسَّر الحُلُمَ، وأخبَر بالمشكلاتِ القادمة وكيفيّةِ التّغلُّبِ عليها، وفي النهاية بيَّن لهم البُشْرى، يعني: أنّ المرادَ بالسَّبع بقَراتٍ السِّمان والسَّبع سنابلَ الخُضْرِ هو أنّ السَّبع سَنواتٍ القادمةَ من حياتِكم ستمُرُّ في رفاهيَةٍ ورَغَد من العيش، حيث ستُنتجُ الأرضُ محاصيلَ وفيرةً، والمرادُ بالسَّنواتِ السَّبع العِجَاف: سنواتُ القَحْط التي سَتَلي السّنواتِ السبعَ الأُولى، والتي لن تُنتجَ الأرضُ فيها محصولًا، ولهذا عليكم أن تُكثِروا من الزِّراعة وإنتاج المحاصيل في السَّنواتِ السَّبع الأُولى، وبعدَ حصادِ المحاصيل لا تُسرفوا في استهلاكِها في الطعام، ودَعُوا الباقيَ في سَنابِله، وبهذا يمكنُ حفظُ الغِلال لمدّةٍ أطولَ، وتستعينونَ بها في سَنواتِ القَحْط والمَجاعة، وبالإضافة إلى ذلك، عليكُمُ الإقلالُ من الاستهلاكِ في سنواتِ المَجاعةِ أيضًا، حتى توفِّروا قليلًا من الغِلال يمكنُ استخدامُه (تَقاويَ)

في الزِّراعة مستقبَلًا، وبعدَ سنواتِ المجاعةِ السَّبع تأتي سنةٌ تنزِلُ فيها الأمطارُ بغزارة، وتَنتُجُ المحاصيلُ والفواكهُ بوَفْرة، وسيَعصِرُ الناسُ هذه الفواكهَ.

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾

٤٣ـ حين سَمِع المَلِكُ تفسيرَ منامِه من سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، أُعجِبَ بعِلمِه وحِكمتِه وعظَمتِه وانْبَهر به، ولهذا أمَرَ بإحضارِ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ على الفَوْر، ولمّا ذَهَب مبعوثُ المَلِكِ إلى السِّجن رَفَض سيِّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ الخروجَ من السِّجن، وكان قد أمضَى في السِّجن اثنَيْ عشَرَ عامًا بلا ذنبٍ أو جريرةٍ[1]. ولو كان أحدٌ آخَرُ مكانَه لَخرج من السِّجن على الفَوْر، لكنّ صبرَه ـ عليه السَّلامُ ـ لا نظيرَ له، فقد قال للمبعوث: ارجِعْ إلى المَلِك وقلْ له: إنّني لن أَخرُجَ

(١) «لمّا رجع الشّرابيّ إلى الملك وعرض عليه التّعبير الّذي ذكره يوسف عليه السّلام استحسنه الملك فقال: ائتوني به، فعاد الشّرابيّ إلى يوسف عليه السّلام قال: أجب الملك، فأبى يوسف عليه السّلام أن يخرج من السّجن إلّا بعد أن ينكشف أمره وتزول التّهمة بالكلّيّة عنه». التفسير الكبير.

من السِّجن وأنا متَّهمٌ هكذا، فلْتُحقِّقْ في مكرِ النساءِ وكَيْدَهنَّ أولًا، وهو الذي دَخَلتُ بسببِه السِّجنَ، وربِّي يَعلَمُ مكْرَ هؤلاءِ النِّسوة وكَيْدَهنّ، ولكنّي أريدُ أن تَظهَرَ هذه الحقيقةُ أمامَ عزيزِ مِصرَ وأهلِ مِصرَ كلِّهم بأنّ يوسُفَ عليه السَّلام بريءٌ، ويجبُ أن يجتهدَ الإنسانُ في إبعادِ التُّهَم عن نفسِه وتجنُّبِها بكلِّ طريقةٍ ممكنة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**اتَّقوا مواضعَ التُّهَم**»(١).

عن عليِّ بن الحُسَين - رضي اللهُ عنهما - أنّ صَفِيّةَ، زَوْجَ النّبيِّ ﷺ أخبَرتْه أنّها جاءت رسولَ الله ﷺ تَزُورُه في اعتكافِه في المسجدِ في العشْرِ الأواخرِ من رمضان، فتحدَّثتْ عندَه ساعةً، ثمّ قامت تنقلبُ، فقام النّبيُّ ﷺ معها يَقْلِبُها، حتّى إذا بَلَغت بابَ المسجدِ عندَ بابِ أُمِّ سَلَمةَ مرَّ رجُلانِ من الأنصار، فسَلَّما على رسول الله ﷺ فقال لهما النّبيُّ ﷺ: «على رِسْلِكما، إنّما هي صَفِيّةُ بنتُ حُيَيٍّ». فقالا: سبحانَ الله يا رسول الله! وكَبُر عليهما، فقال النّبيُّ ﷺ: «إنّ الشّيطانَ يَبلُغُ من الإنسانِ مبلغَ الدّم، وإنّي خشِيتُ أن يَقذِفَ في قلوبِكما شيئًا»(٢).

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

٤٤- استدعَى المَلِكُ زَليخا والنّساءَ الأُخرياتِ اللائي لهُنَّ علاقةٌ بالموضوع وسألهنَّ: ماذا حَدَث في ذلك الوقتِ حين حاولتُنَّ دعوةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ إلى الفاحشة؟ فقُلْن: لم نجِدْ في يوسُفَ عليه السَّلامُ عيبًا، وبعدَ هذا الإجماع في الشَّهادةِ من قِبَلِ النِّسوة، اعترفَت زَليخا أيضًا - وبوضوح - بأنّ الحقَّ قد ظَهرَ تمامَ الظُّهور، ولقد راوَدتُه أنا عن نفسِه، لكنّه رَفَض الاستجابةَ لمُراودتي، وأنا المُذنِبةُ، وهو صادقٌ تمامًا وبريءٌ من هذه التُّهمة.

---

(١) الفوائد المجموعة للشوكاني، ٢٥١.

(٢) البخاري، كتاب الاعتكاف، باب ٨ برقم ٢٠٣٥.

وبعدَ هذه الشَّهادةِ التي أَجْمَعتْ عليها النِّسوةُ جميعًا ازدادَتْ ثقةُ المَلِك في سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، ورَغِب بشِدّةٍ في رؤيةِ هذا الإنسانِ ذي الصِّفاتِ الملائكيَّة، فأرسَلَ مبعوثَه أنْ قُلْ ليوسُفَ عليه السَّلام: إنّ النّساءَ جميعًا قدِ اعتَرفْنَ بعِفّتِك وطهارتِك، ولهذا تفضَّلْ بالحضورِ إلينا، وسوف نستقْبلُك بكلِّ احترام وتقدير، وسوف نعمَلُ بكلِّ إرشاداتِك.

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

٤٥ـ قال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام: لقد طلَبتُ التحقيقَ في الأمرِ حتّى يتأكَّدَ عزيزُ مِصرَ ويطمئنَّ على أنّي لستُ جاحدًا للفضل، وأنّي لم أَخُنْه، وحتّى تعرفَ الدُّنيا كلُّها أنّ كيْدَ الخائنينَ لا يُفلح، وأنّ الحقيقةَ لا بدَّ أن تظهرَ في يومٍ من الأيام.

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

٤٦ـ في الآيةِ السّابقةِ جاء قولُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام بما معناه: «إنّي لم أَخُنْ عزيزَ مِصرَ»، ثم خَشِي سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام أن يُفهَمَ قولُه هذا على أنه من بابِ الغرور وحبِّ الذّات، ولهذا أظهَرَ تواضُعًا وانكسارًا من جانبِه بقولِه: إنّني لا أدَّعي أنّ نفسي بريئةٌ؛ لأنّ النفسَ تأمُرُ بالسُّوء، لكنْ كان من فَضْل ربِّي ورحمتِه أنه أنقذَني من كَيْدِ نساءِ مِصرَ.

ويُعلَمُ من هذا أنّ أولياءَ الله لا يغتَرُّونَ بنسبةِ الأعمالِ الصّالحة إلى أنفسِهم، وإنّما يَعتبرونَ هذه الأعمالَ الصّالحةَ إحسانًا من الله تعالى عليه، ويؤدُّونَ شُكرَه.

والنفسُ ثلاثةُ أقسام:

١ـ النفسُ الأمّارة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. والمرادُ بها تلك النفسُ التي تأمُرُ صاحبَها بالسُّوءِ دائمًا، ومن يُطعْ نفسَه الأمّارةَ بالسُّوء سيكونُ عاصيًا وظالمًا.

٢ـ النفسُ اللَّوّامة ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. والمرادُ بها: التي تَلُومُ نفسَها باستمرارٍ على تقصيرِها وغَفْلتِها، والإنسانُ الذي يتدبَّرُ تنبيهَ النفسِ اللَّوّامة يتُوبُ توبةً صادقة، ويصبحُ من الصَّالحين.

٣ـ النفسُ المطمَئنَّة ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، والمرادُ بها: تلك النفسُ التي تجدُ السَّكينةَ والطُّمَأْنينةَ في ذكرِ الله تعالى، ومَن تَصبُغُه النفسُ المطمَئنَّةُ بصِبغتِها يرضى عنهُ اللهُ تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾

٤٧ـ حينَ أُخرِج سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ من السِّجن وجيءَ به إلى المَلِك، نَزَل المَلِكُ من فوقِ عرشِه، وسَجَد لسيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، ثم أَجْلسَه بجانبِه على العرش، وسأله: ماذا علَيّ أن أفعلَ الآنَ بخصوصِ ذلك الحُلم؟

قال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام: «**أرى أن تَجمَعَ الطّعامَ، وتَزرعَ زرعًا كثيرًا في هذه السّنينَ المُخصِبة، فإنّك لو زَرعتَ على حَجَرٍ أو مَدَرٍ لَنَبتَ، وأظهَر اللهُ فيه النَّماءَ والبرَكة، ثمّ تَرفَعَ الزّرعَ في قَصَبِه وسُنْبُلِه تَبْني له المخازنَ العِظامَ، فيكونُ القصَبُ والسُّنْبُلُ عَلَفًا للدّوابّ، وحَبُّه للنّاس، وتأمُرَ النّاسَ فيرفَعونَ من طعامِهم إلى أُمَرائِكَ الْخُمُسَ، فيكفيكَ من الطّعام الّذي جمَعتَه لأَهْلِ مِصرَ ومَن حولَها، ويأتيك الخَلقُ من النّواحي يمتارونَ منك، ويجتمعُ عندَك من الكنوزِ ما لم يجتمعْ لأحدٍ قبلَك، فقال المَلِك: ومَن لي بتدبيرِ هذه الأمور، ولو جَمعتُ أهلَ مِصرَ جميعًا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أُمناءَ؟ فقال يوسُفُ عليه السّلام: اجعَلْني على خزائنِ أرضِك، إنّي حاسبٌ كاتب**»[1].

(١) التفسير الكبير وتفسير القرطبي.

لم يكتفِ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ بإخبارِه بمصيبةِ القَحْط فقطْ، وإنّما أخبَرَه بطريقةِ التعامُل معَه أيضًا، وحينَ لم يعثُر المَلِكُ على الشخصِ المناسبِ لتحمُّلِ هذه المسئوليَّة، عَرَض سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام استعدادَه لتحمُّلِها من أَجْل إنقاذِ الناس من المصائبِ والهلاك.

تأثَّر المَلِكُ كثيرًا بعِلم سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وسُلوكِه وإخلاصِه، إلى درجةِ أنه أسنَدَ إليه كلَّ السُّلُطاتِ في مِصرَ[١]، وبعدَ تولِّي سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ مسئوليّةَ السُّلطة في مِصرَ أقام جوًّا من العَدْل والإنصافِ، بحيث أحبَّه الناسُ جميعًا، إلى درجةِ أنّ المَلِك نفسَه أَسْلمَ على يدَيْه[٢]، ثم بعدَ ذلك أَسْلم أهلُ مِصرَ الآخرون[٣].

قبول منصب من حاكم كافر:

يقولُ أهلُ العِلم في تفسيرِ الآية رقم ٥٥ من سُورة يوسُف: «**في هذه الآيةِ ما يُبيحُ للرّجُل الفاضِل (في الإسلام) أن يعمَلَ للرّجُل الفاجر، والسُّلطانِ الكافر، بشَرْطِ أن يَعلَمَ أنّه يفوِّضُ إليه في فعلٍ لا يُعارضُه فيه فيُصلحُ منه ما شاء**»[٤].

رَغْمَ أنّ المطالبةَ بمنصِبٍ طمعًا في تحقيقِ مصالحَ دُنيويّة، وحديثَ الشّخصِ عن مميِّزاتِه بغَرَضِ مدح نفسِه أمرٌ غيرُ صحيح في الإسلام، ولكنْ إنْ كان منَ الممكنِ

---

(١) «فلما سمع الملك منه تعبير رؤياه، أعجب به وبعلمه وحسن أدبه، وأعزّه وأنزله لديه مكانة عالية، وآمنه على نفسه، وائتمنه على كلّ شيء، وسلّمه مقاليد الحكم والسّلطة، وفوّض إليه تصريف وإدارة الأمور السياسيّة والماليّة في جميع أنحاء مصر». التفسير المنير.

(٢) «وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام». تفسير ابن جرير الطبري، الآية ٥٦.

(٣) «لما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به وأقام فيهم العدل فأحبّه الرجال والنساء». تفسير القرطبي، الآية ٥٦.

(٤) تفسير القرطبي.

الحصُولُ على منصبٍ من أَجْل إنقاذِ الناسِ من المظالم، وتحقيقِ مزيدٍ من الراحة للناس، فيجبُ العمَلُ على الحصُولِ على هذا المنصِب، وإن كانت هناك حاجةٌ إلى الحديثِ عن كفاءتِك للمنصِب وأهليَّتِك له، فافعَلْ ولا حَرَج في ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

٤٨ـ مَنَّ اللهُ تعالى على سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ بالارتقاءِ في مِصرَ ومحبّةِ الناس له هناك بسببِ صبرِه وعِفّتِه وطهارتِـه، بحيث أثْنَى عليه الجميعُ، ولقيَ ترحيبًا كبيرًا حيثُما ذَهَب، حتّى أن المَلِكَ نفسَه كان يطلُبُ نصيحتَه وإرشادَه، وقد أعطَى اللهُ تعالى سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام هذا الأَجْرَ في الدنيا، وفي الآخِرة بالنِّسبة للصَّالحين أفضَلُ من هذا.

جاء في الرِّواية أنّ «**يوسُفَ عليه السّلامُ كان لا يَشبَعُ من طعامٍ في تلك السّنين، فقيل له: أتجوعُ وبيدِك خزائنُ الأرض؟ فقال: إنّي أخافُ إن شَبِعتُ أن أنسَى الجائعَ، وأَمرَ يوسُفُ طبّاخَ المَلِكِ أن يجعَلَ غذاءه نصفَ النّهار، حتّى يذوقَ المَلِكُ طَعْمَ الجوع، فلا ينسَى الجائعين**»[1].

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ

---

(١) تفسير القرطبي.

حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾

٤٩ـ لمَّا عَهِد المَلِكُ بكلِّ أمورِ الحكومة وتسييرِها إلى سيّدِنا يوسُفَ عليه السلام، أخذ يحُثُّ الفَلّاحينَ على زيادةِ المساحةِ المزروعة وزيادةِ المحاصيل، وقام بتخزينِ كمّياتٍ كبيرةٍ من الغِلال في الصَّوامع المُعَدَّةِ لذلك، وطِبقًا لتفسير الحُلم فإنه حين بَدأَت السَّنواتُ السَّبعُ العِجَاف، ولم يَعُدْ لدى الناس غِلالٌ، تَمَّ توزيعُ المخزونِ من الغِلال على الناسِ حسَبَ الحاجة، وبهذا نَجا أهلُ مِصرَ من مخاطرِ القَحْط، أمّا البلادُ المحيطةُ بمِصرَ فلم يكنْ بها غِلالٌ على الإطلاق، وحينَ عَرَف أهلُ تلك البلادِ أنّ مِصرَ لدَيْها مخزونٌ منَ الغِلال، توَجَّهوا إليها للشِّراء، وكان سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام قد قرَّر إعطاءَ كلِّ أجنبيٍّ من الغِلال وزنًا محدَّدًا بما يمكنُ أن يقومَ به جَمَلٌ واحد.

وكبقيّةِ الناس أرسَلَ سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ أبناءه لشراءِ الغِلال من مِصرَ، فلمَّا وصَلوها عَرَفَهم سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام وهم إخوتُه، لكنَّهم لم يَعرِفوه؛ لأنه

كان قد مضى أربعونَ عامًا منذُ أن ألقَوْا به في البئر، وكان سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ في ذلك الوقتِ طفلًا صغيرًا، والآنَ تغيَّرَت مَلامحُه كثيرًا بوجودِ اللِّحية على وجهِه، كما أنّه لم يكنْ أحدٌ منهم يتصوَّرُ أنّ الأخَ الذي ألقَوْا به في البئرِ سيكونُ هو اليومَ حاكمَ مِصرَ، وهكذا سألَهم سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام عن أحوالِهم، فأخبَروه قائلين: نحن عشَرةُ إخوةٍ موجودونَ هنا، ولنا أخَوانِ آخَرانِ من الأُمِّ، أحدُهما هَلَك في الغابة، والآخَرُ، وهو أخوه الصَّغيرُ، بنْيامينُ، احتَفَظ به أبوه ليُسرِّيَ به عن نفسِه، ولم يُرسِلْه معَنا. على أيّةِ حالٍ عندما أعَدَّ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ المتاعَ لهم قال: أحضِروا معَكم أخاكمُ الصَّغيرَ في المرّةِ القادمة، فلقد رأيتُمُ الآنَ أنّي أتحرَّى العدلَ معَ الجميع، وأُحسِنُ ضيافةَ الجميع أيضًا، ولذا سوف أخدِمُكم أنتم وبِنْيامينَ أيضًا، ثم هدَّدهم في نهايةِ الأمر بأنّكم إن لم تُحضِروا بِنْيامِينَ معَكم في المرّةِ القادمة فلن أُعطيَكمُ الغِلالَ، ولن تستطيعوا لقائي.

﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾

٥٠ـ قال إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام: رَغْمَ أنّ من الصعوبةِ بمكانٍ أن نأخُذَ بِنْيامينَ من أبينا، لكنَّنا سنحاولُ ـ قَدْرَ طاقتِنا ـ أن نَجعَلَه يوافقُ على إرسالِ بِنْيامينَ إلى مِصرَ، ونأمُلُ أن نَنجحَ في ذلك.

﴿ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾

٥١ـ رأى سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام أنّ من المناسبِ أن لا يأخُذَ ثمنَ الغِلال من إخوتِه، ولهذا أمَرَ غِلمانَه أن يَضَعوا النقودَ خُفْيةً في أمتعتِهم، حتى إذا ما وَصَلوا إلى بيتِهم وفتَحوا أمتِعتَهم وَجَدوا النقودَ، وبهذا يؤثِّرُ فيهم موقِفُنا هذا، فيَحرِصونَ على المجيءِ إلى مِصرَ، ويَصطحِبونَ معَهم بِنْيامينَ أيضًا، ومن

الممكنِ ألّا يكـونَ لديهـم نقـودٌ لشـراءِ مزيدٍ من الغِلال، فيستطيعونَ بهذه النُّقودِ المجيءَ، وشراءَ الغِلال ثانيةً.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾

٥٢ـ عندما وَصَل إخوةُ يوسُفَ بيتَهم عائدينَ من مِصرَ معَ الغِلال التي اشتَروْها، قالوا لأبيهم سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام قبلَ أن يفتَحوا أمتِعتَهم: إنّ مَلِكَ مِصرَ رجلٌ على خُلُقٍ طيِّب ومتعاطفٌ ومِضْياف، وقد أحسَنَ السلوكَ معنا كثيرًا، وأكثرُ من هذا أنه قال لنا أنْ نصطحِبَ بِنْيامينَ معَنا إليه المرةَ القادمة، وسوف يُعطيهِ نصيبَه من الغِلالِ أيضًا، وإن لم نأخُذْ بِنْيامينَ معَنا لن يُعطيَ أحدًا منّا من الغِلال شيئًا، ولهذا نرجو أن تُرسلَ مَعنا بِنْيامينَ، ونحن سنُحافظُ عليه يقينًا.

﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّـٰحِمِينَ ﴾

٥٣ـ قال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام: كيف أثقُ فيكم فيما يتَعلَّقُ ببِنْيامِينَ وأنتمُ الذين أفقَدتُموني الثقةَ فيكم فيما يتعلَّقُ بيوسُفَ عليه السلام.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيۡلٌ يَسِيرٌ ﴾

٥٤ـ عندَما فتَح إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام أَجْوِلَةَ الغِلال بعدَ الحِوار الذي دار بينَهم وبينَ أبيهم، أصابَتْهم دهشةٌ عظيمة، إذ وَجَدوا النقودَ التي كانوا قد دَفَعوها ثمنًا للغِلال محفوظةً بالكامل داخلَ الأَجْوِلة، وهكذا أَسْرعوا إلى أبيهم وبشَّروه بأنَّ مَلِكَ مِصرَ قد تعطَّف علينا كثيرًا، إذ أعاد إلينا ما دَفَعْناه، ولهذا نرجو أن

تُرسلَ مَعنا بِنْيامينَ المرّةَ القادمةَ، ونحن سنُحافظُ عليه ونَحميه، وبهذا نستطيعُ أن نأتيَ بحِمْلِ بعيرٍ من الغِلال زيادةً على ما أتَيْنا به هذه المرةَ، فما أتَيْنا به هذه المرةَ من الغِلال قد لا يكفي حاجتَنا، ولا ندري متى تنتهي المجاعةُ التي حَلَّت بنا، وبالتالي من الضَّروريِّ أن نذهبَ هناك ثانيةً لجَلْبِ مزيدٍ من الغِلال، ولنُحضِرَ المقرَّرَ منها لنا جميعًا.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

٥٥- قال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام: لن أُرسلَ بِنْيامينَ معَكم حتى تَحلِفوا بالله يمينًا راسخًا، وتَعِدوني وعدًا مؤكَّدًا أنكم ستعودونَ به إليَّ، ولكنْ إذا حَلَّ بكم خَطبٌ لا تستطيعونَ الخلاصَ منه، فلن تكونَ لي شكايةٌ منكم.

وحينَ تعهَّدَ الإخوةُ جميعًا لأبيهم بهذا، أَذِنَ لهم سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام باصطحابِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ معهم، بعدَ أنِ اطمأنَّ إلى الأسبابِ الظاهريّة، ثم قال: اللهُ شهيدٌ على ما تعهَّدتُم لي به، فهو الحافظُ الحقيقيُّ، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يَحفَظَ أحدًا إلّا بتوفيقٍ منه تعالى.

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

٥٦- كان إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ يتمتَّعونَ بصحةٍ جيّدة، وبجمالٍ فائق، ولهذا نَصَحَهم أبوهم أنِ ادخُلوا من أبوابٍ متفرِّقة إذا ما وَصَلتُم مِصرَ؛ لأنّكم إن دَخَلتُم من بابٍ واحدٍ مجتمِعينَ، فقد يَحسُدُكم أحدٌ؛ وأنا لا أستطيعُ أن أُنجيَكم من قَدَرِ الله تعالى؛ لأنه أمرُه نافذٌ لا محالةَ، ولهذا فإنّ على الجميع أن يتوكَّلوا على الله فقطْ، وأنا أنصَحُكم باتّخاذِ التدابيرِ الاحتياطيَّةِ لا أكثرَ، لأنّ الحسَدَ، وإيذاءَ

الآخَرينِ الناتجَ عنه أمرٌ صحيحٌ وحقّ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**العينُ حقّ**»[(١)]، كما أنه للعلاج من أثرِ النظرةِ السيِّئة «**كان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذُ من الجانِّ وعَيْنِ الإنسانِ حتّى نَزَلتِ المعوِّذتان، فلمّا نَزَلتا أخَذَ بهما وتَرَك ما سواهما**»[(٢)].

التوازن بين التدبير والقدر:

يقولُ الإمامُ الرازي: «**فاعلَمْ أنّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يُراعيَ الأسبابَ المعتَبرةَ في هذا العالَم، ومأمورٌ أيضًا بأنْ يعتقدَ ويَجزِمَ بأنّه لا يصلُ إليه إلّا ما قدَّره اللهُ تعالى وأنّ الحَذَرَ لا يُنْجي من القَدَر**»[(٣)]، بمعنى: أنّ على كلِّ شخصٍ أن يَستعملَ عقلَه وفكرَه وكلَّ التدابيرِ الممكنة، ثم بعدَ ذلك يتوكَّلُ على الله، وسوف يكونُ ما أرادَه اللهُ تعالى، لكنّ الذين يعتمدونَ على الأسبابِ الماديَّةِ فقطْ، ويُنكرونَ القَدَر، والذين يعتمِدونَ على القَدَرِ فقطْ ـ مُهمِلينَ الأسبابَ الماديّةَ تمامًا ـ كلاهما جاهلٌ.

وفي هذه الآيةِ الكريمة أدَّى سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ ما عليه من الأَخْذِ بالتدبير، من خلال نُصحِه لأبنائه أن يَدخُلوا من أبوابٍ متفرِّقة، وفي نفسِ الوقت أعلَن يقينَه أنه لو أرادَ اللهُ تعالى شيئًا آخرَ، فإنّ تدبيري لن يستطيعَ أن يُنجيَكم من قَدَرِ اللهِ تعالى.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٥٧ـ طِبقًا لإرشاداتِ الأبِ دَخَل إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام مِصرَ من أبوابٍ مختلفة، وكان هذا تدبيرًا احتياطيًّا من سيّدَنا يعقوبَ عليه السَّلام، أراد به أن

---

(١) البخاري، كتاب الطب، باب ٣٦ برقم ٥٧٤٠.

(٢) الترمذي، أبواب الطب، باب ١٦ برقم ٢٠٥٨.

(٣) التفسير الكبير.

يُنجيَ أبناءه من العَيْنِ الحاسدة، لكنْ لأنّ سيّدَنا يعقوبَ عليه السَّلامُ كان لديهِ عِلمٌ إلهيّ، لهذا أعلَن حقيقةً أنّ تدبيرَه هذا لا يستطيعُ أن يُنجيَكم من قَدَرِ الله تعالى.

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

٥٨ـ عندما وَصَل إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام مِصرَ، أنـزَلَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ كلَّ اثنَيْنِ منهم في حُجرةٍ منفصِلة، وبقي بِنْيامينُ وحيدًا، فأنْزلَه معَه[1]، وحينَ أصبح سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام منفرِدًا معَ أخيه بِنْيامينَ قال له: أنا أخوك يوسُف، ولا تُخبِرْ إخوتَك بهذا السرِّ الآنَ. وحينَ سَمِع بِنْيامينُ

(١) «أمر أن ينزل كل اثنين في منزل، فبقي أخوه منفردًا فضمّه إليه». تفسير القرطبي.

ما قاله سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ لم يتمالكْ نفسَه من فَرْطِ السَّعادة وقال: لن أترُكَك بعدَ الآنَ أبدًا، فقال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام: لا بأسَ، وسوف يتمُّ احتجازُك هنا بحُجّةِ أنك سَرَقتَ المِكْيال. ومن الممكنِ أن يكونَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام قد قَصَّ على أخيه بِنْيامينَ قصّتَه معَ إخوتِـه، حينَ ألقَوْا به في البئر، لكنّه معَ ذلك قال: إنه لا داعيَ لأنْ أُزعجَك بإخبارِك بأحداثٍ قد مضَتْ وانتَهَت؛ لأنّ اللهَ تعالى قد أحسَن إلينا، وجمَعَنا معًا بخيرٍ وسلام.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾

٥٩ـ عندَما تمَّ إعدادُ أمتعةِ الإخوة، أخفَى سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام المِكيالَ في أمتِعةِ أخيه بِنْيامين، وحين تحرَّكتِ القافلةُ للعودةِ من حيثُ جاءت، فتَّشَ الحُرّاسُ عن المِكْيال، وشَكُّوا في أنّ القافلةَ التي جاءت من فِلَسطينَ هي التي سَرَقتِ المِكْيالَ، وبالتالي تعقَّبَتْهم جماعةٌ من الحُرّاس، وصاحت فيهم: انتظِروا، فأنتم لصوصٌ! وحينَئذٍ توقَّفَ إخوةُ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ مندهِشينَ وهم يسألونَ الحُرّاس: ما الذي فقَدتُّموه؟

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾

٦٠ـ قال قائدُ الحُرّاس: لقد فُقِدَ مِكْيالُ المَلِك، ومن يُسلِّمْ إلينا المِكيالَ قبلَ التفتيش أضمَنْ له حِمْلَ بعيرٍ من الغِلالِ على سبيل المكافأة، وهنا صَمَت بِنْيامينُ، لكنْ لأنّ الإخوةَ الآخَرينَ لم يكونوا على عِلم بالأمر، لهذا أَقْسَموا قائلين: لقد أَتَيْنا إلى هذا البلد مرَّتَيْن، ولم نُسِئْ إلى أحدٍ، ولذا ينبغي أن تَعلَموا أنّنا لم نأتِ إلى هذا البلد لننشُرَ الفسادَ فيها، وأننا لسنا لصوصًا.

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٦١- قالت كتيبةُ الحُرّاس: لو كنتُم كاذبينَ، وعُثِر على المِكيالِ داخلَ أمتعةِ أحدِكم، فقولوا أنتم: ماذا يكونُ جزاؤه؟ ولأنهم كانوا واثقينَ تمامًا أنّهم لم يَسرِقوا شيئًا، لهذا قالوا بكل ثقة: من يُعثَرُ على المِكيالِ في أمتعتِه يكونُ هو المتحمِّلَ للمسئوليَّة، وجزاءُ مِثلِ هذا عندَنا أن يصبحَ الذي سَرَق: عبدًا لمدةِ عام عندَ مَن سُرِق منه.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

٦٢- أخَذَت كتيبةُ الحُرّاسِ إخوةَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام إليه، فـفتَّش سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام أمتعةَ إخوتِه غيرَ بنْيامينَ أولًا، حتى لا يَشُكُّوا في أنّ هناك خُطةً مرسومةً لأمرٍ ما، وفي النِّهاية استَخرجَ المِكْيالَ من متاع أخيه بنْيامينَ، وطِبقًا لِما قرَّره أصحابُ القافلة أنفُسهم، تَمَّ احتجازُ بنْيامينَ، وإلّا فإنه طِبقًا للقانونِ المِصريِّ آنذاك لا يحِقُّ له احتجازُ أخيه؛ لأنّ حُكمَ القانون المِصريِّ آنَذاك فيما يتَعلَّقُ باللِّصِّ هو أن يُضرَبَ اللِّصُّ، ثم تؤخَذَ منه الفِديةُ ويُطلَقَ سَراحُه. على أيِّ حال، كان كلُّ ذلك وفقًا للتدبيرِ الذي أوحَى به اللهُ تعالى إلى سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، ولهذا فإنّ توجيهَ النَّقد إلى أيِّ جزءٍ من هذه الإجراءاتِ كلِّها إنّما هو بمثابةِ توجيهِ النَّقد إلى اللهِ تعالى.

﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ ﴾

٦٣- كان إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ أيضًا علماءَ، لكنّ اللهَ تعالى مَنَّ على سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام بعِلم يفُوقُ عِلمَهم بمراحلَ، وقد اتَّبع سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام طريقةً أجبَرتْهم على تَرْكِ أخيهم بنْيامينَ في مِصرَ.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

٦٤ـ في هذه الدُّنيا يوجَدُ فوقَ كلِّ عالِم مَن هو أعلَمُ منه، وتستمرُّ هذه السِّلسلةُ إلى أن تنتهيَ بالله تعالى؛ لأنه الأعلَمُ على الإطلاق[1]، لهذا لا ينبغي لأحدٍ أن يُسيءَ الفَهْمَ بأنه أكبرُ علماءِ زمانِه.

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

٦٥ـ قالوا: بنْيامينُ ليس أخًا شقيقًا لنا، فهو من أمٍّ أُخرى، ولا عَجَبَ إنْ سَرَق، فقد سَرَقَ أخوه يوسُفُ من قبلُ.

سَمِع سيِّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام كلامَ إخوتِـه الجارحَ، لكنْ لأنَّ اللهَ لم يكنْ قد أمَرَه أن يُفشيَ هذا السرَّ، لهذا احتَفَظ بالجوابِ عن كلامِهم هذا في قلبِه، ولم يُظهِرْ لهم شيئًا، وقال في نفسِه: إنّ حالَكم غايةٌ في السُّوء، واللهُ تعالى يَعلَمُ كذبَكم هذا تمامَ العِلم.

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

٦٦ـ قالوا: يا عزيزَ مِصر، إنّ أبانا شيخٌ كبير، وإذا لم يَعُدْ بنْيامينُ معَنا فلن يستطيعَ تحمُّلَ الصَّدمة، ولهذا يمكنُك أن تحتجزَ أحدَنا مكانَه وتُطلقَ سراحَه، فلقد أحسَنْتَ إلينا من قبلُ، ونأمُلُ أن تُحسنَ إلينا هذه المرةَ أيضًا. قال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام: أعوذُ بالله، لا يمكنُ أن أرتكبَ مِثلَ هذا الظُّلم بأن نترُكَ مَن وَجَدْنا متاعَنا عندَه، ونُمسكَ بسواه.

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ

---

(١) «عن ابن عبّاسٍ قال: يكون ذا أعلم من ذا وذا أعلم من ذا، واللهُ فوق كلِّ عالم». تفسير القرطبي.

أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٨٠) ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ
سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ (٨١) وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي
كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ
فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ
عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ (٨٤) قَالُواْ تَٱللَّهِ
تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ (٨٥) قَالَ
إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٨٦) يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ
فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ
ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ
فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ (٨٩) قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ
وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٩٠) قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ (٩١)
قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢) ٱذۡهَبُواْ
بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٩٣)

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ
عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ
أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٨٠) ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ (٨١) وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا
فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

٦٧ـ وحينَ يئسوا من إقناع سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام بما يُريدون، ولم يكنْ
عليه السَّلامُ مستعدًّا لأنْ يترُكَ بِنْيامينَ، اختَلَى بهم أخوهم الأكبرُ وقال لهم: إنّكم

تَعلَمونَ أنّ أباكم قد أخَذ علينا عهدًا ومَوْثِقًا أن نُحافظَ على بِنْيامين، وقد ظَلمتُم أباكم من قبلُ فيما يتَعلَّقُ بيوسُفَ عليه السَّلام، فبأيٍّ وجهٍ نلقَى أبانا الشّيخَ الآنَ؟ لهذا لن أُغادرَ هذا البلدَ أبدًا حتّى يَستدعيَني أبي بنفسِه، أو أن يَحكُمَ اللهُ في أمري، بمعنى: أن يوفِّقني إلى إطلاقِ سَراح أخي بِنْيامينَ بأيِّ طريقةٍ وأعودَ به إلى أبي، لكنْ يُمكنُكم أنتم العودةُ، وأخبِروا أباكم بما حَدَث من أنّ بِنْيامينَ قد سَرَق، يعني: أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ الحقيقةَ، ولكنّ الظاهرَ أمامَنا أنّ المِكيالَ عُثِر عليه في أمتعتِه أمامَ أعيُنِنا، ولهذا تَمَّ احتجازُه.

وبالتالي، عاد الإخوةُ التِّسعةُ إلى أبيهم بدونِ أخيهم الأكبر، واعتَذَروا له فيما يخُصُّ بِنْيامينَ قائلين: إنّ العهدَ الذي قطعناهُ على أنفسِنا معَك بأن نُحافظَ على بِنْيامينَ، كان طِبقًا لِما نَعلَمُ نحن ونَملِك، لكنَّنا لم نكنْ نَعلَمُ الغيبَ بأنّ المِكيالَ سيُعثَرُ عليه بينَ أمتِعتِه، وأنّنا سنُضْطَرُّ إلى تَرْكِه، وإن لم تكنْ واثقًا ممّا نقولُ، فاذهَبْ إلى مِصرَ وتحقَّقْ بنفسِك من صحتِه، أوِ اسألِ القافلةَ التي كنّا معَها، وتأكَّدْ منهم فيما يتَعلَّقُ بقولِنا هذا.

﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

٦٨ـ لمَّا سَمِع سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ هذه القصّةَ قال لأبنائه: كيف سلَّمتُم بأنّ أخاكم بِنْيامينَ لصٌّ؟ كان عليكم حينَئذٍ أن تقولوا: إنّ أخانا لا يَسرِق، ومن المؤكَّدِ أنّ أحدًا قد وَضَع المِكْيالَ في أمتعتِه خُفْيةً، لكنَّكم لم تفعَلوا شيئًا سوى التسليم الفَوْريِّ بالتُّهمة، والأكثرُ من هذا أنكم قُلتُم عن أخيه يوسُفَ عليه السلام: إنه لصٌّ أيضًا، وأكّدتُم على ارتكابِ بِنْيامينَ للسَّرقةِ بشكلٍ أكبر، معَ أنّ بِنْيامينَ لم يَسرِقْ، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى أراد لي مزيدًا من الابتلاءِ، وسأصبِرُ صبرًا جميلا(١).

---

(١) «وإنما ذلك لأمر يريده الله». تفسير القرطبي.

بالطَّبع لم يكنْ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ يريدُ أن يزيدَ في ابتلاءِ أبيه، لكنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام كان ينتظرُ - في صَمْتٍ - الوقتَ الذي حدَّده اللهُ تعالى للقائه بأبيه سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام، ولم يكنْ يستطيعُ إفشاءَ السرِّ قبلَ أن يَحينَ موعدُه، بمعنى: أنّ كلَّ هذا كان يجري تنفيذًا لحُكم الله تعالى[1]، وقال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ في انتظارِ ذلك الوقتِ: سوف يَجمَعُني اللهُ تعالى قريبًا بيوسُفَ عليه السلام، وببِنْيامينَ وأخيهما الأكبر.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

٦٩- تجدَّدتْ ذِكرى سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام من جديدٍ لدى سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام بفِراقِ بنْيامينَ، فاعتَزلَ أهلَ بيتِه أسَفًا على فِراقِ سيّدِنا يوسُفَ عليهِ السَّلام، وينقُلُ العلّامةُ الأَلُوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية قولُ بعضِ العارفينَ: «**أن تأسُّفَه على رؤيةِ جَمالِ الله تعالى من مرآةِ وَجْهِ يوسُفَ عليه السَّلام وقد تمتَّع بذلك بُرهةً من الزَّمان حتّى حالت بينَه وبينَه طَوارقُ الحِدْثانِ فتأسّفَ عليه السَّلامُ لذلك**»[2]، وبَكَى كثيرًا لدرجةِ أنه فَقَد بصَرَه وابيَضَّتْ عيناهُ، لكنّه لم يُفصحْ بلسانِه عنِ اضْطِرابه بداخلِه. يقولُ اللّيثُ بن أبي سُلَيم: إنّ «**جِبريلَ دَخَل على يوسُفَ في السِّجن فعَرَفَه، فقال له: أيّها المَلَكُ الكريمُ على ربِّه هل لكَ عِلمٌ بيعقوب؟ قال: نعم، قال: ما فَعَل؟ قال: ابيَضَّتْ عيناهُ من الحُزنِ عليك، قال: فما بَلَغ من حُزنِه؟ قال: حُزنَ سبعين، قال: هل له على ذلك من أجرٍ؟ قال: نعم، أَجْرُ مائةِ شهيد**»[3].

---

(١) «والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله تعالى، أمره ليزيد في بلاء يعقوب عليه السلام فيضاعف له الأجر» التفسيرالمظهري.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) ابن أبي حاتم، برقم ١١٨٨٤.

ولا يجوزُ في الإسلام التعبيرُ عنِ الاضْطرابِ وعَدَم الصَّبرِ من أثَرِ صدمةٍ ما بالصُّراخ والعَويل باللِّسان، لكنّ حُزنَ القلبِ وبكاءَ العَيْن أمرٌ فِطري، وهو أمرٌ جائز، مثلَما وَرَد في الأحاديثِ التالية:

١ـ وإبراهيمُ يَجُودُ بنفسِه، فجَعَلت عينا رسول الله ﷺ تَذرِفانِ. فقال له عبدُ الرّحمن بنُ عَوْفٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ: وأنت يا رسولَ الله؟ فقال: «يا ابنَ عوفٍ، إنّها رحمةٌ». ثمّ أَتْبَعها بأُخرى فقال ﷺ: «إنّ العَيْنَ تَدمَع، والقلبَ يَحزَن، ولا نقولُ إلّا ما يُرضي ربَّنا، وإنّا بفِراقِك يا إبراهيمُ لمَحزونون»[١].

٢ـ عن عبدِ الله بن عُمَر ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ قال: اشتكى سَعدُ بنُ عُبادةَ شكوى له، فأتاه النّبيُّ ﷺ يَعُودُه معَ عبدِ الرّحمن بن عَوْفٍ وسَعدِ بن أبي وَقّاصٍ وعبدِ الله بن مسعودٍ ـ رضي اللهُ عنهم ـ فلمّا دَخَل عليه فوَجَده في غاشِيةِ أهلِه فقال: «قد قَضَى». قالوا: لا يا رسولَ الله. فبكَى النّبيُّ ﷺ، فلمّا رأى القومُ بكاءَ النّبيّ ﷺ بكَوْا، فقال: «ألا تسمَعونَ؟ إنّ اللهَ لا يُعذِّبُ بدَمْع العين، ولا بحُزنِ القلب، ولكنْ يُعذِّبُ بهذا»، وأشار إلى لسانِه[٢].

٣ـ قال رسولُ الله ﷺ: **«ليس منّا مَن لَطَم الخدود، وشَقَّ الجُيوب، ودَعا بدَعوَى الجاهليّة»[٣].**

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾

٧٠ـ قال الإخوةُ لأبيهم سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام: إنّك تَذكُرُ يوسُفَ عليه السَّلامُ دائمًا ولا تتوقّفُ عن البكاء، ونخشَى أن تتدهورَ صحتُك من كثرةِ البكاءِ

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٤٤ برقم ١٣٠٣.

(٢) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٤٥ برقم ١٣٠٤.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٣٦ برقم ١٢٩٤.

والنَّحيب، بل ومنَ الممكنِ أن تتعرَّض للموتِ أيضًا.

إذا أحبَّ اللهُ تعالى قومًا ابتلاهم، وكلَّما عَظُم البلاءُ عَظُم الجزاء. **قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «إنّ عُظْمَ الجزاء معَ عُظْم البلاء، وإنّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتَلاهم، فمَن رضيَ فله الرّضا، ومَن سَخِط فله السُّخْط»**[١]، ولأنّ أَجْرَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ هو الأعظَم، لهذا فإنّ ابتلاءهم يكونُ هو الأعظَمَ أيضًا، سُئل النبيُّ ﷺ: **يا رسولَ الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ، ثم الأمثَلُ فالأمثَل، فيُبتلَى الرجلُ على حسَبِ دينِه، فإنْ كان دينُه صُلبًا اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينِه رِقَّةٌ ابتُليَ على حسَبِ دينِه، فما يَبرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يترُكَه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»**[٢].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

٧١ـ قال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ: إنّني لا أشكو حُزني واضْطِرابي لمخلوقٍ، وإنّما أبُثُّ خالقي الحقيقيَّ حُزني، وأعرِضُ عليه أمري، **«وأعلَمُ من جِهتِه تعالى ما لا تَعلَمونَ من حياةِ يوسُفَ عليه السَّلام»**[٣]. ذاتَ مرَّة **«قال يعقوبُ لمَلَكِ الموت: هل قَبَضتَ رُوحَ يوسُف؟ قال: لا»**[٤].

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

٧٢ـ قال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام: إنّ اليأسَ من رحمةِ الله من سِماتِ الكُفّار، وهو أمرٌ لا يليقُ بالمسلم مهما كانتِ الظُّروفُ تَبعَثُ على اليأس، إذ إنه

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٥٦ برقم ٢٣٩٦.

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٥٦ برقم ٢٣٩٨.

(٣) تفسير روح المعاني.

(٤) ابن أبي حاتم، برقم ١١٩٠٩.

على يقينٍ من أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، يستطيعُ أن يُخرجَه من يأسِه إذا شاء، ولذا فهو يأمُلُ في رحمةِ الله دائمًا، ويواصلُ بَذْلَ كلِّ ما يستطيعُ من جُهد، وبالتالي يا أبنائي، لا تَيْأَسوا من رحمةِ الله تعالى، واذهَبوا لتبحَثوا عن يوسُفَ عليه السَّلام، ولِتُطلِقوا سَراحَ أخيه بِنْيامينَ.

ويُعلَمُ من هذا أنّ سيّدَنا يعقوبَ عليه السَّلام كان على يقينٍ من أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ لا يزالُ على قَيْد الحياة، وأنّ منامَه لا بدَّ أن يتحقّق، وأنّ شَمْلَهم جميعًا سيلتئمُ بعدَ انتهاءِ وقتِ الابتلاء.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

٧٣ـ عندَما وَصَل الإخوةُ إلى مِصرَ بأمرٍ من أبيهم قرَّروا أن يَحُلُّوا مشكلةَ الغِلالِ بالنِّسبةِ لأهل بيتِهم أولًا، ثم بعدَ ذلك يَبذُلونَ محاولاتِهم من أَجْل سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وأخيه بِنْيامين، وهكذا ذَهَبوا إلى عزيزِ مِصرَ مباشرةً، واشتكَوْا إليه مُرَّ الشكوى من المجاعةِ التي ألمَّت بهم، وبأنّهم في ضِيقٍ شديدٍ من العيش، وبأنّهم ـ فوقَ هذا ـ لا يملِكون هذه المرةَ ثمنًا يدفَعونَه للغِلال، وقالوا: نأمُلُ أن تتعطَّفَ علينا، وتقبَلَ منّا ثمنًا قليلًا ندفَعُه، وأن تُعطيَنا مقدارًا أكبرَ من الغِلال، واللهُ تعالى يَجزي المحسنينَ خيرَ الجزاء.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

٧٤ـ عندَما قصَّ إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ أحوالَ المجاعةِ وضِيقَ ذاتِ يدِهم، ذَرَفت عيناهُ عليه السَّلامُ الدُّموعَ، وعندَئذٍ حان وقتُ انكشافِ السرِّ

أيضًا، ولهذا سألَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ إخوتَه بغَرَض تعريفِهم بنفسِه قائلًا: أتَذكُرونَ ماذا فعلتُم بيوسُفَ وأخيه؟ وفي نفسِ الوقت قال محاولًا التقليلَ من نَدمِهم: إنّكم لم تكونوا تَعلَمونَ في ذلك الوقتِ سوءَ هذا الفعل وعاقبتَه، ولهذا وَقَع منكم هذا الخطأُ.

وما أنْ سَمِع إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ هذا السؤالَ حتى شَعَروا أنّ الأرضَ كادت تنشَقُّ وتبلَعُهم خَجَلًا، ولمَّا نَظَروا إلى سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وتمعَّنوا فيه جيِّدًا، عَرَفوا ملامحَ أخيهم يوسُفَ عليه السَّلام في وجهِ عزيزِ مِصرَ، فسألوهُ في حَيْرةٍ ودهشة: ألستَ أنت يوسُفَ عليه السَّلام؟ قال: نَعَمْ أنا يوسُف، وهذا أخي بِنْيامين، ولا فَضْلَ لي في ذلك، وإنّما الفَضْلُ من الله تعالى الذي نَجّاني، ثُم جَعَلَني على حُكم مِصرَ، والآنَ جَمَعَني بإخْوتي، والله تعالى لا يضيعُ أَجْرَ المصالحين.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾

٧٥ـ وفي نهايةِ الأمرِ خَجِل الإخوةُ كثيرًا، واعترفوا بالحقيقةِ قائلين: لا شكَّ أنّ اللهَ تعالى قد فَضَّلَك علينا، ونحن يقينًا مخطئون، لهذا سامِحْنا واعْفُ عنا.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

٧٦ـ قال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ لإخوتِه: أنا لا أَلُومُكمُ اليومَ على شيء، وإنّما أعفو عنكم، وأدعو اللهَ تعالى أن يغفرَ لكم أيضًا.

وبعدَ ذلك سأل سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ إخوتَه عن أحوالِ والدِه سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام، فقالوا له: إنّ والدَك قد فَقَد بصَرَه من كثرةِ بكائه حُزنًا على فِراقِك. فقال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام: خُذوا قميصي هذا، واذهَبوا به إلى أبي، وألقُوه على وَجْهِه، وسيعودُ إليه بصَرُه، ثم ائتوني بكلِّ أهلِكم في مِصرَ هنا، حتى نجتمعَ سوِيًّا، ونستفيدَ بنِعَم الله تعالى، ونشكُرَه عليها.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾

٧٧ـ عندَما أخَذ إخوةُ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ قميصَه وغادَروا مِصرَ، قال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام لأهل بيتِه: لولا أنْ تظُنُّوا بي خَرَفَ الشَّيخوخةِ لَقُلتُ لكم: إنّني اليومَ أشُمُّ رائحةَ يوسُفَ عليه السَّلام! فقال أهلُ بيتِه: أنك تَحلُمُ بيوسُفَ عليه السَّلامُ دائمًا في منامِك، معَ أنه قد مات منذُ فترةٍ طويلة، ولا نَدري متى تُخرج خيالَ يوسُفَ عليه السَّلام من قلبِك.

كان سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ في بئرٍ قريبٍ من البيت، ثم استقرَّ به المقامُ في مِصرَ، ولم يشُمَّ سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ رائحةَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ

حينَذاك؛ لأنّ الصَّبرَ على الأزَماتِ هو أفضَلُ سلاح، وحينَ أوشَكَتْ ساعةُ الابتلاءِ على الانتهاء، وأخَذ أبناؤه قميصَ أخيهم سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وتوجَّهوا إلى مِصرَ، حينَئذٍ شَمَّ سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام رائحةَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

٧٨- عندَما وَصَلت قافلةُ الأبناءِ إلى البيت، وبشَّروا سيّدَنا يعقوبَ عليه السَّلامُ بِبُشْرى سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وألقَوْا قميصَه على وَجْهِ أبيهم، عاد إليه بَصَرُه على الفَوْر، فسألَهم سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام: كيف حالُ يوسُفَ عليه السَّلام؟ فقال الأبناء: إنه مَلِكُ مِصرَ! فقال: ماذا أفعَلُ إن كان مَلِكَ مِصر؟ أخبِروني: على أيِّ دينٍ هو؟ (كان الهدَفُ هو إخبارَ الأبناءِ أنّ السُّلطةَ لا تساوي شيئًا في مقابل الإسلام)، فقال الأبناء: هو على ديـن الإسلام. فقال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام: الآنَ تمَّتِ النِّعمة[١]، وعليه شَكَر سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ اللهَ تعالى، وقال لأبنائه: ألم أقُلْ لكم: إنّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لا يزالُ حيًّا فابحَثوا عنه؟ لكنَّكم لم تكونوا تُصدِّقونَ ما أقول. فقال الأبناء: يا أبانا العزيز، لقد كنتَ على حقٍّ تمامًا، وكنّا نحن المخطئين، ونحن نادمونَ على ما فعَلْنا، ونتوبُ إلى الله، فادْعُ اللهَ أنت أيضًا أن يغفرَ لنا ربُّنا. وهكذا قال سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ لأبنائه: إنه سيَدعو اللهَ لهم بالمغفرةِ وقتَ السَّحَرِ من ليلةِ الجمُعة[٢]؛ لأنّ اللهَ تعالى يَقبَلُ الدُّعاءَ في ذلك الوقتِ بصفةٍ خاصّة.

---

(١) «لما جاء البشير وألقى قميص يوسف على وجه يعقوب، فعاد بصيرًا بعد ما كان أعمى، وقال للبشير: كيف يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك، على أيِّ دين تركته؟ قال:على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة». التفسير المظهري، وتفسير ابن أبي حاتم، برقم ١١٩٧٩.

(٢) «أخّر دعاءه إلى سحر ليلة الجمعة». القرطبي.

وهكذا، بعدَ أنْ فَرَغ سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلامُ من صلاتِه عندَ السَّحَر، رَفَع يدَيْه إلى عِنانِ السَّماءِ داعيًا اللهَ تعالى بقولِه: يا إلهي، لقد كنتُ مضْطَرِبًا وقليلَ الصَّبر في أمرِ يوسُفَ عليه السَّلام، فاغفِرْ لي ذلك، واغفِرْ لأبنائي سوءَ سُلوكِهم معي ومعَ يوسُفَ عليه السَّلام، فأرسَلَ اللهُ تعالى إليه الوَحْيَ أنْ قد غفَرتُ لكَ ولأبنائك(١).

ويُعلَمُ من هذا أنّ الاستفادةَ من تبرُّكاتِ المشايخ في طلَبِ الشِّفاءِ للمرضى، أو طلَبِ الدُّعاءِ بالمغفرةِ منهم، أمرٌ جائز، ولو لم يكنْ طلبُ الدُّعاءِ بهذا الشَّكل جائزًا لَما قَبِلَ اللهُ تعالى دعاءَ سيِّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام في حقِّ أبنائه.

الدعاء بالمغفرة:

١ـ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «إنّ الرّجُلَ لَتُرفَعُ درجتُه في الجنّة فيقول: أنَّى هذا؟ فيقال: باستغفارِ وَلَدِك لك»(٢).

٢ ـ قال رسولُ الله ﷺ فيما رَواه سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: **«ما من أربعينَ من مؤمنٍ يشفعونَ لمؤمنٍ إلّا شفَّعَهم الله»(٣).**

٣ـعن أنسِ بن مالكٍ يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أُمّتي أُمّةٌ مرحومة، مُتابٌ عليها، تَدخُلُ قبورَها بذنوبِها، وتَخرُجُ من قبورِها لا ذنوبَ عليها، تَمحَّصُ عنها ذنوبُها باستغفارِ المؤمنينَ لها»(٤).

---

(١) «فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عزّ وجلّ ثم قال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين». التفسيرالمظهري.

(٢) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.

(٣) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ١٩ برقم ١٤٨٥.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني، ٣: ٥٢٣ برقم ١٩٠٠، ومجمع الزوائد، ١٠: ٦٩.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

٧٩ـ أعطَى سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ إخوتَه مائتَيْ جَمَل منه، وقال لهم أنْ قولوا لسيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام أنْ يَحمِلَ على هذه الجِمال أبناءه وأحفادَه وكلَّ أفرادِ عائلتِه ويأتيَ إلى مِصرَ[١]، وحينَ عَلِم سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ باقترابِ قافلةِ عائلتِه من مِصرَ، خَرَج لاستقبالِهم بجيشٍ كبير خارجَ المدينة، وقرَّبَ والدَيْه (أباهُ وزوجةَ أبيه) إليه وعانقَهما قائلًا: ادخُلوا معَنا مِصرَ، وإن شاء اللهُ تقيمُ هنا في أمنٍ وسَلام؛ لأنّ عهدَ الفِراق وزمنَ المجاعةِ قدِ انتهَى الآنَ، وحينَ «**خَرَج يعقوبُ إلى يوسُفَ بمِصرَ في اثنينِ وسبعينَ من وَلَدِه ووَلَدِ وَلَدِه فخَرجوا منها معَ موسى وهم ستُّمائةِ ألفٍ**»[٢].

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

٨٠ ـ اصْطَحَب سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام أفرادَ عائلتِه ودَخَل بهم مِصرَ، فأجلسَ والدَيْه على العرش، وحينَئذٍ سجَدَ الوالدانِ والإخوةُ لسيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام سجدةَ تعظيم، وقد كانت جائزةً في الشرائع السابقة[٣]، فقال سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ لوالدِه: هذا هو تفسيرُ تلك الرُّؤيا التي أخبَرتُك بها في طفولتي، وقد حقَّقها اللهُ تعالى صِدقًا بعدَ أربعينَ عامًا[٤]، وهذا فضلٌ منَ الله تعالى أنْ نَجّاني

---

(١) «إنّ يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازًا وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعًا». القرطبي.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، برقم ١١٩٨٨.

(٣) «سجد له أبواه وإخوته الباقون، وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له». تفسير ابن كثير، سورة يوسف (١٢): الآية ١٠٠.

(٤) «كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة». تفسير ابن كثير، سورة يوسف (١٢): الآية ١٠٠.

من السِّجن، وأتَى بكم من فِلَسطينَ إلى مِصرَ، معَ أنّ الشيطانَ كان قد زَرَع الفُرقةَ بيني وبينَ إخوتي، لكنّ اللهَ تعالى يتفضَّلُ على مَن يشاء.

هذا، وقد «**أقام يعقوبُ عليه السَّلامُ عندَ ابنِه يوسُفَ عليه السّلامُ أربعًا وعشرينَ سنةً، وحَضَره الموتُ، فوصَّى يوسُفَ عليه السّلامُ أن يَحمِلَه ويدفِنَه عندَ أبيه، فمضَى بنفسِه ودَفَنه ثَمّةَ، ثم عاد إلى مِصرَ، وأقام بعدَه ثلاثًا وعشرينَ سنة**»[١].

بعدَ وفاةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام اختَلفَ أهلُ مِصرَ فيما بينَهم اختلافًا شديدًا على مكانِ دفنِه، وكلُّ قبيلةٍ أرادت أن يُدفَنَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام في حيِّها، لكي يتبرَّكوا بقبرِه، وفي النِّهاية اتَّفقوا على أن يُدفَنَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ في نهرِ النِّيل، حتى تلامسَ المياهُ قبرَه في جَرَيانِها، فتحُلَّ البركةُ بهذا الشَّكل على الناسِ جميعًا، وهكذا وَضَعوا جُثمانَه في صندوقٍ من حَجَرِ المَرْمر، ودفَنوهُ في نهرِ النِّيل، وظلَّ مدفونًا هناك إلى أنْ خَرَج سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ببني إسرائيلَ من مِصرَ، فأَخْرج الصُّندوقَ من نهرِ النيل واصْطَحَبه معَه إلى فِلَسطين، ودَفَنه بالقربِ من والدِه سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام[٢].

وبعدَ وفاةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام استَوْلتْ قبيلةُ العمالقةِ على حُكم مِصر، ولُقِّب كلُّ منِ اعتلَى العرشَ بعدَ ذلك بلقبِ فِرعَوْن، وقدِ استَعبَدَ فرعَونُ بني إسرائيلَ في مِصرَ باعتبارِهم أجانبَ من خارجِ البلاد، وأَنْزل بهم ظُلمًا كبيرًا ومتنوِّعًا، وفي نهايةِ الأمر نجَّى اللهُ تعالى بني إسرائيلَ من فرعَوْنَ على يدِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام.

---

(١) التفسير المنير، سورة يوسف (١٢): الآية ١٠٠.

(٢) «فلما احتضر يوسف، أوصى إلى يهوذا، ومات، فتَشَاحَّ الناس في دفنه، كل يحبّ أن يدفن في محلّته رجاء البركة، فاجتمعوا على دفنه في النيل ليمر الماء عليه ويصل إلى الجميع، فدفنوه في صندوق من رخام، فكان هنالك إلى أن حمله موسى حين خرج من مصر ودفنه بأرض كنعان». تفسير زاد المسير.

كان لقبَ سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلامُ هو إسرائيلُ (عبدُ الله)، ولهذا فإنّ أولَ أنبياءِ بني إسرائيلَ هو سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام، وآخِرُ أنبيائهم هو سيّدُنا عيسى عليه السَّلام.

وقد زارَ هذا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى ضَريحَ كلٍّ من سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وضريحَ سيّدِنا إسحاقَ عليه السَّلام، وضريحَ سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام، وضريحَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ بمدينةِ الخليل بأرضِ فِلَسطين يومَ السبت ٢٧ يناير عام ٢٠٠١م.

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

٨١ ـ هذه هي آخِرُ آيةٍ في هذه السُّورة تتعلَّقُ بقصّةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وهي التي دَعا فيها سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ اللهَ تعالى بدعاءٍ يستحِقُّ التأمُّلَ والتدبُّر، فتعالَوْا بنا نتعلَّمْ طريقةَ الدُّعاءِ من هذا النبيِّ العظيم، فماذا طلبَ سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام من اللهِ تعالى بعدَ أنْ جلسَ على عرشِ مِصرَ، وكيف طلَبَه؟

باديءَ ذي بَدْءٍ اعترَف سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام بأفضالِ الله عليه أنْ يا الله، لقد أعطيتَني عرشَ مِصرَ، وعلَّمتَني تأويلَ الأحلام. ثم بعدَ ذلك أظهَرَ عَجْزَه وتواضُعَه قائلًا: إنك أنت وليّي، ولو لم تتفضَّلْ علَيّ لَكنتُ قد فَقَدتُ حياتي في البئر، يا إلـهي، مثلَـما أحسَنْتَ إليّ من قبلُ، وثبِّتْ قدميَّ على الإسلام، أدعوكَ اليومَ بأن تُقيمَني دائمًا على الإسلام، وتَحفظَ استقامتي عليه ما بَقِيتُ حيًا، وارزُقْني مَعِيّةَ الصّالحينَ بعدَ الموت، واجمَعْني بآبائي وأجدادي.

يا إلهي، هذا الفقيرُ إليك، محمَّد إمْداد حُسَين بيرزَادَه، يعترفُ باديءَ ذي بَدْءٍ بفضلِك وإحسانِك، فأنت الذي خلقتَني من بني الإنسان، ولو شئتَ لَخلقتَني حيَوانًا

من الحيَوانات، ثم إنك خَلقتَني في بيتٍ وأسرةٍ مسلمة، حيث سَعِدتُ بالإسلام وشَرُفتُ به منذُ طفولتي، ثم إنّك أنعَمْتَ علَيّ بالصِّحةِ والثروةِ والأولادِ وعِلم دينِك الحبيب، ورَغْم أنّني لم أستطعْ أن أؤدِّيَ حقَّ شُكرِ هذه النِّعم كلِّها كما ينبغي، لكنّك معَ ذلك لم تقطَعْ عنّي سلسلةَ رحمتِك وفَضْلِك وكرمِك، فأنت ـ باليقين ـ أكرُم الأكرِمين، وأنتَ وليّي، ولا وليَّ لي غيرُك، وأعظَمُ أُمنياتي ودُعائي هو أن تَحفَظَ عبدَكَ المسكينَ هذا مستقيمًا على دينِك الحَبيبِ الإسلام طالما بقيَ حيًّا، وأن تُنعمَ عليَّ بعدَ الموتِ بصُحبةِ نبيِّك الكريم ﷺ وآلِه الأطهار وأوليائك الكرام رحمةُ الله عليهم جميعًا، وأن تَجمَعَ أولادي وأهلي وأقاربي وأصدقائي وأحبابي وأساتذتي وطُلّابي والقائمينَ على أمرِ جامعةِ الكرَم، والهيئةِ الخَيْريّة الإسلاميّةِ وكلَّ مَن يُحبُّني رجالًا ونساءً معَ الصّالحينَ يا ربَّ العالَمين، آمينَ، ثم آمين.

لا ينبغي أن يَفهَمَ أحدٌ من هذه الآيةِ على سَبيل الخطأِ أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلام يدعو بالموتِ أبدًا، فالدعاءُ بالموتِ ليس جائزًا في الإسلام، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «**لا يتمنّى أحدُكمُ الموتَ إمّا مُحسِنًا فلعلّه يزداد، وإمّا مُسيئًا فلعلّه يَستعتِب**»[1].

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾

٨٢ ـ أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، حين كان إخوةُ يوسُفَ عليه السَّلام يَمكُرونَ بأبيهم، ويتآمَرونَ ضدَّ يوسُفَ عليه السَّلام، لم تكنْ أنت معَهم في ذلك الوقت، ولهذا فإنّ هذه القصّةَ من أخبارِ الغَيْبِ الذي نُوحيه نحن إليك، ويَثبُتُ من هذا أنّ الوحيَ قد نَزَل من اللهِ تعالى عليك، وأنك نبيُّ الله، وأنّ اللهَ يُطلِعُك على الغيب.

(١) البخاري، كتاب التمني، باب ٦ برقم ٢٣٥.

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾

٨٣ استفسرتْ قُريشٌ واليهودُ من النبيّ ﷺ عن قصّةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السّلام وإخوتِه؛ لأنّ أهلَ قُريشٍ كانوا يَعلَمونَ أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ لم يُطالعْ كتابًا، ولم يَتَتَلْمَذْ على يدِ أحدٍ أبدًا، ولهذا منَ المؤكّدِ أنه لا يَعرفُ هذه القصّةَ، ولكنْ حينَ أخبرَهم النبيُّ ﷺ بالقصّةِ تفصيلًا إلى الحدِّ الذي لا يوجَدُ في التوراةِ أيضًا، كان ينبغي لهم عدلًا وإنصافًا أنْ يؤمنوا به ﷺ، ولكنْ حينَ لم يؤمنوا به، وأحزَنَ ذلك النبيّ ﷺ، أَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ تسريةً عن قلبِه[1]، يعني: أنّ أكثرَهم لن يؤمنَ بسببِ التعصُّبِ والعِناد، ولهذا لا تحزَنْ ولا تغتمّ بسببِهم.

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

٨٤ ـ القرآنُ الكريمُ نصيحةٌ وخيرٌ لكلِّ الناس، وما أدعوكم إليه بالقرآنِ بكلِّ جدٍّ ونشاط، لا أتقاضَى منكم أَجْرًا عليه، وإنّما أمنيتي هي أن تأخُذوا النَّصيحةَ من القرآنِ الكريم.

وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ

---

(١) «إن قريشًا واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحًا شافيًا، وهو يؤمّل أن يكون ذلك سببًا لإسلامهم فخالفوا ظنّه، فحزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعزّاه الله تعالى بهذه الآية». تفسير زاد المسير.

أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

٨٥ ـ يعني: أنّ كُفّارَ مكّةَ لا يسمَعونَ لدعوتِك المُحِبّة، ليس هذا فقطْ، وإنّما حالُهم هو أنهم يشاهدونَ كلَّ يوم آياتٍ لا حَصْرَ لها على قُدرةِ الله في السَّماء والأرض، ولكنّهم لا يتدبَّرونَ فيها، ويمُرُّونَ عليها مُعرِضينَ عنها، وهذا هو السببُ في أنّ أكثرَهم لا يؤمنون، وإنْ آمَنوا به أشركوا معَه عبادةَ الأصنام.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

٨٦ ـ يعني: أنّ الذين لا يؤمنونَ بتوحيدِ الله تعالى، ويعمَهونَ في شِركِهم، لا يخافونَ يومًا يأتيهم العذابُ فيه منَ الله تعالى، أو أن تقومَ السّاعةُ بَغْتةً، وحينَئذٍ ماذا سيفعلون؟ وكيف سيَنْجَوْنَ من عذابِ الله تعالى؟

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

٨٧ ـ قال النبيُّ ﷺ لكُفّارِ مكّةَ بأمرٍ من الله تعالى: سواءٌ اعترفتُم بالتوحيد أم لا، فإنّ إيماني بتوحيدِ الله تعالى راسخٌ تمامَ الرُّسوخ، وهدف حياتي هو الدَّعوةُ إلى توحيدِه عزَّ وجلَّ، وأنا ومنِ اتَّبعني نؤمنُ باللهِ تعالى بكلِّ بصيرةٍ ويقين، وهو سبحانَه وتعالى مُنزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

٨٨ ـ كان كُفّارُ مكةَ كثيرًا ما يعترضونَ قائلينَ بأنه إذا كان اللهُ تعالى مُرسِلًا

رسولًا بالفعل، لكان قد أرسَلَ ملاكًا من عندِه، ومحمّدٌ ﷺ هذا بشَرٌ مِثلُنا، فكيف يكونُ نبيًّا؟ فقال اللهُ تعالى ردًّا على هذا: إنّ الأنبياءَ الذين أرسَلْناهم من قبلُ لم يكنْ من بينِهم ملاكٌ واحد، وإنّما كانوا جميعًا رجالًا يسكنونَ القُرى والبلاد.

ألم يسافرْ أولئك الناسُ في الأرضِ أبدًا؟ لأنّهم إن رأَوْا أطلالَ قوم عادٍ وثمُودَ وغيرِهما، لَعلِموا أنّ الأُممَ التي كَفَرت بالأنبياءِ عليهم السَّلامُ من قبلُ، كيف كانت عاقبتُهم أليمةً، وعندَئذٍ يعتبِرونَ منهم، ويتّقونَ اللهَ تعالى، ومن المؤكَّد أنّ مَن يتَّقي اللهَ تعالى له أفضلُ عاقبةٍ في الآخِرة، أليس لدى هؤلاءِ عقلٌ يُدرِكُ أنّ هذه الحياةَ الدُّنيا ليست سوى بضعةِ أيام من الراحة، فكيفَ يفضِّلونَها على النَّعيم الدائم في الآخِرة؟

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ المرأةَ لا يمكنُ أن تكونَ نبيًّا، ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الموضوع يمكنُ الرجوعُ إلى الحاشية رقم **٢١** والآيةِ رقم **٤٢** من سُورة آل عِمران (**٣**).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

٨٩ ـ حين أصرَّ الكُفّارُ على كُفرِهم رَغْمَ دعوتِهم إلى الحقِّ سنينَ طِوالًا، يئسَ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ من أن يؤمنوا، وظنَّ الكُفّارُ أيضًا من جانبِهم أنّ العذابَ الذي يتوعَّدُنا به هؤلاءِ فيما لو لم نؤمنْ بهم سيَحُلُّ بنا، ليس صحيحًا، وها نحن لم نؤمنْ، ولم ينزِلْ بنا العذابُ، ولهذا فإنّ كلَّ هذه التهديداتِ كاذبةٌ، ولن يَنزلَ علينا العذابُ أبدًا.

والحقيقةُ أنهم فَهِموا هذا الفهمَ الخاطئَ بسببِ تأخيرِ نزولِ العذابِ عليهم، ولكنْ في تلك الأثناءِ انتهَتِ المُهلةُ التي أعطاها اللهُ لهم، وتحقَّق ما قاله الأنبياءُ

الكرامُ عليهمُ السَّلام، وسَلَّط اللهُ العذابَ على القوم المجرمين، ونَجَّى اللهُ تعالى أنبياءه الكرامَ عليهمُ السَّلامُ ومنِ اتَّبعوهم.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

٩٠ـ في قصّةِ سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام والأحداثِ التي حَدَثت له معَ والدَيْه وإخوتِه عبرةٌ ونصائحُ كثيرةٌ لأهل العقول، كما أنّ الأسلوبَ الرائعَ الذي قَصَّ به القرآنُ الكريمُ هذه القصّةَ، لم تَرِدْ في أيِّ كتابٍ من قبلُ، وهذا دليلٌ بيِّنٌ على أنّ القرآنَ الكريمَ ليس من تأليفِ إنسان، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، ويُصدِّقُ ما جاء في الكتُبِ السابقة، ويفصِّلُ كلَّ أمرٍ ضروريٍّ، وهو هدايةٌ ورحمةٌ للناسِ جميعًا، لكنْ يستفيدُ به فقطْ أولئك الذين يؤمنونَ به.

الفقيرُ إلى الله:

محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده

بدَأ تفسيرُ سورةِ يوسُفَ يومَ الأربعاء ٢٠ ديسمبر عام ٢٠٠٦م، الموافقَ ٢٨ ذي القَعْدة عام ١٤٢٧هـ، واكتَمل في ثلاثينَ يومًا بعدَ صلاة عشاءِ اليوم الخميس ١٨ يناير عام ٢٠٠٧م، الموافقِ ٢٨ ذي الحجة عام ١٤٢٧هـ

والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٣) سورة الرعد

هذه السُّورةُ مكِّية، ونَزَلت بعضُ آياتِها بعدَ الهجرة، ولهذا يَعتبِرُها البعضُ سُورةً مَدنيّة، واسمُها «الرَّعدُ» لأنّ لفظَ «الرَّعدِ» قد استُعمِل فيها.

في هذه السُّورةِ جاء إثباتُ التوحيدِ والنُّبوةِ والآخِرة بطُرُقٍ مختلفة، وجاء فيها كذلك إبطالٌ لكلِّ الشُّبُهاتِ فيما يتَعلَّقُ بهذه الأمورِ كلِّها.

وفي الآية رقم ١١ بيَّن اللهُ تعالى المبدأَ الرئيسَ في تقدُّم الأُمم وانحطاطِها وزوالِها، وهو: أنّ الأُممَ التي تُحاسِبُ نفسَها، وتبتعدُ عن الشرّ، وتسيرُ على طريقِ الخير، هي الأُممُ التي تحقِّقُ النّجاح، ثم جاء في الآيةِ رقم ١٧ أنّ البقاءَ والاستحكامَ يكونُ من نصيبِ تلك الأُمّةِ التي تنفَعُ الناسَ، وعندَما تُحرَمُ أُمّةٌ من هذه الصِّفة يُطِلُّ الاختلافُ والإحساسُ بالحِرمانِ برأسِه بينَ الناس، وبهذا يبدأُ زوالُ هذه الأُمّة.

لقد جَعَل العِلمُ والتكنولوجيا حياةَ الإنسانِ في أيّامِنا هذه سهلةً ومُريحةً بحيث لم يكنْ أحدٌ قبلَ مائةِ عام يتصوَّرُ كلَّ هذا التطوُّرَ، ولكنّ الإنسانَ ـ بالرَّغْم من هذا ـ قلقٌ مُضْطَرِب، ويلجَأُ إلى الخمرِ والمخدِّرات لتحقيقِ الاطمئنانِ الذهني، وقد جاء في الآيةِ رقم ٢٨ من هذه السُّورة أنّ الاطمئنانَ الأبَديَّ للقلوبِ والسَّكِينةَ الدائمةَ لها تكونُ في ذِكرِ الله تعالى.

وفي الآيةِ الأُولى من هذه السُّورة قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ: إنّ هذا

القرآنَ حقّ، أَنْزلَه اللهُ عليك، وفي الآيةِ الأخيرةِ من السُّورة قال له: لا تحزَنْ ولا تغتمَّ إذا جَحَدك كُفّارُ مكّة وأنكَروك، إذْ تكفيكَ شهادتي على صِدقِك يا رسولَ الله ﷺ.

الثلاثاء ٢٣ يناير ٢٠٠٧م
الموافق ٣ محرَّم الحرام عام ١٤٢٨هـ

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزَاده

❊ ❊ ❊

سُورَةُ الرَّعْدِ (١٣)،

مدنية (٩٦)، آياتها (٤٣)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

﴿الٓمٓر﴾

١- هذه حروفٌ مقطَّعة، وهي سرٌّ بينَ اللهِ تعالى وحبيبِه النبيِّ الكريم سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٢ـ هذه آياتُ ذلك الكتابِ الذي أَنْزلَه اللهُ تعالى، وهذا الكتابُ حقٌّ، ولا مجالَ للشكِّ فيه، لكنّ أكثرَ أهلِ مكّةَ لن يؤمنوا بأنه منَ الله تعالى[1]، فهم لا يؤمنونَ أصلًا بالله تعالى، فكيف يؤمنونَ بالقرآن؟ ولهذا جاء في الآياتِ التالية التعريفُ بالله تعالى حتّى يؤمنوا به.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

٣ـ رَفَع اللهُ تعالى السّماواتِ بغيرِ عَمَد، وجَعَل للشمسِ والقمرِ نظامًا لا يتعدَّيانِه، ويَسيرانِ وفقًا له، واللهُ تعالى مُسْتوٍ على العرشِ بما يليقُ بشأنِه، وهو ما لا نَعلَمُ حقيقتَه، إلّا أنّ القصدَ هو أنّ المالكَ الحقيقيَّ والحاكمَ الأوحَدَ لهذه الكائناتِ هو اللهُ تعالى، ونظامُ الكائناتِ كلِّها يسيرُ بتدبيرِه هو، وهذه كلُّها آياتٌ بيِّناتٌ على توحيدِه وقدرتِه، حتى تتيقَّنوا من وجودِ الآخِرة، بمعنى: أنه كما أنّ اللهَ تعالى خَلَق هذه الكائناتِ غيرَ المحدودة، ويُسيِّرُ نظامَها العجيبَ، سيُفْني هذه الكائناتِ أيضًا، ويحييها من جديدٍ، حيث سنَمثُل جميعًا في حَضْرتِه سبحانَه وتعالى، ويحاسبُنا على أعمالِنا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾

٤ـ هنا بيانٌ للأدِلّة الأرضيّةِ بعدَ أن بيَّن الأدلةَ السَّماويةَ، يعني: أنّ اللهَ تعالى مدَّ الأرضَ حتّى تسيروا فيها، وتُقيموا عليها، وخَلَق الجبالَ حتّى تحصُلوا منها على المعادِن، وجَعَل الأنهارَ لكي تَرْووا مزروعاتِكم بالماء، وأخفَى ضوءَ النهارِ

(١) ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: إما أهل مكّة، أو على العموم. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بأنه من عند الله». التفسير المنير.

باللَّيل حتى تستريحوا. على أيِّ حال، الآياتُ على وَحْدانيّةِ الله تعالى وقُدرتِه موجودةٌ في كلِّ هذه الأشياء، ومن يتدبَّرْ فيها ويتأمَّلْها يؤمنْ بالله تعالى.

وليس معنى مدِّ الأرض أنّ الأرضَ مُفَلْطَحةٌ، وإنّما الأرضُ مستديرةٌ كالكُرة، وقد قال الإمامُ الرازي رحمَه اللهُ تعالى في هذا الأمر قبلَ **٨٢٨** عامًا من اليوم[١]، - أي: عام ٦٠٠هـ - «**إنّه ثَبتَ بالدّلائل أنّ الأرضَ كُرةٌ**»[٢]، وحين تكونُ الكُرةُ كبيرةً يبدو سطحُها مُفَلْطحًا[٣]، ولأنّ الكُرةَ الأرضيّةَ كبيرةٌ جدًّا، ويبدو سطحُها مُفَلْطَحًا من كلِّ اتجاه، لهذا استَعمَلَ اللهُ تعالى لفظَ ﴿مَدَّ﴾ باعتبارِ الشَّكل الظاهريِّ لا أكثر.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾

٥- في الفواكهِ أيضًا زوجان، أي: الذَّكرَ والأُنثى[٤]، وهذه حقيقةٌ لم يكنْ أحدٌ يَعرِفُها قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام، ولهذا منَ الضَّروريِّ شرحُها هنا، ولمزيدٍ من التفصيل راجعْ دائرةَ المعارفِ البريطانيّة.

الخلية الذكرية والخلية الأنثوية:

يوجَدُ الذَّكَرُ والأُنثى في الإنسانِ وفي الحيَواناتِ الأخرى، ويولَدُ الصِّغارُ من الفعل الجِنسيِّ باجتماع الذَّكَرِ والأُنثى، وقد أَثْبت العلماءُ الألمانُ والإيطاليُّونَ في القرنِ التاسعَ عشَرَ أنه يوجَدُ في النباتاتِ ذَكَرٌ وأُنثى مثلَما هو موجودٌ في الإنسان، وطالما لم تلتقِ الخَليّةُ الذَّكَريّةُ بالخَليّةِ الأُنثَويّةِ لا تتكوَّنُ البِذرةُ ولا الثَّمرة.

---

(١) المقصود باليوم: اليوم الذي كان يكتب فيه تفسير هذه الآية، ولا اليوم الذي ترجمت فيه. (المترجم)

(٢) التفسير الكبير.

(٣) «والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كلّ قطعةٍ منها تشاهد كالسّطح». التفسير الكبير.

(٤) «جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكرًا وأنثى». صفوة التفاسير.

عملية التلقيح:

حين تكبَرُ النَّبتةُ تُزهر، وفي أزهارِها تكونُ الخلايا الذُّكوريّةُ والخَلايا الأُنثَويّةُ مثلَ ذرّاتٍ صغيرةٍ دقيقة، وفي الأزهارِ توجَدُ الخلايا الذُّكُوريّةُ فقطْ، حيث تيبَسُ بعدَ فترةٍ وتتساقط، ولا يَنتُجُ عنها ثمار، بينَما في بعضِ الأزهارِ توجَدُ الخلايا الأُنثَويَّةُ فقط، وفي البعض الثالثِ توجَدُ الخَلايا الذُّكُوريّةُ والأُنُثَويّةُ معًا، ويقالُ للخَليّةِ الذُّكوريّة (اللُّقاح: Pollen)، ويطلَقُ على عمليّةِ انتقال اللُّقاح إلى الخليّةِ الأُنثَويّة هذه في اللّغة العربية (التلقيح: Pollination)، فإذا كان التلقيحُ في زهرةٍ واحدة، أو في أزهارِ شجرةٍ واحدة، أُطلِقَ على هذه العمليّة (التلقيحُ الذّاتي)، وإن كان في أزهارِ شجرتَيْنِ أُطلِق عليها (التَّلاقُحُ).

للتلقيح طريقتان:

١ـ **عن طريقِ الطُّيورِ والنَّحل**: حين تَحُطُّ الطُّيورُ والنَّحلُ على الأزهار، تَعلَقُ اللُّقاحاتُ بريشِها وأجسادِها، ثم حين تَحُطُّ هذه الطُّيورُ نفسُها بعدَ ذلك فوقَ أزهارٍ من نفسِ النَّوع، تلتقطُ الخلايا الأُنثَويّةُ اللُّقاحاتِ من ريشِها وأجسادِها.

٢ـ **عن طريقِ الهواء**: تيبَسُ اللُّقاحاتُ وتتطايَرُ في الهواءِ في شكلِ ذَرّاتٍ صغيرة، وحين يَمُرُّ الهواءُ على أزهار، تلتقطُ الخَلايا الأُنثَويّةُ فيها من هذه اللُّقاحاتِ ما هو من نفسِ نوعِها.

وكلُّ نباتٍ يُنتجُ مئاتِ الآلاف من اللُّقاحات، وعلى سَبيل المثال: تُنتجُ نبتةُ الذُّرة عشرينَ مليونًا من اللُّقاحات، بمعنى: أنّ نبتةً واحدةً من الذُّرة الذُّكوريّةِ تكفي لتلقيح حقولِ الذُّرةِ في مدينةٍ بأَسْرِها.

ويتطايَرُ في الهواءِ مئاتُ الألوفِ من هذه اللُّقاحات، والتي تكونُ في بعض الأحيانِ سببًا في انتشارِ الأمراضِ الوَبائيّة مثلَ: (حُمَّى القَشّ)، وكلُّ زهرةٍ تلتقطُ اللُّقاحاتِ التي من نوعِها فقطْ، مثلَما يلتقطُ المِغناطيسُ الحديديُّ كلَّ ما هو حديديٌّ مِثلُه، لكنّه لا يلتقطُ الخشَبَ، وبنفسِ الطريقة فإنّ موجاتِ البثِّ التلفزيونيِّ كلَّها تكونُ في الأثير، لكنّ جهازَكَ التلفزيونيَّ يلتقطُ موجاتِ بثِّ القناةِ التي تضغَطُ زِرَّها فقط، ويَعرِضُها على الشاشة.

نَخلُصُ من هذا التفصيل إلى نتيجتَيْنِ:

١ـ الذُّكوريّةُ والأُنـثَويّةُ موجودتانِ في النَّبات، ويَنتُجُ عن فعلِهما الجِنسيِّ البذورُ والثمار.

٢ـ الهواءُ إحدى وسائلِ هذا الفعلِ الجِنسيِّ، وقدِ اكتُشِفت هذه النَّظريّةُ في القرنِ التاسعَ عشَرَ الميلاديِّ، ولم يكنْ أحدٌ قبلَ ذلك يتصوَّرُ أنّ في النباتاتِ أيضًا ذكورةً وأُنوثةً، لكنّ القرآنَ المَجيد قال عن النباتاتِ قبلَ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزمان:

١ـ ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

٢ـ ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الرعد: ٣].

٣ـ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

٤ـ ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]: «**ثم يَبعَثُ اللَّواقحَ فتُلقِحُ الشَّجر**»[١].

وهكذا، فإنّ النتيجةَ التي وَصَل إليها العِلمُ بعدَ آلافِ التجارِب، أعلَنَها القرآنُ الكريمُ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام، فأَثْبتَ ـ بذلك ـ أنه ليس من كلام البشَر،

(١) تفسير القرطبي.

وإنّما هو كلامُ اللهِ تعالى الخالقِ الحقيقيِّ للسَّماواتِ والأرض والكائناتِ جميعًا؛ لأنه لم يكنْ في ذلك الوقتِ أيُّ عالَم تجريبيٍّ على وَجْهِ الأرض يَعلَمُ أنّ الهواءَ يكونُ سببًا في التلقيح في النَّباتات.

التلقيح في النخيل ومشورة النبي ﷺ:

يقولُ سيّدُنا رافعُ بن خَدِيج رضيَ اللهُ عنه: **قَدِم نبيُّ الله ﷺ المدينةَ وهم يَأبُرونَ النَّخلَ، يقولون: يُلقِّحون النَّخْلَ** (أي: يُلقِّحونَ النَّخلَ الأُنثَويَّ بالنَّخل الذَّكَريِّ) **فقال: «ما تصنَعون؟». قالوا:** كنّا نصنَعُه **قال: «لعلّكم لو لم تفعَلوا كان خيرًا»، ـ فتَرَكوهُ، فنَفِضَت أو فنَقَصَت ـ قال ـ فذَكَروا ذلك له فقال: «إنّما أنا بشَرٌ** (أي: لستُ إلهًا)**، إذا أمرتُكم بشيءٍ من دينِكم فخُذوا به، وإذا أمرتُكم بشيءٍ من رأيٍ فإنّما أنا بشَرٌ»**[1]، وفي حديثٍ آخَرَ قال ﷺ **«أنتم أعلَمُ بأمرِ دُنياكم»**[2].

كان النبيُّ ﷺ يَعلَمُ أنه إذا كانت الرِّياحُ تقومُ بمهمَّةِ التلقيح هذه، فلمَ يَشُقُّ أهلُ المدينة فقطْ على أنفسِهم؟ ولكنْ كان سببَ نَقْص الثمارِ في ذلك العام هو أنّ أشجارَ النَّخيل كانت قدِ اعتادَتْ على التلقيح اليَدويِّ الذي يقومُ به أهلُ المدينة منذُ سنينَ عديدة، وكان لا بدَّ من مرورِ وقتٍ تعودُ فيه الأشجارُ إلى الحالةِ الطبيعيَّة، وتُـثمرُ بشكلٍ أكبر[3]، ولكنْ حين رأى النبيُّ ﷺ أنّهم مطمئـنُّونَ إلى تجارِبهم السّابقة، وأنّ من السابقِ لأَوانِه إفهامَهم هذه النُّقطةَ العِلميَّةَ الدَّقيقة، قال لهم: «أنتم أعلمُ بشئونِ دُنياكم»، كما أنّ هذا الأمرَ لا يَتعلَّقُ بالأحكام الشَّرعيّة، ولهذا تَرَكَ أمرَ العملِ به أو عَدَمَ العملِ به إلى ما يُحبُّون.

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٣٨ برقم ٢٣٦٢.

(٢) مسلم، برقم ٢٣٦٣.

(٣) «فلو صبروا على نقصان سنة أو سنتين لرجع النخيل إلى حاله الأول». نسيم الرياض: شرح الشفا، ٤: ٢٥٦.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

٦ـ للأرضِ أجزاءٌ مختلفة، كلٌّ منها قريبٌ من الآخَر، لكنّها مختلفةٌ تمامًا من حيثُ الخصائصُ، فبعضُها خَصْب، يُنبِتُ محصولًا جيّدًا، والبعضُ الآخَرُ بُور يُفسِدُ حتّى البذورَ التي تُنثَرُ فيها، معَ أنّ طبيعةَ الأرض واحدةٌ، وكان يجبُ أن يكونَ إنتاجُها واحدًا أيضًا، ولكنْ شاءت إرادةُ الله تعالى وحِكمتُه أن تكونَ هذه الأجزاءُ مختلفة، ثم إنّ في الأرضِ حدائقَ العنب، والمحاصيلَ الزِّراعية، وبعضُ أشجارِ النَّخيل مجتمعةٌ، والبعضُ منفصِل، وكلُّها تُسقَى بماءٍ واحد، ولكنّ طعمَ كلٍّ منها مختلف، وبنفسِ الطريقة فإنّ الناسَ جميعًا من نَسْل سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، ولكنّ مزاجَ أولادِه وألوانِهم وخصائلِهم مختلفةٌ بعضُها عن بعض.

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

٧ـ إنّ إنكارَ يوم القيامة بعدَ رؤيةِ الآياتِ الواضحةِ على وَحْدانيّته تعالى وقُدرتِه، والقولَ بأننا حينَ نموتُ لن نُبعَثَ من جديد، أمرٌ في غايةِ العَجَبِ فعلًا؛ لأنّ اللهَ تعالى خَلَق الكائناتِ كلَّها لأولِ مرةٍ بدونِ مادة، وإنّما بقولِه: «كن»، فأيُّ صعوبةٍ تكتنفُ خَلْقَها من طينٍ ثانيةً؟ ولكنّ إنكارَهم للآخِرة ـ في الحقيقة ـ بمثابةِ إنكارٍ لقُدرة الله تعالى وحِكمتِه، ولهذا ستوضَعُ أغلالُ كُفرِهم بالله تعالى في أعناقِهم يومَ القيامة، ثم يُلقَى بهم في نارِ جهنّم.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

٨ـ كلُّ نبيٍّ من أنبياءِ الله تعالى عليهم السَّلامُ قال للمُنكِرينَ: إنّكم لو لم

تُؤمنوا بالله تعالى، فسيأتيكُمُ العذابُ في الوقتِ المحدَّدِ له، وحينَ طالَبَ المنكرونَ بنزولِ العذاب، أهلَكَ اللهُ بعضَهم على الفَوْر، مثلَ: قوم عادٍ وثمُودَ وقُراهم التي دَمَّرها اللهُ تعالى كما نَعرِف، وبالرَّغْم من هذه الأمثلةِ طالَبَ كُفّارُ مكّةَ بنفسِ الأمر، بمعنى: قولِهم: إنْ كنتَ نبيًّا صادقًا يا محمَّدُ ﷺ، فأْتِنا بعذابٍ من عندِ الله سريعًا؛ لأنّهم كانوا لا يؤمنونَ بكَ نبيًّا، وردًّا على هذا قال القرآنُ الكريمُ: إنه بالرَّغْم من الظُّلم والذنوبِ التي يرتكبُها الناسُ، إلا أنّ اللهَ تعالى لا يتعجَّلُ بالعذاب، وإنّما يُمهِلُ الناسَ لعلَّهم يتوبونَ إليه، وفي بعضِ الأحيان يَمُدُّ حبالَ الصَّبر طويلاً، بحيث يترُكُ الأمرَ إلى يوم القيامة، ولكنْ إنْ أراد اللهُ تعالى أن يؤاخذَهم على ما يرتكبونَ فورًا، فلن يترُكَ على ظهرِ الأرض إنسانًا، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥]؛ لأنّ الإنسانَ يخطئُ، فإذا ما نَزَل العذابُ فورَ الوقوع في الذَّنب، فسوف يَهلِكُ الناسُ جميعًا.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

٩ـ رأى المُنكرونَ العديدَ من المعجِزات، على سَبيل المثال: سيرتَه النَّبويّةَ الطاهرةَ، وكلَّ آيةٍ من آياتِ القرآن الكريم، والذي تُعتَبَرُ ألفاظُه ومعانيه معجزةً لا مثيلَ لها، ولكنْ بالرَّغْم من ذلك كانوا يُطالبونَ بمُعجِزاتٍ جديدة، وعليه قال النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: إنّني لم أُبعَثْ لكي أُريَكم المعجِزاتِ التي تطلُبونَها، وعليه أيضًا قال النبيُّ ﷺ بأمرٍ من اللهِ تعالى: إنّما بُعِثتُ لكي أُريَكم طريقَ الهدايةِ والاستقامة، وأُخوِّفَكم من الأمورِ التي تُغضِبُ اللهَ تعالى.

بعض المعجزات المشهورة للنبي ﷺ:

١ـعن عليِّ بن أبي طالبٍ، قال: كنتُ معَ النّبيِّ ﷺ بمكَّة، فخَرجْنا في بعضِ نواحيها فما استَقْبَلَه جبلٌ ولا شجرٌ إلّا وهو يقولُ: السّلامُ عليكَ يا رسولَ الله[1].

٢ـيقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال: بمَ أعرفُ أنّك نبيٌّ؟ قال: «إنْ دعوتُ هذا العِذقَ من هذه النَّخلة، أتشهدُ أنّي رسولُ الله؟». فدَعاهُ رسولُ الله ﷺ فجَعَل ينزِلُ من النَّخلةِ حتّى سَقَط إلى النّبيّ ﷺ، ثمّ قال: «ارجع». فعاد، فأَسْلَم الأعرابيُّ[2].

٣ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنهما: عطِشَ النّاسُ يَوم الحُدَيْبِيَة، والنّبيُّ ﷺ بينَ يدَيْه رَكوةٌ فتوضّأ، فجَهَش النّاسُ نحوَه، فقال: «ما لكم؟». قالوا: ليس عندَنا ماءٌ نتوضّأُ ولا نشربُ إلّا ما بينِ يدَيْك، فوَضَع يدَه في الرَّكوةِ فجَعَل الماءُ يثُورُ بينَ أصابعِه كأمثالِ العيون، فشرِبْنا وتوضَّأْنا. قلتُ: كم كنتُم؟ قال: لو كنّا مائةَ ألفٍ لَكفانا، كنّا خمسَ عشْرةَ مائة[3].

٤ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: أصاب أهلَ المدينةِ قَحْطٌ على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فبَيْنَا هو يخطُبُ يومَ جمُعةٍ إذ قام رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، هَلَكتِ الكُراع، هَلَكتِ الشَّاءُ، فادْعُ اللهَ يَسْقينا، فمَدَّ يدَيْه ودعا. قال أنسٌ: وإنّ السّماءَ لَمِثلُ الزُّجاجة، فهاجَتْ ريحٌ أنشَأَتْ سَحابًا ثمّ اجتَمع، ثمّ أرسَلتِ السّماءُ عَزَالِيها، فخَرَجْنا نخوضُ الماءَ حتّى أتَيْنا منازلَنا، فلم نَزلْ نُمطَرُ إلى الجمُعةِ الأخرى، فقام إليه ذلك الرّجلُ ـ أو غيرُه ـ فقال: يا رسولَ الله، تَهدَّمتِ البيوت،

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦ برقم ٣٦٢٦.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦ برقم ٣٦٢٨

(٣) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٧٦.

فادْعُ اللهَ يحبِسُه. فتبسَّم ثمّ قال: «حوالَيْنا ولا علينا». فنظَرتُ إلى السَّحابِ تَصدَّع حولَ المدينةِ كأنّه إكْليل[١].

٥ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبدِ الله رضي اللهُ عنهما: **إنّ النّبيَّ ﷺ كان يقومُ يومَ الجمُعةِ إلى شجرةٍ أو نخلةٍ، فقالتِ امرأةٌ من الأنصار ـ أو رجُل ـ: يا رسولَ الله، ألا نجعَلُ لكَ منبَرًا؟ قال: «إن شئتم». فجَعَلوا له مِنبَرًا، فلمّا كان يومُ الجمُعة دَفَع إلى المِنبَر، فصاحتِ النّخلةُ صياحَ الصّبيّ، ثمّ نَزَل النّبيُّ ﷺ فضَمَّه إليه تئنُّ أنينَ الصّبيِّ الّذي يُسكَّن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمعُ من الذِّكرِ عندَها»**[٢].

٦ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: **لمّا حُفِر الخَنْدقُ رأيتُ بالنّبيّ ﷺ خَمَصًا شديدًا، فانكَفَأْتُ إلى امرأتي فقلتُ: هل عندَكِ شيءٌ؟ فإنّي رأيتُ برسولِ الله ﷺ خَمَصًا شديدًا. فأَخْرَجَت إليّ جِرابًا فيه صاعٌ من شعيرٍ، ولنا بهيمةٌ داجنٌ فذبحتُها، وطَحَنَتِ الشّعيرَ فَفَرَغَتْ إلى فَرَاغِي، وقطَّعتُها في بُرمتِها، ثمّ ولَّيتُ إلى رسولِ الله ﷺ فقالت: لا تفضَحْني برسولِ الله ﷺ وبمَن معه. فجئتُه فسارَرْتُه، فقلتُ: يا رسولَ الله، ذبَحْنا بهيمةً لنا وطَحَنّا صاعًا من شعيرٍ كان عندَنا، فتعالَ أنت ونَفَرٌ معَك. فصاحَ النّبيُّ ﷺ فقال: «يا أهلَ الخَنْدَقِ، إنّ جابرًا قد صَنَع سُؤْرًا فحيَّ هلًا بِكُم». فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تُنزِلُنَّ بُرْمَتَكُم، ولا تَخبزُنَّ عجينَكم حتّى أجيءَ». فجئتُ وجاء رسولُ الله ﷺ يَقدُمُ النّاسَ حتّى جئتُ امرأتي، فقالت: بكَ وبك. فقلت: قد فعلت الّذي قُلتِ. فأَخْرَجَتْ له عجينًا، فبَصَق فيه وبارَكَ، ثمّ عَمَد إلى بُرْمَتِنا فبَصَق وبارَكَ ثمّ قال: «ادْعُ خابزةً فلْتَخبِزْ معي، واقدَحي من بُرمتِكم ولا تُنزِلوها»، وهم ألفٌ، فأُقسِمُ بالله، لقد أكَلوا حتّى تَرَكوه وانحَرفوا، وإنّ برُمتَنا لَتغِطُّ كما هي، وإنّ عجينَنا لَيُخْبَزُ كما هو**[٣].

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٨٢.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٨٤.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب ٢٩ برقم ٤١٠٢.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

١٠ـ معنى هذا أنّ النبيَّ ﷺ هو نبيُّ كلِّ أُمّةٍ وقائدُها حتّى يوم القيامة، وقد أرسَلَ اللهُ تعالى قبلَ النبيِّ ﷺ نبيًا إلى كلِّ أُمّة، أو هاديًا ينشُر دعوتَه، ولهذا فإنّ كلَّ أُمةٍ قد جاءها ـ بالفعل ـ نبيٌّ أو هادٍ ينُوبُ عنه، أمّا أنّ هذه الأُممَ قد ثَبَتت على هدايةِ نبيِّها أم لم تَثبُتْ، فهذا أمرٌ آخر.

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾

١١ـ حين يبدَأُ تخليقُ الجَنين في بطنِ أُمِّه، فإنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أحوالَ صحتِه، والزيادةَ أو النُّقصانَ في مدةِ الحَمْل، وقد حدَّد لكلِّ كيفيّةٍ من هذه الكيفيّاتِ مدّةً بعَيْنِها، وتَظهَرُ هذه الكيفيّةُ إلى حيِّزِ الوجود طِبقًا لهذا التحديدِ الذي قرَّره اللهُ تعالى، كما أنه تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم مستقبَلَ هذا الطِّفل؛ كم سيعيشُ في هذه الدُّنيا، وكم سيكونُ رزقُه، وأيُّ عملٍ صالح سيعمَلُه، وأيُّ عمَل سيِّئٍ سيقومُ به.

﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾

١٢ـ سواءٌ تحدَّث أحدُكم بصوتٍ خافتٍ أو بصوتٍ مرتفع، وسواءٌ كان في ظُلُماتِ اللّيل أو في ضوءِ النهار، كلُّ هذا سواءٌ بالنسبةِ لله تعالى، فهو لا يخفَى عليه شيء؛ لأنه يَعلَمُ الظاهرَ والباطنَ تمامَ العِلم.

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾

١٣ـ جَعَل اللهُ تعالى ملائكةً معَ كلِّ إنسان «**يتعاقَبونَ باللَّيل والنهار؛ فإذا صَعِدت ملائكةُ اللّيل أعقبَتْها ملائكةُ النهار، إنّ معَ كلِّ رجُل ملَكَيْنِ يحفَظانِه ما لم يُقدَّرْ، فإذا جاء القَدَرُ خَلَّيا بينَه وبينَ قَدَرِ الله**»[(١)]، وبعضُ هؤلاء الملائكةِ يَكتُبُ أفعالَ العبد، والبعضُ الآخَرُ يكونُ وسيلةً ليرفَعَ عنه ذلك البلاءَ الذي يريدُ اللهُ تعالى أن يُنجِيَه منه، لكنّ هؤلاءِ الملائكةَ يترُكونَ الإنسانَ عندَما يحينُ وقتُ البلاءِ الذي يقدِّرُه اللهُ تعالى على العبدِ لحِكمةٍ عندَه[(٢)]، أمّا لماذا تنزلُ المصائبُ

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

على الإنسان؟ فإنّها تكونُ في بعضِ الأحيان لمجرَّدِ الابتلاء، وفي بعضِ الأحيان تكونُ نتيجةً لتقصيرِ الإنسانِ نفسه، وسيأتي مثالُ ذلك في الحاشيةِ القادمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

١٤- اللهُ تعالى عَدْلٌ مطلَق، ولا مجالَ لأنْ يقعَ منه ظلمٌ لأحدٍ، وحينَ تتربَّعُ أُمّةٌ من الأُمم على قمّةِ الاجتهاد، فإنّ اللهَ تعالى لا يُذِلُّ هذه الأُمةَ بلا داعٍ، وإنّما يبدَأُ انحدارُها حينَ تغفُلُ عن الاجتهاد العمَليِّ، وحين يريدُ اللهُ تعالى معاقبتَها على هذه الغَفْلة، لا يستطيعُ أحدٌ أن يؤخِّرَ هذا العقابَ، كما لا يستطيعُ أحدٌ أن يَمُدَّ لها يدَ العَوْن:

*** هذا هو حُكمُ قاضي القَدَر منذُ الأزَل، أنّ موتَ الفُجاءةِ عقابٌ لجريمةِ الضَّعف.**

ولهذا فإنّ تقدُّمَ الأُمم المتراجِعة ثانيةً ممكنٌ في صُورةٍ واحدة، هي أن تتوبَ من غفلتِها توبةً صادقة، وأن تَصِلَ ليلَها بنهارِها في الاجتهادِ والعمَل؛ لأنّ اللهَ تعالى يهدي إلى سبيلِه كلَّ أُمةٍ تجاهدُ في سَبيل الحق، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]:

*** لم يُغيِّرِ اللهُ تعالى حتّى اليوم حالَ أُمةٍ لم تنتبِهْ إلى تغييرِ حالِها بنفسِها.**

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾

١٥- جاء في هذه الآيةِ ذكْرٌ لآيتَيْنِ من آياتِ قُدرة الله تعالى، تَخلُقانِ بداخل الإنسان حالةً من الخوفِ وحالةً من الرَّجاءِ في نفسِ الوقت، يعني: أنه حين تُرعِدُ السماءُ يتولَّدُ الأملُ في نزولِ المطر، وفي نفسِ الوقت ينتابُ المرءَ الخوفُ من أن يصبحَ هذا الرعدُ صاعقةً تكونُ سببًا في الهلاكِ والدَّمار، وبنفسِ الطريقة عندما

يرى الإنسانُ السَّحابَ الممتلئَ ماءً يمتلئَ أملًا في نزولِ الغَيْث وأمطارِ الرَّحمة، وفي نفسِ الوقت يخافُ من أن تؤدِّيَ غزارةُ الأمطارِ إلى حدوثِ السُّيول، وفي هذا إشارةٌ أيضًا إلى أنّ على الإنسانِ أن يكونَ آمِلًا في رحمةِ الله تعالى خائفًا من عذابِه.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾

١٦ـ سواءٌ كان رعدَ الصّواعق أم ملائكةَ النُّور، كلُّها تخشَى اللهَ تعالى، وتحمَدُه وتُثني عليه، معَ أنها مبرَّأةٌ منَ ارتكابِ الذَّنب والعِصيان، وفيه درسُ عِبرةٍ لبني الإنسان، حتى يكونَ أكثرَ خَشْيةً لله تعالى، ويُكثِرَ من حَمْدِه والثناءِ عليه وتسبيحِه.

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾

١٧ـ اللهُ تعالى يُمهِلُ مُنكِريهِ حتى يُصلحوا أنفسَهم، لكنْ إن أراد أن يُعاقبَ أحدًا في هذه الدُّنيا، فإنّ قبضتَه تكونُ محكَمةً بحيث يُرسِلُ الصواعقَ على هؤلاءِ المنكِرين بَغتةً ويُهلكُهم في الوقتِ الذي يُسيئونَ فيه إلى الله تعالى، وتأمَّلِ الواقعةَ التاليةَ في هذا الخصُوص:

«سُئل الحَسنُ عن قولِه: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآيةَ، فقال: كان رجلٌ من طواغيتِ العرب بَعَث إليه النبيُّ ﷺ نَفَرًا من أصحابِه يَدْعونَه إلى الله وإلى رسوله، فقال لهم: أخبِروني عن ربِّ محمّدٍ هذا الذي تَدْعونَني إليه، هل هو من ذهبٍ أم فضّةٍ أم حديدٍ أم نُحاس؟ فاستَعْظَم القومُ كلامَه فانصَرفوا إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رسولَ الله، ما رأَيْنا رجلًا أكفَرَ قلبًا ولا أعتَى على الله منه. فقال: «ارجِعوا إليه»، فرَجَعوا فلم يَزِدْهم على مقالتِه الأولى شيئًا بل قال: أأُجيبُ محمّدًا إلى ربٍّ لا أراه ولا أعرفُه؟ فانصَرفوا إلى رسولِ الله ﷺ فقالوا: يا رسولَ الله، ما زادَنا على مقالتِه الأولى شيئًا بل أخبَثَ. فقال: «ارجِعوا إليه»، فرَجَعوا إليه، فبينَما هم عندَه يَدْعُونه ويُنازعونَه، وهو لا يزيدُهم على مقالتِه شيئًا، إذِ ارتفَعَت سَحابةٌ فكانت فوقَ رؤوسِهم،

فرَعَدت وبَرَقت ورَمَت بصاعقةٍ فأَحْرقتِ الكافرَ وهم جلوسٌ عندَه، فرَجَعوا ليُخبِروا النبيَّ ﷺ، فلمّا رَجَعوا استقبَلَهم نفَرٌ من أصحابِ النبيِّ ﷺ فقالوا لهم: «احترَقَ صاحبُكم»، قالوا: من أين علمتُم ذلك؟ قالوا: قد أوحَى اللهُ إلى النبيِّ ﷺ»[1].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

١٨ـ الدُّعاءُ الحقيقيُّ هو: عبادةُ الله تعالى والاستغاثةُ به، والذين يَترُكونَ اللهَ تعالى ويعبُدونَ آلهةً أخرى، أو يستغيثونَ بها: ضالُّون؛ لأنّ هذه الآلهةَ لا تستطيعُ أن تجيبَ دعاءهم، ومثالُهم كمَثَلِ ذلك الشّخصِ الظَّمآنِ الذي يقفُ على حافَةِ بئرٍ، ويمُدُّ يدَه إلى الماءِ بغيرِ دلوٍ وحبل، متوسِّلًا إليه بمداهنةٍ قائلًا: إنّني ظمْآنُ، من فَضْلِك اصعَدْ إلى فمي حتى أطفئَ ظمأي! معَ أنّ الماءَ ليس لديه القُدرةُ على أن يرى أحدًا، أو يسمعَ استغاثةَ أحد، أو يساعدَ أحدًا، ولهذا لن يستطيعَ الماءُ إغاثتَه، حتى وإن ظلَّ يتوسَّلُ إليه طيلةَ عمُرِه، وبنفسِ الطريقة ليس لدى تلك الآلهةِ القُدرةُ أصلًا على أن تهُبَّ لنجدةِ أحد، لكنْ يجوزُ التوسُّلُ بعبادِ الله الصّالحينَ بشَرْط أن يكونَ المتوسِّلُ على عِلم بأنّ هؤلاءِ غيرُ دائمين، وأنهم يساعدونَ الآخَرينَ بإذْنِ الله تعالى وبالقُدرة التي مَنَحَها إياهم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**إذا أَضَلَّ أحدُكم شيئًا أو أراد أحدُكم عونًا وهو بأرضٍ ليس بها أنيسٌ، فلْيَقُلْ: يا عبادَ الله أغيثوني، يا عبادَ الله أغيثوني، فإنّ لله عبادًا لا نراهم**»[2].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾

١٩ـ المرادُ بالسَّجدةِ: الخضوعُ في الطاعةِ والتسليمُ بها، وقد جَعَل اللهُ تعالى

(١) تفسير الخازن.

(٢) المعجم الكبير، الطبراني، ١٧: ١١٨.

لهذه الكائناتِ نظامًا من الفِطرة تسيرُ عليه، والسَّماءُ والأرضُ وظلُّها جميعًا تسيرُ وفقًا لهذا النِّظام، والبعضُ يخضَعُ راضيًا لنظام الفِطرة هذا، بينَما يَضْطَرُّ البعضُ الآخَرُ إلى الخضُوع إليه، مثلَما يَقبَلُ عبادُ الله الصالحونَ الموتَ برضًا حين يأتيهم، أمّا من لا يحبُّونَ الموتَ فإنّهم يضْطَرونَ إلى قَبولِه أيضًا؛ لأنّ نظامَ فطرةِ الله تعالى قائمٌ بهذه الصُّورة.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾

٢٠ـ سألَ النبيُّ ﷺ كُفّارَ مكّةَ بأمرٍ من الله تعالى: من هو ربُّ السّماواتِ والأرض؟ ثم قال لهم بنفسِه: إنه اللهُ تعالى، ولم يكنْ كُفّارُ مكّةَ يستطيعونَ الإنكارَ؛ لأنهم أيضًا كانوا يعتقدونَ أنّ اللهَ تعالى هو ربُّ السماواتِ والأرض، ولهذا قال لهم النبيُّ ﷺ: إنّكم إن كنتُم تعترفونَ بأنّ اللهَ تعالى هو ربُّ السماواتِ والأرض، فلماذا اتَّخذتُم من كلِّ هذه الآلهةِ الباطلةِ أولياءَ لكم وهي لا تَملِكُ نفعًا ولا ضَرًّا، فكيف تنفَعُكم أو تَضُرُّكم؟ وهذا دليلٌ واضحٌ وضوحَ الشّمس لا يُنكرُه إلّا الأعمى الذي لا يرى ضوءَ النهار، والآنَ أخبِروني أنتم؛ هل يستوي الأعمى والمُبصِر، أم هل تستوي ظُلماتُ الكُفرِ ونورُ الهداية؟

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾

٢١ـ يعني: لماذا تتَّخذونَ من هذه الآلهةِ الباطلةِ العاجِزة شُركاءَ لله تعالى؟ هل خَلَقت هذه الآلهةُ خَلْقًا مِثلَ خَلْقِ الله تعالى، جَعَلَكم ـ عندَ رؤيتِه ـ تظُنُّونَ أنها ربّما تكونُ آلهةً؟ معَ أنّ هذه الآلهةَ جميعًا لا تستطيعُ أن تَخلُقَ بَعُوضةً حتّى وإن اجتَمَعت لها، فإذا كان هذا هو حالَها من العجزِ وفُقدانِ الحِيلة، فكيف يمكنُ

أن تكون شُرَكاءَ لله تعالى؟ وبالتالي فإنّ الحقيقةَ فقطْ هي أنّ اللهَ تعالى هو خالقُ كلِّ شيء، وهو واحدٌ وغالبٌ على الجميع.

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

٢٢- في هذه الآيةِ جاء اللهُ تعالى بمثالٍ لكي يبيِّنَ الفرقَ بينَ الحقِّ والباطل ويشرَحَه، وهو أنه حينَ ينزلُ المطرُ بغزارة، فإنّ الجداولَ والأنهارَ تمتلئُ ماءً، كلٌّ بحسَبِ سَعتِه، وحين تُجري الماءَ بقوّةٍ في شكل السُّيول، فإنّ كلَّ ما يعترضُ طريقَ الماءِ من القَشِّ والعشُبِ الجافِّ وغيرِهما يَطْفو فوقَ سطح الماءِ في صُورة الزّبد. وبنفسِ الطريقة، عندما يقومُ صانعو الحُلِيِّ وما شابَهَ من الأشياءِ بصَهْر الذَّهب والفضّةِ وغيرِهما من المعادِن، فإنّ الشوائبَ التي تكونُ بداخلِها تَطْفو على سطحِها فيما يُشبِهُ الزَّبَدَ أيضًا، وفي بعضِ الأحيان يكونُ هذا الزَّبَدُ كثيرًا بحيث يُغطِّي على ما تحتَه من الماءِ أو الذَّهَب والفضّة، لكن هذا الزَّبَدَ لا قيمةَ له، ولا هو دائمٌ وباقٍ، بل على العكس، سريعًا ما يزولُ أو يُزال، وفي النِّهاية يبقَى الماءُ الذي يَسقي الأرضَ فيجعَلُها يانعةً خضراءَ، كما يبقَى الذَّهبُ الخالصُ والفضّةُ الخالصةُ التي تُستعمَلُ في صناعة الحُلِيِّ والجواهر.

والمرادُ بالماء والمعادِن في هذا المثال هو الحقُّ، إذْ هو الذي يبقَى ويدوم، وينفَعُ الناسَ أيضًا، والمرادُ بالزَّبَد هو الباطل، والذي قد يغطِّي سطحَ الماءِ أو المعادن، لكنْ لا ثباتَ له ولا دوام، إذ يزولُ في نهايةِ المطاف.

ويُعلَمُ من هذا أنّ من الممكنِ أن يُغطِّي الباطلُ على الحقِّ في بعضِ الأحيان، ولكنّ الباطلَ يزولُ في نهايةِ الأمر، ويبقَى الحقُّ فقط.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

٢٣ـ هنا بيَّنَ اللهُ تعالى مبدأً فِطْريًّا، أي: أنّ الشّيءَ النافعَ هو الذي يبقى، والشيءُ الذي لا فائدةَ منه يزولُ ويَفْنى، وقد بيَّن القرآنُ الكريمُ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام قانونَ «البقاءُ للأصلح» في نظريّةِ الصِّراع من أَجْل البقاء، وهذا المبدأُ هو المؤثِّرُ كذلك في عمليّةِ تقدُّم الحكوماتِ والأفرادِ وزوالِهم، فالحكوماتُ التي تنفَعُ الناسَ تبقَى، والتي لا تنفَعُ الناسَ تفشَلُ في نهايةِ المطاف.

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾

٢٤ـ الذين آمَنوا باللهِ تعالى لهمُ الحُسنى في الآخِرة، والذين كَفَروا به حسابُهم عسير، ومصيرُهم جهنَّم، ولو أرادوا افتداءَ أنفُسِهم من العذابِ بأضعافِ ثَرَواتِ الأرض لَما أمكَنَهم ذلك، ولمزيدٍ من التوضيح راجعِ الحاشيةَ رقم **٤٧** والآيةَ رقم **٩١** من سورة آلِ عِمران.

۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ ۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾

﴿۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

٢٥ـ شخصٌ يؤمنُ بأنّ القرآنَ الكريمَ كلامُ الله تعالى، نَزَل على النبيِّ الكريم ﷺ، ويسيرُ على الطَّريقِ المستقيم في ضوءِ تعاليم هذا القرآنِ المَجيد، بينَما يُنكرُ شخصٌ آخرُ القرآنَ الكريم، ويَهيمُ على وجهِه كالعُميان في ظُلُماتِ الضَّلال، طبيعيٌّ أن لا يكونا متساويَيْنِ، ورَغْم أن الفَرْقَ بينَهما في غايةِ الوضوح، لكنْ لا يدركُه إلّا أصحابُ العقولِ السَّليمة، أمّا مَن تَحجُبُ غِشاوةُ الغفلةِ والتعصُّبِ عقولَهم، فإنّهم لا يستطيعونَ إدراكَ هذا الفَرْق.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾

٢٦ـ مِن هذه الآية وحتّى الآيةِ رقم **٢٤** جاء بيانُ صفاتِ أصحابِ العقولِ السَّليمة، أي: أهلِ الإيمان.

وأولُ صفةٍ من صفاتِهم هي: أنهم يُوفُونَ بعَهْدِهم معَ الله تعالى، بمعنى: أنّهم يحقِّقونَ وعدَهم لله تعالى بعبادتِه وطاعتِه.

والصِّفةُ الثانية هي: أنّهم لا يُخلِفُونَ عهودَهم، أي: سواءٌ كانت هذه العهودُ معَ الله سبحانَه وتعالى فيما يتعلَّقُ بحقوقِ الله تعالى أم معَ بني الإنسانِ فيما يتعلَّقُ بحقوقِ العباد، أيًا كانت هذه العُهود فإنّهم لا يُخلِفونَها.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾

٢٧ـ والصِّفةُ الثالثةُ من صفاتِ أهل الإيمانِ هي: أنّهم يُحسِنونَ معاملةَ آبائهم وأُمّهاتِهم وأقاربِهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**ليس الواصلُ بالمُكافئ، ولكنّ الواصلَ: الّذي إذا قُطِعت رَحِمُه وَصَلَها**»[١]، ولمزيدٍ من المعرفة عن فَضْل صِلة الرَّحِم والمَنْع من قطعِها راجع الحاشيةَ رقم **٣، ٥١، ٥٢** من سورة النِّساء (**٤**).

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب **١٥** برقم **٥٩٩١**.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾

٢٨ـ الصِّفةُ الرابعةُ من صفاتِ أهلِ الإيمان هي: أنّهم يخشَوْنَ عظَمةَ الله تعالى وجلالَه، فلا يَصدُرُ عنهم ما يُغضِبُه.

والصِّفةُ الخامسةُ هي: أنهم يَخافونَ من يوم الحساب، ويعمَلونَ جاهدينَ على إطاعةِ الله سبحانه وتعالى، حتى لا يندَموا يومَ الحساب.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾

٢٩ـ الصِّفةُ السادسةُ من صفاتِ أهل الإيمان: أنّهم يَصبِرونَ من أَجْل نَيْل رضا الله تعالى، بمعنى: أنّهم يتحمَّلونَ كلَّ العقَبات، ويصبِرونَ على كلِّ المصائبِ والابتلاءاتِ التي تواجِهُهم في طريقِ طاعةِ الله تعالى وتجنُّبِ عصيانِه، سواءٌ كانت مرضًا أم ألمًا أم أيَّ ابتلاءٍ آخَرَ، بقَصْدِ الحصولِ على رضا الله تعالى فقط.

والمرادُ بالصَّبر: الذي يكونُ معَ بدايةِ الصَّدمة، ولا يكونُ اضطراريًّا؛ لأنّ كلَّ إنسانٍ يأتيهِ الصبرُ بشكلٍ تلقائيٍّ بعدَ فترةٍ من الأزمةِ التي يواجِهُها، ومِثلُ هذا الصَّبرِ لا فَضْلَ له.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

٣٠ـ الصِّفةُ السابعةُ من صفاتِ أهلِ الإيمان هي: أنّهم يقيمونَ الصَّلاة.

والصِّفةُ الثامنةُ: أنّهم يُنفقونَ ممّا رزَقَهمُ اللهُ تعالى في سَبيل الله، وطِبقًا للظروفِ تَجِدُهم ـ أحيانًا ـ ينفِقونَ سرًّا، حتّى لا يَجْرحوا كرامةَ مَن يتصدَّقونَ عليه، وأحيانًا أخرى يُنفقونَ علانيَةً، حتى يُرَغِّبوا الآخَرينَ في التصدُّق، ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح راجعِ الحاشيةَ رقم ٦، ٢٣٢ من سُورة البقرة (٢).

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾

٣١- الصِّفةُ التاسعةُ من صفاتِ أهلِ الإيمان هي: أنّهم يَقْضُونَ على السيِّئةِ بالحسَنة؛ لأنّ الحسَناتِ يُذهِبْنَ السِّيئاتِ مثلَما جاء في الأحاديثِ الشريفة:

١- عن أبي ذرٍّ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: **«اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأَتْبِعِ السّيّئةَ الحسَنةَ تَمْحُها، وخالِقِ النّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»**[١].

٢- قال رسولُ الله ﷺ: **«إنّ مَثَلَ الّذي يعمَلُ السّيّئات، ثمّ يعمَلُ الحسَنات، كمَثَلِ رجلٍ كانت عليه درعٌ ضيّقةٌ قد خَنَقَتْه، ثمّ عَمِل حسَنةً، فانفكَّت حَلَقةٌ، ثمّ عَملَ حسَنةً أخرى، فانفكَّت حلَقةٌ أخرى، حتّى يَخرُجَ إلى الأرض»**[٢].

٣- عن أبي ذرٍّ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أَوْصِني. قال: **«إذا عَمِلتَ سيّئةً فأَتْبِعْها حسَنةً تَمْحُها»**. قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أمِنَ الحسَناتِ لا إلهَ إلّا الله؟ قال: **«هي أفضَلُ الحسَنات»**[٣]، ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح راجع الحاشيةَ رقم **١٤١** من سُورة الأنعام (٦)، والحاشيةَ رقم **٩٤** من سُورة هُود (١١).

ويُمكنُ أن يكونَ معناه أيضًا: أنّهم يتعاملونَ ببَشاشةٍ وسخاءٍ وحُسن السُّلوكِ معَ مَن يُعاملُهم بغِلْظة وبُخْل وجَوْر، ويَعْفُونَ عنه أيضًا، مثلَما عَفا سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ عن إخوتِه، وعَفا سيّدُنا محمّدٌ ﷺ عن أهلِ مكّةَ، وقد قال سيّدُنا الحَسنُ رضي اللهُ عنه: **«إذا حُرِموا أَعطَوْا، وإذا ظُلِموا عَفَوْا، وإذا قَطَعوا وَصَلوا»**[٤].

---

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٥٥ برقم ٩٨٧.

(٢) مسند أحمد، ٤: ١٤٥.

(٣) مسند أحمد، ٥: ١٦٩.

(٤) تفسير روح المعاني.

وفي هذا الخصوصِ ينقُلُ الإمامُ الرازي واقعةً تقولُ: «**يُروَى أنّ شقيقَ بنَ إبراهيمَ البَلْخيَّ دخَلَ على عبدِ الله بن المبارك متنكّرًا، فقال: من أين أنت؟ فقال: من بَلْخ، فقال: وهل تعرفُ شقيقًا؟ قال: نعم، فقال: كيف طريقةُ أصحابِه؟ فقال: إذا مُنِعوا صَبَروا، وإن أُعطُوا شكَروا، فقال عبدُ الله: طريقةُ كلابِنا هكذا، فقال: وكيف ينبغي أن يكون؟ فقال: الكاملونَ هم الذين إذا مُنِعوا شَكَروا، وإذا أُعطوا آثَروا**»[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾

٣٢ـ أهلُ الإيمانِ الكامل الذين جاء ذِكرُهم في الآياتِ السّابقة، يبيِّنُ اللهُ تعالى هنا أَجْرَهم العظيمَ، فاللهُ تعالى سيُدخلُهم جنّاتٍ خالدينَ فيها، وسيُدخلُ الصّالحينَ من آبائهم وأجدادِهم وأزواجِهم وذُرِّياتِهم أيضًا في جنّاتٍ خالدينَ فيها. يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي: سيُنعمُ اللهُ تعالى على آباءِ كاملي الإيمان هؤلاء وعلى أجدادِهم وأزواجِهم وذُرِّياتِهم بدرجاتِ الكاملين، بشَرْطِ أن يكونوا من أهلِ الإيمان، حتى وإن كانوا ـ من حيثُ الأعمالُ ـ ليسوا أهلًا لتلك الدرجات، ولكنْ سيَجمَعُهم اللهُ تعالى معًا تطييبًا لقلوبهم وتكريمًا لهم[2]، مثلَما قال اللهُ تعالى في موضع آخَر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١]، بمعنى: أنّ الوالدَيْنِ اللَّذَيْنِ سيكونانِ في أعلى مقام في الجنّة، سنَرفَعُ درجاتِ ذُرِّياتِهم الصّالحةِ المؤمنة، ونُلحِقُهم بهم.

ويُعلَمُ من هاتَيْنِ الآيتَيْنِ أنّ علاقةَ النَّسَبِ والقرابةِ بينَ أهلِ الإيمان ستكونُ مفيدةً

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) «فهذه الآية تدل على أن الله تعالى يعطي درجات الكاملين من لم يبلغ درجتهم ولم يعمل مثل أعمالهم من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم تطييبًا لقلوبهم وتعظيمًا لشأنهم بشرط إيمانهم». التفسير المظهري.

لهم، معَ أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**كلُّ نسبٍ وسببٍ مُنقطعٌ يومَ القيامة إلّا نسبي وسببي**»[1].

يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي مجيبًا عن هذا، بأنّ علاقاتِ الكُفّارِ وصَدَاقاتِهم ستنقطعُ يومَ القيامة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿**ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧]، و«**أنّ المؤمنينَ كلَّهم أبناءٌ لرسول الله ﷺ**، **قال الله تعالى**: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب: **٣٣**]، بينما ستبقى علاقـاتُ وقراباتُ وصَداقاتُ أهلِ الإيمان دائمةً بسببِ النبيِّ ﷺ، والنبيُّ ﷺ هو الأبُ الرُّوحيُّ لأهلِ الإيمانِ جميعًا، وأزواجُه المطَهَّراتُ هُنَّ الأُمّهاتُ الرُّوحيّاتُ لأهلِ الإيمان جميعًا أيضًا[2].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾

٣٣ـ أهلُ الإيمانِ الكامل، الذين صَبَروا على كلِّ المشاكلِ التي تُواجهُهم في طريق الدِّين، حينَ يَدخُلونَ جنّةَ الخُلد، تَدخُلُ عليهم الملائكةُ من كلِّ باب، وتُسلِّمُ عليهم، وتُعظِّمُ من شأنِهم.

عن عبد الله بن سَلَام وعليِّ بن الحُسَين رضي الله عنهما، قالا: إذا كان يومُ القيامة يُنادي منادٍ: لِيَقُمْ أهلُ الصّبر، فيقومُ ناسٌ من النّاس فيقالُ لهم: انطلِقوا إلى الجنّة، فتتلقّاهمُ الملائكةُ فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنّة، قالوا: قبلَ الحساب؟ قالوا: نعم! فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهلُ الصَّبر، قالوا: وما كان صبرُكم؟ قالوا: صَبَرْنا أنفُسَنا على طاعةِ الله، وصَبَرْناها عن معاصي الله، وصَبَرْناها على البلاءِ والمِحَن في الدّنيا. قال عليُّ بن الحُسين: فتقولُ لهم الملائكة: ادخُلوا الجنّة فنِعْمَ أَجْرُ العاملين.

---

(١) كنز العمال، برقم ٣٢٦٤٨ و٣٧٥٧٨، والمستدرك للحاكم، ٣: ١٥٣.

(٢) التفسير المظهري.

وقال ابنُ سلامٍ: فتقولُ لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[١].

يقولُ العلّامةُ ابنُ جَرير الطَّبريُّ في تفسيرِ هذه الآية: «**كان النبيُّ ﷺ يأتي قبورَ شهداءِ أُحُدٍ على رأسِ كلِّ حَوْل، فيقول: السَّلامُ عليكم بما صَبَرتُم فنِعمَ عُقْبَى الدار، وكان أبو بكرٍ وعُمرُ وعثمانُ رضي اللهُ عنهم يفعَلونَ ذلك**»[٢].

ويَثبُتُ من هذا جَوازُ زيارةِ قبورِ الشُّهداءِ والأولياءِ والكاملين، وحضورُ الاحتفالاتِ بمولدِهم، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**يُشفَّعُ الشّهيدُ في سبعينَ من أهل بيتِه**»[٣].

ويُعلَمُ منه أنّ العلاقةَ معَ المشايخ والصّالحينَ، سواءٌ كانت علاقةَ قرابةٍ أم علاقةَ نسبٍ أم صَداقة، تنفَعُ في الآخِرة بشَرطِ الإيمان[٤].

حياة الشهيد:

مَنَع القرآنُ الكريمُ من القولِ عن الشُّهداء: إنّهم مَوْتى، بل مَنَع أيضًا من تصوُّر كونِهم مَوْتَى ولو في القلب؛ لأنّ اللهَ تعالى يُنعِمُ عليهم في البَرْزَخ بحياةٍ خاصّة طاهرة، يفوقُ إدراكُها شعورَنا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما يتعلَّقُ بسيّدِنا جعفرٍ الطيّارِ رضي الله عنه: «**رأيتُ جعفرًا يطيرُ في الجنّة معَ الملائكة**»[٥].

ويقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما: **كنّا معَ رسولِ الله ﷺ فرَفَع رأسَه إلى السّماء فقال: «وعليكُمُ السَّلامُ ورحمةُ الله»، فقال الناس: يا رسولَ الله، ما كنتَ تصنَع هذا؟ قال: «مرَّ بي جعفرُ بنُ أبي طالبٍ في ملأٍ من الملائكة فسَلَّم عليّ»**[٦].

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير جامع البيان، مصنف عبد الرزاق، ٣: ٥٧٣ برقم ٦٧١٦.

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، باب ٢٦ برقم ٢٥٢٢.

(٤) تفسير معارف القرآن، مفتي محمد شفيع الديوبندي.

(٥) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٢٩ برقم ٣٧٦٣.

(٦) السيرة الحلبية، ٣: ١٠٠.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾

٣٤ـ الذين ينقُضونَ عهدَ الله، ويقطَعونَ العلاقةَ فيما بينَهم، هم - في الحقيقة - يَعِيثُونَ في الأرضِ فسادًا باغتصابِهم حقوقَ الله وحقوقَ العباد، أمثالُ هؤلاء المفسِدين سيُبعَدونَ من رحمةِ الله تعالى يومَ القيامة، ومصيرُهم في غايةِ السُّوء.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾

٣٥ـ كان أكثرُ المسلمينَ في مكّةَ فقراءَ، وكانتِ الأموالُ والثرواتُ وفيرةً لدى الكُفّار، وكان كُفّارُ مكّةَ يفرَحونَ بهذا كثيرًا، ويُعيِّرونَ المسلمينَ بأنّ اللهَ تعالى راضٍ عنهم هم، ولهذا أنْعم عليهم بوَفْرةٍ في الأموال، فنزَلت هذه الآيةُ ردًّا عليهم، بأنّ وفرةَ الرزقِ الدُّنيويِّ ليست - بالضَّرورة - دليلًا على أنّ اللهَ تعالى راضٍ عنهم؛ لأنّ كثيرًا من المنكِرينَ كانت لديهم وَفْرةٌ في الرزقِ في الدنيا مثلَ: قارونَ وفِرعَون، وكذلك قلّةُ الرزقِ في الدنيا ليست بالضَّرورةِ دليلًا على أنّ اللهَ تعالى غاضبٌ عليهم؛ لأنّ كثيرًا من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ وكذا عبادُ الله الصالحونَ كان رزقُهم الدُّنيويُّ الظاهرُ قليلًا، وقد أحبَّ النبيُّ ﷺ الفقرَ لنفسِه:

١ـ عن أبي أُمامَة، عن النّبيّ ﷺ، قال: «عَرَض علَيَّ ربّي لِيجعلَ لي بطحاءَ مكّةَ ذهبًا، قلت: لا يا ربِّ، ولكنْ أشبَعُ يومًا وأجوعُ يومًا، أو قال: ثلاثًا، أو نحوَ هذا، فإذا جُعتُ تضرَّعتُ إليك وذكَرتُك، وإذا شَبِعتُ شكرتُك وحَمِدتُك»[١].

٢ـ عن أنسٍ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اللّهُمَّ أحيِني مسكينًا وأمِتْني مسكينًا واحشُرْني في زُمرةِ المساكين يومَ القيامة». فقالت عائشة: لمَ يا رسولَ الله؟ قال:

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٥ برقم ٢٣٤٧.

«إنّهم يدخُلونَ الجنّةَ قبلَ أغنيائهم بأربعينَ خَريفًا، يا عائشة، لا تَرُدّي المسكينَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، يا عائشة، أحِبّي المساكينَ وقرِّبيهم فإنّ اللهَ يُقرِّبُكِ يومَ القيامة»(١).

وباختصار: فإنّ كثرةَ المالِ أو قلّتَه تكونُ من الله تعالى لحِكمةٍ أو ابتلاءٍ أحيانًا، وأحيانًا أخرى تكونُ نتيجةَ تقصيرِ الأُمم في الجَدِّ والاجتهاد، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ولمزيدٍ من التوضيح فيما يتعلَّقُ بالحياة الدُّنيا ومتاعِها راجع الحاشيةَ رقم **١٣٢**، **١٤٠** من سُورة آل عِمران (**٣**)، وكذا الحاشيةُ رقم **٨٦** من سورة النِّساء (**٤**).

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾

٣٦ـ لتفسير هذه الآيةِ راجع الحاشيةَ رقم **٩** من هذه السُّورة، والحاشيةَ رقم **٢١** من سورة يونُس (**١٠**).

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾

٣٧ـ الإنسانُ الذي يَرجِعُ إلى الله تعالى بإخلاص، يَفتَحُ اللهُ عليه أبوابَ الهداية،

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب **٣٧** برقم **٢٣٥٢**.

والذي يُعرضُ عن اللهِ تعالى، ويختارُ لنفسِه البقاءَ في الضَّلال، يترُكه اللهُ تعالى في ضلالِه.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾

٣٨ـ عندما يتذكَّرُ الإنسانُ غضبَ اللهِ عليه بعدَ ارتكابِ الذَّنب، يعتريهِ الخوفُ والقلق، ويأخُذُ هذا الخوفُ بيدِه إلى التَّوبة، وإلى رحمةِ الله تعالى، وحينَ يتوبُ الإنسانُ وينشغلُ بذِكرِ رحمةِ الله تعالى، يحصُل قلبُه على السَّكِينة والطُّمَأْنينة، على أيةِ حال سواءٌ كان الخوفُ من غَضَبِ الله تعالى أم الأملُ في رحمتِه، كلاهما يكونُ سببًا في طُمَأْنينةِ القلب والنَّجاة في الآخِرة، مثلَما روَى سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه، **أنّ النّبيَّ ـ ﷺ ـ دَخَل على شابٍّ وهو في الموتِ فقال: «كيف تَجِدُك؟». قال: أرجو اللهَ يا رسولَ الله وأخافُ ذنوبي. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يجتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مِثل هذا الموطِن إلّا أعطاه اللهُ ما يَرجو وآمَنَه ممّا يخاف»**[1].

بعضُ الأحاديثِ النَّبويّةِ فيما يتعلَّقُ بذِكرِ اللهِ تعالى:

١ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «إذا مرَرتُم برياضِ الجنّة فارتَعُوا»، قالوا: يا رسولَ الله، وما رياضُ الجنّة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكر»[2].

٢ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «إنّ لكلّ شيءٍ سقالةً (جلاءً)، وإنّ سقالَةَ (جلاءَ) القلوبِ: ذكرُ الله عزَّ وجلَّ»[3].

٣ـ قال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «أكثِروا ذِكْرَ الله حتّى يقولوا: مجنون»[4].

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ١٣ برقم ٤٢٦١.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي، ١: ٣٩٨.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، ١: ٣٩٦.

(٤) مسند أحمد، ٣: ٦٨.

٤ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسـلّم: «أكثِـروا ذِكْرَ الله حتّى يقولَ المنافقون: إنّكم مُراءون»[١].

٥ـ قال أبو سعيد: خَرَج رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يومًا على حَلَقةٍ من أصحابِه، فقال: «ما أجلَسَكم؟»، فقالوا: جَلَسْنا نذكُرُ اللهَ ونحمَدُه على ما هدانا للإسلام، قال: «آللهِ ما أجلَسَكم إلّا ذلك؟» ـ قولُه: آلله، بالجرِّ والمدِّ على القَسَم، أي: بالله ما أجلَسَكم ـ قالوا: بالله ما أجلَسَنا إلّا ذاك. قال: «أما إنّي لم أستَحلِفْكم تُهمةً، ولكنْ أتاني جَبرائيلُ فأخبَرني أنّ اللهَ يُباهي بكم الملائكةَ»[٢]، ولمزيدٍ من التفصيل عن الذِّكر راجعِ الحاشيةَ رقم **١٠٩** من سُورة البقرة **(٢)**.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾

٣٩ـ الذين آمَنوا وعمِلوا الصّالحاتِ لهم البُشْرى بالجنَّة، وهي مصيرٌ رائع، وفي الجنّة شجرةٌ كبيرةٌ للغاية اسمُها طُوبَى، سيَسعَدُ أهلُ الجنّةِ كثيرًا عندَ رؤيتِها.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

٤٠ـ يا أيُّها النبـيُّ الحبيبُ ﷺ، لـقد جعَلْناك نبيًّا مِثلَ الأنبـياءِ السّابقـينَ عليهمُ السَّلام، وأرسَلناكَ إلى أُمةٍ من الأُمم، وقد سَبَقت هذه الأُمّةَ أُممٌ أخرى، حتى تتلوَ عليهم كلامي، وحين دَعا النبيُّ ﷺ قُريشًا إلى الإسلام قائلًا لهم أنْ يسجُدوا للرحمن، فقالت له قُريشٌ: من ذلك الرَّحمنُ؟ إنّنا لا نؤمنُ به، فقال لهم النبيُّ ﷺ: إنه ربِّي، ولا يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، وهو واحدٌ أحَدٌ، ولكنّ صفاتِه

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ١: ٣٩٧.

(٢) تفسير روح البيان.

كثيرة، وقد توكَّلتُ عليه هو، وهو الذي سنَرجعُ إليه جميعًا[(١)].

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾

٤١- كان كُفّارُ مكّةَ يطالبونَ إنْ كان القرآنُ المَجيدُ صادقًا، أن يُزيحَ اللهُ الجبالَ من مكانِها، وينظِّفَ الأرضَ منها، وأن يجعَلَنا نكلِّمُ الموتَى، فنَزَلت هذه الآيةُ بأنّ اللهَ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، ولو أراهم اللهُ تعالى هذه المعجزاتِ عن طريقِ القرآن الكريم لَما آمَنوا؛ لأنّهم قد رأَوْا معجِزاتٍ عديدةً من قبلُ، لكنَّهم لم يؤمنوا بسببِ تعصُّبِهم، وقد مرَّ مثلُ هذا المفهوم في الآية رقم ١١١ من سُورة الأنعام (٦) فراجِعْه.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

٤٢- ألا يَعلَمُ أهلُ الإيمان - أي: إنّهم يَعلَمونَ فعلًا - أنّ اللهَ تعالى لو أراد لَهدى الناسَ جميعًا عَنْوةً، ولكنّ هذا ينافي حِكمتَه، فهو يريدُ أن يَقبَلَ الإنسانُ الهدايةَ بنفسِه وبرضاه، وإذا أصَرَّ أهلُ مكّةَ على مخالفةِ الإسلام هكذا، فسوف تنزلُ بهم المصائبُ دائمًا، وسوف يظَلُّ الإسلامُ ينتشرُ دائمًا، وسوف يَنهزِمُ هؤلاءِ دائمًا، إلى أن يأتيَ وعدُ الله، أي: تُفتحَ مكّةُ، أو حتى قيام الساعة.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن

---

(١) «وقال ابن عبّاسٍ: نزلت في كفّار قريشٍ حين قال لهم النّبيّ ﷺ: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قالوا: وما الرحمن؟ فنزلت. (قل) لهم يا محمّد: الّذي أنكرتم. (هو ربّي لا إله إلّا هو) ولا معبود سواه، هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. (عليه توكّلت) واعتمدت ووثقت. (وإليه متاب) أي: مرجعي غدًا، واليوم أيضًا عليه توكّلت ووثقت، رضًا بقضائه، وتسليمًا لأمره». القرطبي.

يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

٤٣ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لا تحزَنْ ولا تغتمَّ بسببِ مخالفةِ الكُفّارِ لك، فقدِ استهزَأَتِ الأُممُ السّابقةُ أيضًا برُسُلِهم، فأمْهلتُهم لكي يُصلحوا أنفسَهم، ولكنْ حينَ لم يَرجعوا عن عنادِهم وتعنُّتِهم، لهذا فقد أخَذتُهم، وعذَّبتُهم عذابًا جَعَل قُراهم ومساكنَهم آيةَ عِبرةٍ حتى اليوم، وكُفّارُ مكّةَ الآنَ يمُرُّونَ بهذه المرحلة، فإنْ لم يَرجعوا عن عنادِهم، فسوف يلقَوْنَ سوءَ المصير، وبالفعل، حَدَث ذلك، فقد مَحَا اللهُ تعالى كلَّ أثرٍ للكُفرِ والشِّرك من مكّةَ بعدَ فتحِها، بحيثُ أنه قد مضَى على هذا الأمرِ أكثرُ من ألفٍ وأربعمائة عام، ولا يمكنُ أن يَدخُلَ مُشركٌ هناك.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾

٤٤ـ إنه اللهُ تعالى، الذي يَعلَمُ كلَّ شيء، وهذه الأصنامُ التي لا تَعلَمُ شيئًا عن نفسِها، كيف يمكنُ أن تكونَ هذه الأصنامُ شركاءَ لله تعالى؟ إنّ اللهَ تعالى لم يصنَعِ اللاتَ ومَناةَ هذَيْنِ، ولو صنَعَهما هو لَعَلِم بشركائه هؤلاء، ولهذا فإنّ هذه أسماءٌ وَضَعَها آباؤكم وأجدُادكم، أو أنّها أوهامٌ من قولِكم، ولا علاقةَ لها بالحقيقةِ من

قريبٍ أو بعيد، والحقيقةُ أنّ هذا عنادٌ منهم، زَيَّنه الشّيطانُ لهم، وهو الذي يمنَعُهم من سلوكِ الطّريق المستقيم، والآنَ قد وَصَلوا إلى قمّةِ الضَّلال، بحيثُ لا يمكنُ أن يَهديَهم هادٍ، ولهذا سيَذوقُونَ في الدُّنيا عذابَ الهزيمةِ في نهايةِ الأمر، ولكنّ عذابَ الآخِرة أكثرُ شدّةً وقسوةً، ولن يكونَ لديهم يومَئذٍ مَن يُنقِذُهم من العذاب.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾

٤٥ـ الذين آمَنوا بالقرآنِ المَجيد، يَفرَحونَ بما يَنزِلُ إليهم من أحكامِه، لكنّ بعضَ المنكِرينَ لا يؤمنونَ بالقرآنِ كلِّه، وبعضُهم يُنكرُ بعضَه فقطْ ممّا لا يتَّفقُ معَ رغَباتِهم، فيا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، أعلِنْ عليهم أنّكم سواءٌ آمنتُم بالقرآنِ الكريم أم لم تؤمنوا به، فقد أُمِرتُ على أيِّ حال أن أعمَلَ بالقرآن، ولهذا فإنّي عاملٌ به ومتَّبِعُه، وسوف أظَلُّ أدعو إليه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴾

٤٦ـ مثلَما أَنْزلنا الكتُبَ على الرُّسُل السّابقينَ بلُغاتِهم المحليَّة، أَنْزلنا عليك كذلك القرآنَ الكريم؛ لأنّ المخاطَبينَ الأُوَل لكَ هم العرب، حتى يُمكنَهم فَهْمُ أحكام القرآنِ الكريم بسهولةٍ ويُسر، وكلُّ أحكام القرآنِ المَجيد واضحةٌ وأبَديَّة، ومن يتَّبعْ رَغَباتِ الكُفّار بعدَ مجيءِ هذه الأحكام الواضحة، لن يجدَ مَن يُنقذُه من عذابِ الله تعالى يومَ القيامة.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

٤٧ـ من بينِ الاعتراضاتِ العجيبةِ التي كان المشركونَ يُثيرونَها: أنّ النبيَّ ليس في حاجةٍ إلى الزَّوجة والأولاد؛ لأنه يجبُ أن ينشغلَ دائمًا بالدعوة، أمّا الاعتراضُ الثاني فكان: لو أنك نبيٌّ حقًا، لماذا لا تُرينا المعجِزاتِ التي نَطلُبُها منك؟

وقد جاء الردُّ على هذَيْنِ الاعتراضَيْنِ في هذه الآية بأنّ الأنبياءَ الكرامَ السّابقينَ لم يكونوا ملائكةً كذلك، وإنّما كانوا بشَرًا، وكانت لهم زوجاتٌ وأولاد، كما أنّ الأنبياءَ السّابقينَ عليهم السَّلامُ أيضًا لم يكونوا يأتُونَ بمعجِزةٍ إلّا بإذْنِ الله تعالى، وإنّما كان اللهُ تعالى يأذَنُ لهم فيأتُونَ بالمعجِزة، واللهُ تعالى قد كَتَب عندَه الأوانَ المناسبَ لكلِّ عملٍ طِبقًا لحِكمتِه، وسيقَعُ هذا الأمرُ طبقًا للوقتِ المحدَّد له.

﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

٤٨ـ كَتَب اللهُ تعالى رزقَ كلِّ إنسانٍ وعمُرَه وأعمالَه عندَه في اللَّوح المحفوظ، ويمحو ما يشاءُ طِبقًا لحِكمتِه، ويُبقي كذلك ما يشاء، مثلَما جاء في القرآنِ الكريم ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ [يوسف: ٢١]، وتؤيِّدُ الأحاديثُ النَّبويّةُ التاليةُ هذا المعنى:

١ـ عن عليٍّ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ أنه سألَ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية، فقال له: «لأُقِرَّنّ عَينَيْكَ بتفسيرِها ولَأُقرَّنَّ عينَ أُمّتي بعدي بتفسيرِها: الصّدَقةُ على وَجْهِها

وبِرُّ الوالدَيْن واصطناعُ المعـروفِ يُـحوِّلُ الشّـقاءَ سـعادةً ويزيـدُ في الـعمُر ويَقِـي مصارعَ السُّوء»[١].

٢ـ قال رسولُ الله ﷺ: «مَن سرّه أن يُبسَطَ له في رزقِه، وأن يُنسَأَ له في أثَرِه، فلْيصِلْ رَحِمَه»[٢].

٣ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الرّجُلَ لَيُحرَمُ الرّزقَ بالذّنبِ يصيبُه، ولا يَرُدُّ القَدَرَ إلّا الدّعاءُ، ولا يزيدُ في العمُرِ إلّا البرّ»[٣].

ويُعلَمُ من الأحاديثِ السابقة أنّ اللهَ تعالى يغيِّرُ قَدَرَ الإنسانِ بسببِ الدُّعاءِ والأعمال الصَّالحةِ المختلفة، ولهذا قال سيّدُنا عُمرُ بن الخطاب رضيَ اللهُ عنه، وهو يطوفُ بالكعبةِ باكيًا، فيما رواهُ أبو عُثمانَ النَّهدِيُّ: «**اللّهُمّ إن كنتَ كَتبْتَني في أهل السّعادة فأَثْبِتْني فيها، وإن كنتَ كَتبْتَني في أهل الشّقاوةِ والذّنب فامحُني وأَثْبِتْني في أهل السّعادةِ والمغفرة، فإنّك تمحو ما تشاء وتُثبِت، وعندَك أُمُّ الكتاب**»[٤]، وهذا العبدُ الفقيرُ يردِّدُ ما قاله سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضيَ الله عُنه اقتداءً به: «**اللّهُمَّ إن كنتَ كتَبْتَني في أهل السّعادةِ فأَثْبِتْني فيها، وإن كنتَ كتَبْتَني في أهل الشّقاوةِ والذّنب فامحُني وأَثْبِتْني في أهل السّعادةِ والمغفرة، فإنّك تمحو ما تشاءُ وتُثبِت، وعندَك أمُّ الكتاب**»، اللهمَّ آمينَ بجاهِ حبيبِك الكريم عليه التحيَّةُ والتسليم.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾

٤٩ـ أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، سينتشرُ نورُ الإسلام، وسوف يُواجهُ هؤلاءِ

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ١٢ برقم ٥٩٨٥.

(٣) مسند أحمد، ٥، ٢٧٧، والمستدرك للحاكم، ١: ٦٧٠.

(٤) تفسير القرطبي.

الكُفّارُ عذابَ الهزيمة، وسوف تَرى بعضَ مظاهرِ هزيمتِهم هذه في حياتِك الدُّنيَويّةِ الظاهريَّة، وبعضُها سيتحقَّقُ بعدَ ذلك، على أيِّ حال لا تحزَنْ ولا تغتمَّ بسببِ مؤامراتِ الكُفّار؛ لأنّ واجبَك هو توصيلُ الرسالة، أمّا حسابُهم فعلينا نحن، وسوف نأخُذُهم في الوقتِ المناسب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

٥٠ـ رَغْم أنّ هذه السُّورةَ مكِّية، لكنّ هذه الآيةَ تبدو مَدَنيّة، بمعنى: أنّ الإسلامَ كان ينتشرُ بينَ العرب، وعدَدُ المشركينَ يتناقَصُ يومًا بعدَ يوم، فهل هناك عذابٌ في الدُّنيا أشدُّ على المشركينَ من أنّ الأرضَ تضيقُ بهم من كلِّ جانب؟ وحُكمُ الله ينفُذُ لا محالَة، وعندَما يحينُ وقتُه، لا يمكنُ لأحدٍ أن يؤجِّلَه أو يؤخِّرَه أو يمنَعَه.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

٥١ـ هذا ليس بالأمرِ الجديد، فالمُنكِرونَ قبلَ مشركي مكّةَ أيضًا كانوا يتآمَرونَ على أنبيائهم، واللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم عَملَ كلِّ إنسان، ويَجزيه بما يستحِقُّه طبقًا لعملِه، وسوف يلقَى هؤلاءِ المشركونَ أيضًا جزاءَ أعمالِهم قريبًا، ومصيرُهم في الآخِرة في غايةِ السُّوء.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

٥٢ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، الكُفّارُ لا يؤمنونَ بك نبيًّا، فقلْ لهم: سواءٌ

آمنتُم بي نبيًّا أم لم تؤمنوا، تكفيني شهادةُ ربِّي على أنّي نبيٌّ، وهو الذي أيَّد صِدقي بالمعجِزات من عندِه، وتكفيني كذلك شهادةُ كلِّ شخصٍ لديه عِلمُ القرآن المَجِيد.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده
جامعة الكرَم

بعدَ صلاةِ ظهرِ يوم الأربعاء السابع من فبراير عام ٢٠٠٧م، الموافقِ الثامنَ عشَرَ من شهرِ محرَّم الحرام عام ١٤٢٨هـ
وقد اكتَمَل تفسيرُ سورة الرَّعد في نحو ستةَ عشَرَ يومًا
والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١٤) سورة إبراهيم

هذه السُّورةُ مكِّيّة، وبعضُ آياتِها مَدَنيّة؛ لأنّها نَزَلت بعد الهجرة، وفي الآيةِ رقم **٣٥** منها جاء ذِكرُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، ولهذا سُمِّيت سُورةَ «إبراهيم».

في بدايةِ هذه السُّورة قال اللهُ تعالى للنبيِّ الكريم سيّدِنا محمّدٍ ﷺ: لقد أَنْزلنا إليكَ هذا القرآنَ المَجِيدَ لكي تُخرجَ الناسَ من ظُلُماتِ الضَّلال إلى نورِ الهداية، ولقد أرسَلْنا كلَّ رسولٍ إلى قومِه بلُغتِهم، حتى يبيِّنَ لهم كلامَ الله تعالى بوضوح، ويُسهِّلَ على الناسِ فهْمَ رسالةِ ربِّهم.

وقد أَنْزل اللهُ تعالى التَّوراةَ على سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ أيضًا، وأرسَلَه نبيًّا لكي يُخرجَ قومَه من ظُلُماتِ الضَّلالِ إلى نورِ الهداية، ويُشعِرَهم بنِعمة اللهِ عليهم حين أَنْجاهم من ظُلمِ فرعَونَ لهم، حتى يشكُروا اللهَ تعالى على ذلك، وإذا لم يرجِعوا عن عصيانِهم لله تعالى، فإنّهم سيُصيبُهمُ العذابُ مثلَما أصابَ الأُممَ من قبلِهم، والذين لا يخافونَ من عذابِ الله تعالى، ويقَعونَ فريسةً لحبائل الشَّيطان، سيقولُ لهمُ الشَّيطانُ يومَ القيامة: إنّ الوعدَ الذي وَعَدَكم اللهُ تعالى إياه كان وعدًا صادقًا، أمّا الوعدُ الذي وعدتُكم أنا فقد كان كاذبًا، وقد خَلَفْتُه، لكنّي لم أُجبِرْكم على شيء، وإنّما رغَّبتُكم فقطْ إلى السِّيئة، فأطعتُموني فورًا، ولهذا لا تلوموني أنا، ولكن لوموا أنفُسَكم بأنّكم لم تَستخدِموا عقولَكم، وتفكّروا فيما ينفَعُكم وفيما يضُرُّكم.

وتبدأُ من الآية رقم **٣٥** من السُّورة سلسلةٌ من الأدعِية الإيمانيَّة لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السلام، والتي يدعو فيها لمكّةَ المكرَّمةِ وبيتِ الله وذُرِّيتِه والناسِ أجمعينَ بالخيرِ والبركة، ومن بينِ هذه الأدعِية: ذلك الدُّعاءُ المعروفُ الذي يدعو به المسلمونَ بصفةٍ عامّةٍ في آخِر كلِّ صلاةٍ وقبلَ السلام: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾.

جامعة الكرم، بريطانيا

من بعدِ صلاة العشاءِ ليوم الأربعاء السابع من فبراير عام ٢٠٠٧م

الموافق الثامنَ عشَرَ من شهر محرَّم الحرام عام ١٤٢٨هـ

الفقيرُ إلى الله:

محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزَاده

❊ ❊ ❊

سُورَةُ إبراهيم (١٤)، مكية (٧٢)، آياتها (٥٢)، ركوعاتها (٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

﴿الٓر﴾

١ـ هذه حروفٌ مقطَّعة، وهي سرٌّ بينَ الله تعالى وحبيبِه المكرَّم ﷺ، ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح راجِع الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة (٢).

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

٢ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، الغَرَضُ من إنزالِ القرآنِ المَجيدِ عليك هو: أنْ تُخرجَ الناسَ من ظُلُماتِ الضَّلال، وتُعرِّفَهم على نورِ الهداية، والمرادُ بالنُّورِ هنا: ذلك الطريقُ الذي يأخُذُ بالإنسانِ إلى الله تعالى.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

٣ـ الذين يظُنُّونَ أنّ هذه الحياةَ الدُّنيا هي كلُّ شيء، وينسَوْنَ الآخِرةَ، والذين يمنَعونَ الناسَ من طريقِ الله تعالى، ويبحثونَ عن نقائصَ في الإسلام، بمعنى: أنّهم ضالُّون، ويعمَلونَ على إضلالِ الآخَرينَ أيضًا، هؤلاء جميعًا لهم عذابٌ عظيم، وهؤلاء هم الذين تَوغَّلوا في الضَّلالِ إلى الحدِّ الذي يصعُبُ معَه عودتُهم إلى طريقِ الهداية ثانية.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾

٤ـ بما أنّ المستهدَفينَ الأُوَلَ لكلِّ نبيٍّ هم أولئك الذين أرسَلَه اللهُ تعالى إليهم، لهذا يُنزِلُ اللهُ تعالى وحيَه على هذا النبيِّ بلُغةِ قومِه، حتى يَسهُلَ فهْمُه وتفهيمُه، ثم إن الذين يتدبَّرونَ كلامَ الله تعالى يفَتحُ اللهُ لهم أبوابَ الهداية فيؤمنون، والذين يُعرِضونَ عنه بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم، يترُكُهم اللهُ تعالى في ضلالِهم يعمَهون.

والمخاطَبونَ الأُوَلُ لسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ هم العَرَبُ، ولهذا نَزَل الوحيُ باللُّغةِ العربيّةِ فقط، والحقيقةُ أنّ النبيَّ ﷺ نبيٌّ للمخلوقاتِ كلِّها ورحمةٌ لهم، ولهذا كان ﷺ يَعرِفُ لغاتِ البشَر والجنِّ والحَيواناتِ والأشجار، مثلَما وَرَد في الأحاديثِ النَّبويّةِ التالية:

١ـ عن أنسِ بن مالكٍ، قال: كان أهلُ بيتٍ من الأنصارِ لهم جملٌ يَسْنُونَ عليه، وإنّ الجَمَل استَصعَب عليهم، فمَنَعهم ظهرَه، وإنّ الأنصارَ جاءوا إلى رسولِ الله ﷺ فقالوا: إنّه كان لنا جَمَلٌ نَسْنَى عليه، وإنّه استَصعبَ علينا، ومنَعَنا ظهرَه، وقد عَطِش الزّرعُ والنّخلُ، فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابِه: «قوموا»، فقاموا، فدَخَل الحائطَ والجملُ في ناحيتِه، فمشَى النّبيُّ ﷺ نحوَه، فقالت الأنصار: يا رسولَ الله، إنّه قد صار مِثلَ الكلبِ الكَلِب، وإنّا نخافُ عليكَ صَوْلَته، فقال: «ليس عليَّ منه بأسٌ». فلمّا نَظَر الجَملُ إلى رسولِ الله ﷺ أَقْبل نحوَه، حتّى خَرَّ ساجدًا بينَ يدَيْه، فأخَذ رسولُ الله ﷺ بناصِيتِه أذَلَّ ما كانت قطُّ، حتّى أدخَلَه في العمَل. فقال له أصحابُه: يا نبيَّ الله، هذه بهيمةٌ لا تعقِل، تسجُدُ لكَ ونحن نَعقِل! فنحن أحقُّ أن نسجُدَ لك، فقال: «لا يَصلُحُ لبشَرٍ أن يسجُدَ لبشَرٍ، ولو صَلُح لبشَرٍ أن يَسجُدَ لبشَرٍ، لَأمرتُ المرأةَ أن تَسجُدَ لزوجِها، من عُظْم حقِّه عليها»(١).

٢ـ عن عبدِ الله بن يَعْلَى عن أبيه عن جدِّه، قال: رأيتُ من النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم ثلاثةَ أشياءَ ما رآها أحدٌ قَبْلي: كنتُ معَه في طريقِ مكّةَ فمرَّ على امرأةٍ معَها ابنٌ لها به لَمَمٌ ما رأيتُ لَمَمًا أشدَّ منه، فقالت: يا رسولَ الله، ابني هذا كما ترى، قال: «إن شئتِ دعوتُ له»، فدعا له ثم مضَى، فمرَّ عليه بعيرٌ مادٌّ جِرانَه يَرْغو، فقال: «عليّ بصاحبِ هذا»، فجاء، فقال: «هذا يقولُ: نَتَجتُ عندَهم واستعمَلوني حتّى إذا كبِرتُ أرادوا أن ينحَروني»، ثمّ مضى، فرأى شجرتَيْنِ متفرِّقتَيْنِ، فقال لي: «اذهَبْ فمُرْهما فلْتجتمِعا»، فاجتَمَعتا، فقضَى حاجتَه وقال: «اذهَبْ فقلْ لهما يتفرّقا»، ثم مضَى، فلما انصَرفَ مرَّ على الصبيِّ وهو يلعبُ معَ الصِّبيان، وقد هيَّأَتْ أُمُّه ستةَ أكبُش فأَهْدت له كبشَيْنِ، وقالت: ما عاد إليه شيءٌ من اللَّمَم، فقال

---

(١) مسند أحمد، ٣: ١٥٨.

رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «ما مِن شيءٍ لا يَعلَمُ أنّي رسولُ الله إلّا كَفرةُ أو فَسَقةُ الجنِّ والإنس»[١].

٣ـ عن أنسِ بن مالك، قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على قوم قد أصابوا ظَبْيةً فشَدُّوها إلى عَمُودِ فُسطاط، فقالت: يا رسولَ الله، إنّي وَضَعتُ ولي خشفان فاستأذِنْ لي أن أرضَعهما حتّى أعودَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «خَلُّوا عنها حتّى تأتيَ خشفَيْها فتُرضعَهما وتأتيَ إليكم»، قالوا: ومَن لنا بذلك يا رسولَ الله؟ قال: «أنا»، فأطلَقُوها، فذهَبتْ فأرضَعَتْ ثمّ رَجَعت إليهم فأوثَقُوها[٢]، ويقولُ سيّدُنا زيدُ بن أرقمَ رضيَ اُلله عنه: **فقال له رسولُ الله ﷺ: «أتبيعُنيها؟» قال: هي لكَ يا رسولَ الله، فأطلَقَها رسولُ الله ﷺ. قال زيدُ بنُ أرقم: فأنا ـ والله ـ رأيتُها تَسِيحُ في البَرِّيّة، وتقول: لا إلَه إلّا الله محمّدٌ رسولُ الله**[٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

٥ـ أعطى اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ التَّوراةَ والمعجِزات، وأرسَلَه نبيًّا لكي يَهديَ قومَه إلى طريقِ النُّور، ويُعلَمُ من الآية رقم **٤٩** من سُورة آل عِمرانَ **(٣)** أنّ اللهَ تعالى قد أعطَى سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ المعجِزاتِ وأرسَلَه إلى قومِه، أي: إلى بني إسرائيل، لكنّه لم يقُلْ أبدًا فيما يتعلَّقُ بسيّدِنا محمدٍ ﷺ: إنه أرسَلَه إلى العرب، أو إلى قومِه، بل إنه أعلَن في الآيةِ الأُولى من هذه السُّورةِ أنه أَنْزلَ القرآن الكريمَ على النبيِّ ﷺ حتى يَهديَ الناسَ جميعًا إلى طريقِ النور.

ويُعلَمُ منه أنّ النبيَّ ﷺ لم يُبعَثْ إلى منطقةٍ بعَيْنِها، أو إلى قوم بعَيْنِهم،

---

(١) المعجم الكبير، **٢٢: ٢٦١**.

(٢) الخصائص الكبرى، **٢: ٦١**.

(٣) دلائل النبوة، الإمام البيهقي، **٦: ٣٥**.

وإنّما إلى البشَر كافّةً حتى يومِ القيامة، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٨٤ من سُورة الأعراف (٧).

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

٦- أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ إلى قومِه، حتى يُذكِّرَهم بنِعَم اللهِ تعالى عليهم، وبأحوالِ الأُمم السّابقة؛ لأنّ بها علاماتٍ كبرى للصّابرينَ على المصائبِ الكبيرة، وكذا للشاكرينَ على النِّعم العظيمة.

بعضُ الأحاديثِ النَّبويّة عن الصَّبرِ والشُّكر:

١- قال النبيُّ ﷺ في شرح هذه الآية: «**الإيمانُ نصفان؛ نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكر**»[١].

٢- **قال رسولُ الله ﷺ: «عَجَبًا لأمرِ المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إن أصابَتْه سَرّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرّاءُ صَبَر فكان خيرًا له»**[٢].

٣- قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ اللهَ عزّ وجلّ قال: يا عيسى ابنَ مريم، إنّي باعثٌ بعدَكَ أُمّةً إنْ أصابَهم ما يُحبّونَ حَمِدوا وشَكَروا، وإن أصابَهم ما يكرهونَ احتَسَبوا وصَبَروا، ولا حِلم ولا عِلم. قال: يا ربّ، كيف يكونُ لهذا لهم ولا حِلم ولا عِلم؟ قال: أُعطيهم من حِلمي وعِلمي**»[٣].

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٢٩٩٩.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، برقم ٤٤٨٢، ٤: ١٥، والمستدرك للحاكم، ١: ٤٩٩ برقم ١٢٨٩.

٤ـ قال رسولُ الله ﷺ: «خَصْلتانِ مَن كانتا فيه كتَبه اللهُ شاكرًا صابرًا ومَن لم تكونا فيه لم يَكتُبْه اللهُ شاكرًا ولا صابرًا: مَن نَظَر في دينِه إلى مَن هو فوقَه فاقتدَى به، ونَظَر في دُنياه إلى من هو دونَه فحَمِد اللهَ على ما فَضَّله به عليه كَتَبه اللهُ شاكرًا صابرًا، ومَن نَظَر في دينِه إلى مَن هو دونَه ونَظَر في دُنياهُ إلى مَن هو فوقَه فأَسِفَ على ما فاتَه منه لم يَكتُبْه اللهُ شاكرًا ولا صابرًا»(١).

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾

٧ـ أخبرَ المنجِّمونَ فِرعونَ أنه سيولَدُ طفلٌ في بني إسرائيلَ يقضي على سُلطانِك، ولهذا أمَرَ فرعونُ بقَتْل كلِّ طفلٍ يولَدُ في بني إسرائيل، وذَبْحُ الأطفالِ الصِّغار أمامَ أعيُن آبائهم وأُمّهاتِهم ابتلاءٌ ما بعدَه ابتلاء، وقد ذَكَّر سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ قومَه بأنّ اللهَ تعالى نَجّاهم من مظالم فِرعَون، ولهذا ينبغي لهم أن يشكُروا اللهَ تعالى.

وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ

---

(١) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٥٨ برقم ٢٥١٢.

ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

- بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآية قانونًا عامًّا، وهو: أنّ الذين يشكُرونَ اللهَ تعالى على نِعَمِه، يزيدُ اللهُ تعالى في النِّعَم عليهم، وقد يكونُ المرادُ بالإضافةِ أو الزيادةِ هنا في النِّعم الدُّنيويّة، وقد يكونُ المرادُ الزيادةَ في الأَجْرِ والثّوابِ في الآخِرة مثلَما تقتضي حِكمةُ الله تعالى.

بعض الأحاديث النبوية عن الشكر:

١- يقولُ سيّدُنا المُغيرةُ بنُ شُعبةَ رضي اللهُ عنه: قام النّبيُّ ﷺ حتّى تورَّمت قدَماه، فقيل له: غَفَر اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخّر، قال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»[١].

٢- عن أبي بَكْرةَ، أنّ النّبيَّ - ﷺ - كان إذا أتاه أمرٌ يسُرُّه أو يُسَرُّ به خَرَّ ساجدًا شكرًا لله تبارك وتعالى[٢].

٣- قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «مَن لم يشكُرِ النّاسَ لم يُشكر اللهَ»[٣].

٤- عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «للطّاعم الشّاكرِ مِثلُ ما للصّائم الصّابر»[٤].

(١) البخاري، تفسير القرآن، سورة الفتح (٤٨) برقم ٤٨٣٦.

(٢) ابن ماجه، ١٣٩٤، إقامة الصلاة، باب ١٩٢.

(٣) مسند أحمد، ٤: ٢٧٨.

(٤) شعب الإيمان، البيهقي، ٤: ١١١ برقم ٤٤٦١.

٥ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مَن رضيَ من الله باليسيرِ من الرّزق رضيَ اللهُ منه باليسير من العَمل»(١).

٦ـ عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ «انظُروا إلى مَن هو أسفلُ منكم ولا تَنظُروا إلى مَن هو فوقَكم، فإنّه أجدَرُ أن لا تَزْدَروا نعمةَ الله عليكم»(٢).

٧ـ قال موسى عليه السّلام: كيف لي أن أشكُرَك وأصغَرُ نعمةٍ وَضَعتَها عندي من نِعَمِك لا يُجازِي بها عمَلي كلُّه؟ قال: فأتاه الوَحيُ أنْ يا موسى: الآنَ شكرتَني(٣).

٨ ـ يقـولُ سيّـدُنا المُغيـرةُ بنُ شُعبةَ رضيَ الله عنه: إنّ داودَ عليه السَّلامُ قال: يـا ربِّ، هـل مِن بينِ مخلوقاتِك مَن قـضَى ليـلةً أطولَ منِّي في ذِكـرِك؟ فقال اللهُ تعـالى: نعـم، الضُّفـدَعة. ثم قـال تعـالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] . **وحُكـي عـن داودَ عليـه السَّلامُ أنه قـال: «أيْ ربِّ، كيـف أشكُرُك وشكري لكَ نعمةٌ مجدَّدةٌ منك علَيّ!»(٤)، وقال داودُ عليه السلام: «يا ربِّ، كيف أُطيقُ شُكرَك وأنت الّذي تُنعم عَليَّ، ثمّ ترزُقُني على النِّعمةِ الشُّكرَ، ثمّ تزيدُني في نعمةٍ بعدَ نعمةٍ، فالنِّعمةُ منك يا ربِّ، والشُّكرُ منك، وكيف أُطيقُ شكرَك؟، قال: الآنَ عرفتَني يا داوُد حقَّ معرفتي»(٥).**

٩ـ عن معاذِ بن جبلٍ، أنّ رسولَ الله ﷺ أَخَذ بيدِه وقال: «يا معاذ، والله إنّي لَأُحبُّك، والله إنّي لَأُحبُّك». فقال: «أُوصيكَ يا معاذ، لا تَدَعنَّ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ

---

(١) شعب الإيمان، ٤: ١٣٩ برقم ٤٥٨٥.

(٢) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٥٨ برقم ٢٥١٣.

(٣) شعب الإيمان، ٤: ١٠١ برقم ٤٤١٥.

(٤) القرطبي.

(٥) شعب الإيمان للبيهقي، ٤: ١٠١ برقم ٤٤١٣.

تقولُ: اللّهمّ أعِنّي على ذِكرِك وشُكرِك وحُسنِ عبادتِك»[1].

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

٩ـ الذين يجحَدونَ اللهَ تعالى ينبغي لهم أن يعلَموا أنّ عذابَ الله شديد، ويمكنُ أن يكونَ هذا العذابُ في الدنيا أيضًا، فإذا لم يَنزِلْ في هذه الدنيا لحِكمةٍ، فلن يكونَ في الآخِرة مَن يُنقذُكم من عذابِ الله تعالى.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

١٠ـ يعني: لو أنّ أهلَ الأرضِ جميعًا جَحَدوا نِعَم الله تعالى، فلن يَضُرُّوا اللهَ شيئًا؛ لأنّ اللهَ تعالى مُسْتَغْنٍ، وهو مستحِقٌّ لكلِّ ثناءٍ وفي كل حال، ويمكنُكَ الرجوعُ إلى الحاشيةِ رقم ١٧٧ من سُورة النساء (٤) لمزيدٍ من التفصيل.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

١١ـ ألا تَعلَمونَ بهلاكِ قوم سيّدِنا نوحٍ عليه السَّلامُ وقوم عادٍ وثَمُودَ، حينَ جاءتْهم رُسُلُهم بالدَّلائل والبراهينُ الواضحة، فوَضَعوا أيديَهم في أفواهِهم، وقالوا غاضبين: إنّنا لا نعترفُ بدينِكم؛ لأنّنا في غايةِ الشكِّ فيما يتعلَّقُ بهذا الدِّين.

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

١٢ـ قالتِ الرُّسُلُ للمُنكِرين: أتشكُّونَ في ذاتِ الله تعالى وفي توحيدِه، معَ

---

(١) أبو داود، كتاب الوتر، باب ٢٦ برقم ١٥٢٢.

أنه خالقُ السَّمواتِ والأرض، وهذه الكائناتُ كلُّها دليلٌ ظاهرٌ للعامّةِ والخاصّةِ على وجوده، وهو يَدْعوكم لكي يَغفِرَ لكم ذنوبَكم، ويُمهِلَكم في الحياةِ لتتفكَّروا وتتدبَّروا وتتوبوا إليه؟ لكنّ المُنكِرينَ في كلِّ زمانٍ لديهم اعتراضٌ من نوع واحد، يعني: أنّ هذا إنسانٌ مِثلُنا، فكيف يكونُ نبيًّا؟ كما أنه لا يأتينا بالمعجِزاتِ التي نطلُبُها، ولا يريدُ سوى إبعادِنا عن دينِ آبائنا وأجدادِنا، لكنَّنا لسنا بتاركينَ دينَ آبائنا وأجدادِنا أبدًا.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

١٣ـ رَغْمَ أنّ كلَّ الأنبياءِ من البشَر، لكنّ الله تعالى يختارُ لرسالتِه من يشاءُ من عباده، وهذه أعلى مرتبةٍ للإنسان، ولا يمكنُ لنبيٍّ أن يأتيَ بمعجزةٍ إلّا بإذنِ الله تعالى، واللهُ تعالى يَهدي الأنبياءَ جميعًا إلى طريق الحق، والأنبياءُ جميعًا يتوكّلونَ على الله تعالى، ولا يخافونَ من إيذاءِ المنكِرينَ لهم، وإنما يصبِرونَ على هذا الإيذاء.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

١٤ـ طلبَ المنكِرونَ من الرُّسُل أن يتَّبعوا دينَ آبائهم وأجدادِهم، وإلا سيُخرجونَهم من بلادِهم، وعليه أوحَى اللهُ تعالى إلى رُسُلِه أنِ اصْبروا على إيذاءِ المنكِرين لكم، وفي نهايةِ الأمر سيَهلِكُ المنكِرون، وبعدَ إهلاكِهم سيَسكُنُ أهلُ الإيمان هذه البلادَ، وهذا وعدٌ لكلِّ شخصٍ يؤمنُ أنه موقوفٌ بينَ يدَي الله تعالى يومَ القيامة للحساب، ولهذا يخافُ يومَ الحسابِ هذا، ولا يعصي اللهَ تعالى، وهكذا حَدَث ما وَعَد اللهُ به، فبعدَ عدّةِ سنواتٍ اضْطُرَّ المنكِرونَ إلى تَرْكِ مكّة، ولم يَسكُنْها سوى أهلِ الإيمان فقطْ.

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

١٥ـ حين تَعدَّى المنكِرونَ كلَّ حدٍّ في المخالفة، دَعَا عليهم الرُّسُلُ الكرامُ عليهم السَّلام، وقَبِل اللهُ تعالى دعاءَهم، وخابَ وفشِلَ كلُّ جبارٍ عاصٍ وعنيد.

﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴾

١٦ـ هنا يَعرِضُ اللهُ تعالى منظرًا لعذابِ الآخرة بعدَ أن عَرَض لعذابِ الدنيا، أي: سيُسقَى المُنكِرُ في جهنَّمَ قَيْحًا وصَديدًا، وبصعوبةٍ بالغة سيأخُذُ جَرْعةً واحدة، ولن يستطيعَ أن يُدخِلَها في حلقِه، وستحيطُ به المصائبُ من كلِّ مكان، حتى يُفضِّلَ الموتَ على الحياة، لكنه لن يموتَ، وإنما سيبقَى دائمًا في هذا الألم والابتلاء، فيشعُرَ بالعذابِ كلَّ لحظة.

وهذه الآيةُ بمثابةِ اللَّمحةِ الفِكريّة للعُصاةِ والمتجبِّرين:

- الآنَ يقولونَ خائفينَ: سنموت، وماذا نفعَلُ لو لم نجدِ الراحةَ بعدَ الموت؟

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

١٧ـ حينَ تهُبُّ العاصفةُ بريحِها الشَّديد، فإنّها تحملُ أكوامًا من الترابِ إلى أعلى وتنثُره هنا وهناك، بحيثُ لا يبقَى له أثر، وبنفسِ الطريقة فإنّ أعمالَ الذين لا يؤمنونَ بربِّهم تبقَى محدودةً في هذه الدنيا بسببِ كُفرِهم وشِركِهم، ولن يكونَ لهذه الأعمالِ أثرٌ يومَ القيامة، وهذا في الحقيقةِ حسرةٌ وضلالٌ شديدان.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

١٨ـ يا أهلَ مكّة، كما أنّ الأجيالَ الأُولى، يعني: آباءكم وأجدادَكم، لا وجودَ لهمُ الآنَ ولا أثَر، وأنتُم الآنَ تخلُفونَهم، فإنّ اللهَ تعالى إذا شاء أفناكم، وجاء بعدَكم بمَن يَخلُفُكم، وهذا ليس بالأمرِ العسيرِ على اللهِ تعالى؛ لأنّ الذي يخلُقُ السماواتِ والأرضَ ليس من الصَّعبِ عليه أن يُميتَكم ويأتيَ بخَلْقٍ آخَرينَ مكانَكم.

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

١٩ـ حين يجتمعُ الناسُ جميعًا يومَ القيامة، ويرى كلُّ واحدٍ منهم أعمالَه ومصيرَه، سيقولُ الضُّعفاءُ لمُضلِّيهم وزعمائهم في الكُفر: لقد أغلَقْنا أعيُنَنا واتَّبعناكم طيلةَ العمُر، فماذا يمكنُ أن تساعدونا به اليومَ لتُنقذونا من عذابِ الله تعالى؟ وعندَئذٍ يقولُ هؤلاءِ الزُّعماءُ الكُفّارُ بصوتٍ يملأُه الحسرةُ: كيف نُنقذُكم ونحن لا نستطيعُ أن نُنقذَ أنفسَنا؛ لأننا نحن أيضًا كنا ضالّين، وأَضْلَلْناكم، والآنَ نحن جميعًا في الحالتَيْنِ سواءٌ، سواءٌ جَزِعْنا أم صبَرْنا، إذ ليس هناك أيُّ إمكانيّةٍ للنّجاةِ في الحالتَيْن.

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

٢٠ـ نَقَل أكثرُ المفسِّرينَ في تفسيرِ هذه الآية روايةَ سيّدِنا عُقبةَ بن عامرٍ رضي اللهُ عنه، والتي جاء فيها أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إذا جمَع اللهُ الأوَّلينَ والآخِرين، فقضَى بينَهم، ففَرَغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضَى بيننا ربُّنا، فمن يَشفَعُ لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم ـ وذَكَر نوحًا، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى ـ فيقولُ عيسى: أدُلُّكم على النّبيِّ الأُميِّ: فيأتوني، فيأذَنُ اللهُ لي أن أقومَ إليه، فيثُورُ من مجلسي من أطيبِ ريح شَمَّها أحدٌ قطُّ، حتى آتيَ رَبِّي فيُشفِّعَني، ويَجعَلَ لي نورًا من شعرِ رأسي إلى ضُفْرِ قدميَّ، ثمّ يقولُ الكافرون هذا: قد وَجَد المؤمنونَ مَن يشفعُ لهم، فمن يَشفَعُ لنا؟ ما هو إلّا إبليسُ هو الّذي أضَلَّنا، فيأتونَ إبليسَ فيقولونَ: قد وَجَد المؤمنونَ مَن يشفَعُ لهم، فقُمْ أنت فاشفَعْ لنا، فإنك أنت أضلَلْتَنا، فيقومُ فيثورُ من مجلسِه من أنتنِ ريح شَمَّها أحدٌ قطُّ، ثم يَعظُم نَحيبُهم ﴿ وَقَالَ**

ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾»[1].

وعد الله تعالى ووعد الشيطان:

سيقولُ الشيطانُ عندَئذٍ: إنّ اللهَ تعالى وَعَدَكم أنّ يومَ القيامة سيأتي، وأنّ الجميعَ سيُبعَثُونَ من جديد، وسيُحاسَبون على أعمالِهم، فيَدخُلُ الصالحونَ الجنّةَ، ويَدخُلُ الأشرارُ النار، وأنا وَعدتُكم أنّ القيامةَ لن تقوم، وأنّ الموتَى لن يُبعَثوا من جديد، وأنه لن يكونَ هناك حسابٌ ولا غيرُه، ولهذا اجعَلُوا من حياتِكم الدُّنيا مُتعةً دونَ النظَر إلى الحلالِ والحرام، فالوعودُ التي وَعَدَكم اللهُ تعالى كانت صادقةً كلُّها، بينَما كانت وعودي كلُّها كاذبةً.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾

٢١ـ سيغضَبُ المنكِرونَ حينَئذٍ، ويقولونَ للشّيطان في لَوْم عليه أنْ لَعَنَك الله، لقد منَعتَنا من اتّباع دعوةِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام في ذلك الوقت، والآنَ تتنكَّرُ لنا بكلِّ بَجاحة! فيقولُ الشّيطانَ: وهل أجبَرتُكم على أن تتَّبعوني؟ إنّني لم أفعَلْ شيئًا سوى أنْ رغَّبتُكم في الشرّ، فاتَّبعتُموني معتقِدينَ أنّ فيه مصلحةً لكم، ولم تفكِّروا أبدًا أنَّني عدوٌّ لَدُودٌ لكم، ولهذا فلا تلوموني، وإنّما لوموا أنفُسَكم، فإذا طلَبَ منكم أحدٌ أن تُلقوا بأنفُسِكم في البحرِ لأنّ في أعماقِه جواهرَ ولآلئَ يمكنُكم إخراجُها، وأطعتُموه، ثم كان ذلك سببًا في موتِكم، فإنّ المسئولَ الأولَ عن هلاكِكم ليس ذلك الشخصَ الذي أشار عليكم بأن تُلقُوا بأنفُسِكم في البحر، وإنما المسئولُ الأولُ عن هذا هو أنتم أنفسُكم الذين ارتكبتُم هذه الحماقةَ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، برقم ١٢٢٤٥.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

٢٢ـ سيقولُ الشّيطانُ لأَتْباعِه في ميدانِ الحشر: إنّي اليومَ لا أستطيعُ أن أستغيثَ بكم، ولا تستطيعونَ أنتم أيضًا أن تَستغيثوا بي، وعليكم أن تُواجِهوا عقابَ ذنوبِكم، كما سأنالُ أنا أيضًا عذابَ تمرُّدي وعصياني، كما أنّني أوضحُ لأولئك الذين اتَّخذوا منّي شريكًا لله في الدنيا أنّني لستُ شريكًا لله، وأنكم أنتُم الذين اتَّخذتُموني شريكًا لله بحماقتِكم لا أكثرَ.

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾

٢٣ـ الجنّةُ دارُ السَّلام، وهناك سيكونُ السَّلامُ بمثابةِ التهنئة، يعني: نُهنِّئُكم أنكم أتيتُم إلى دارِ السلام، أو أنّهم يَدْعُونَ الله تعالى بعضُهم لبعضٍ من أَجْل رفع درجاتِهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

٢٤ـ المرادُ بالكلمةِ الطيِّبة: الإيمان، والمرادُ بالشَّجرةِ الطيِّبة: شجرةُ النخيل[1]، بمعنى: أنه مثلَما أنّ جُذوعَ النَّخْل ثابتةٌ في باطنِ الأرض وقويّة، ولا تستطيعُ العواصفُ اقتلاعَها من جذورها، وأغصانُها أكثرُ ارتفاعًا من أغصانِ أيِّ شجرةٍ أخرى، ولكنّ رأسَها وقمَّتَها تكونُ مُنحنيةً إلى أسفلَ، وثمارُها في المتناوَلِ دائمًا، وسواءٌ كانت هذه الثمارُ ناضجةً أم غيرَ ناضجة، وطازَجةً أم يابِسة، فهي في كلِّ حال نعمةٌ.

وبنفسِ الطريقة فإنّ أساسَ الإيمانِ يكونُ ثابتًا في أعماقِ القلبِ متجذِّرًا فيه، ولا تستطيعُ أيُّ مصيبةٍ من مصائبِ الدنيا أن تُزلزلَ هذا الأساسَ، وأخلاقُ أهل الإيمانِ

---

(١) «كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله، وشجرة طيبة: هي النخلة». تفسير ابن ابي حاتم.

وأعمالُهم تكونُ أفضَلَ من عامّةِ الناس، لكنّ أبصارَهم خاشعةٌ دائمًا من التواضُع، وكلُّ عملٍ من أعمالِ أهل الإيمان بمثابةِ العبادة، سواءٌ كانوا يؤدُّونَ الصّلاةَ، أم ينامون، فهم في حالةِ الصَّبرِ على المصائبِ وحالةِ الشُّكرِ على النِّعم، في كلِّ حال رحمةٌ كاملة.

عن سيّدِنا ابن عُمرَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنّ مَثَلَ المؤمن كمَثَل النّخلة، إن صاحبتَه نَفَعك، وإن شاوَرْتَه نفَعَك، وإن جالَسْتَه نفَعَك، وكلُّ شأنِه منافع، وكذلك النّخلةُ كلُّ شأنِها منافع**»[١].

يقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي: «**إنّما مثَّل اللهُ سبحانه وتعالى الإيمانَ بالشّجرة، لأنّ الشّجرةَ لا تستحِقُّ أن تُسمّى شجرةً، إلّا بثلاثةِ أشياءَ: عِرْقٍ راسخ، وأصلٍ قائم، وأغصانٍ عالية. كذلك الإيمانُ لا يتمّ إلّا بثلاثةِ أشياء: معرفةٍ في القلب، وقولٍ باللّسان، وعملٍ بالأبدان. واللهُ أعلم**»[٢].

فإذا قُطِّعت جذورُ الشَّجرة، يَبِسَت أغصانُها وجِذْعها، وبنفسِ الطريقة إذا انتَهى تصديقُ الإيمانِ من القلب، فإنّ أقوالَ الإنسانِ وأفعالَه تفقُد قيمتَها، ولهذا فإنّ لتصديقِ القلبِ في موضوع الإيمان هذا منزلةً رئيسة.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾

٢٥ـ المرادُ بالكلمةِ الخبيثة: الكُفر، وبالشَّجرةِ الخبيثة: شجرةُ الحَنْظَل[٣]، بمعنى: أنه مثلَما أنّ شجرةَ الحَنْظلِ تبدو جميلةً في شكلِها، ولكنْ بما أنّ جذورَها ليست في أعماقِ الأرض، وإنّما فوقَ سطحِها، لهذا يمكنُ لريح بسيطةٍ أن تقتلعَها بسهولة.

---

(١) شعب الإيمان، ٦: ٥٠٤ برقم ٩٠٧٢.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) «كلمة خبيثة: هي الشرك، وشجرة خبيثة: هي الحنظلة». تفسير ابن أبي حاتم.

وبنفسِ الطريقة، تبدو أعمالُ الكافر في ظاهرِها جميلة، ولكنْ لأنه ليس وراءها قوةُ الإيمان، لهذا ما أن يأتيَ الموتُ أحدًا من هؤلاءِ، حتى يُزيلَ أعمالَهم.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

٢٦- الذين يؤمنونَ بصِدقٍ من قلوبِهم يُنعمُ اللهُ عليهم بالاستقامةِ والثَّباتِ في الابتلاءاتِ ببركةِ هذا الإيمان، ويُهوِّنُ عليهم مراحلَ القبرِ والنشر، أما الذين لا يؤمنون، ولا يتورَّعونَ عن ارتكابِ المظالم، فإنّ اللهَ تعالى يَترُكُهم في غِيِّهم يَعمَهون.

وقد نَقَل العلّامةُ القُرطُبيُّ في تفسيرِ هذه الآية قولَ سيّدِنا سُهَيل بن عَمّار رضي الله عنه: «**رأيتُ يزيدَ بن هارونَ في المنام بعدَ موتِه، فقلتُ له: ما فَعَل اللهُ بك؟ فقال: أتاني في قبري مَلَكانِ فَظّانِ غليظان، فقالا: ما دينُك ومن ربُّك ومن نبيُّك؟ فأخَذتُ بلحيتي البيضاءِ وقلت: ألمِثلي يقالُ هذا وقد عَلّمتُ النّاسَ جوابَكما ثمانين سنةً؟**»[1]. ولمزيدٍ من التفصيل عن سؤالِ القبرِ راجع الحاشيةَ رقم **٣٠** من سُورة الأعراف (**٧**).

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

(١) تفسير القرطبي.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾

٢٧ـ أَنْعم اللهُ تعالى على أهلِ مكّةَ بنِعَمٍ متنوِّعة، فأَنْعم عليهم بالقُرب من بيتِ الله، وهو ما جَعَل العربَ جميعًا يُجِلُّونَهم ويحترمونَهم، ثم بَعَث اللهُ تعالى آخِرَ الأنبياءِ سيّدَنا محمّدًا ﷺ فيهم، وكان يجبُ عليهم بعدَ كلِّ هذا أن يشكروا اللهَ تعالى، ويؤمنوا بالنبيِّ ﷺ، لكنَّهم تعَدَّوْا كلَّ الحدودِ في جحودِهم، فلم يَجعَلوا من قومِهم مستحِقِّينَ لجهنَّم فقطْ، وإنما أَشْركوا الأصنامَ معَ الله تعالى في العبادة، ووَضَعوها في بيتِ الله، وأخَذوا يُضِلُّونَ كلَّ من يأتيهم من خارج مكّةَ أيضًا، ولهذا أيها النبيُّ الحبيبُ ﷺ قُلْ لهم: إن لم تَرجعوا عن شِركِكم هذا، فأمامَكم هذه الحياةُ القصيرةُ الفانية، استفيدوا منها كما تريدون، ولكنَّكم ستُلقَوْنَ في نارِ جهنَّم في الآخِرة، وهو مصيرٌ في غايةِ السُّوء.

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

٢٨ـ لمزيدٍ من التفصيل عن آدابِ الصَّلاةِ وفوائدِها راجع الحاشيةَ رقم ٢٠٠ من سُورة البقرة (٢)، وكذا الحاشيةُ رقم ٩٤ من سُورةِ هُود (١١).

الوساوس أثناء الصلاة:

لو أن أحدًا منّا أُتيحَ له الذَّهابُ إلى بيتِ رئيس وُزراءِ بلده، فإنه يَستجمعُ عقلَه وقلبَه، ويقدِّمُ له طلباتِه بأدبٍ جمٍّ، ولكنْ ما السببُ في أننا حين نذهبُ إلى بيتِ الله تعالى خالقِ الكائناتِ كلِّها، أي: إلى المسجد، ونرفعُ طلباتِنا إلى اللهِ تعالى أثناءَ الصلاة، فإنّ عقولَنا وأذهانَنا تُطوِّفُ بنا هنا وهناك، وهذا ـ في الحقيقة ـ ضَعفٌ في الإيمانِ يستغلُّه الشَّيطان، ويحاولُ من خلالِه تشتيتَ أفكارِنا، ولكنْ إن راعَيْنا

الأمورَ التالية، يمكنُنا التحكُّمُ في أفكارِنا أثناءَ الصلاة:

١ـ اللهُ تعالى يَرى كلَّ إنسانٍ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكان، ورَغْم أنّ إحساسَنا بهذا ـ بصفةٍ عامّة ـ يكونُ قليلًا، ولكنْ ينبغي أن يكونَ يقينُنا كاملًا حينَ نُقدِّمُ طلباتِنا في حضرةِ الله تعالى أثناءَ الصّلاة، بأنّ اللهَ تعالى يَرانا، حتى نكونَ محتاطينَ بأكبرِ قدرٍ ممكنٍ في صلاتِنا، ونؤدِّيَها بفِكرٍ غيرِ مشتَّت.

٢ـ علينا أن نَستحضرَ معانيَ ما نقرأُه في الصَّلاة بلُغتِنا الأُمِّ[1]، حتى تتدبَّرَ قلوبُنا وعقولُنا في معاني الألفاظِ العربيّة حالَ نُطقِنا لها بلسانِنا، وبهذا تنقطعُ سلسلةُ الوساوسِ والأفكارِ الدَّخِيلة.

٣ـ علينا أن نؤدِّيَ كلَّ صلاةٍ باحتياطٍ شديدٍ وكأنّها آخِرُ صلاةٍ لنا في حياتِنا؛ لأنّ من الممكِن جدًّا أن نموتَ ـ فعلًا ـ قبلَ الصّلاة التي تليها، وإذا لم نؤدِّ هذه الصلاةَ الأخيرَة بكلِّ آدابها، فبأيِّ وجهٍ نلقَى اللهَ تعالى؟ وإن قال لنا اللهُ تعالى: إنكم لم تؤدُّوا حقَّ الصَّلاة بالوقوفِ أمامي في المسجد، فماذا يكونُ جوابُنا؟

٤ـ قال نبيُّنا الكريمُ ﷺ ما معناه أنّ أكبرَ لصٍّ هو الذي يَسرِقُ في الصلاة، ولمّا سُئل: من هو سارقُ الصّلاة؟ قال: الذي لا يؤدِّي حقَّ ركوعِها وسجودِها، وما يستحِقُّ التأمُّلَ هنا إنه إذا كان ضيفُنا أو أستاذُنا يرانا ونحن نُصلِّي فإنّنا نؤدِّي الصّلاةَ بكلِّ اطمئنانٍ وهدوء، أمّا إذا كان الذي يَرانا هو اللهُ تعالى خالقُ الكائناتِ كلِّها، فإننا لا نؤدِّي الصَّلاةَ بخضوعٍ ولا اهتمام كما ينبغي، وهذا أمرٌ في غايةِ الخطأ.

٥ـ عندما نقفُ في الصَّلاةِ نوجِّهُ أنظارَنا إلى موضع سجودِنا، وبهذا لا نَرى المصلِّيَ الذي يقفُ في الصَّفِّ أمامَنا، وحين نجلسُ في الصّلاةِ نوجِّهُ أنظارَنا إلى حُجورِنا، وبذا لا نرى من يجلسُ في الصفِّ أمامَنا، وهكذا عندَما تكونُ مساحةُ

---

(١) المقصود فيما لو كان المصلي من غير أهل اللغة العربية، ولا يفهمها. (المترجم).

النظرِ محدودةً تقِلُّ الوساوسُ والأفكارُ الدَّخيلةُ على أذهانِنا، والعكسُ صحيح أيضًا، إذا وَجَّهنا أنظارَنا ونحن نُصلِّي إلى الأمام، فسوف نرى المسجدَ كلَّه، وكذا كلَّ المصَلِّينَ أمامَنا، وتتزاحمُ الأفكارُ على أذهانِنا باختلافِ المناظِر التي نراها، وهو ما يقطَعُ تسلسلَ الخشوع والخضُوع في صلاتِنا، ويشتِّتُ تفكيرَنا.

﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

٢٩ـ لمزيدٍ من التفصيل عن الإنفاقِ سرًّا وعلانِيَةً راجعِ الحاشيةَ رقم **٢٣٢** من سُورة البقرة (**٢**).

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾

٣٠ـ صداقاتُ أهلِ الإيمانِ فيما بينَهم تبقَى حتى بعدَ موتِهم، ويمكنُ لكَ في هذا السِّياق أن تراجِعَ الحاشيةَ رقم **٢١٧** من سُورة البقرة (**٢**)، والحاشيةَ رقم **٣٢** من سُورة الرَّعد (**١٣**).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

٣١ـ أيُّها الناسُ، لقد هيَّأَ اللهُ تعالى لكم سُبُلَ الحياةِ وضروريّاتِها قبلَ أن يخلُقَكم، فهذه الأرضُ، والسَّماءُ، والثِّمار، والقمرُ، والشّمسُ، والأنهارُ، والبحار، وتعاقُبُ اللّيل والنَّهار، كلُّها لمنافِعكم، ثم بعدَ أنْ خَلَقَكم، خَلَقَ لكم الأسبابَ التي تُحقِّقُ لكم رغَباتِكم وما تقتضيه فِطرتُكم، وباختصار: فإنّ أفضالَه تعالى عليكم أكثرُ بكثيرٍ من أن تَعُدُّوها أو تُحصُوها، وبالتالي كان ينبغي لكم أن تؤدُّوا شُكرَه سبحانه

وتعالى على هذه النِّعم التي لا تُحصَى، ولكنْ للأسفِ الشديد أكثرُكم جاحدٌ لِنِعَم الله، ظالمٌ لنفسِه، وما أقلَّ الشاكرينَ منكم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

نَقَل العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي في تفسيرِ هذه الآية حكايةً فَحْواها أنه «**شَكَا بعضُ الفقراءِ إلى واحدٍ من السَّلَف فقرَه وأظهَرَ شدّةَ اهتمامِه به، فقال: أيسُرُّك أنك أعمى ولكَ عشَرةُ آلافِ درهم؟ فقال: لا. فقال: أقطَعَ اليدَيْنِ والرِّجلَيْن ولك عشرونَ ألفَ درهم؟ فقال: لا. فقال: أيسُرُّك جعل الله أنك مجنونٌ ولك عشَرةُ آلاف؟ قال: لا. فقال: أما تستحيي أنك تشكو مولاكَ وعندَك عروضٌ بأربعينَ ألفًا؟**»[1].

إنّ نِعمَ الله تعالى كثيرةٌ لا تُحصَى، بل ولا تَخطُر لنا على بالٍ أبدًا، ثم إنّ كلَّ نعمةٍ منها قيّمةٌ لا تُقدَّرُ بثمن، وأنا هنا أُخبرُك بقيمةِ كوبِ الماء الذي نشربُه، ومن خلالِه تستطيعُ تصوُّرَ النِّعم الكبيرةِ الأخرى، فلو أنّ مَلِكًا خَرَج للصَّيد في غابة، ولسببٍ من الأسباب ضَلَّ طريقَه في الغابة، ولم يستطعْ رفاقُه ومصاحبوه العثورَ عليه، وبعدَ عدّة أيام يراه أحدُ عابري السَّبيل وهو مُلقًى على الأرض يصارعُ الموتَ قائلًا: ماء، ماء، وإذا لم يتيسَّرْ له الماءُ خلال اللَّحظاتِ التالية فارَقَ الحياةَ، فقال عابرُ السَّبيل هذا للمَلِكِ الذي يصارعُ الموت: الماءُ عندي، لكنّي أحتاجُه أنا أيضًا، ولكنْ إن أعطيتَني كلَّ ما تملِكُ أعطيتُك الماءَ. فكَتَب المَلِكُ على الفَوْرِ كلَّ ما يَملِكُ لهذا الرجُل، حتى يستطيعَ أن يُنقذَ حياتَه.

والآنَ، تصوَّرْ أنّ المُلْكَ كلَّه يساوي ـ بهذا ـ شربةَ ماء، والله تعالى قد أَنْعم علينا باليدَيْنِ والرِّجلَيْنِ والعينَيْنِ وغيرِها من عظيم النِّعم، فكم تكونُ قيمةُ كلِّ هذه النِّعم إذًا؟ ليتَنا نشعُرُ بنِعَم الله تعالى علينا وننشغلُ بأداءِ الشُّكرِ عليها.

---

(١) تفسير روح البيان.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

٣٢ـ من هذه الآيةِ تبدأُ سلسلةٌ من دعاءٍ مفصَّلٍ لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، يعني: يا إلهي، اجعَلْ مكّةَ آمنةً مطمئنّةً، حتى يستطيعَ الناسُ زيارةَ بيتِك بأمان، وأبعِدْني أنا وأبنائي عن عبادةِ الأصنام؛ لأنّ كثيرًا من الناسِ قد ضَلُّوا بسببِ الأصنام، ولهذا فإنّ مَن يتَّبعُني من أولادي سينالُ رحمَتك بعملِه بأحكامِك، أمّا مَن عصاني فأنتَ الغفورُ الرَّحيم، إن تابَ إليك فأنت تَغفِرُ ذنبَه.

وفي هذا الدُّعاءِ تنبيهٌ لقُريشِ مكّةَ بأنّ أباكم إبراهيمَ عليه السَّلام الذي بنَى الكعبةَ، كان مبرَّأً من عبادةِ الأصنام، فكيف تعبُدونَ الأصنامَ وأنتم أولادُه؟

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

٣٣ـ يا إلهي، لقد أسكَنْتُ بعضَ أولادي، يعني: سيّدَنا إسماعيلَ عليه السَّلام، في هذا الوادي القَفْرِ الذي لا زَرْعَ فيه ولا ماءَ، عندَ بيتِك المحرَّم، حتى يُقيموا

الصّلاةَ، يا إلهي، اجعَل الآخَرينَ يمِيلونَ إليهم، ويُحبُّونَهم، وارزُقْهم من الثمراتِ حتى يشكروك.

والسعيدُ الذي تُكتَبُ له زيارةُ بيتِ الله الحرام في أيامِنا هذه يشاهدُ كلَّ هذا بشكلٍ عمَليّ، حيث يأتي إليه ملايينُ الناسِ من مختلفِ أرجاءِ العالَم، وتتوفَّرُ هناك كلُّ أنواع الثمارِ والفواكه.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾

٣٤ـ كم هو دعاءٌ جميل! فقد دَعا لنفسِه أولًا، ولأولادِه بالالتزام بالصَّلاة، ثم دعا لنفسِه، ثم لوالدَيْه، ثم لسائرِ أهل الإيمانِ بالمغفرة، وقد لقِيَ هذا الدُّعاءُ قَبولًا كبيرًا على ألسِنة المسلمين، بحيث أنهم عمومًا يَدْعونَ لوالديهم بهذا الدُّعاءِ وبألفاظِه في صَلاتِهم، ويُعلَمُ منه أيضًا أن والديْ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام كانا مسلمَيْنِ، ولهذا كان يدعو لهما بالمغفرة، ولم يكنْ آزرُ والدَه عليه السَّلام، وإنّما كان عمَّه، وكان كافرًا، ولمزيدٍ من التفصيلِ عن هذا الأمرِ راجع الحاشيةَ رقم ٧٠ من سُورة الأنعام (٦).

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

٣٥ـ ينبغي للظالمينَ الذين لا يَلقَوْنَ جزاءَ ظُلمِهم في هذه الدنيا أن لا يعتقِدوا أنّ اللهَ غافلٌ عن ظُلمِهم، فالحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى يُمهِلُهم حتى يوم القيامة لحِكمةٍ عندَه، وحين يأتي يومُ القيامة، سيُهروِلُ هؤلاء حَيارَى هائمينَ على وجوهِهم، بسببِ حالةِ الخوف والذُّعر التي تعتريهم بمجرَّدِ أن يُبْعَثوا من قبورِهم، ويُسقَطُ في أيديهم حيثما نَظَروا، ولن يستطيعوا حتّى مجرَّدَ تحريكِ رموشِهم وكأنّهم موتَى، وترتعدُ قلوبُهم رُعبًا، وتكادُ أكبادُهم تتمزَّقُ من الخوف.

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

٣٦ـ حين يَرى الظّالمونَ العذابَ أمامَهم سيقولونَ لله تعالى: أعِدْنا إلى الدنيا لفترةٍ بسيطة، وسنَقبَلُ رسالتَك، ونتّبعُ رسُلَك! ويَرُدُّ اللهُ تعالى عليهم طلبَهم قائلًا: ألا تذكُرونَ ادَّعاءَكم حين أَقْسمتُم قائلينَ: إنكم لن تَهلِكوا، وأنه لن يكونَ هناك قيامةٌ ولا حساب، معَ أنّ رسُلَنا أخبَروكم بالعذابِ الذي حاقَ بالأُمم التي

سبَقَتْكم وكذَّبتْ بهم، وسمِعتُم قَصَصَ هلاكِ الأُمم السّابقة أيضًا، فلماذا لم تعتبروا بالرَّغْم من كلِّ هذا؟

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾

٣٧ـ لقد تآمَر مشركو مكّةَ كثيرًا للقضاءِ على الإسلام والتخلُّص من النبيِّ الكريم ﷺ، بطريقةٍ تكاد تنشَقُّ لها الجبالُ وتنخلعُ من مكانِها، لكنّ اللهَ تعالى أفشَلَ كلَّ مؤامراتِهم.

ويُعلَمُ منه أنّ قوةَ الإيمانِ التي أَنْعم اللهُ تعالى بها على نبيِّه الكريم ﷺ وعلى الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم جميعًا كانت أقوى وأشدَّ من الجبال.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

٣٨ـ اللهُ تعالى لن يُخلفَ وعدَه بنُصرةِ نبيِّه ﷺ ومعاقبةِ المنكِرين، وإن كان اللهُ تعالى لم يُعاقبِ الظالمينَ في الدُّنيا لحِكمةٍ عندَه، فسوف تقومُ الساعةُ لا مَحالَة، ولن يُفلِتَ ظالمٌ من العقابِ في الآخِرة يقينًا.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

٣٩ـ حينَ يمثُلُ الناسُ جميعًا في حَضْرةِ العدالة الإلهيَّة يومَ القيامة، ستكونُ هناكَ في ذلك اليوم أرضٌ جديدةٌ وسماءٌ أخرى، ولن تكونَ هناكَ نجومٌ في السماء، كما لن تكونَ هناكَ جبالٌ على الأرض ولا مرتفعاتٌ وتلالٌ ولا حتى غارٌ عميقٌ أو ما شَابَه، وإنّما سيكونُ المنظرُ لميدانٍ فسيح ممتدٍّ كلِّه.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

٤٠ـ سيكونُ المجرمونَ يومَ القيامة مكبَّلينَ بالأصفاد، وسيكونُ لباسُهم

من قَطِرانٍ وفَحْم تشتعلُ فيه النِّيرانُ بسرعةِ البَرْق، وستشتعلُ النارُ في وجوهِهم، وكلُّ هذا حتى يلقَى كلُّ شخصٍ جزاءَ عملِه.

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

٤١ـ هذا القرآنُ الكريمُ دعوةُ فِكرٍ للناسِ جميعًا، حتى يتدبَّروا ويتفكَّروا ويكونوا على يقينٍ من توحيدِ الله عزَّ وجلّ.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزَاده،
جامعةُ الكرَم

بعدَ صلاةِ الفجر من يوم الأربعاء ١٤ فبراير عام ٢٠٠٧م،
الموافق ٢٥ محرَّم عام ١٤٢٨هـ
وقدِ اكتمَل تفسيرُ سورةِ إبراهيمَ في ثمانيةِ أيام فقط
والحمدُ لله ربِّ العالَمين

❊ ❊ ❊

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١٥) سُورَةُ الحِجۡرِ

هذه السُّورةُ مكِّية، ولفظُ «حِجْر» مذكورٌ في الآية رقم ٨٠ منها، ولهذا سمِّيت سُورةَ «الحِجْر»، والمرادُ بالحِجْر: منطقةُ قومِ ثمُودَ، والتي تقَعُ بينَ الحجازِ والشام، وفي الآية رقم ٩ من هذه السُّورة أعلَن اللهُ تعالى حِفظَ القرآنِ الكريم بشكلٍ أبدَيٍّ فقال: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

في هذه السُّورة جاء التنبيهُ لمشركي مكّةَ من جانبٍ بأنّهم لو ظَلُّوا مستغرِقينَ في مَلذّاتِهم، ولم يتدبَّروا القرآنَ الكريم، ولم يَقبَلوا الإسلامَ، فسوف يلقَوْنَ في الآخِرة عذابًا عظيمًا، ومن جانبٍ آخَرَ جاءتِ التسريةُ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنْ لا تحزَنْ ولا تغتمَّ بسببِ المطالباتِ غيرِ المعقولة التي يطلُبُها أولئك المشركونَ منك، ولا تجزَعْ لإيذائهم لك؛ لأنّ الأُممَ السابقةَ عليهم أيضًا كانت تَسخَرُ من أنبيائها عليهم السَّلام، وجاء في السُّورة أيضًا ذِكرُ هلاكِ قوم لوط، وقوم شُعَيب، وقوم ثَمُود، حتى يعتبِرَ المشركونَ، ويؤمنوا بالقرآنِ المَجِيد.

يومَ الأربعاء ١٤ من فبراير عام ٢٠٠٧م
الموافق ٢٥ محرَّم عام ١٤٢٨هـ

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرم

* * *

سورة الحجر (١٥)،

مكية (٥٤)، آياتها (٩٩)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿الٓر﴾

١ـ هذه حروفٌ مقطَّعة، وهي سرٌّ بينَ الله تعالى وحبيبِه المكرَّم سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة (٢).

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾

٢ـ هذا هو الكتابُ والآياتُ البيِّنات، والمعنى اللُّغويُّ لكلمةِ «كتاب» هي: «الشيءُ المكتوبُ»، والمعنى اللُّغويُّ لكلمةِ «قرآن» هو: «الشيءُ المقروء»، والكتابُ: اسمٌ للقرآنِ الكريم؛ لأنه مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ، واسمُه القرآنُ لأنه نَزَل مقروءًا، ويُعلَمُ منه أنّ القرآنَ المَجِيدَ باعتبارِ الكتابةِ كتابٌ كاملٌ ومحفوظ، ومن حيثُ البيانُ كلامٌ بيِّنٌ وكامل.

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾

٣ـ عندَما يشعُر الكُفّارُ بخطأِهم في القبرِ والحَشْر وفي جهنَّم، يتمنَّوْنَ كثيرًا لو أنّهم كانوا مسلمين، ولكنّ النَّدَم لا ينفَعُ في ذلك الوقت، يقولُ سيّدُنا أبو موسى رضي اللهُ عنه: **قال رسولُ الله ﷺ: «إذا اجتَمعَ أهلُ النّار في النّار، ومعَهم مَن شاء اللهُ من أهل القِبلة، قال الكُفّارُ للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنَى عنكمُ الإسلام! فقد صِرتُم معَنا في النّار، قالوا: كانت لنا ذنوبٌ فأُخِذْنا بها. فسَمِع اللهُ ما قالوا، فأمَرَ بمَن كان في النّارِ من أهلِ القِبلة فأُخرِجوا، فلمَّا رأى ذلك مَن بقيَ من الكُفّار، قالوا: يا ليتَنا كنّا مسلمينَ فنَخرُجَ كما خَرَجوا»، قال: ثمّ قرأَ رسولُ الله ﷺ: أعوذُ بالله من الشّيطانِ الرَّجيم:** ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[١].

﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾

٤ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيب، لا يَحزُنْك مَن لا يؤمنُ بكَ بعدَ دعوتِك له، ودَعْه يتمتَّعْ بالطعام والشّرابِ واللَّهوِ والعَبَثِ في هذه الحياة القصيرة؛ لأنه ـ في

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، برقم ١٢٣٢٤.

الحقيقة - عَقَد آمالًا عريضةً لمستقبَلِه غافلًا عن الموت، لكنّه لا يَعلَمُ أنّ وقتَ الموتِ قدِ اقترب، وعندَئذٍ سيَعلَمُ أنّ ما قاله النبيُّ الكريمُ ﷺ كان حقًّا وصِدقًا.

يقولُ سيّدُنا عليٌّ كرّم اللهُ وجهَه: «**إنّما أخشَى عليكم اثنتَيْنِ: طُولَ الأمل واتِّباعَ الهوى، فإنّ طُولَ الأمل يُنسي الآخِرةَ، واتّباعَ الهوى يصُدُّ عن الحق**»[1]، ولهذا فالمؤمنُ العاقل هو الذي يَعتبرُ أنّ الموتَ قريبٌ، ويستفيدُ استفادةً كاملةً من لَمَحاتِ الحياة، مثلَما يقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي اللهُ عنه: **كنتُ معَ رسولِ الله - ﷺ - فجاءه رجلٌ من الأنصار فسَلَّم على النّبيّ - ﷺ - ثمّ قال: يا رسولَ الله، أيُّ المؤمنينَ أفضَلُ؟ قال: «أحسَنُهم خُلُقًا». قال: فأيُّ المؤمنينَ أكيَس؟ قال: «أكثرُهم للموتِ ذكرًا وأحسَنُهم لِما بعدَه استعدادًا، أولئك الأكياس»**[2].

وليس معنى هذا الحديثِ أن يَحمِلَ الإنسانُ مِسبَحةً، ويردِّدَ كلَّ يوم وِردَ «يا مـوتُ، يا مـوتُ»! وإنّما الهدفُ هو أن يتذكّر الموتَ عندَ كلِّ خطوةٍ يخطوها، بمعنى: أنّ العملَ الذي هو مُقدِمٌ على القيام به، ألا يكونُ بالنِّسبة له بعدَ الموتِ مصيبةً عندَ الحساب؟

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾

٥- وقتُ نزولِ العذابِ على كلِّ قوم ظالمين مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ، وعندَما يحينُ هذا الوقتُ، لا يمكنُ التقديمُ أو التأخيرُ فيه، وحينَ يُعطَى قومٌ ظالمون مُهلةً طويلة، فليس معناه أنهم لن يؤاخَذوا؛ لأنّ هؤلاءِ الظالمينَ إن لم يؤاخَذوا في الدنيا فسوف يؤاخَذوا في الآخِرة يقينًا، ولكنّ هناك حِكَمًا كثيرةً وراءَ

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب **٣١** برقم **٤٢٥٩**.

إمهالِهم في هذه الدنيا، واللهُ يَعلَمُ هذه الحِكَمَ تمامَ العِلم، ويمكنُ أن يكونَ من بينِها: أنّ بعضَ هؤلاء، أو بعضَ أولادِهم، قُدِّر لهم أن يؤمنوا مستقبَلًا، فلو نَزَل العذابُ فورًا لَهلَكوا قبلَ إيمانِهم، مثلَما لم يَدْعُ النبيُّ ﷺ بهلاكِ أهل الطائف، فربّما آمَنَ أولادُهم، وقد حَدَث هذا بالفعل، آمَن سُكّانُ الطائف، وآمَن أولادُهم بعدَ عدّةِ سنوات، ولو أهلَكَهم اللهُ تعالى فورًا في ذلك الوقتِ، لَما آمَنَت ذُرِّيتُهم.

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾

٦ـ كان المُنكِرونَ يسخَرونَ من النبيِّ ﷺ قائلين: إنك تتكلَّمُ بكلام المجانين، ولو كنتَ صادقًا ائْتِنا بالملائكة، معَ أنّ الملائكةَ لو جاءتهم على صُورتِها الأَصْليّة لن يتمكَّنوا من رؤيتِهم، وإن جاءوا في صُورةِ الإنسان لَأثاروا نفسَ الاعتراض قائلين: إنّهم بشَرٌ مِثلُنا، فكيف يكونونَ ملائكةً؟ ولو أرَوْهم عملًا من أعمال الملائكة لقالوا: إنك سَحرتَ أعيُنَنا. على أيِّ حال، الملائكةُ لا يُرسَلونَ من أَجْل الاستعراض، أو من أَجْل تصديقِ الأنبياء، وإنما يُرسِلُهم اللهُ تعالى إلى الأرض حينَ يشاءُ ولِحِكمةٍ عندَه، ومن حِكمةِ هذا أنه حين يَبلُغُ قومٌ في عصيانِهم المدَى، ويحينُ موعدُ إهلاكِهم، تَنزِلُ الملائكةُ، وعندَئذٍ لا يُمهَلُ الظالمون، ولكنّ وقتَ إهلاكِ هؤلاءِ الظالمينَ لم يحِنْ بعدُ، ولهذا يكونُ انتظارُ نزولِ الملائكة حتى الوقتِ المحدَّد لنزولِهم.

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

٧ـ خَلَقَ اللهُ تعالى الأسبابَ لحفظِ القرآنِ الكريم، بحيثُ أنه لو ـ لا قدَّر اللهُ ـ تَلِفَت كلُّ النُّسَخ المكتوبةِ للقرآنِ الكريم أو ضاعَتْ لسببٍ من الأسباب، فيمكنُ تدوينُه مرةً ثانيةً من مجرَّدِ طفلٍ صغيرٍ حافظٍ للقرآنِ الكريم! ولن يَحدُثَ فيه أيُّ

زيادةٍ أو نقصان، ولو في فتحةٍ أو كسرة، ولم يتيسَّرْ لأيِّ كتابٍ في هذه الدنيا هذا التّميُّزُ في حفظه، وهذا هو السببُ في أنّ القرآنَ المَجِيدَ موجودٌ بينَنا مثلَما كان موجودًا في أولِ أيام نزولِـه دونَ أيِّ تغيير.

ولو كان الحِفاظُ على القرآنِ الكريم موكَلًا لنا فقطْ، لَأتلفَتْ بقرةٌ سُورةَ البقرة، ولَأكَلت نملةٌ سورةَ النَّمل، ولكنْ من فَضْل الله تعالى أنه تعهَّد بحفظِ القرآنِ المَجِيد بنفسِه، وهو لهذا محفوظٌ حتى اليوم، وسيبقَى محفوظًا أبدَ الدَّهر.

بعض الأحاديث النبوية عن حفظ القرآن الكريم:

١ـ عن ابن عبّاسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الّذي ليس في جَوْفِه شيءٌ من القرآنِ كالبيتِ الخَرِب»(١)، وسُورتا الفاتحةِ والإخلاصِ سورتانِ كاملتانِ من القرآنِ الكريم يَحفَظُهما عن ظهرِ قلبِ كلُّ مسلم تقريبًا، ولهذا يمكنُ القولُ: إنه لا يوجَدُ في الدنيا مسلمٌ لا يَحفَظُ شيئًا من القرآن.

٢ـ عن عليّ بن أبي طالبٍ، قال: قال رســولُ الله ﷺ: «مَن قَرأَ القرآنَ واستَظهَرَه فأَحلَّ حلالَه وحرَّم حرامَه أَدخَلَه اللهُ به الجنّةَ وشفَّعَه في عشَرةٍ من أهلِ بيتِه كلُّهم وَجَبتْ له النّار»(٢).

٣ـ عن أبي هريرة، عن النّبيِّ ﷺ، قال: «يجيءُ القرآنُ يومَ القيامة فيقول: يا ربِّ، حَلِّه، فيُلبَسُ تاجَ الكرامة، ثمّ يقول: يا ربِّ، زِدْه، فيُلبَسُ حُلّةَ الكرامة، ثمّ يقولُ: يا ربِّ ارضَ عنه، فيرضَى عنه، فيقالُ له: اقرَأْ وارْقَ وتزادُ بكلِّ آيةٍ حسَنةً»(٣).

---

(١) الترمذي، فضائل القرآن باب ١٨ برقم ٢٩١٣.

(٢) الترمذي، فضائل القرآن باب ١٣ برقم ٢٩٠٥.

(٣) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٨ برقم ٢٩١٥.

فضل القرآن الكريم على اللغة:

يَحدُثُ تغييرٌ في كلِّ لغةٍ من لغاتِ العالَم بعدَ كلِّ مائة عام، وإذا نظَرنا إلى اللغةِ الإنجليزيّةِ التي كانت مستخدَمةً في فترةِ شيكسبيرَ قبلَ أربعةِ قرونٍ فقطْ، لا نجدُ بعضَ ألفاظِها في القواميس والمعاجم الحديثة، بينَما اللُّغةُ العربيَّةُ موجودةٌ في صُورتِها الأصْليّة كما كانت قبلَ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان، وستبقَى هكذا دائمًا، والسببُ في ذلك أنّها لغةُ القرآنِ الكريم، ولأنه لا يمكنُ أن يَحدُثَ تحريفٌ أو تبديلٌ في القرآنِ الكريم، وسيبقَى يُقرَأُ في كلِّ زمانٍ كما هو منذُ نزولِه، لهذا لا يمكنُ أن يَحدُثَ تحريفٌ أو تبديلٌ في اللّغةِ العربيَّة أيضًا، حتى أنها سيُتحدَّثُ بها في الجنّةِ كما هي بصُورتِها الأَصْليّة التي كُتِب بها القرآنُ الكريم.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

٨ـ هنا تسريةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنه ليس مشركو مكّةَ فقطِ الذين يسخَرونَ منك نبيًّا، فقد كان هذا حالَ كلِّ أُمّةٍ سبقَتْهم معَ رسولِهم.

﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

٩ـ عندَما لم يرجِعِ المجرمونَ، أي: كُفّارُ مكّةَ، عن ضلالِهم، تَرَكَ اللهُ تعالى قلوبَهم تَعْمَهُ في ضلالِها.

﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

١٠ـ لم يؤمنْ مشركو مكّةَ بالقرآنِ الكريم، وهذا ليسَ بالأمر الجديد؛ لأنّ الذين سَخِروا من الأنبياءِ عليهمُ السَّلام من الأُمم السّابقة قبلَهم ظَلُّوا محرومينَ من نعمةِ الإيمان.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾

١١ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لقد وَصَل مشركو مكّةَ في عنادِهم وصَلَفِهم مرحلةً لن يؤمنوا فيها بكَ أبدًا، حتى وإن جَعَلْنا لهم وسيلةً للصُّعودِ إلى السَّماءِ، وظَلُّوا يصعَدونَ طيلةَ النهار في ارتفاعاتِ السَّماوات، ويشاهِدونَ عوالمَها، سيقولون: إنّ أبصارَهم قد أُعمِيَت، أو إنهم قد سُحِروا، ممّا جَعَلَهم يشعُرونَ أنّهم يصعَدونَ إلى السّماء، معَ أنّ هذا ليس الحقيقةَ، وأمثالُ هؤلاءِ المُعانِدينَ لن يؤمنوا أبدًا، حتى وإن نَزَلتِ الملائكةُ من السّماءِ عندَهم تصديقًا لك.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

١٢ـ جَعَل اللهُ تعالى في السّماءِ نجومًا زينةً لها، وإسعادًا للناظرينَ إليها.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾

١٣ـ حَفِظَ اللهُ تعالى السَّماءَ من كلِّ شيطانٍ ملعون، ولئن حاوَلَ أيُّ شيطانٍ الصعودَ إلى العالَم الأعلى ليسمعَ ما يقالُ هناك، فإنّ الشُّهُبَ المضيئةَ في السَّماء، أي: شُعُلاتِ النار، تُجبِرُه على الهرَبِ عائدًا إلى أسفلَ.

ولكنّ هذا لا يعني أنّ الشّيطانَ يستطيعُ أن يتخفَّى من الله تعالى ويصعَدَ إلى العالَم العُلْوي، فهذا من المستحيل تمامًا، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى قد أعطَى الشّيطانَ مُهلةً طويلة، وقوّةً غيرَ عاديّة، ابتلاءً منه لبني الإنسان، ولهذا يستطيعُ الشّيطانُ ـ من خلال القوة التي أعطاها اللهُ له ـ القيامَ بأعمالٍ لا يستطيعُها الإنسانُ العاديُّ.

ولو حمَلْنا الشّيطانَ الرَّجيمَ على: الأعمالِ الشّيطانيَّة، والشِّهابَ المُبينَ على: الملائكةِ التي تحرُسُ السماءَ، فسيكونُ المعنى هو: أنّ اللهَ تعالى قد حَفِظَ العالَمَ العُلْويَّ من الأعمالِ الشّيطانيّة، ولهذا فإنّ صعودَ الأعمالِ الصّالحة فوقَ السّماءِ بمثابةِ الدَّليل على قَبولِها، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقد قال سيّدُنا عُمرُ رضيَ الله عنه: «**إنّ الدّعاءَ موقوفٌ بينَ السّماءِ والأرض لا يصعَدُ منه شيءٌ حتّى تُصلّيَ على نبيِّك ﷺ**»(١).

على العكسِ من ذلك حين تصعَدُ الأعمالُ الشّيطانيّةُ إلى أعلى، فإنّ حُرّاسَ السّماءِ من الملائكةِ يوقفونَها، ويُلقُونَ بها إلى أسفلَ، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى أولًا يسمَحُ بصعودِ هذه الأعمال، وإيقافُ الملائكة لها والرَّميُ بها إلى أسفلَ يهدِفُ إلى أن يشعُرَ الناسُ بذُلِّ الأعمالِ الشّيطانية وعَدَم قَبولِها، فينفِروا منها.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

١٤ـ مَدَّ اللهُ تعالى الأرضَ، وأَنْبتَ فيها كلَّ شيءٍ بمقدارٍ مناسبٍ طبقًا للضَّرورة، كما أنه خَلَق فيها أسبابًا للرِّزق لا حَصْرَ لها من أَجْلِ الإنسان وكذا الحيَواناتُ الأُخرى؛ لأنّ مالكَ كلِّ الكنوز والخزائنِ هو اللهُ تعالى فقطْ، وهو الذي يُنزِلُ منها بمقدارٍ معيَّنٍ عندَه، والأرضُ كُرَويّةٌ وليست مُفَلْطَحةً، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٤ من سُورة الرَّعد (**١٣**).

(١) الترمذي، أبواب الصلاة، باب **٣٥٢** برقم **٤٨٦**.

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾

١٥ـ أرسَلَ اللهُ تعالى الرِّياحَ التي تَحمِلُ اللُّقاحَ للأشجارِ والنّباتات، وأنْزل من السماءِ ماءً تشربونَه، ولو أَوْقفَ اللهُ تعالى أسبابَ المطرِ فقطْ، ستكونُ نتيجةُ ذلك جفافَ العيونِ والآبار، فمِن أين تأتونَ بالماءِ عندَئذٍ؟ ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يتدبَّرَ وسائلَ الرِّزق هذه، ويؤمنَ برازقِه الحقيقيِّ، أي: اللهِ تعالى.

وفي النّباتاتِ والأشجارِ أيضًا ذَكَرٌ وأُنثى، وتَنتُجُ الثمارُ من التلقيح بينَهما، ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الأمرِ راجع الحاشيةَ رقم **٥** من سُورة الرَّعد **(١٣)**.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

١٦ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، وكما أنّ حياةَ وموتَ كلِّ إنسانٍ في يدِه هو، فإنّ عِلمَ كلِّ شخصٍ عندَه هو أيضًا، وهو يَعلَمُ تمامَ العِلم مَن سيموتُ أولًا، ومَن سيموتُ فيما بعدُ، ولكنّ اللهَ تعالى سيجمعُ الأوّلينَ والآخِرينَ يومَ القيامة في ميدانٍ واحد، وسيُثيبُهم ويُعاقبُهم طِبقًا لأعمالِهم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

١٧ـ يَروي الإمامُ ابنُ عساكرَ، عن سيّدِنا ابن عبّاس رضي الله عنهما، أنه قد أُخِذَ الطِّينُ من كلِّ أطرافِ الأرض بهدفِ خَلْق سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، ثم وُضِع هذا الطِّينُ في الأرضِ حتّى أصبح طينًا لازِجًا، ثم تُرِك حتى صار أسودَ ذا رائحةٍ عَفِنة، ثم أعدَّ اللهُ تعالى بيدِه من هذا الطِّين هيكلَ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام في أربعينَ يومًا، إلى أن أصبح جافًّا، وأصبح يابِسًا كمِثلِ الخَزَف، بحيث يَصدُرُ عنه صوتٌ إذا ما لمسَتْه الأيدي[1].

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ من الطِّين، ولهذا فهو ليس صورةً متطوِّرةً من القِرَدة، وإنّما هو نموذَجٌ عظيمٌ من خَلْقِ الله تعالى.

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾

١٨ـ يُعلَمُ من هذا أنّ خَلْقَ الجنِّ كان قبلَ خَلْقِ الإنسان، وأنه خُلِق من النار، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ١٠ من سُورة الأعراف (٧).

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

١٩ـ أمَرَ اللهُ تعالى الملائكةَ قائلًا: إنّني خَلقتُ الإنسانَ من طِين، وحينَ أَنفُخُ فيه من رُوحي عليكم بالسُّجودِ تعظيمًا له، وهكذا دَبَّتِ الحياةُ في سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وأَنْعم اللهُ تعالى عليه بعِلم خاصٍّ أمَرَ الملائكةَ أن تَسجُدَ له بسببِه، وسَجَدتِ

---

(١) تفسير الدر المنثور.

الملائكةُ أجمَعونَ إلّا إبليسَ اللَّعينَ، فسألَ اللهُ تعالى إبليسَ قائلًا: لِمَ لم تسجُدْ؟ فقال الشّيطان: أنا لن أسجُدَ للإنسانِ المخلوقِ من الطِّين، وعليه أَخْرجَه اللهُ تعالى من الجنةِ ولَعَنه. ولمزيدٍ من التفصيل عن سَجْدةِ التعظيم راجع الحاشيةَ رقم ٩ من سُورةِ الأعراف (٧).

تعظيم النور المحمدي ﷺ:

يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقّي في هذا الخصوص: «**هذا - في الحقيقة - تعظيمٌ للنُّور المنطبِع في مِرآةِ آدمَ عليه السَّلام، وهو النُّورُ المحمَّديُّ**»[١]، ولهذا قال شاعر:

*** كأن لسانُ حالِ آدمَ يقولُ: لستُ أنا من سُجِد له.**

الرُّوح:

المرادُ بالرُّوح: النَّفس، والذي يحيا الإنسانُ بدخولِه وخروجِه، وقد نَفَخَ اللهُ تعالى في الإنسانِ من رُوحِه، وليس معنى هذا أن رُوحَ الإنسانِ جزءٌ من ذاتِ الله تعالى، وإنّما هذه النِّسبةُ إلى الله تعالى تكريمٌ منه للرُّوح وتعظيمٌ لها، مثلَما يقالُ للكعبة: «بيتُ الله»، بمعنى: أنّها ذاتُ شأنٍ عظيمٍ واحترامٍ كبير، وبنَفْسِ الطريقة فإنّ الرُّوحَ أيضًا نعمةٌ خاصّةٌ من اللهِ تعالى.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾

٢٠- حين يُبعَثُ الناسُ من قبورِهم يومَ القيامة لن يموتوا بعدَها أبدًا، وقد طلَبَ إبليسُ مُهلةً حتى يوم الحَشْر حتى ينجوَ من الموتِ، ولم يُمهِلْه اللهُ تعالى إلى يوم الحَشْرِ كما طلَبَ، وإنّما إلى وقتٍ معلومٍ، أي: حينَ تفنَى الكائناتُ كلُّها، سيفنَى إبليسُ أيضًا معَها، وسيبقَى أربعينَ عامًا ميِّتًا[٢]، ثم حين يُبعَثُ الناسُ يُبعَثُ إبليسُ أيضًا معَهم.

---

(١) تفسير روح البيان.

(٢) «عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ قال: أراد إبليس =

ومن الممكنِ أن يكونَ من حِكمةِ إمهالِ الشّيطانِ حياةً طويلةً هكذا أنْ يبتليَ اللهُ تعالى العباد؛ من يكونُ عبدًا لله تعالى، ومن يكونُ عبدًا للشيطان؟

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

٢١ـ قال إبليس: يا ربِّي، بما أنّك عاقبتَني لعَدَم سجودي لآدمَ بأنْ تركتَني في الضَّلال، لهذا سأنتقمُ من أولادِ آدمَ، وسأُزيِّنُ لهم الأعمالَ السِّيئةَ وأُجمِّلُها لكي أُضِلَّهم يقينًا، إلّا عبادَكَ الذين أخلَصْتَهم واختَرتَهم، لأنّ هؤلاءِ لا يقَعُونَ في حبائلي.

يقول سيِّدُنا أبو سعيدٍ الخُدرِيُّ رضي اللهُ عنه: **سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ إبليسَ قال لربِّه: بعزّتك وجَلالِك، لا أبرَحُ أُغوي بني آدمَ ما دامتِ الأرواحُ فيهم، فقال له الله: فبِعزّتي وجَلالي لا أبرَحُ أغفرُ لهم ما استغفَروني»**[(١)].

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

٢٢ـ طريقُ الإخلاصِ طريقٌ مستقيم، والذين يعمَلونَ بأحكام اللهِ تعالى بإخلاص، ليس للشّيطانِ سُلطانٌ عليهم، حتى وإنْ خُدِعوا بوَسْوسةِ الشيطان ذاتَ مرّةٍ على سَبيل سُوءِ الفهم، فإنّهم ما إن يشعُروا بذلك حتى يبادروا بالتوبةِ إلى الله تعالى ويلوذوا به.

= أن لا يذوق الموت، فقيل: فإنّك من المنظرين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعين سنة. قال: فيموت إبليس أربعون سنة» ـ تفسير ابن أبي حاتم.

(١) مسند أحمد، ٣: ٤١.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

٢٣ـ اللهُ تعالى لا يُجبِرُ أحدًا على ارتكابِ الذُّنوب، ولا الشّيطانُ أيضًا يُجبِرُ أحدًا على ذلك، ولكنّ الذين يُفضّلونَ اتّباعَ الشيطانِ برغبتِهم لهمُ الوعدُ بجهنَّم، وفي جهنَّم سبعُ طبقاتٍ بحسَبِ أعمالِهم، ولكلِّ طبقةٍ بابٌ مستقلٌّ، وسيُلقَى بالناس في الطبقاتِ المختلفة لجهنَّمَ بحسَبِ فظاعةِ ذنوبِهم.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾

٢٤ـ سيقالُ للمتَّقينَ: ادخُلوا الجنّةَ بسَلام، وسيكونُ لهم في الجنّة الاطمئنانُ والسَّكينةُ الباطنيَّةُ أيضًا، جنبًا إلى جنبٍ معَ الاطمئنانِ والسَّكينةِ الظاهريَّة، بمعنى: أنّهم لو كانوا في الدُّنيا على خلافٍ معَ بعضِهم، فإنّ قلوبَهم في الجنّةِ تصبحُ طاهرةً من كلِّ عداءٍ وحقد، وسيصبحونَ إخوةً متحابِّينَ مخلِصين لبعضِهم. وقد قال سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: «**إنّي لأَرجو أن أكونَ أنا وعثمانُ والزُّبيرُ وطلحةُ**

رضيَ اللهُ عنهم ممّن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾»[1]، بمعنى: أنْ يزولَ سوءُ الفَهْمِ بينَهم يومَ القيامة.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾

٢٥ـ جاء بعضُ الملائكةِ إلى سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في صُورة البشَر، وبشَّروه بمولِد ابنِه سيّدنا إسحاقَ عليه السَّلام، فقال لهم: لقد أصبحتُ شيخًا كبيرًا، فأيُّ بُشرى هذه التي تبشِّرونَني بها؟ قالتِ الملائكةُ: هذه بُشرى صادقةٌ فلا تَيْأَس، فقال سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: إنّني أُبدي حَيْرتي وتعجُّبي بسببِ شيخوختي، لكنّي لست يائسًا من رحمةِ الله تعالى؛ لأنّ الضالِّينَ فقطْ همُ الذيـن ييْأَسوُنَ من رحمةِ الله. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذه الواقعةِ راجع الحاشيةَ **٥٤، ٥٥، ٥٦** من سُورة هود (١١)، ولمزيدٍ من التفصيل عن أحوال سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ راجعْ تفسيرَ الآيات من **٧٤** إلى **٨٢** من سُورة الأنعام (٦).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

٢٦ـ سألَ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ الملائكةَ: مـا هـي الأمورُ الهامَّةُ التي جئتُم من أَجْلِها بالإضافةِ إلى تبشيري بمولدِ ابني؟ فقالتِ الملائكة: جئْنا لنُدمِّرَ قومَ لوطٍ، وسوف نُخرجُ سيّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ هو وأهلَ بيتِه من هناك ونُنقذُهم، لكنِ الحُكمُ فيما يتَعلَّقُ بزوجتِه هو أنها ستهلِكُ معَ القوم المجرِمينَ؛ لأنها كافرةٌ.

---

(١) تفسير الدر المنثور.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾

٢٧ـ جاءت هذه الملائكةُ التي أرسَلَها اللهُ تعالى في صُورةِ شبابٍ في غايةِ الجمال، فقال لهم سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلام: من أنتم، ولماذا أتيتُم؟ لأنه يبدو أنّكم أجانبُ عن هذه البلدة، فقالوا: إنّنا ملائكة، وقد جئْنا بالعذابِ لقومِك المنكِرينَ الذي كانوا يشُكُّونَ في مجيئه، والآنَ سيَنزِلُ عليهم العذابُ حقًّا ولا مَحالَةَ؛ لأنّ وقتَه قد أَوْشكَ أن يحينَ، ولهذا عليك أن تَخرُجَ أنت وأهلُ بيتِك بعدَ مرورِ جزءٍ من اللّيـل إلى الشـام، حـيث أُمِرتَ بـالذَّهابِ إلى هناك، وعليك أن تَسير خلفَ القافلة، حتى لا يخطئَ أحدٌ بالعودة، ولا يَلتفِتْ منكم أحدٌ إلى الخلف، وإنما عليكم أن تبتعدوا سريعًا عن هذه البلدة.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

٢٨ـ تمّ إعلامُ سيِّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ عن طريقِ الوَحْيِ أنه سيتمُّ اقتلاعُ المنكِرينَ من جذورِهم، أي: سيَهلِكونَ جميعًا، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الآياتِ من ٧٧ إلى ٨٣ من سورة هود (١١).

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾

٢٩ـ كان قومُ سيّدِنا لوطٍ عليه السلام مغرَمينَ بفعل الفاحشة معَ الذُّكورِ من الأولاد، وحين عَلِموا بوجودِ أولادٍ في بيتِ سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلام، أقْبَلوا إليه فَرِحينَ وهم يقولون: سلِّمْنا هؤلاءِ الأولادَ لنقضيَ منهم وَطَرَنا، فقال لهم سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلام: هذا غيرُ ممكن؛ لأنّهم ضيوفي، فاتَّقوا اللهَ تعالى، ولا تُخزوني في ضيفي.

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

٣٠ـ فقالوا: يا لوطُ، ألم نَقُلْ لكَ مرارًا وتكرارًا أنْ لا تُجيرَ المسافرينَ وعابري السَّبيل جميعًا؟ فقال سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلام: لو أنّكم تريدونَ قضاءَ رغَباتِكم النفسيّة ففي القوم بناتٌ لا حصرَ لهُنَّ، تزوَّجوهنَّ واقضُوا وَطَرَكم بطريقةٍ شرعيّة؛ لأنّ هذه الطريقةَ غيرَ الجائزة التي تتَّبعونَها ستُنزِلُ عليكم العذابَ.

﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾

٣١ـ يقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ في هذا الخصوص: «**قال القاضي أبو بكرٍ ابنُ العَرَبيّ: قال المفسِّرونَ بأجمَعِهم: أَقْسَم اللهُ تعالى ها هنا بحياةِ محمّدٍ ﷺ تشريفًا له، وهذا نهايةُ التّعظيم وغايةُ البِرّ والتّشريف. قال أبو الجَوْزاء: ما أَقْسم اللهُ بحياةِ أحدٍ غيرِ محمّدٍ ﷺ؛ لأنّه أكرمُ البرِيّة عندَه**»[١].

في هذه الآيةِ جاء التنبيهُ لأهل مكّةَ من جانبٍ بأنكم تُسيئونَ إلى ذاتٍ أَقْسمَ اللهُ تعالى بحياتِها المباركة، ومن جانبٍ آخَرَ يُطَمْئِنُ النبيَّ ﷺ بأنْ لا تقصيرَ في دعوتِك؛ لأنّ الحقيقةَ أنّ هؤلاءِ يعمَهونَ في ضلالِ شركِهم وتعصُّبِهم.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴾

٣٢ـ ومعَ مشرقِ الشمس أَخَذتْ قومَ لوطٍ صيحةٌ عظيمة، ثم دَمَّرت قريتَهم، وأُمطِروا بحجارٍ من سِجِّيل، وهكذا تَمَّ تدميرُ قوم لوطٍ بثلاثة أنواع من العذاب، وكان هؤلاءِ يسكنونَ جنوبَ الشام، وكانت قريتُهم تقعُ على الطريقِ الذي يصلُ ما بينَ الشام والحجاز، وفي هذه الواقعة آياتُ عِبرةٍ كثيرةٌ لأهل الإيمان وأهل الفِراسة والفِطنة، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم **٤٩** من سُورة الأعراف (٧).

﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾

٣٣ـ كان اسمُ قريةِ سيِّدِنا شُعَيب عليه السَّلام «الأَيْكة»، وكانت تقعُ في منطقة «مَدْيَن»، بالقربِ من قرية قوم لوطٍ بينَ الحجازِ والشام، وكان أهلُها ظالمينَ للغاية، وكانوا يُطفِّفونَ في الكَيْل والميزان، وتمَّ تدميرُ قريتِهم بزلزالٍ شديدٍ وصَيْحةٍ عظيمة، ولمزيدٍ من المعلوماتِ راجعِ الآياتِ من **٨٥** إلى **٩٣** من سُورة الأعراف (٧)، وكذا الآياتُ من **٨٤** إلى **٩٥** من سورة هُود (١١).

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾

٣٤ـ المرادُ بالقريتَيْن هما قريةُ سيِّدِنا لوط وقريةُ سيِّدِنا شُعَيبٍ عليهما السَّلام، وكانتا تَقعانِ على طريقٍ رئيسٍ ما بينَ الحجازِ والشام، وقد أَهْلك اللهُ تعالى أهلَ هاتَيْنِ القريتَيْنِ ودمَّرهما انتقامًا منهم بسببِ أعمالِهم السيِّئة.

وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ

ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

٣٥ـ المرادُ بأصحابِ الحِجْر: قومُ ثَمُودَ، الذين كانوا يسكُنونَ ما بينَ الحجازِ والشام، وقد بُعِث فيهم سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلام.

وكذَّب أصحابُ الحِجْر الرسُلَ، وأعرَضوا عن آياتِ الله البيِّنات، وكان يَنحِتُونَ من الجبالِ بيوتًا قويّةً، ويعيشونَ فيها آمِنين، لكنْ حين جاءهم عذابُ الصَّيحةِ الشَّديدة هَلَكوا جميعًا، ولم تستطعْ بيوتُهم المنحوتةُ في الجبالِ حمايتَهم من العذاب. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذه الواقعةِ راجع الآياتِ من ٧٣ إلى ٧٩ من سُورة الأعراف (٧)، وكذا الآياتِ من ٦١ إلى ٦٨ من سورة هُود (١١).

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾

٣٦ـ خَلَقَ اللهُ تعالى السّمواتِ والأرضَ وما بينَهما من كلِّ شيءٍ لمقصِدٍ صادقٍ وحقيقيٍّ، ولكنّ هذه الكائناتِ ليست خالدةً للأبد، إذْ ستقومُ الساعةُ ذاتَ يوم، ولهذا عليكَ أن تكونَ بمثابةِ سُحُبِ الرَّحمةِ في هذه الحياةِ القصيرة، وتُمطِرَهم بمطرِ العفوِ والتسامُح، فالمطرُ حين ينزِلُ لا يُفرِّقُ بينَ الأرضِ الخِصْبةِ والأرضِ البُور، وإنّما يَروي الأرضَ كلَّها بالماءِ دونَ تفريق، وبنفسِ الطريقة ضَرَبت أمطارُ رحمةِ النبيِّ ﷺ مَثَلًا

لا نظيرَ له في العفوِ عمَّن هم من أهلِه ومَن هم من غيرِ أهلِه على السَّواء، حتى أنّ كُفّارَ مكّةَ الذين تآمَروا لقَتْلِه ﷺ، وأَجْبروه على الهجرةِ من مكة، وقَتَلوا عمَّه حمزةَ رضيَ اللهُ عنه ومَثَّلوا بجُثّتِه ومَضَغوا كبِدَه، عندما انتَصر عليهمُ النبيُّ ﷺ عَفَا عنهم جميعًا، حتى أنه عَفَا عن عُتاةِ مُجرميهم أيضًا، وظاهرٌ أنه إن لم يُقدِّمْ من عَلَّمه اللهُ تعالى بنفسِه الأخلاقَ العظيمةَ والعفوَ والتسامُحَ، مثالًا للعفوِ والتسامح، فمن يقدِّمُه إذًا؟

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

٣٧ـ المرادُ بالسَّبع المثاني: سورةُ الفاتحة، فهي من سَبْع آيات يتِمُّ ترديدُها وتلاوتُها في كلِّ صلاة:

١ـ عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ «الحمدُ لله (سورةُ الفاتحة) **أُمُّ القرآن، وأُمُّ الكتاب، والسَّبعُ المَثاني»**(١).

٢ـ عن أبي سعيدٍ بن المُعَلَّى، قال: كنتُ أُصلّي في المسجد، فدعاني رسولُ الله ﷺ فلم أُجِبْه، فقلت: يا رسولَ الله، إنّي كنتُ أُصلّي. فقال: «ألم يَقُل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾»؟، ثمّ قال لي: «لَأُعلِّمَنَّك سورةً هي أعظمُ السُّوَر في القرآنِ قبلَ أن تَخرُجَ من المسجد». ثمّ أخَذ بيدي، فلمّا أراد أن يَخرُجَ قلتُ له: ألم تقُل: «لَأُعلِّمَنَّك سُورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآن؟». قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»، هي السّبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الّذي أُوتيتُه»(٢).

وتسميةُ سُورةِ الفاتحة في القرآنِ الكريم والحديثِ النَّبويِّ الشّريفِ باسم «القرآنِ العظيم» و«أُمِّ القرآن» يشيرُ إلى عظَمةِ هذه السُّورة وجامعيَّتِها؛ لأنّ سورةَ الفاتحة بمثابةِ المقدِّمة التي جاء فيها بيانٌ لخُلاصةِ القرآن الكريم.

---

(١) الترمذي، سورة الحجر(١٥) برقم ٣١٢٤.

(٢) البخاري، سورة الحجر (١٥): باب ٣ برقم ٤٤٧٤.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾

٣٨ـ يقولُ الدكتورُ وهبة الزُّحَيْلي: «**ثم رَتَّب تعالى على هذا العطاءِ العظيم قولَه:** ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾. **أي: لا تطمَحُ أيُّها الرَّسولُ ـ والخطابُ لأُمّتِه ـ إلى ما متَّعْنا به الأغنياءَ من زينةِ الحياةِ الدُّنيا، فمِن وراءِ ذلك عقابٌ شديد، واستَغْنِ بما آتاكَ اللهُ من القرآنِ العظيم عمّا هم فيه من المتاع والزَّهرةِ الفانية. والمقصودُ: فاخِرْ بما أُوحيَ إليك، وقدِّرْ عظَمَة نعمتِه عليك، ولا تنظُرْ إلى الدُّنيا وزينتِها، وما متَّعْنا به أهلَها من الزَّهرةِ الفانية، لِنَفْتنَهم فيه ـ قال أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه: من أُوتيَ القرآنَ، فرأى أنّ أحدًا أُوتيَ من الدُّنيا أفضَلَ ممّا أُوتيَ، فقد صَغَّر عظيمًا، وعظَّمَ صغيرًا**»[١].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

٣٩ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب، لا تحزَنْ ولا تغتمَّ بسببِ عَدَم إيمانِ أهل مكّةَ بكَ رَغْمَ دعوتِك المستمرَّةِ لهم؛ لأنّهم همُ المسئولون عن ضلالِهم، أمّا الذين آمَنوا فيستحِقُّونَ شفَقتَك ورحمتَك، حتى يَحصُلوا على مزيدٍ من فَيْضِك.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾

٤٠ـ يا أهلَ مكّة، سواءٌ آمَنتُم بدعوتي أم لم تؤمنوا، فإنّي محذِّرُكم من عذابِ الله في كلِّ حال، ذلك العذابِ الذي أحاق بأولئك الذين قَسَّموا كتابَهم السماويَّ من الأُمم السابقة، بمعنى: أنهم آمَنوا منه بالأحكام التي توافقُ هواهم، وأنكَروا منه الأحكامَ التي تخالفُ رغَباتِهم وأهواءَهم.

---

(١) التفسير المنير.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

٤١- الذين قَسَّموا القرآنَ الكريم، أي: آمَنوا ببعضِ آياته وأنكَروا البعضَ الآخَر، قسمًا بربِّك، سنَسألُهم يومَ القيامة ونُحاسبُهم، ونُعاقبُهم يقينًا على خيانتِهم وتحريفِهم بما يستحِقُّونَ من عقاب.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

٤٢- قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، عليكَ الآنَ أن تدعوَ إلى الأحكام الإسلاميَّة جهرًا وعلى الملأِ ودونَ خَوْف، ولا تبال بأولئك المشركينَ الذين يسخَرونَ منك، فاللهُ وحدَه يحفَظُك منهم ويَنصُرُك علَيهم. يقولُ الإمام الطَّبريّ: «**ما زال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم مستَخْفيًا حتى نَزَلت ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فخَرَج هو وأصحابُه**»(١).

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾

٤٣- يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، إنّنا نَعلَمُ أنّ قلبَك يَضِيقُ بكلام المُنكِرين، فسبِّحْني واشغَلْ قلبَك بعبادتي، إلى أن يأتيَك الأَجَل.

ويُعلَمُ منه أنّ القلبَ عندَ الضِّيق والقلقِ يجدُ الطُّمَأْنينةَ والسَّكينةَ في تسبيح الله تعالى وعبادتِه، مثلَما جاء في القرآنِ المَجِيد: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وكما جاء في الحديثِ الشّريف: «**قال حُذَيفةُ رضي اللهُ عنه: كان رسولُ الله ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ صَلّى**»(٢).

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) مسند أحمد، ٥: ٣٨٨.

يا ربَّ العالَمين، أَنْعِمْ علينا دائمًا بالتوفيقِ إلى ذِكرِك وشُكرِك وحُسن عبادتِك إلى أن يأتيَنا الموتُ، آمين.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزَاده

بعدَ صلاةِ العشاءِ من يوم الأربعاء ٢١ من فبراير عام ٢٠٠٧م
الموافق الثالثَ من شهر صفَرَ عام ١٤٢٨هـ.
استَغْرقَ تفسيرُ سورة الحِجْر ثمانيةَ أيام
والحمدُ لله ربِّ العالَمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١٦) سُورَةُ النَّحْلِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، وقد ذُكِر لفظُ «النَّحلِ» في الآيـة رقم **٦٨** منهـا، ولـهذا سُمِّيت سُورةَ النَّحل، والنَّحلُ هو نَحْلُ العسَل، وقد قال اللهُ تعالى عن عسَل النَّحل في الآية **٦٩** من هذه السُّورة: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وقال في الآية رقم **٥٧** من سُورة يونُس (١٠) عن القرآنِ الكريم: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وكأنّ أحدهما ـ وهو عسَلُ النَّحل ـ شفاءٌ لأمراضِ الأبدان، والآخَرُ ـ وهو القرآن ـ شفاءٌ لأمراضِ الرُّوح.

وأكثرُ ما جاء في هذه السُّورة ترغيبٌ في الإيمانِ بوَحْدانيّة اللهِ تعالى وعبادتِه، وبنُبوّةِ النبيِّ الكريم ﷺ ورسالتِه، وبالقرآنِ الكريم والدارِ الآخِرة.

وفي أولِ السُّورةِ جاء ذمُّ الشِّرك، وذَكَر اللهُ تعالى أحوالَ المشركينَ السابقين، مرغِّبًا أهلَ مكّةَ في اتّخاذِ العِبرة وتعلُّم الدَّرْس، كما تحدَّثَ ـ سبحانَه وتعالى ـ عن أهل الإيمانِ من الأُمم السّابقة الذين صَبَروا على ظُلم المشركين، وهاجَروا في سبيلِه، وبيَّنَ أحوالَهم، مُسَرّيًا عن قلوبِ أهل الإيمان، بأنّ هذا الألَمَ والإيذاءَ الذي تتحمَّلونَه ليس بالأمرِ الجديد، وإنّما أهلُ الإيمانِ دائمًا يواجِهونَ الابتلاءاتِ والشدائدَ.

كما ذَكَر اللهُ تعالى ـ في الآية رقم **١٢٥** من هذه السُّورة ـ المبدأَ

الأساسَ الـذي قرَّره في الدَّعوةِ إلى الإسـلام وتبليغِه، أيْ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾.

قبلَ صلاة الفجرِ من يوم الخميس ٢٢ فبراير ٢٠٠٧م
الموافق الرابعَ من شهرِ صَفَر عام ١٤٢٨هـ

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزَاده، جامعة الكرَم

❋ ❋ ❋

سُورَةُ النَّحلِ (١٦)،

مكية (٧٠)، آياتها (١٢٨)، وركوعاتها (١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

١ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ للمشركين: إنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن كلِّ تلك الأشياءِ التي تشركونَها معَه وأعلى منها، فعليكم أن ترجِعوا عن شركِكم، وإلّا ذُقتُم عذابَ الهزيمةِ في الدنيا. وكان المشركونَ يَسخَرونَ من النبيِّ ﷺ قائلينَ: إنّنا نسمعُ منذُ زمنٍ أنّ العذابَ نازلٌ علينا، فأين هذا العذابُ؟ ائْتِنا به إن كنتَ صادقًا، وعليه قال لهمُ النبيُّ ﷺ: إنّ وقتَ نَصر الله تعالى لنا قريبٌ للغاية، وهكذا بدَأَتْ سلسلةٌ من العذابِ على المشركينَ بدايةً من غزوةِ بَدْر، بحيث أنّ مكَّةَ فُتِحت في سنواتٍ

قليلة، وقُضِي على كلِّ أثَرٍ للمشركينَ في جزيرةِ العرب.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾

٢ـ مَلَكُ الوَحْيِ واحدٌ، وهو سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلام، ولكنّ بعضَ الملائكةِ الآخَرينَ يكونونَ معَ سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلامُ عند نزولِه ببعضِ الآيات، على أيِّ حال يُنزِّلُ اللهُ تعالى مَلَكَ الوَحْيِ على عبـدِه هذا الذي اختاره للنُّبوّة.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

٣ـ خَلَقَ اللهُ تعالى هذا الإنسانَ العظيمَ والجميلَ من قطرةٍ واحدةٍ من الماء، وهو أفضَلُ المخلوقاتِ كلِّها وأشرَفُها، كما أنه يَحكُمُ المخلوقاتِ جميعًا بعَقْلِه وفِراستِه، فكان يجبُ على هذا الإنسانِ أن يتأمَّلَ في أصلِه، ويعترفَ بالمُحسِن الحقيقيِّ عليه، أي: يعترفَ بفَضْلِه، لكنّ هذا الإنسانَ مخلوقٌ عجيبٌ جاحد، بحيث يجادلُ في المتفضِّل الحقيقيِّ عليه، ويرتكبُ في حقِّه الكُفرَ والشِّركَ، بدلًا من أن يؤمنَ به.

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

٤ـ كلُّ ما خَلَقه اللهُ تعالى لفائدةِ الإنسان، فيصنَعُ من أَوْبارِ الحيَواناتِ ملابسَه الثَّقيلةَ، ومن جلودِها يصنَعُ أحذيتَه، ويأكلُ لحومَ بعضِها، وحين تَرُوحُ هذه المواشي وتجيءُ تكونُ سببًا في سعادةِ مالكِها وزينةً لطُرُقه، وتَحمِلُ أمتعتَكم على ظهورِها، وتنقُلُكم إلى المُدُن، بحيث لو أنّكمُ اضْطُرِرتُم إلى حَمْل هذه الأمتعةِ والأثقالِ بأنفُسكم، لَشقَّ عليكم ذلك، وهو تعالى أيضًا الذي خَلَق الخَيْلَ والبغالَ والحميرَ التي تركبونَها، كما أنه تعالى سيَخلُقُ ـ مستقبَلًا أيضًا ـ ما تركبونَه ممّا لا تعلمونَ

عنه شيئًا الآنَ، ومن ضمنِ هذه الأشياء: الطائرة، والسَّيارة، وكلُّ ما يُركَبُ ومُيسَّرٌ لنا في أيامِنا هذه، كما يشمَلُ هذا كلَّ ما سيتمُّ اختراعُه مستقبلًا ممّا يُركَب، ويصبحُ من الفَرْض على الإنسانِ أن يَذكُرَ كلَّ هذه الأفضالِ من الله تعالى عليه، ويؤمنَ بالله الخالقِ الرَّحيم الحقيقيِّ، ولا يعبُدَ أحدًا غيرَه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

٥ـ لقد بيَّن اللهُ تعالى الطّريقَ المستقيمَ للنّاس بكلِّ الدّلائلِ والبراهين، وهو الطريقُ الذي يؤدِّي بالناسِ إلى نَيْل رضا الله تعالى، لكنّ الشّيطانَ استَخرَجَ من هذا الطريقِ طُرُقًا مُعْوَجّةً أيضًا، ومَن يقعُ في حبائلِ الشّيطان وخِداعِه، وتَنزلِقُ قدَماهُ إلى طريقٍ معْوَجٍّ فإنه يَضِلُّ، ولو شاء اللهُ تعالى لَهدى الناسَ جميعًا جَبْرًا، ولما ضَلَّ أحدٌ منهم، ولكنّ إكراهَ أحدٍ على أمرٍ يتنافَى معَ حِكمةِ الله تعالى.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾

٦ـ أَنْزل اللهُ تعالى لكم من السّماءِ ماءً في صُورةِ المطَر، وهو الذي تشربونَه، وتَسقُونَ منه مزروعاتِكم وحدائقَكم، ولو لم يوجَدِ الماءُ لَحاق الخطرُ بحياةِ الإنسانِ والحَيوانِ والنَّبات، كما أنّ خَلْقَ أشياءَ مختلفةِ الطَّعم واللَّون من أرضٍ واحدةٍ وماءٍ واحدٍ، بمثابةِ الآياتِ التي يمكنُ من خلالِ تدبُّرِها والتفكُّرِ فيها إدراكُ الخالقِ الحقيقيِّ صاحبِ الحِكمةِ العظيمة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

٧ـ جَعَل اللهُ تعالى نظامَ هذا اللّيلِ وهذا النّهار، وهذه الشّمسِ وهذا القمرِ وهذه النُّجوم لفائدتِنا ومصلحتِنا نحن، وهو ليس في حاجةٍ إليها، ولذا يصبحُ من الفَرْض علينا أن نستعملَ عقولَنا، وأن نكونَ عبادًا شاكرينَ لله المتفضِّل الحقيقيِّ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

٨ـ ذَكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ثلاثَ فوائدَ للبحر، يعني: تأكلونَ لحومًا طازَجةً في صُورةَ السَّمك، وتستخرجونَ من أعماقِه اللآلئَ لتصنَعوا منها الحُليَّ وما تتزيَّنونَ به، وتتنقلونَ بينَ مختلَفِ البلادِ من خلالِ شَحْنِ البضائع التجاريَّة على السُّفُنِ التي تسيرُ فيه، وهو ما يجعَلُكم تحصُلونَ على فَضْل اللهِ تعالى، أي: على الرِّزق.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾

٩ـ نَصَب اللهُ تعالى الجبالَ في الأرضِ لحِفظِ توازنِها، وهذه الجبالُ لا تمنَعُ الأرضَ من الدَّوران، وإنّما تجعَلُها لا تهتزُّ ولا تتزَلْزل، ويعترفُ العلماءُ

المحدَثونَ أنّ الجبالَ تمنعُ الزّلازلَ إلى حدٍّ كبير[١].

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾

١٠- جَعَلَ اللهُ تعالى النُّجومَ في السَّماءِ لكيْ تُرشِدَ المسافرينَ ليلًا إلى تحديدِ الوِجهةِ التي يتَّجهونَ إليها، وفي هذه الأرضِ وهذه السّماءِ آياتٌ وعلاماتٌ لا تُحصَى، تأخُذ بيدِ مَن يتأمَّلُ فيها ويتدبَّرُها قليلًا إلى معرفةِ خالقِه الحقيقيِّ.

﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

١١- الخالقُ الحقيقيُّ للكائناتِ كلِّها هو اللهُ تعالى وحدَه، ولهذا فهو وحدَه أيضًا الذي يستحِقُّ العبادةَ، ولا تليقُ العبادةُ إلّا به سبحانه، ولا يمكنُ أن يعدلَه شيءٌ.

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

١٢- في الآياتِ العشَرةِ السابقة ذَكَر اللهُ تعالى بعضَ نِعَمِه، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ نِعَمَه كثيرةٌ لدرجةِ أنّ حساباتِنا لا يمكنُ أن تُحصيَها، ولذا ينبغي للإنسانِ أن لا يَجْحَدَ اللهَ تعالى الرّحمنَ الرّحيمَ، وإنما يتوبُ إليه ويستغفرُه.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾

١٣- اللهُ تعالى هو خالقُ الكائناتِ كلِّها، بينَما الأصنامُ التي يعبُدُها مشركو مكّةَ لا يمكنُها أن تَخلُقَ ولو شيئًا تافهًا بسيطًا، على العكس من ذلك، هذه الأصنامُ محتاجةٌ في وجودِها وخَلْقِها إلى الله تعالى، كما أنّها جامدةٌ لا رُوحَ فيها، ولا تَعلَمُ أيضًا متى تقومُ الساعة؟ فمن كان مخلوقًا ومحتاجًا لا يستطيعُ أن يَخلُقَ شيئًا، ومَن كان بلا رُوح وبلا عِلم، لا يستطيعُ أن ينصُرَ أحدًا أو يَهديَه.

---

(١) التفسير العثماني.

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

١٤ـ الذين لا يؤمنونَ بالآخِرة قلوبُهم مُنكِرةٌ لله تعالى، ويظُنّونَ أنفسَهم بسببِ تكبُّرِهم عظماءَ والآخَرين حقيرين، ولا يتدبَّرونَ دعوةَ النبيِّ الكريم ﷺ لهم، ولكنْ يجبُ أن يَعلَمَ أولئك المشركونَ أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ الظاهرَ والباطن، وأنه لا يحبُّ المتكبِّرين، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا يدخُلُ الجنّةَ مَن كان في قلبِه مِثقالُ ذرّةٍ من كِبْرٍ**»، **قال رجلٌ: إنّ الرّجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حَسَنًا ونَعلُه حَسَنةً؟ قال: «إنّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ النّاس»**[1]، وقال اللهُ تعالى في «الحديثِ القُدُسيِّ» فيما رواه النبيُّ ﷺ من أن: «**العزُّ إزارُه والكبرياءَ رداؤه، فمن يُنازِعُني عَذَّبْتُه**»[2].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

١٥ـ يقولُ الإمامُ ابنُ جريرٍ الطّبري: «**كانوا يقعُدونَ بطريقِ مَن أتى نبيَّ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم، فاذا مرَّ بهم أحدٌ من المؤمنينَ يريدُ نبيَّ الله ﷺ، قالوا لهم: أساطيرُ الأوَّلين، يريدُ: أحاديثُ الأوَّلين وباطلُهم**»[3]، فهذا إذًا ليس بالأمرِ الجديد، فلا تذهَبوا إليه.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٣٩ برقم ١٤٧.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٣٨ برقم ٢٦٢٠.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري.

وقد نَزَلتِ الآيةُ الثانيةُ ردًّا على هذا، يعني: هؤلاءِ المشركونَ الذين يُضلِّلونَ الناسَ فيما يتعلَّقُ بالقرآنِ الكريم، ويمنعونَهم من الدُّخولِ في الإسلام، سيكونُ عليهم يومَ القيامة أن يَحمِلوا وِزرَ شِركِهم بشكلٍ مؤكَّد، وفي نفسِ الوقت سيحمِلونَ وِزْرَ عَدَم إيمانِ أولئك الذين لم يدخُلوا في الإسلام بسببِ تضليلِهم إياهم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: **«من دَعا إلى هدًى كان له من الأَجْر مثلُ أجورِ مَن تَبِعَه لا ينقُصُ ذلك من أُجورِهم شيئًا، ومن دَعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مِثلُ آثام مَن تَبِعَه لا ينقُصُ ذلك من آثامِهم شيئًا»**[1].

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

(١) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٢٦٧٤.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

١٦ـ كان مشركو مكّةَ مستغرِقينَ ليلَ نهارَ في الكَيْدِ للنبيِّ ﷺ والتآمُرِ عليه، وهذا ليس بالأمرِ الجديد، فقد تآمَرتِ الأُممُ السّابقةُ ضدَّ أنبيائهم الكرام عليهم السَّلام، وأهلَكَهم اللهُ تعالى بمؤامراتِهم هذه، وأتاهُم العذابُ من حيثُ لا يتوقَّعونَ أن يأتيَهم، ومَثَلُهم كمَثَلِ القوم الذين بنَوْا مبنىً عاليًا، ثم سَقَط هذا المبنَى فوقَ رؤوسِهم، فهَلَكَ القومُ كلُّهم، وبنفسِ الطريقة تآمَرَ مشركو مكّةَ على النبيِّ ﷺ ليقتلوه، ولينفُوه من الأرض، لكنْ ـ في نهاية الأمر ـ انقَلبتْ مؤامراتُهم عليهم، فهَلَكَ بعضُهم في الحروبِ والمعارك، ومَن لم يُسلمْ من الباقينَ رَحَل عن مكّةَ بعدَ أن فَتَحها اللهُ تعالى على النبيِّ ﷺ.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

١٧ـ ثم إنّ اللهَ تعالى سيُخزي المشركينَ ويُذِلُّهم يومَ القيامة، ويسألُهم: أين ما كنتُم تعبُدونَ من دوني وتُشرِكونَهم في عبادتي، وكنتُم تحاربونَ المؤمنينَ بسببِهم؟ عندَئذٍ لن يستطيعَ المشركونَ جوابًا بسببِ خَجَلِهم ونَدَمِهم، لكنّ أهلَ العِلم سيقولونَ لهم: لقد كنّا في الدُّنيا ندعو إلى هذه الحقيقة، منبِّهينَ إلى أنّ المشركينَ سيُصيبُهم الخِزْيُ في الآخِرة، واليومَ يَرى الناسُ جميعًا أنّ المشركينَ هم المستحِقُّونَ الحقيقيُّون للذُّلِّ والخِزْي، وسيُواجهُ بعضُ أهل الإيمانِ الذُّلَّ يومَئذٍ بشكلٍ مؤقت، لكنّ الخِزْيَ الدائم سيُبتلَى به المشركونَ يقينًا.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

١٨- الذين يُصِرُّونَ على شِركِهم حتى آخِرِ لحظةٍ من حياتِهم، يرَوْنَ آثارَ وشواهدَ عاقبتِهم الوخيمةِ حينَ يأتيهم مَلَكُ الموتِ وجماعتُه ليقبِضَ أرواحَهم، وعندَئذٍ سيَعتريهم خوفٌ شديد، ويدَّعونَ أمامَ الملائكةِ التَّقوى والصَّلاح، بأنّنا لم نكنْ نعمَلُ سوءًا في الدنيا، وسيقولُ لهم الملائكةُ عندَئذٍ: إنكم لا تستطيعونَ خِداعَ الله تعالى بكذبِكم هذا؛ لأنه يَعلَمُ تمامَ العِلم أعمالَكم السيِّئةَ، ولهذا ستَدخُلونَ جهنَّمَ الآنَ لا محالَة، وستَخلُدونَ فيها إلى أبدِ الآبِدين.

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

١٩- في الفترةِ الأُولى للإسلام عندَما كان أحدُ المسافرينَ إلى مكّةَ وعابري سبيلِها يَسألُ مشركًا عن القرآنِ الكريم كان يقولُ له: إنه مجرَّدُ حكاياتٍ كاذبةٍ عن السَّابقين، وحينَ يلتقي هؤلاءِ المسافرونَ المسلمينَ الأَتْقياءَ، ويَسألونَهم عن القرآنِ الكريم، كانوا يجيبونَهم بأنّ القرآنَ الكريمَ خيرٌ وصَلاحٌ كلُّه، وهو يُعلِمُنا أنّ الذين يعمَلونَ الصالحاتِ لهم الخيرُ في الدُّنيا، أي: يجتهدونَ في عملِ الصّالحات أملًا في الأَجْرِ الحَسَن، وفي الآخِرة سيَدخُلونَ الجِنانَ التي سيكونُ فيها كلُّ ما تشتهي أنفسُهم، وكأنّ الله تعالى قال: اعمَلوا في الدنيا ما نريدُ، وسنُحقِّقُ لكم في الآخِرة ما تريدونَ.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

٢٠ـ السُّعَداءُ الذين يَبقَوْنَ حتى آخِر لحظةٍ من حياتِهم مبرَّأينَ من الشِّركِ والرغَباتِ السيِّئة، تُحيِّيهم ملائكةُ الموت وتُسلِّمُ عليهم حين تأتيهم، ويُبشِّرونَهم بالجنّةِ جزاءَ أعمالِهم الصّالحة.

يقولُ محمدُ بن كَعْب القُرَظِيُّ: «**إذا استَنْقَعتْ نفسُ العبدِ المؤمن جاءه مَلَكُ الموتِ فقال: السّلامُ عليكَ وليَّ الله! اللهُ يقرَأُ عليك السّلامَ. وقال ابنُ مسعودٍ: إذا جاء مَلَكُ الموتِ يَقبِضُ رُوحَ المؤمن قال: ربُّك يُقرئك السّلام**»(١).

كم هو إنسانٌ سعيدُ الطّالع ذلك الذي حين يُفارقُ هذه الدُّنيا تستقبِلُه ملائكةُ الرَّحمة، ويُرسلُ اللهُ تعالى إليه السَّلام. يا ربَّ العالَمين، أَنْعِمْ علَيّ وعلى كلِّ مَن لهم علاقةٌ بي بهذه الرَّحمةِ الخاصّة بوسيلةِ أحبائك والمقرَّبينَ إليك، آمينَ، بحقِّ جاه حبيبك الكريم عليه التحيّةُ والتسليم.

يقولُ العلّامةُ نورُ الدِّين الحَلَبي، عن الأيام الأُولى لإسلام سيِّدِنا بلالٍ رضي اللهُ عنه، وعن اللَّحَظاتِ الأخيرةِ في حياتِه: «**فكان بلالٌ بقولِه: أحدٌ أحدٌ يمزُجُ مرارةَ العذابِ بحلاوةِ الإيمان. وقد وَقَع له رضيَ اللهُ تعالى عنه أنه لمّا احتُضِر وسَمِع امرأتَه تقولُ: واحُزْناه! صار يقولُ: واطَرباه، غدًا ألقى الأحبّه، محمّدًا وحِزْبَه، فكان بلالٌ يمزُجُ مرارةَ الموتِ بحلاوةِ اللِّقاء**»(٢). كم هي ساعةٌ مباركةٌ وسعيدة، حين نلتقي بأحبائنا غدًا، يعني: بسيّدِنا وحبيبِنا سيّدِنا المصطفى ﷺ وصحابتِه الكرام البرَرَة، وكأنه هنا يمزُجُ مرارةَ رحيلِ سيّدِنا بلالٍ رضي الله عنه بحلاوةِ لقاءِ النبيِّ الكريم ﷺ.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) السيرة الحلبية، ١: ٤٢٢.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

٢١ـ لقد ظَهر الحقُّ واضحًا بالبراهينِ والأدِلّة المبيَّنة، فلماذا لم يؤمنِ المشركونَ بالرَّغْم من ذلك، هل ينتظرونَ أن تأتيَهم ملائكةُ الموت، ويَقبضوا أرواحَهم، وتنتهيَ حياتُهم، ويَبتلوهم بعذابِ البَرْزَخ، أم هل ينتظرونَ أن يَنزِلَ عليهم عذابٌ من السّماءِ يُهلِكُهم ويُدمِّرُهم؟ ينبغي لهم أن يعتبروا من أحوالِ الأُمم السّابقةِ عليهم، حين أنذَرَهم الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ بالعذابِ من الله تعالى، لكنّهم سَخِروا من الأنبياءِ عليهم السَّلام وقالوا: متى يأتينا هذا العذاب؟ إلى أنْ أحاط بهم فعلًا ومن كلِّ جانبٍ ذلك العذابُ الذي كانوا يَسخَرونَ منه، ولم يَظلِمْهم اللهُ تعالى في هذا أبدًا، وإنّما هم الذين ظَلَموا أنفسَهم، وما هذا إلا نتيجةُ ومصيرُ أعمالِهم السّيئة.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

٢٢ـ كان مشركو مكّةَ يدَّعونَ أنّهم يشركونَ في بيتِ الله تعالى منذُ قرون، ولو أراد اللهُ تعالى لَما أشرَكوا، ولَما حَرَّموا حيَواناتٍ حلالًا مثلَ البَحِيرةِ والسّائبة، ويُعلمُ

منه بهذا الشَّكل أنّ اللهَ تعالى يحبُّ شِركَهم، ولو لم يحبَّه لَمنَعَهم من كلِّ هذا، وعليه قال اللهُ تعالى: إن هذا ليس بالأمرِ الجديد، فقدِ ادَّعى المشرِكونَ من قبلِهم أيضًا هذا الادِّعاءَ، لكنّ ادِّعاءهم هذا ليس صحيحًا؛ لأنّ اللهَ تعالى مَنَع كلَّ أُمّةٍ من الشِّرك، ولهذا أرسَلَ إليهم الرُّسُلَ الذين أخبَروهم أن يعبُدوا اللهَ الواحدَ الأحدَ، وواجبُ الرُّسُل هو أن يُبيِّنوا الحقَّ من الباطل بشكلٍ كامل، وقد أدَّوْا هذا الواجبَ بكلِّ أمانةٍ فعلًا، ويبقَى الواجبُ على هؤلاءِ أن يستعمِلوا عقولَهم، ويختاروا طريقَ الحق، واللهُ تعالى لا يُجبِرُ أحدًا على الهداية؛ لأنّ هذا يتنافَى معَ حِكمتِه.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

٢٣ـأرسَلَ اللهُ تعالى رسولًا إلى كلِّ قومٍ، حتى يُخبِرَهم أن يعبُدوا اللهَ تعالى، ويتجنَّبوا الشيطانَ، فالذين يتدبَّرونَ ما قاله الرسُلُ عليهم السَّلام، هداهم اللهُ تعالى إلى طريقِ الحق، أمّا الذين كذَّبوا الرُّسُلَ عليهم السَّلام، تَرَكهم اللهُ في ضلالِهم يعمَهون، لهذا سِيروا في الأرض، وانظُروا كيف كانت عاقبةُ المكذِّبين.

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

٢٤ـيا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، إنّك رحمةٌ للعالَمين جميعًا، وتريدُ ـ برحمتِك الفِطريَّة ـ أن يؤمنَ المشركونَ جميعًا، لكنّ الذين بَلَغوا المدى في الضَّلالِ منهم بسببِ عصيانِهم وطُغيانِهم لن يؤمنوا، ولهذا تَركهم اللهُ تعالى يَهيمونَ في ضلالِهم مستغرِقينَ فيه، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُساعدَهم في شيء.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴾

٢٥- لا تستوعبُ عقولُ المشركينَ أنْ يموتَ الإنسانُ ويصيرَ تُرابًا، ثم يُبعَثَ من جديد، ولهذا يُقسِمونَ بأغلظِ الأَيْمان مدَّعينَ أنه لن تقومَ السّاعة، وعليه نزَلت هذه الآيةُ بأنّ الساعةَ قادمةٌ لا مَحالةَ؛ لأنّ كلَّ فِرقةٍ في العالَم في أيامِنا هذه تدَّعي أنها على الحقِّ، وأنّ الباقينَ على الباطل، ولهذا لا بدَّ أن يأتيَ يومٌ يتَّضحُ فيه الحقُّ من الباطل، وعندَها سيتيَقَّنُ المنكِرونَ أنهم كاذبون، وأنّ الحقَّ هو ما قاله النبيُّ الكريم ﷺ، وإنْ لم يأتِ يومُ القيامة، فسيبقَى الصالحونَ بغيرِ أَجْر، والظالمونَ بغيرِ عقاب، وشهداءُ الوطنِ والمِلّة بغيرِ ثواب، وهذا يتنافَى معَ حِكمةِ الله تعالى.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

٢٦- اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، وحين يريدُ خَلْقَ شيءٍ فإنه يقولُ لهُ فقطْ: ﴿كُن﴾، فيكونُ الشيءُ، ويقولُ المفسِّرون: «**هذا تقريبٌ للأذهان، والحقيقةُ أنه تعالى لو أراد شيئًا لَكان بغيرِ احتياج إلى لفظِ ﴿كُن﴾**»[1]، وإذا كان اللهُ تعالى يستطيعُ أن يَخلُقَ الكائناتِ كلَّها بمجرَّد الإرادة، فهل يصعُبُ عليه إحياءُ موتى البشَر ثانيةً؟

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ

---

(١) صفوة التفاسير.

فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

٢٧ـ أوقَعَ كُفّارُ مكّةَ ظُلمًا لا حدَّ له بالمسلمين، فصَبَروا، وتوكَّلوا على اللهِ وهاجَروا من مكّة، بعضُهم إلى الحبَشة، والبعضُ الآخَرُ إلى المدينة، وقد أَنْعم اللهُ تعالى على أولئك المهاجِرينَ بوطنٍ جميل يانع في هذه الدُّنيا في صُورة المدينةِ المنوَّرة، وفي النّهاية أَنْعم على المسلمينَ بحُكم الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها، أمّا أَجْرُهم في الآخِرة فهو عظيمٌ، وعندَما كان سيِّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضي اللهُ عنه يقدِّمُ العطاءاتِ والمِنَحَ للمهاجِرينَ أيامَ عهدِ خلافتِه كان يقول: «**خُذْ بارَكَ الله لكَ فيه، هذا ما وَعَدَكَ اللهُ في الدّنيا، وما ادَّخَر لك في الآخِرة أفضَلُ، ثمّ قرأَ هذه الآية:** ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾»[١]. ليتَ مشركي مكّةَ كانوا يَعلَمونَ بهذا الأَجْر العظيم في الآخِرة، ورَغِبوا إلى الإسلام.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

٢٨ـ كان من بينِ اعتراضاتِ مشركي مكّةَ عمومًا أنه لماذا لم يُرسِل اللهُ تعالى مَلَكًا رسُولًا؟ وقد جاء الردُّ على هذا الاعتراض في هذه الآية، بأنّ سُنّةَ اللهِ تعالى هي أنه أرسَلَ كلَّ الرُّسُل والأنبياءِ عليهمُ السَّلام رجالًا، وإذا لم تكونوا تعرفونَ هذه الحقيقةَ فاسْأَلوا عالمًا من أهلِ الكتاب، وسيُخبِرُكم أنّ كلَّ مَن جاء ذِكرُهم من

---

(١) تفسير ابن كثير.

الأنبياءِ عليهم السَّلامُ في كتُبِهم كانوا جميعًا رجالًا ومن البشَر، وهذه حقيقةٌ بَدَهيّةٌ أن تستفسِروا من أهلِ العلم، وسيُخبِرونكم بأنّ النبيَّ يجبُ أن يكونَ إنسانًا؛ لأنه لو أرسَلَ المَلَكَ نبيًّا لكانت هناك صعوباتٌ جَمّةٌ في التفاهُم معه، وفي العمل بما جاء به واتّباعِه، ويُعلَمُ منه أيضًا: أنّ كلَّ الأنبياءِ كانوا رجالًا، ولم تكنْ بينَهمُ امرأةٌ. ولمزيدٍ من التفصيل في هذا الخصُوص راجع الحاشيةَ رقم **٢١** من سُورة آل عِمران **(٣)**.

ويُعلَمُ من هذه الآية أيضًا: أن الذين لا يَعلَمونَ الأحكامَ الإسلاميّةَ عليهم أن يسأَلوا أهلَ العِلم ويَعمَلوا بها، وهذا مبدأٌ بَدَهيٌّ يتِمُّ العملُ به منذُ عهدِ الصّحابةِ الكرام وحتى اليوم، يعني: أنّ غيرَ العلماءِ من الناس يَستفْتُونَ العلماءَ ويعمَلونَ طبقًا لهذا، وهذا هو ما يُسمَّى التقليدَ، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم **٩٣** من سُورة النِّساء (٤)، والحاشيةَ رقم **١٤١** من سُورة المائدة **(٥)**.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

٢٩ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، كما أرسَلْنا الرُّسلَ من قبلِك بالبراهينِ الواضحة والكتُبِ البيِّنة، أَنْزلنا عليكَ أيضًا القرآنَ المَجيدَ، لتبيِّنَ أحكامَه للناس بشكل واضح، حتى يتدبَّروه، ويُصلحوا من أنفسِهم.

يقولُ العلّامةُ القُرطُبي: «**فالرّسولُ ﷺ مبيِّنٌ عن الله عزَّ وجلّ مرادَه ممّا أجملَهَ في كتابِه من أحكام الصّلاةِ والزّكاة، وغيرِ ذلك ممّا لم يُفصِّلْه**»[1]، ولهذا فإنّ التفسيرَ الذي بيَّنه النبيُّ ﷺ للقرآنِ المَجيد هو الموثوقُ به، وليس لأحدٍ آخَرَ الحقُّ في تأويلِ آيةٍ على غيرِ ما جاء به النبيُّ ﷺ؛ لأنّ ما جاء به النبيُّ ﷺ هو المعيارُ والمقياس، ويمكنُ النقاشُ في سَنَدِ حديثٍ من الأحاديث، إن كان هذا الحديثُ ثابتًا بالفعل عن النبيِّ ﷺ أم لا، لكنّ ما قاله النبيُّ ﷺ لا يمكنُ أن يكونَ خطأً، ولو كان من الممكنِ

(١) تفسير القرطبي.

أن يكون كلامُ النبيِّ ﷺ ـ لا سمحَ الله ـ خطأً، فإنّ القرآنَ كلُّه سيكونُ خطأً، ونحن نؤمنُ أنّ القرآنَ الكريمَ كلامُ الله تعالى، ودليلُه هو لسانُ رسولِ الله ﷺ فقطْ، إذ لم يُنزِّلْه اللهُ تعالى وجبريلُ الأمينُ علينا نحن.

وعن هذا اللِّسانِ المباركِ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وتأمَّلْ هنا قولَ النبيِّ ﷺ فيما رواهُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما، حيث يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله: **كنتُ أكتُبُ كلَّ شيءٍ أسمَعُه من رسولِ الله ﷺ أريدُ حِفظَه، فنَهَتْني قُريشٌ، وقالوا: تكتُبُ كلَّ شيءٍ سمِعتَه من رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ بشَرٌ يتكلَّمُ في الغضَبِ والرِّضا؟ فأمسَكْتُ عن الكتاب، فذَكَرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ، فأَوْمأَ بإصبعِه إلى فيه، وقال: «اكتُبْ، فوالّذي نَفْسي بيدِه، ما خَرَج منه إلّا حقّ»**[1].

ما أعظمَ شأنَ لسانِ النبيِّ ﷺ، فإذا نَطَق لم يكنْ إلّا بشيئَيْنِ فقطْ: القرآنِ أو الحديث، ولا ثالثَ لهما، ولمزيدٍ من التفصيل عن الحديثِ والسُّنة راجعِ الحاشيةَ رقم ١٧ من سورة آل عِمران (٣).

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

٣٠ـ لم يألُ مشركو مكّةَ جُهدًا في الكَيْد الوَضيع والتآمُر الخَسيس ضدَّ الإسلام، وهنا تنبيهٌ لهم، بأنّكم إن لم تَرجِعوا عن عنادِكم وطُغيانِكم، فلا تكونوا مطمئنِّين، إذْ يمكنُ أن يَنزِلَ عليكم واحدٌ من أربعةِ أنواع من العذاب هي:

١ـ أن تبتلعَهم الأرضُ ويغوصوا فيها مثلَ قارون، ومثلَما حدَثَ معَ سُراقة

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٤٣.

ابن مالكٍ وقتَ هجرةِ النبيِّ ﷺ، حيث خَرَج سُراقةُ متعقِّبًا النبيَّ ﷺ، فلمّا اقتربَ منه غاصَتْ أقدامُ فرسِه في الأرض الصَّخريّة حتى بَلَغت بطنَها، وارتفَع الغبارُ كالدُّخان إلى عنانِ السماء، فخاف سُراقةُ بنُ مالك وتوسَّل إلى النبيِّ ﷺ أن يعفوَ عنه ويسامحَه، وأنه سوف يعودُ من حيثُ جاء دونَ أن يمسَّه بسُوء(١).

٢ـ أن يأتيَهم عذابٌ من مكانٍ لا يتوقَّعونَ أن يأتيَهم منه أبدًا، مثلَما جاءت هزيمةُ المشركينَ بجيشِهم الذي بَلَغ ألفًا، على يدِ ثلاثِمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ من المسلمين، وهو ما لم يكونوا يتصوَّرونَه.

٣ـ أن يَنهمِكوا فيما يقومونَ به يوميًّا، فيأتيَهم عذابٌ من الله يأخُذُهم، إذ أنهم لا يُعجِزونَ اللهَ تعالى، مثلَما حدَثَ في فَتْح مكّة، حيث أصبحوا أُسارى في مدينتِهم.

٤ـ أن يأتيَهم العذابُ بما يعترِيهم من خوفٍ من المسلمين، مثلَما ضاقتِ الأرضُ على المشرِكينَ بما رَحُبت، بسببِ زيادةِ أعدادِ المسلمين، وحرَّم هذا الخوفُ النَّومَ عليهم، إلى أنْ جاء الوقتُ الذي اضْطُرَّ فيه المشركونَ إلى الرحيل عن الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها.

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾

٣١ـ كلُّ ما في السمواتِ والأرضِ وما بينَهما من مخلوقاتٍ تتَّبعُ أوامرَ اللهِ تعالى وأحكامَه، وخاصّةً ظلَّ الأشياءِ ذاتِ الأجسام الماديّة، إذ حين تتمايلُ يَمْنةً

(١) «وقال أبو بكر رضي الله عنه: «وتبعنا سراقة بن مالك ونحن في جلدٍ من الأرض فقلت:يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا. قال: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾. فلما دنا منّا وكان بيننا وبينه قدر رمحٍ أو رمحين،فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها فوثب عنها، ثم قال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمّينّ على من ورائي من الطلب». سبل الهدى والرشاد، ٢: ٣٥٤.

ويَسْرةً، تُقدِّمُ مشهدًا للسُّجود، يُعَدُّ بمثابةِ دَرْس عِبرةٍ للمتكبِّرين من البشَر، بأنّ الأشياءَ الجامدةَ وظلَّها ساجدةٌ لله تعالى في تواضُع جمٍّ، بينَما الإنسانُ المتكبِّرُ مستغرِقٌ في عصيانِه لله تعالى.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

٣٢ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ الملائكةَ معصومون؛ لأنّهم مقيَّدونَ بحُكم الله تعالى وملتزِمونَ به.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

٣٣ـ العبادةُ لا تليقُ إلّا باللهِ تعالى فقطْ، وهو واحدٌ أحَدٌ، واحدٌ فقطْ، ولا يوجَدُ تصوُّرٌ لأكثرَ من إله واحدٍ في الإسلام، واللهُ تعالى وحدَه فقطْ هو مالكُ كلِّ ما في السَّمواتِ والأرض، ويَلزَمُ كلَّ شيءٍ طاعتُه، وينبغي أن يخشاه كلُّ مخلوق.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

٣٤ـ عندَما كان الأذى يلحَقُ بالمشركينَ كانوا يَستغيثونَ بالله تعالى، وحين يرفَعُ اللهُ تعالى عنهم الأذى كانوا يُشركونَ به، معَ أنه كان يجبُ عليهم أن يكونوا لله من الشاكرين، ولكنْ إن أصَرُّوا على جحودِهم، فسوف يَلقَوْنَ في الآخِرة بعدَ هذه الحياة القصيرةِ عذابًا أليمًا. يقولُ فخرُ المفسِّرين الإمامُ فخرُ الدِّين الرازي رحمه اللهُ فيما يتعلَّقُ بهذه الآية: «**في اليوم الّذي كنتُ أكتُب هذه الأوراقَ وهو اليومُ الأوّلُ من محرّمِ سنةَ اثنتَيْنِ وستِّمائةٍ حصَلَتْ زَلْزلةٌ شديدة، وهَدّةٌ عظيمةٌ وقتَ الصّبح، ورأيتُ النّاسَ يَصِيحون بالدُّعاء والتّضرُّع، فلمّا سكَتَت وطابَ الهواء، وحسُنَ أنواعُ الوقت نَسُوا في الحالِ تلك الزَّلزلةَ وعادوا إلى ما كانوا عليه من تلك السَّفاهةِ والجهالة**»[١].

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾

٣٥ـ كان المشركونَ يخصِّصونَ جزءًا من أموالِ حقولِهم وتجارتِهم في المواشي للأصنام، وكانوا يعتقدونَ أنّ هذه الأصنامَ ستشفَعُ لهم عندَ الله تعالى، معَ أنه ليس لديهم أيُّ دليلٍ على هذا الادِّعاء، يَثبُتُ منه أنّ اللهَ تعالى ـ بالفعل ـ قد جَعَل من الأصنام شركاءَ له، وإنّما كان هذا كلُّه مَحْضَ افتراءٍ على الله تعالى، وسوف يحاسَبونَ عليه. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم **١٢١** من سُورة الأنعام (٦).

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾

٣٦ـ كانت هناك قبيلتانِ من القبائل العربيّةِ في شِبه الجزيرة: قبيلةُ خُزاعة، وقبيلةُ كنانة، وكانتا تَدَّعيانِ أنّ الملائكةَ بناتُ الله![٢] معَ أنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) «نزلت في خزاعة وكنانة؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله». القرطبي.

أن يكونَ له أولاد، كما أنّ هؤلاءِ كانوا يحبُّونَ الذكورَ لأنفُسِهم، وينفِرونَ من الإناث، وفي نفسِ الوقت يجعَلونَ لله البناتِ، كم هو ظلمٌ منهم، وكلامٌ لا يَقبَلُه عقلٌ، بأنْ يُثبتوا لله الشيءَ الذي لا يحبُّونَه لأنفسِهم.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

٣٧ـ كان العربُ في زمنِ الجاهليَّة لا يحبُّونَ الإناث، وإذا بُشِّر أحدُهم بمولِد أُنثى يعُمُّ الحزنُ والألمُ على وجهِه، ويعيشُ مختبئًا بعيدًا عن الناس، ويُحدِّثُ نفسَه إن كان سيُبقي على هذه الأنثى التي أصابه بولادتِها الإذلالُ حيّةً، أم يدفِنُها في التراب، وكانت قبائلُ مُضرَ وخُزاعةَ وتميم تدفِنُ إناثَها أحياءً[1].

من الفَضْلِ العظيم للإسلام على المرأةِ أنه قضَى على هذه العادةِ واقتَلَعها من جذورِها، بحيث أنه بعدَ الإسلام لا تجدُ مثالًا واحدًا لدَفْن البناتِ أحياءً.

الحالة البائسة للإناث في الجاهلية:

يقول قَيْسُ بن عاصم رضي اللهُ عنه: إنه جاء إلى النبيِّ ﷺ وقال له: **إنّي وَأَدتُ ثمانيَ بناتٍ لي في الجاهليّة، قال: «أعتِقْ عن كلِّ واحدةٍ منها رَقَبةً»، قلت: إنّي صاحبُ إبلٍ، قال: «اهْدِ إن شئتَ عن كلِّ واحدةٍ منهنّ بَدَنةً»**[2].

ويُروَى أنّ شخصًا قال: **يا رسولَ الله، ما أجدُ حلاوةَ الإسلام منذُ أَسْلمتُ، فقد كانت لي في الجاهليّة ابنةٌ فأمَرتُ امرأتي أن تُزيِّنَها فأَخْرجتُها إليّ فانتَهيْتُ بها إلى وادٍ بعيدِ القَعْر فألقَيْتُها فيه، فقالت: يا أبتِ قتلتَني، فكلّما ذَكَرتُ قولَها لم**

---

(١) «وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية، قال قتادة: كان مضر وخزاعة وتميم يدفنون البنات أحياء؛ وأشدهم في هذا تميم». القرطبي.

(٢) المعجم الكبير، ١٨: ٣٣٧ برقم ٨٦٣.

ينفَعْني شيءٌ، فقال عليه السّلام: «ما كان في الجاهليّة فقد هَدَمَه الإسلامُ، وما كان في الإسلام يهدِمُه الاستغفار»[١].

فضل الابنة في الإسلام:

١ـ عن عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ رضي اللهُ عنها، قالت: كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وآله وسلم إذا رآها (فاطمةَ رضي اللهُ عنها) قد أَقْبلتْ رحَّبَ بها ثم قام إليها فقبَّلَها ثم أخَذَ بيدِها فجاء بها حتى يُجلسَها في مكانِه[٢].

٢ـ قال رسولُ الله ﷺ: «لا تكرَهوا البناتِ، فإنّهنّ المؤْنِساتُ الغاليات»[٣].

٣ـ قال رسولُ الله ﷺ: «مَن عالَ جاريتَيْنِ حتّى تبلُغا جاء يومَ القيامة أنا وهو» وضمَّ أصابعَه[٤].

٤ـ عن عبدِ الله بن مسعودٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مَن كانت له بنتٌ فأدَّبَها فأحسَنَ تأديبَها، وعلَّمَها فأحسَنَ تعليمَها، وأسبَغَ عليها مِن نِعَم الله الّتي أسبَغَ عليه، كانت له سَتْرًا من النّار»[٥].

٥ـ يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقّي: «وفي الشّرعة: ويزدادُ فرحًا بالبناتِ مخالفةً لأهلِ الجاهليَّة»[٦].

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) الأدب المفرد، الإمام البخاري، ٢٧٨.

(٣) مسند أحمد، ٤: ١٥١.

(٤) مسلم، كتاب البر، باب ٤٦ برقم ٦٦٩٥.

(٥) حلية الأولياء، ٥: ٦٧ برقم ٦٣٤٨، وكنز العمال، ١٦: ٤٥٢ برقم ٤٥٣٩١.

(٦) تفسير روح البيان.

ولا تزالُ في بعضِ الناس جهالةٌ من مِثلِ هذا، بمعنى: أنّ الرجُلَ يحبُّ المرأةَ باعتبارِها زوجةً، ولا يحبُّها باعتبارِها ابنةً، لكنّه لا يفكِّرُ بأنّ زوجتَه في نهايةِ الأمر إنما ابنةٌ لأحدٍ من الناس، ولو قضَيْنا على وجودِ الابنةِ فلن تكونَ هناك زوجةٌ أصلًا، وبالتالي لن تكونَ هناك ذرِّيةٌ وتَسلسُلٌ في النَّسل، ولهذا فإنّ كراهيَةَ الابنةِ ليست إلا حماقةً ومخالفةً للفِطرة، ولأنّ الإسلامَ دينُ الفِطرة، لهذا لا مجالَ فيه للتفرِقة بينَ الابنةِ والزَّوجة.

ولو أنّ الابنةَ مخلوقٌ غيرُ مرغوبٍ فيه، لَما وُلِدت البناتُ عندَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، وقد كان لسيِّدِ الأنبياء ﷺ أربعُ بنات، وهو الذي قال: «**لا تكرَهوا البنات، فإنّي أبو البنات**»، كما أنه ﷺ قال: «**مِن برَكةِ المرأة تبكيرُها بالبنات**»، **أي: يكون أولُ ولدِها بنتًا، ألم تسمَعْ قولَه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، حيث بدأ بالإناث؟**»[١]، ثم بعدَ ذلك يأتي البَنُونَ.

حكاية ابن:

لو رُزِق أبوَان بابنةٍ، لا داعيَ لأنْ يُصيبَهم الإحساسُ بالنَّقص، إذ إنّ هذه الابنَة ستكبَرُ وتُسعِدُ والدَيْها، بحيث لو كان مكانَها ابنٌ، لَربَّما لم يُسعِدْهما مثلَها، لصديقي ابنٌ، جاء إلى بريطانيا وسلَكَ الطريقَ الخطأَ، وهو ما كان سببًا للخَجَل الشَّديد لوالدَيْه، وذاتَ يوم قال لي والداه: يا سيِّد بيرزَاده، إنّ لنا ابنًا وأحدًا، والباقي بنات، وحين وُلِد هذا الابنُ احتفَلْنا بمولدِه وسَعِدنا به كثيرًا، ووَزَّعنا الحلوى على الناس أيضًا، ولكنّ أفعالَه اليومَ تُخجِلُنا غايةَ الخَجَل، بحيث يثورُ داخلَ قلوبِنا صوتٌ يقول: ليتَه لم يولَدْ، لكنّا اليوم أسعَدُ حالًا بدونِه.

---

(١) تفسير روح البيان.

حكاية ابنة:

على العكس منَ الابنِ سابقِ الذِّكر، استمِعْ إلى قصّةِ ابنة، جعَلَتْها أمانتُها وتديُّنُها زينةً لبيتِ الخليفة وهي ابنةُ بيتٍ فقير، وأصبحت هذه الابنةُ محلَّ فخرٍ واحترام وتكريم لوالدَيْها، بل وللأسرةِ كلِّها، والقصّةُ فَحْواها أنه: «**لمّا كان عُمرُ بن الخطاب رضيَ اللهُ عنه يعُسُّ في دروبِ المدينة ليلًا، فسمع الحوارَ بينَ الأُمِّ التي تأمُرُ ابنتَها بخَلْطِ الماءِ بالحليب، والبنتُ التي تقولُ لأُمِّها: أمَا سمعتِ عُمرَ ينهَى عن خَلْطِ الماءَ بالحليب؟ فقالت الأُمُّ: وهل عُمرُ يرانا الآنَ؟ فأجابَتْها البنتُ: إذا كان عُمرُ لا يرانا، فإنّ ربَّ عُمرَ يرانا** ـ (ما أعظمَ هذه الابنة!) ـ **وعندَها وَضَع عمرُ علامةً على هذا البيتِ ثم ذَهَب إلى أبنائه، فسألَهم عمَّن يَرغَبُ في الزّواج، وزوَّجَ** (ابنَه عاصمًا رضي الله عنه) **من هذه الفتاة، فأَخْرج اللهُ من نَسْل هذه الفتاة، الخليفةَ الراشدَ عُمرَ بنَ عبدِ العزيز رضيَ اللهُ عنه وأَثْمر وَرَعُ هذه الفتاة، وتَقْواها، وَرَعًا وتقوى، وخوفًا من الله تعالى، ومراقبةً له، عندَ حفيدِها عُمرَ بن عبد العزيز**»[1]، وهو الخليفةُ الذي تفخَرُ به الأُمةُ المسلمةُ حتى اليوم.

ندعو اللهَ تعالى أن يرزُقَ الجميعَ معَ البنينَ بناتٍ عفيفاتٍ طاهراتٍ مُنصِفاتٍ كهذه، آمين، ولهذا لا يليقُ بأيِّ أبٍ أو أمٍّ أن تفضِّلَ ابنَها على ابنتِها أبدًا، فمَن يدري من منهما سيكونُ خيرًا لوالدَيْه؟

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

٣٨ـ كان من صفاتِ المشركينَ السيِّئة أنهم كانوا يَكرَهونَ الإناثَ، ويدفِنُونهنَّ أحياءً، والصّفةُ السيِّئةُ الثانية أنهم كانوا يَكرَهونَ لأنفُسِهم البناتِ، وفي نفسِ الوقت يُثبِتونَ لله البنات، وكانت هذه صِفاتٍ سيِّئةً للمشركينَ الذين لا يؤمنونَ بالآخِرة.

---

(١) حقوق الأولاد، محمد شريف الصواف، ٢٢.

على أيِّ حال، صفاتُ الله تعالى في غايةِ الرِّفعة والعَظَمة، وهو منزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ وضعفٍ ونَقْص.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

٣٩ـ قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال النبيُّ ﷺ: «**كلُّ ابنِ آدمَ خطّاء، وخيرُ الخطّائينَ التوّابون**»(١)، ويُعلَمُ منه أنّ عددَ الظالمينَ كبير، وأنه ليس هناك إنسانٌ معصومًا من الخطأ.

فإذا عاقَبَ اللهُ تعالى المخطِئينَ والظالمينَ في هذه الدُّنيا عقابًا فَوْريًّا، فإنّ الأقليّةَ الشاكرةَ سيُقضَى عليها من هذه الدُّنيا كنوعٍ من الابتلاء، جَنْبًا إلى جنبٍ معَ الأكثريّةِ التي سيَنزِلُ عليها العذابُ، وهكذا لا تبقَى هناك ضرورةٌ لحيوَانٍ؛ لأنها خُلِقت لفائدةِ الإنسان، كما لن تكونَ هناك ضرورةٌ لأنبياءَ؛ لأنّهم يُرسَلونَ لهدايةِ الإنسان، وحين لن يبقَى الإنسانُ نفسُه، فلا حاجةَ عندَئذٍ للأنبياءِ عليهم السَّلام، وبالتالي ستَخلو الأرضُ من الإنسانِ والحيَوان، لكنّ حِكمةَ اللهِ تعالى اقتَضَت

---

(١) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٤٩ برقم ٢٤٩٩.

إمهالَ الناس لوقتٍ محدَّد، حتى يُصلِحوا من أنفسِهم، فإنْ لم يُصلحوا أنفسَهم، فمن الممكنِ أن يولَدَ من أصلابِهم عبادٌ شاكرون، إلا أنه إذا حانَ الوقتُ المحدَّد لعذابِ الظالمين، فلا يمكنُ التقديمُ أو التأخيرُ فيه عندَئذٍ.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

٤٠- كان المشركونَ يدَّعونَ أنّ لله تعالى بناتٍ، معَ أنّهم لم يكونوا يحبُّونَ لأنفسِهم البناتِ، أمّا ادِّعاؤهمُ الثاني فهو أنه على فَرْض أنّ الساعةَ قامت، فإنّنا أيضًا سنكونُ مستحِقِّينَ للجنّةِ وللخير، كما أنّنا مستحِقُّونَ للخيرِ في الدُّنيا.

وفي هذه الآية إبطالٌ لما يَدَّعيه المشركون، والتأكيدُ على أنّهم كاذِبون، ولهم في الآخِرة جهنَّمُ وبئس المصير، وسيكونونَ أولَ الداخِلينَ فيها.

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

٤١- كان النبيُّ ﷺ يَحزَنُ من تصرُّفاتِ مشركي مكّةَ التافهة، وسلوكِهم الدَّنيء، وفي هذه الآية يُسَرّي اللهُ تعالى عن قلبِ النبيِّ ﷺ، بأنّ الشيطانَ قد زَيَّن للأمم السابقة أيضًا أعمالَهم السيِّئة، وجَعَلَهم يخالفونَ أنبياءهم الكرامَ عليهم السَّلام، وبنفسِ الطريقة فإنّ الشّيطانَ وليُّهم اليومَ، وقد زَيَّن للمشركينَ سُوءَ عمَلِهم، فلا تغتمَّ ولا تحزَنْ أيُّها النبيُّ الكريم ﷺ، فسوف يفشَلُ هؤلاءِ كما فَشِلت الأممُ السابقة، ولهم في الآخِرة عذابٌ أليم.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

٤٢- كان المشركونَ واليهودُ والنَّصارى على اختلافٍ فيما بينَهم فيما يتعلَّقُ بالدين، وكان كلُّ فريقٍ منهم يَدَّعي أنه على الحقِّ، وأنّ الآخَرينَ على باطل، وعليه

قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لقد أنزلْنا عليكَ القرآنَ الكريمَ لتبيِّنَ للناس أنّ الحقَّ هو ما جاء به اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم، وأنّ القرآنَ المَجيدَ هدايةٌ كلُّه ورحمةٌ، ولكنْ لا يستفيدُ منه سوى أولئك الذين يؤمنونَ به فقطْ.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

٤٣ـ الذين يسمَعونَ هذه الآيةَ بتمعُّنٍ يجدونَ فيها دليلًا على عمليَّة البَعْث، بمعنى: أنّ اللهَ الذي يَجعَلُ من الأرضِ الجَدْباءِ البُورِ أرضًا خضراءَ يانعةً، قادرٌ على أن يُحيَ الإنسانَ الميِّتَ ثانيةً.

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾

٤٤ـ المرادُ بالأنعام هنا: البقرُ والجاموسُ والجِمالُ والأغنام، أي: الحَيواناتُ التي تُعطي لبنًا، إذْ عندما يَدخُلُ العَلَفُ في بطونِها، يتحوَّلُ جزءٌ منه إلى رَوْث، ويَخرُجُ منها في شكلِ فَضَلات، وجزءٌ آخَرُ يتحوَّلُ إلى دمٍ يدورُ في الجسم كلِّه، بينَما يتحوَّلُ جزءٌ ثالثٌ إلى لبنٍ نشربُه نحن، وبالتالي فإنّ وجودَ ثلاثةِ أشياءَ مختلفةٍ ومتضادَّةٍ من جسم واحدٍ وغذاءٍ واحدٍ لَهو آيةٌ عظيمة وعبرةٌ لمن يَعتبِر، وتدُلُّ على قُدرةِ الله تعالى وحِكمتِه.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

٤٥- يبني نحلُ العَسْل عُشَّه وأقراصَه في الجبالِ وفوقَ الأشجارِ والأماكنِ المرتفِعة، ثم بعدَ أن يمتصَّ هذا النَّحلُ رَحيقَ الأزهارِ يطيرُ بعيدًا في أعالي السماءِ وفوقَ الطُّرقِ المفتوحة، لكنّه لا ينسَى الطريقَ إلى أعشاشِه أبدًا، حيث يعودُ إليها ثانيةً، ويُخرِج من جسمِه عسَلًا رائعَ المذاق فيه شفاءٌ للناس.

فإذا تأمَّلْنا في هذه العمليّةِ كلِّها: بدايةً منَ امتصاصِ رحيقِ الأزهار وحتى تكوينِ العسَل وإخراجِه، لَوَجدَ أصحابُ العقول فيها آيةً عظيمةً على قدرةِ الله تعالى، فقد جَعَل اللهُ في جسدِ هذا النَّحل مصنَعًا فِطْريًّا طبيعيًّا يُحوِّلُ رحيقَ الأزهارِ إلى عسَل مصفًّى، وكان النبيُّ ﷺ يحبُّ العسَلَ كثيرًا، فعن **عائشةَ رضي اللهُ عنها، قالت: كان النّبيُّ ﷺ يُعجِبُه الحَلْواءُ والعسَل**[1].

في العسل شفاء لأمراض عدة:

يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضيَ اللهُ عنه: إن **رجُلًا أتَى النّبيَّ ﷺ فقال: أخي يشتكي بَطْنَه. فقال: «اسْقِه عسَلًا»**. (فسقَى الرجلُ أخاه عسَلًا، لكنّ الإسهالَ لم ينتهِ، بل على العكس ازداد) **ثمّ أتَى الثّانيةَ فقال: «اسْقِه عسَلًا». ثمّ أتاه الثّالثةَ فقال: «اسْقِه عسَلًا». ثمّ أتاه فقال: فعلتُ. فقال: «صَدَق الله، وكذَبَ بطنُ أخيك، اسْقِه عسَلًا». فسقاهُ فبَرأَ**[2].

العلاجُ بالعسَل:

١- عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنه، عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «لكلِّ داءٍ دواء،

---

(١) البخاري، كتاب الطب، باب ٤ برقم ٥٦٨٢.

(٢) البخاري، كتاب الطب، باب ٤ برقم ٥٦٨٤.

فإذا أصاب دواءُ الدّاءَ برَأَ بإذْنِ الله عزَّ وجلّ»[١].

٢ـ عن أسامةَ بن شَريكٍ، قال: أتيْتُ النّبيَّ ﷺ وأصحابَه كأنّما على رءوسِهم الطّير (أي: صامتينَ تمامًا) **فسَلّمتُ ثمّ قَعدتُ، فجاء الأعرابُ من ها هنا وها هنا فقالوا: يا رسولَ الله، أنتداوَى؟ فقال: «تداوَوْا، فإنّ اللهَ عزَّ وجلّ لم يضَعْ داءً إلّا وَضَع له دواءً غيرَ داءٍ واحدٍ: الهَرَم»**[٢].

٣ـ عن أبي الدّرداءِ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ أنْزلَ الدّاءَ والدّواء، وجَعَل لكلِّ داءٍ دواءً، فتداوَوْا، ولا تَداوَوْا بحرامٍ»[٣]، بمعنى: أنه إذا كان الدَّواءُ الحلالُ للداءِ موجودًا، وكذا الدواءُ الحرام، فلا ينبغي أن نتداوَى بالدَّواءِ الحرام، أما إذا لم يكنِ الدواءُ الحلالُ موجودًا، فيجوزُ التداوي به من الأمراضِ المُهلِكة.

٤ـ عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، أنّ رسولَ الله ﷺ استَعَطَ[٤].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

٤٦ـ بعدَ أن بيَّن اللهُ تعالى الآياتِ الخارجةَ على القُدرة، وَجَّه الإنسانَ إلى التفكُّرِ والتدبُّر في نفسِه، أي: أنّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ، ثم هو الذي يُميتُه، ويَرُدُّ بعضَ الناس في هذه الدُّنيا إلى أرذلِ العمُر، حيث يَفقِدُ حواسَّه ووعيَه، وينسَى في هذه الشيخوخةِ المتقدِّمة الأشياءَ التي كان يَعرِفُها جيّدًا من قبلُ، واللهُ تعالى هو الذي أحدَثَ كلَّ هذه التغيُّرات؛ لأنه القادرُ المطلَق.

---

(١) مسلم، كتاب السلام، باب ٢٦ برقم ٢٢٠٤.

(٢) أبو داود، كتاب الطب، باب ١ برقم ٣٨٥٥.

(٣) أبو داود، كتاب الطب، باب ١١ برقم ٣٨٧٤.

(٤) أبو داود، كتاب الطب، باب ٨ برقم ٣٨٦٧.

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًاۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

٤٧- من أعطاهُ اللهُ تعالى وَفْرةً في المال، لا يُعطي مَن مَلَكت يمينُه من المالِ ما يجعَلُهم متساوينَ معَه في الثراء، فإذا كنتُم لا ترضَوْنَ أن تُشركوا عبيدَكم في أموالِكم، فكيف تُشركونَ مخلوقًا معَ الله تعالى، أليس هذا جحودًا لنِعَم اللهِ تعالى، بأنكم تُثبتُونَ لله تعالى ما لا تحبُّونَه لأنفسِكم؟

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

٤٨- أَنْعم اللهُ تعالى عليكم بالأزواج والأطفالِ والرِّزقِ الحلال، ومعَ ذلك تترُكونَ الله تعالى وتعبُدونَ غيرَه، وهي آلهةٌ لا تَملِكُ القُدرةَ على أن تَرزُقَكم، أليس هذا عبادةً للباطل؟ من المؤكَّد أنّ عبادةَ الباطل بمثابةِ جحودٍ لنِعَم الله تعالى.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾

٤٩ـ أي: لا تشركوا بالله ولا تَعدِلوا معَه أحدًا؛ لأنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٥٠ـ في هذه الآيةِ بيَّنَ اللهُ تعالى مِثالًا لشخصَيْن، أحدُهما: عبدٌ لا يستطيعُ أن يفعَلَ شيئًا بمَحْض إرادتِه ورغبتِه، والآخَرُ: حرٌّ أَنْعم اللهُ تعالى عليه بالمالِ والثَّروة، وهو يُنفقُ منه سرًّا وعلانيَةً ليساعدَ الناسَ، ورَغْمَ أنّ هذَيْنِ الشَّخصَيْنِ بشَر، وكلاهُما إنسان، لكنّهما لا يَتساويانِ، وبالتالي كيف تستوي المخلوقاتُ العاجزةُ التي تعبُدونَها معَ الله تعالى القادرِ المطلَق خالقِ كلِّ شيء؟ الحقيقةُ أنّ المستحِقَّ لكلِّ ثناءٍ هو اللهُ تعالى فقطْ، ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعلَمون.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

٥١ـ في هذه الآيةِ بيَّن اللهُ تعالى مَثَلًا لشخصَيْنِ آخرَيْن، أحدُهما: أبكَمُ لا فائدةَ منه، ويُمثِّلُ عِبئًا على سيِّدِه، والآخَرُ يسيرُ على الطريقِ المستقيم، يفيدُ الناسَ بالعَدْل والإنصاف، فإذا كان هذانِ لا يستوِيان، فكيف يستوي الكافرُ معَ المؤمن، وكيف يتساوى الخالقُ معَ المخلوق؟

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا

وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

٥٢- اللهُ وحدَه هو الذي يَعلَمُ غيبَ السّمواتِ والأرض، ولا يُمكنُ لإنسانٍ أن يَعلَمَ هذا الغيبَ معتمِدًا على عقلِه وحواسِّه، لكنّ مَن يختارُه اللهُ تعالى يُعطيهِ من هذا العِلم بقَدْرِ ما يشاء، فهو أمرٌ متوقِّفٌ على إرادتِه سبحانَه وتعالى. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم **١٢٥، ١٢٦** من سورة آل عِمران **(٣)**، والحاشيةَ رقم **١٣٧** من سورة المائدة **(٥)**، والحاشيةَ رقم **٤٣، ٥٥، ٥٨** من سورة الأنعام **(٦)**، والحاشيةَ رقم **١٠٦** من سُورة الأعراف **(٧)**.

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

٥٣- قبلَ أن تقومَ الساعةُ ستفنَى هذه الأرضُ وهذه السَّماءُ، بل والكائناتُ كلُّها، وقدرةُ اللهِ تعالى العظيمةُ ليست في حاجةٍ إلى جيوشٍ وكتائبَ لكي تُفنيَ هذه الكائنات كلَّها، وإنما تُفنيها في أقلَّ من طَرْفةِ عَيْن بمجرَّدِ الإرادةِ ليس إلّا، وهو تعالى القادرُ المطلَق، وينبغي أن نخشَى عذابَه، وأن نعبُدَه.

وكما أنّ الساعةَ تقومُ في أقلَّ مِن طَرْفةِ عَيْن، كذلك يأتي الموتُ في أقلَّ من طَرْفةِ عَيْن، ولذا ينبغي للإنسانِ أن يعملَ على إصلاح نفسِه بأسرع ما يمكن، فقد يأتيه الموتُ قبلَ ذلك، وحينَها لن يكونَ هناك سوى النَّدم، وحينَها أيضًا لن ينفَعَ النَّدمُ بشيء.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

٥٤ـ حين يولَدُ الإنسانُ من بطنِ أُمِّه لا يكونُ على عِلم بأيِّ شيء، وقد أَنْعم اللهُ تعالى على هذا الإنسانِ بالأُذُنَيْنِ والعينَيْنِ والقلبِ حتى يشكُرَ اللهَ تعالى، بمعنى: أن يستعملَ هذه النِّعمَ في طاعةِ الله تعالى، واسألِ المحرومَ من السَّمع والبصَر عن قيمةِ هذه النِّعم وعن قَدْرِها، وكم تحيطُ به المشاكلُ بسببِ فُقدانها؟

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

٥٥ـ خلَقَ اللهُ تعالى أجسادَ الطُّيور وريشَها بطريقةٍ تجعَلُها متمكِّنةً من الطيرانِ في الفضاءِ دونَ أن تَسقُطَ على الأرض، وقد تَفكَّر العلماءُ التَّجريبيُّونَ في الطيورِ وتأمَّلوها، واستَوْحَوْا منها فكرةَ الطائرة وصنَعوها، ويَعلَمُ اللهُ كم من الاختراعاتِ سيظهرُ مستقبَلًا، ليت أهلَ الإيمانِ أيضًا يتدبَّرونَ في هذه الآياتِ ويتفكّرونَ فيها.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

٥٦ـ وفَّقَ اللهُ تعالى الإنسانَ إلى بناءِ بيتِه المستقلِّ من الأحجارِ والطِّين، وإلى صناعةِ خيامِه من جلودِ الأنعام، حيث يَسهُلُ استخدامُها في السَّفَر والحَضَر، كما

وفَّقه اللهُ تعالى كذلك إلى تدبيرِ احتياجاتِه الضَّروريّة المختلفةِ في الحياةِ من أَوْبارِ هذه الأنعام ومن الصُّوفِ والحرير أيضًا، ولكنّ هذا الإنسانَ يستطيعُ الاستفادةَ من كلِّ هذه النِّعم لفترةٍ محدَّدة فقطْ، وفي النِّهاية سيموتُ هذا الإنسانُ ذاتَ يوم، وسيُحاسبُه اللهُ تعالى خالقُه الحقيقيُّ عن كلِّ هذه النِّعم.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

٥٧- خَلَق اللهُ تعالى للإنسانِ الظِّلَّ للحماية من الحرّ، ووفَّقه إلى صناعةِ الملابس للوقايةِ من القَيْظ والبَرْد، وجَعَل في الجبالِ الغارَ وما شابَه للوقايةِ من المطَر، ووفَّقه إلى صناعةِ الدُّروع وغيرِها من الحديدِ للوقاية من ضَرَباتِ الأعداءِ في ميدانِ الحرب، وهكذا هيَّأَ اللهُ تعالى أسبابًا لا حَصْرَ لها لتلبيةِ كلِّ ضروراتَ الإنسان، وذلك لكي يشكُرَ هذا الإنسانُ ربَّه على هذه النِّعم، وليكونَ عبدًا مُطيعًا له.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

٥٨- يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ، إنْ لم يؤمنْ بك المشركونَ بعدَ كلِّ هذه النِّعم منِّي، وبعدَ دعوتِك الواضحةِ لهم، فلا تحزَنْ ولا تغتمَّ، فقد أدَّيتَ حقَّ الدعوة إلى الله، كما أنّ هؤلاءِ المشركين يَعرِفونَ نِعَمَ الله جيِّدًا، ولكنّهم يجحَدونَها بسببِ عنادِهم وصَلَفِهم، والعنادُ مرضٌ لا علاجَ له.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

٥٩ـ عندَما يشهَدُ كلُّ نبيٍّ يومَ القيامةِ على مَن كَفَروا به، بأنه دَعاهم إلى التوحيدِ وأبلَغَهم رسالتَه، لكنّهم كَفَروا به عامِدينَ متعمِّدين، عندَئذٍ لن يُسمَحَ للمنكِرين بالاعتذارِ بعدَ شهادةِ الأنبياء الكرام عليهم السَّلام هذه، فهي الشّهادةُ الحَتْميّةُ التي لا تَقبَلُ الإنكار، كما أنّهم لن يُمهَلوا ليتوبوا؛ لأنّ وقتَ التوبةِ انتهى بنهايةِ الدنيا، أمّا الآنَ فهو وقتُ الحسابِ والعقابِ والثوابِ فقطْ.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

٦٠ـ عندَما تُلقي الملائكةُ بالظالمينَ في جهنَّم، ويشاهِدُ الظالمونَ العذابَ عمليًّا، فلن يكونَ لصُراخِهم واستغاثتِهم أثرٌ في تخفيفِ العذابِ عنهم، كما أنّهم لن يُعطَوْا فرصةً للاستراحةِ من هذا العذابِ، وإنّما سيكونُ عذابًا مستديمًا ومتواصِلًا.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

٦١ـ عندما يَرى المشركونَ يومَ القيامة الشُّركاءَ الذين اختَرعوهم من عندِ أنفسِهم لله تعالى يقولونَ: يا ربَّنا، هؤلاءِ هم شركاؤنا الذين كنّا نَعبُدُهم من دونِك، فيُعطي اللهُ تعالى هذه الأصنامَ القُدرةَ على الكلام، فتَرُدُّ هذه الأصنامُ على المشركينَ قائلةً: إنّنا لم نَقُل لكم أبدًا أنِ اعبُدونا، ولا يمكنُ أن نكونَ شركاءَ لله تعالى، ولئنْ أشرَكْتُمونا معَ الله تعالى، فهذه عقيدتُكم الفاسدةُ الكاذبة، وأنتم

المسئولونَ عنـها، ولا دَخْلَ لنـا فيـها. وحيـن تتخَلّى عن المشركينَ كلُّ وسائِلِهم الكاذبة، يخضَعونَ أمامَ الله تعالى بكلِّ عجزٍ وانكسار، حتى يعفوَ عنهم ويغفرَ لهم، ولكنْ لا فائدةَ من التوبةِ يومَ القيامة.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾

٦٢ـ الذين كَفَروا، ومَنَعوا الآخَرينَ من الطريقِ المستقيم، لهم عذابٌ مضاعَف، واحدٌ بسببِ كُفرِهم، والآخَرُ بسببِ إضلالِهمُ الناسَ، ويُعلَمُ منه أنه كما أنّ في الجنةِ درجاتٍ مختلفةً من الأَجْرِ والثواب، كذلك في النارِ درجاتٌ مختلفةٌ من العقاب.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

٦٣ـ لمعرفة تفسيرِ هذه الطائفة من الآية راجعِ الحاشيةَ رقم **٩٨** من سُورة البقرة (٢).

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾

٦٤ـ هناك أقوالٌ مختلفةٌ في تفسيرِ هذه الطائفة من الآية:

١ـ **«عن ابن مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: مَن أراد العِلمَ فلْيتنوَّرِ القرآنَ، فإنّ فيه عِلمَ الأوَّلينَ والآخِرين»**[١].

٢ـ **«أَخرج البَيهقيُّ عن الحَسَن، قال: أَنْزلَ اللهُ مائةً وأربعةَ كتُب، أَوْدعَ علومَها أربعةً منها: التَّوراةَ والإنْجيلَ والزَّبورَ والفُرقان، ثم أَوْدعَ علومَ الثلاثةِ الفُرقانَ»**[٢]، ولهذا فإن القرآن الكريم جامع لعلوم كل الكتب السماوية هذه.

---

(١) تفسير الدر المنثور.

(٢) الإتقان، الإمام السيوطي، ٤: ٢٤.

٣ـ «حَكَى ابنُ سُراقَـة في كتابِ «الإعجاز»: ما شيءٌ في العالَم إلّا وهو في كتابِ الله»[١].

٤ـ «قال ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: قد بيَّن لنا في هذا القرآنِ كلَّ عِلم وكلَّ شيء»[٢]، ويقولُ العلاّمةُ ابنُ كثير: **«وقولُ ابن مسعودٍ أعمُّ وأشمَل؛ فإنّ القرآنَ اشتملَ على كلِّ علمٍ نافعٍ من خبرِ ما سَبَق، وعِلم ما سيأتي، وحُكم كلِّ حلالٍ وحرامٍ، وما النّاسُ إليه محتاجونَ في أمرِ دُنياهم ودينِهم، ومعاشِهم ومَعادِهم»**[٣].

٥ـ «ما مِن شيءٍ إلّا يمكنُ استخراجُه من القرآنِ لمن فَهَّمَه اللهُ»[٤]، مثلَما قال سيّدُنا الإمامُ عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: «جميعُ العِلم في القرآنِ، لكنْ تقاصَرَ عنه أفهامُ الرجال».

٦ـ بل إنه رُوي عن سيّدِنا ابن عبّاس رضيَ الله عنهُما أنه قال: **«لو ضاع لي عِقالُ بعيرٍ لَوجدتُه في كتابِ الله تعالى»**[٥].

كيف يوجَدُ بيانُ كلِّ شيءٍ في القرآن الكريم؟

يقولُ العلّامةُ القُرطُبيّ: **«ما تَركْنا في القرآنِ شيئًا من أمرِ الدِّين إلّا وقد دَلَّلْنا عليه في القرآن، إمّا دلالةً مبيّنةً مشروحةً، وإمّا مُجمَلةً يُتلقَّى بيانُها من الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسّلام، أو منَ الإجماع، أو منَ القياس الّذي ثَبَت بنصِّ الكتاب»**[٦]،

---

(١) الإتقان، الإمام السيوطي، ٤: ٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير الطبري.

(٣) تفسير ابن كثير.

(٤) الإتقان، الإمام السيوطي، ٤: ٢٦.

(٥) تفسير روح المعاني، والإتقان، ٤: ٢٦.

(٦) تفسير القرطبي، سورة الأنعام (٦): الآية ٣٨.

بمعنى: أنه إذا لم يكنْ حُكمُ شيءٍ ما موجودًا صَراحةً في القرآنِ الكريم، ويَثبُتُ بالسُّنةِ والإجماع أو القياس، فإنّه يُعَدُّ أيضًا من حُكم القرآنِ الكريم؛ لأنّ هذه الوسائلَ الثلاثةَ (السُّنةَ، الإجماعَ، القياسَ) حُجّةٌ في الإسلام طبقًا لِدلالةِ القرآن الكريم. وإليك بعضَ الأمثلةِ على ذلك:

١- «**عن عَلْقمةَ، قال: لَعَن عبدُ الله الواشِمات، والمتنمِّصات، والمُتفلِّجاتِ للحُسن، المغيِّراتِ خَلْقَ الله. فقالت أمُّ يعقوبَ: ما هذا؟ قال عبدُ الله: وما لي لا ألعَنُ مَن لَعَن رسولُ الله، وفي كتاب الله؟ قالت: والله لقد قرأتُ ما بيْنَ اللَّوحَيْنِ فما وجدتُه. قال: والله لئن قرأتيه لقد وجَدتيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾** [الحشر: ٧]»[1]، ويضيفُ عليه العلاّمةُ الألُوسيُّ قائلًا: «**قال ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: أمَا قرأتَ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه عليه الصّلاةُ والسّلامُ قد نَهَى عنه**»[2]، ولهذا فإنّ حُكمَ رسولِ الله ﷺ هو - بالأصل - حُكمُ اللهِ تعالى.

٢- «**عن الشافعيِّ رضيَ اللهُ تعالى عنه أنه قال مرةً بمكّةَ: سَلُوني عمّا شئتُم أُخبِرْكم عنه من كتابِ الله تعالى، فقيل له: ما تقولُ في المُحرِمِ يَقتُلُ الزُّنبور؟ فقال الإمامُ الشافعي: ليس عليه شيءٌ، فقيل له: أين هذا الحُكمُ في القرآنِ الكريم؟ فقال الإمامُ الشافعي: بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيم، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾**»[3]، وقال رسولُ الله ﷺ: «**فمن أدركَ ذلك منكم فعليه بسُنَّتي وسُنّةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ المَهْديِّينَ عَضُّوا عليها بالنَّواجذ**»[4]، كما أنّ

---

(١) البخاري، كتاب اللباس، باب ٨٤ برقم **٥٩٣٩**.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٦ برقم **٢٦٧٦**.

سيّدَنا عُمرَ رضيَ اللهُ تعالى عنه قد أمَرَ المُحرِمَ بقَتْل الزُّنبُور[١]، وبنفسِ الطريقة أَثْبتَ الإمامُ الشافعيُّ رحمَه اللهُ تعالى حُكمَ الخليفةِ بالسُّنة، وأَثْبت السُّنةَ بالقرآنِ الكريم، ولهذا فإنّ حُكمَ الخليفةِ هو بالأصل حُكمُ القرآنِ الكريم.

٣ـ يقولُ الإمامُ الشّيخُ الشَّعراوي: «**ونَذكُرُ هنا أنّ الإمامَ محمَّد عبدُه رحمه الله حُدِّث عنه وهو في باريسَ أنّ أحدَ المستشرقينَ قال له: أليس في آياتِ القرآن:** ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ..﴾ [الأنعام: ٣٨]؟ **قال: بلى، قال له: فهاتِ لي من القرآن: كم رغيفًا يوجَدُ في أردبِّ القمح؟ فقال الشَّيخ: نسألُ الخبّازَ فعندَه إجابةُ هذا السؤال. فقال المستشرق: أريدُ الجواب من القرآنِ الذي ما فَرَّط في شيء، فقال الشّيخ: هذا القرآنُ هو الذي عَلَّمنا فيما لا نَعلَمُ أن نسألَ أهلَ الذِّكر فقال:** ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]»[٢].

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ

---

(١) «عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه أمر أن يقتل المحرم الزنبور». روح المعاني.

(٢) تفسير الشعراوي.

عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

٦٥ـ قال اللهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ عن القرآنِ الكريم: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وهذه الآيةُ نموذَجٌ لذلك، حيث جاء فيها بيانٌ لخُلاصةِ تعاليم الإسلام كلِّها، مثلَما يقولُ أهلُ العِلم: «**لو لم يكنْ في القرآنِ غيرُ هذه الآيةِ الكريمة لَكَفت في كونِـه تبيانًا لكلِّ شيءٍ وهدى**»[١]، وقال سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: «**هذه أجمَعُ آيةٍ في القرآنِ لخيرٍ يُمتَثل، ولشرٍّ يُجتَنب**»[٢]، بمعنى: أنه سواءٌ كانت العقيدةَ أم العملَ، وسواءٌ كانت حقوقَ الله تعالى أم حقوقَ العباد، وسواءٌ كان أمرًا فرديًّا أم جماعيًّا، وسواءٌ كان مسلمًا أم كافرًا، فقيرًا أم غنيًا، عليكُم أن تتعامَلوا معَ الناسِ بالعَدْل والإحسان، ولا تتعامَلوا معَ أحدٍ بالفحشاءِ والمنكَر والبَغْي، فهذه إذًا بعضُ الألفاظِ التي تشتملُ على الأمر بكلِّ شيءٍ حَسَنٍ، والنهي عن كلِّ شيء سيِّئ، وربّما لأَجْل هذا دَرَج المسلمونَ منذُ عهدِ السَّلف الصَّالح المبارَك وحتى يومِنا هذا على تلاوةِ هذه الآية في نهايةِ خُطبةِ الجمُعة وخُطبةِ العيدَيْن، وأولُ من شَمَل هذه الآيةَ في الخُطبة بشكل منتظم كان سيّدَنا عُمرَ بن عبدِ العزيز رضيَ الله عنه.

يقولُ سيّدُنا عِكرِمةُ رضيَ اللهُ عنه: «**قرأ النّبيُّ ﷺ على الوليدِ بن المُغيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى آخِرها، فقال: يا ابنَ أخي أعِدْ! فأعاد عليه،**

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير القرطبي.

فقال: والله إنّ له لَحلاوةً، وإنّ عليه لَطلاوةً، وإنّ أصلَه لَمُورِق، وأعلاه لَمُثمِر، وما هو بقولِ بشَر!»[1].

الفرق بين العدل والإحسان:

العَدلُ هو: جزاءُ حَسنةٍ بمِثلِها، والزيادةُ على ذلك: إحسانٌ، وبنفسِ الطريقة فإنّ مجازاةَ السَّيِّـئَةِ بمِثلِها: عَدْل، والعفوُ عنها: إحسانٌ، وكذلك مجازاةُ السَّيِّئَةِ بالحَسنة: إحسانٌ أيضًا، والأمنُ والسّلامُ يَسُودُ المجتمعَ بالعَدْل، بينَما يتولَّد الاحترامُ والتقديرُ في القلوبِ بالإحسان.

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

٦٦ـ جاء التأكيدُ في هذه الآيةِ على الوفاءِ بالعهد، والمَنْع من النُّكوصِ عنه، بمعنى: أنّهم حين تُعاهِدونَ اللهَ تعالى أو إنسانًا ما على أمرٍ من الأمور، فلا تُفكِّروا في مجرَّدِ النكوصِ عنه؛ لأنّكم أَشْهدتُمُ اللهَ تعالى على هذا العهدِ وقَطَعتُموه على أنفُسِكم بضمانٍ منه تعالى، واللهُ يَعلَمُ تمامَ العِلم أعمالَكم، فإنْ خالفتُم عهدَكم فلن تستطيعوا الإفلاتَ من العقابِ على ذلك.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمر رضي اللهُ عنهما: **عن النّبيِّ ﷺ، قال: «الغادرُ يُرفَعُ له لواءٌ يومَ القيامة، يقالُ: هذه غَدرةُ فلانِ ابن فُلانٍ»**[2].

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

٦٧ـ كانتِ القبائلُ المختلفةُ تُبرِمُ العهودَ فيما بينَها في زمنِ الجاهليَّة، وكانت

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٩٩ برقم ٦١٧٧.

تَجعَلُ من القَسَم على هذه العهودِ وسيلةً للخِداع، فإذا رأتْ قبيلةٌ ما فائدةً أكبرَ لها عندَ قبيلةٍ أخرى، نَكَصَت على عهدِها معَ القبيلةِ الأولى، وفي هذه الآيةِ يُنبِّهُ اللهُ تعالى المسلمينَ بأنّ عليهم أن يُوفُوا بعهودِهم، وألّا يكونوا مِثلَ تلك المرأةِ المجنونة التي تَغزِلُ النسيجَ طيلةَ النهار، ثم تَنقُضُ هذا الغَزْلَ بنفسِها عندَ المساء، وتُمزِّقُ ما نَسَجت، فتضيّعُ بذلك الجهدَ الذي بذَلَتْه طيلةَ النهارِ هباءً، وبنفسِ الطريقة إنْ خالفتُم أنتم أيضًا عهودَكم، فلن تُفلِتوا من عقابِ الله تعالى لكم؛ لأنه يَبتليكم ويَختبِرُكم عن طريقِ هذه الوعودِ والأَيْمانِ التي تقطعونَها على أنفسِكم، وسوف يَفضَحُ يومَ القيامة على الملأِ الاختلافاتِ والمصالحَ الشَّخصيَّة التي كنتُم تُخادِعونَ من أَجْلها.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

٦٨ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، وإن شاء جَعَلَكم جميعًا أمّةً واحدة، لكنّ حِكمتَه اقتَضَت أن يَترُكَ من يختارُ منكم الباطلَ لنفسِه وبِرغبتِه يَهيمُ في ضلالِه، أمّا من يطلُبُ الحقَّ منكم لنفسِه وبرغبتِه، فإنه يَهديه إلى طريقِ الحقِّ، ولهذا فإنّ كلَّ واحدٍ منكم يكونُ مسئولًا عن أعمالِه يومَ القيامة، فاللهُ تعالى لا يُجبِرُ أحدًا على الحسَنةِ ولا يدفَعُه إلى السَّيِّئَةِ.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

٦٩ـ أَيُّها المسلمون، لا تَحنَثوا في أَيْمانِكم من أَجْل مصالحِكم الدُّنيويّة، وإلّا زَلَّت أقدامُكم وانحَرَفتْ بكم عن الطريقِ المستقيم، وسيُسيءُ الكُفّارُ الظنَّ بالإسلام بسببِ حِنْثِكم في أَيْمانِكم ونَقْضِكم لعهودِكم، ويمتنعونَ عن الدُّخول في الإسلام،

وبهذا تكونونَ قد أَجْرمتُم بنَقْضِكُم العهودَ من جانب، وصدِّ الآخَرين عن السَّير على طريقِ الحقِّ، وفي نهايةِ الأمرِ ستواجِهونَ مصيرًا سيِّئًا.

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

٧٠ـ أي: لا تَنقُضوا عهدَ الله تعالى في مقابِل مالِ الدنيا ومتاعِها، فمهما كثُر هذا المالُ وذلك المتاعُ، فهو قليلٌ في مقابِل الآخِرة، كما أنّ هذا المالَ والمتاعَ فانٍ، بينَما نِعَمُ الله تعالى في الآخِرة خالدةٌ دائمة، والذين يصبِرونَ على المصاعبِ التي تواجِهُهم في سَبيل الوفاءِ بالعهودِ سينالونَ الأَجْرَ الحَسَنَ جزاءَ صَبْرِهم هذا.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

٧١ـ المؤمنُ الذي يعمَلُ الصالحاتِ، سواءٌ كان رجلًا أم امرأةً، يُنعِمُ اللهُ تعالى عليه بحياةٍ طيِّبةٍ طاهرة، بمعنى: أنه لو كان في فقرٍ وعُسرة وصَبْر، فلديه الأملُ في الأَجْرِ العظيم على صَبْرِه على كلِّ هذا، وإن كان في رَغَدٍ من العيشِ وراحةِ البال فشَكَر، فلدَيْه الأملُ في الأَجْر العظيم أيضًا؛ لأنّ اللهَ تعالى سيَجزيهِ أجرًا عظيمًا في الآخِرة على صَبْرِه وشُكرِه، أما الذين يظُنُّون خطأً أنّ المرأةَ لا قَدْرَ لها في الإسلام، فعليهم أن يقرأوا هذه الآيةَ بتمعُّن، فاللهُ تعالى سيَجزي كلَّ واحدٍ على أعماله، ولن يكونَ هناك تفريقٌ بينَ الرجُل أو المرأةِ في هذا المجال، فإنْ كانت الأعمالُ الصالحةُ للمرأةِ كثيرةً، فستكونُ في الدرجةِ العُليا من الجنَّة، وإن كانت الأعمالُ الصالحةُ للرجُل قليلةً، فسيكونُ في الدرجةِ الدُّنيا من الجنة.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

٧٢ـ من آدابِ تلاوةِ القرآنِ الكريم: أن تستعيذَ باللهِ من الشّيطانِ الرَّجيم أولًا، فقراءةُ الاستعاذةِ قبلَ التلاوةِ سُنّة[١]، ليحفَظَ اللهُ تعالى قارئَ القرآنِ الكريم أثناءَ التلاوة والتدبُّرِ في معانيه من وَسْوسة الشيطان؛ لأنّ اللهَ تعالى أعطى الشّيطانَ قُدرةً لدرجةِ أنه يمكنُه محاولةُ الوَسْوسة بها حتى في قلوبِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، فمن نكونُ نحن بالنِّسبة لهم، مثلَما جاء في القرآنِ الكريم: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

٧٣ـ الذين آمَنوا وتوكَّلوا على اللهِ تعالى، لا يستطيعُ الشّيطانُ أن يُسيطرَ على قلوبِهم، وإنْ تأثَّروا بوَسْوستِه بشكلٍ عارض، فإنّهم يستعيذونَ باللهِ منه فورَ أن يشعُروا بهذا، لكنّ الشّيطانَ يسيطرُ على قلوبِ الذين يتَّخذونَ منه وليًّا بأنفسِهم، وبالتالي يُبتَلَوْنَ بالشِّرك بسببِ إغوائه لهم.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ اللهَ تعالى لم يُعطِ الشيطانَ القُدرةَ على أن يُجبرَ الإنسانَ على شيء، وإنما يتَّبعُ الإنسانُ الشّيطانَ بسببِ خضوعِه لرغباتِه النفسيّةِ وغَفْلتِه.

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ

---

(١) «اتفق سائر الفقهاء على أن الاستعاذة سنة في الصلاة وغيرها». تفسير الخازن.

ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾

﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

٧٤ـ عندَما يَنسَخُ اللهُ تعالى حُكمًا، ويُنزِلُ مكانَه حُكمًا آخَرَ، يَعلَمُ هو حِكمتَه تمامَ العِلم، يقولُ الكافرونَ: إنك تأتي بهذا القرآنِ من عندِك، ولو كان هذا كلامَ الله تعالى لَما كانت هناك حاجةٌ إلى نَسْخ حُكم فيه، والحقيقةُ أنّ هؤلاءِ الكُفّارَ لا يَعلَمونَ حِكمةَ النَّسخ، ولهذا يَعترِضُونَ عليه، ولو لم يكنْ هناك نَسْخٌ في كلام الله تعالى، لَما كانت هناك حاجةٌ إلى الزَّبور بعد التَّوراة، ولا إلى الإنْجيل بعدَ الزَّبور، ولا إلى القرآنِ بعدَ الإنْجيل، ولَكان العملُ بالتَّوراة فقطْ يكفي، ولهذا فإنّ النَّسخَ ليس نتيجةَ غَفْلةٍ أو عَدَم عِلم، وإنما تقتضيه ظروفُنا المتغيِّرة. ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ رقم ٧٢ من سُورة البقرة (٢).

وهذا مثالٌ للنَّسْخ في العهدِ المكِّي فتأمَّلْه.

جاء الحُكمُ في سُورة المزمِّل (٧٣)، وهي التي نَزَلت في مكّةَ المكرّمةِ قبلَ الهجرة النَّبويّة أن نقومَ نصفَ اللّيل أو أقلَّ أو أكثرَ قليلًا في الصَّلاة، ولكنْ بعدَ فترةٍ

وَجيزة جاء التخفيفُ في الآيةِ الأخيرة من هذه السُّورة، أي: نقومُ اللّيلَ بقَدْرِ ما نستطيع، وأن نقرأَ القرآنَ الكريمَ بقَدْرِ ما نستطيع، فهو يكفي، وانتَهى بذلك الالتزامُ بنصفِ اللّيل أو أقلَّ منه أو أكثرَ قليلًا، وقد أظهَرَ الصّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا في تنفيذِ الحُكم الأول، وفي اتِّباع رسولِ الله ﷺ قدرًا كبيرًا من النَّشاطِ والحماسِ والإخلاص بما يُعَدُّ مثالًا عظيمًا للمسلمينَ من بعدِهم، فقد كانوا حريصينَ على قيام اللَّيل ملتزمينَ به بصورةٍ كانت أقدامُهم تتورَّمُ معَها، وتصفَرُّ وجوهُهم ضعفًا، حتى وإن كانو على سَفَرٍ أو يعانونَ مرضًا.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

٧٥- قال النبيُّ ﷺ بأمرٍ منَ الله تعالى: إنّ هذا القرآنَ الذي تَظنُّونَ أنه من عندِ نفسي، إنما هو - في الحقيقة - ليس كلامي، بل كلامُ الله تعالى جاء به الرُّوحُ الأمينُ سيّدُنا جبريلُ عليه السَّلام، وكانت الحِكمةُ في نزولِه تدريجيًّا والنَّسخُ فيه طبقًا للظروفِ هي أن يَسهُلَ على أهلِ الإيمان فَهْمُه وحفظُه والعملُ به، وأن يَثبُتوا بصدورٍ منشرحةٍ على الحقّ.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

٧٦- كان مشركو مكّةَ كثيرًا ما يتَّهمونَ النبيَّ ﷺ بأنه هو الذي يؤلِّفُ القرآنَ الكريم، وحينَ كان يقالُ لهم: إنّ النبيَّ ﷺ أُمِّيٌّ! ولم يقرأْ أو يَكتُبْ أيَّ كتابٍ طيلةَ الأربعينَ سنةً الأولى من عمُرِه، فكيف يُمكنُه إعدادُ كتابٍ بهذا القَدْرِ العظيم من الفصاحةِ والبلاغة؟ كانوا يقولون: لا بدَّ أنّ رجُلًا يُعلِّمُه القرآنَ، وعندَما كانوا يُسألونَ: من هو ذلك الرجُلُ الذي يُعلِّمُه؟ كانوا أحيانًا يقولون: إنه «جَبْر»، وأحيانًا

يقولون: إنه «يعيشُ»، أو «يَسَارٌ» أو «بَلْعامُ»، وكان هؤلاءِ جميعًا عَبِيدًا من العَجَم! وبعضُهم كان يهوديًّا، والبعضُ الآخَر نصرانيًّا، والبعضُ الثالثُ كان قد أَسْلم. ويقول العلّامةُ القُرطُبيُّ عن «جَبْرٍ» هذا: «**أي: كيف يُعلِّمُه جَبرٌ وهو أعجَميٌّ هذا الكلامَ الّذي لا يستطيعُ الإنسُ والجنُّ أن يُعارِضوا منه سُورةً واحدةً فما فوقَها؟ وذَكَر النّقّاشُ أنّ مولى جَبْرٍ كان يَضربُه ويقولُ له: أنت تُعلِّمُ محمّدًا، فيقول: لا والله، بل هو يُعلِّمُني ويَهديني**»(١).

والأمرُ الذي يستحِقُّ التمعُّنَ الآنَ هو: إذا كان «جَبْرٌ» هو الذي يُعلِّمُ النبيَّ ﷺ القرآنَ، فلا بدَّ أنه كان يَعلَمُ أنّ هذا ليس كلامَ الله تعالى، وإنّما كلامٌ يُعلِّمُه هو، فما الذي دعاه إلى أن يُسْلم، ويتعرَّضَ للضَّربِ من سيِّدِه؟ لكنّ الحقيقةَ هي ما أعلَنَها «جَبْرٌ» فيما مضَى، يعني: أنه تلقَّى من النبيِّ ﷺ العِلمَ والهدايةَ التي نَزَلت يقينًا من اللهِ تعالى.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

٧٧ـ معنى عَدَم هدايةِ المنكِرينَ: أنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ آياتِ القرآنِ الكريم لكي يهتدوا، لكنَّهم أنكَروا هذه الآياتِ ولم يَقبَلوا الهدايةَ، ولهذا سيُجزَوْنَ العذابَ الأليم.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

٧٨ـ كان المشركونَ يقولونَ عن النبيِّ ﷺ: «الصّادقُ الأمينُ» من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى يتَّهمونَه بالكذبِ، وبأنه يأتي بالقرآنِ من عندِ نفسِه، ثم يَنسُبُه إلى الله تعالى، وعليه قال اللهُ تعالى: إنّهم هم الكاذبونَ في الحقيقة؛ لأنّهم يُنكِرونَ آياتي، ويعتبرونَها من كلامِ المخلوق.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

٧٩ـ مَن كَفَر بعد إيمانِه، وظلَّ مطمئنًّا بكُفرِه مصرًّا عليه حتى موتِه، فهو مرتَدٌّ، وعقابُه في الدنيا القَتْل، وله في الآخِرة عذابٌ عظيم، أمّا مَن أُجبِرَ على الكُفر، وقال بلسانِه كلمةَ الكُفر ليُنقذَ رُوحَه من الهلاك، بينَما قلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، فهو ليس مرتدًّا.

سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه:

نَزَلت هذه الآيةُ في حقِّ سيّدِنا عمّارِ بن ياسِر رضيَ اللهُ عنه، فقدِ اعتقَلَتْه قُريشٌ ذاتَ مرّةٍ هو ووالدَه ياسرًا وأُمَّه سُمَيّةَ رضي اللهُ عنهم جميعًا، وأَجْبرتْهم على تَرْكِ الإسلام، لكنّ ثلاثتَهم رَفَض هذا، فرَبَطوا السيّدةَ سُمَيّةَ رضي اللهُ عنها بينَ بعيرَيْن، أي: إحدى قدمَيْها في بعيرٍ والأخرى في الآخَر، وضَرَبَها أبو جَهْل لَعَنه اللهُ برُمح في فَرْجِها، ثم ساقَ البعيرَيْنِ في جهتَيْنِ متعاكستَيْن، حتى تمزَّقَ جسَدُها رضي اللهُ عنها إلى نصفَيْن، وأصبحتْ بذلك أولَ شهيدةٍ في الإسلام، ثم قُتِل سيّدُنا ياسرٌ رضيَ اللهُ عنه بكلِّ قَسْوة، ليصبحَ بذلك ثانيَ شهيدٍ في تاريخ الإسلام، ثم أُجبِرَ سيّدُنا عمّارٌ رضي اللهُ عنه على قولِ كلمةِ الكُفر، فقالها رضيَ اللهُ عنه مضْطَرًّا، فقيل للنبيِّ ﷺ: أوَ قد كَفَر عمّار؟ فقال ﷺ: كلّا، فعمّارٌ عامرٌ بالإيمانِ من رأسِه إلى قدمَيْه، وقد سَرى الإسلامُ في دمِه ولحمِه، ولمّا أفْلَتَ سيّدُنا عمّارٌ رضي اللهُ عنه من هناك جاء إلى النبيِّ ﷺ باكيًا، وقَصَّ عليه ما حَدَث، فسأله النبيُّ ﷺ: ماذا كان حالُ قلبك إذ ذاك؟ فقال سيّدُنا عمّارٌ رضيَ اللهُ عنه: كان مطمئنًّا بالإيمان، وعليه مَسَح النبيُّ ﷺ الدموعَ من عينَيْ سيّدِنا عمّارٍ رضي اللهُ عنه وقال: لو أَجْبروكَ على قولِ كلمةِ الكُفر ثانيةً قُلْها[١].

---

(١) روي: «أن قريشًا أكرهوا عمارًا وأبويه ياسرًا وسميّة على الارتداد فأبوا، فربطوا سمية بين بعيرين، ووجئت بحربة في موضع عفتها، وقالوا: إنما أسلمت من أجل الرجال، فقتلوها وقتلوا =

النُّطقُ بالكفرِ اضْطرارًا:

أجمَعَ أهلُ العِلم على أنّ «**مَن أُكره على الكُفرِ حتّى خَشِي على نفسِه القتلَ، أنّه لا إثمَ عليه إنْ كَفَر وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، ولا تَبِينُ منه زوجتُه ولا يُحكَمُ عليه بحُكم الكفر**»[١]، مثلَما قال النبيُّ ﷺ «**إنّ اللهَ وَضَع عن أُمّتي الخطأَ والنّسيانَ وما استُكرِهوا عليه**»[٢]. ويقولُ العلاّمةُ ابنُ كَثير: إنه يجوزُ قولُ كلمة الكفرِ لإنقاذِ الرُّوح، ولكن «**الأفضَل والأَوْلى أن يَثبُتَ المسلمُ على دينِه، ولو أفضَى إلى قتلِه**»[٣].

سيدنا عبد الله بن حذافة رضي الله عنه:

يقولُ العلاّمةُ ابنُ كثير في تفسيرِ هذه الآية: «**قال الحافظُ ابنُ عساكرَ، في ترجمةِ عبد الله بن حُذافةَ السَّهْميِّ أحدِ الصّحابة: أنّه أَسَرتْه الرُّوم، فجاءوا به إلى مَلِكِهم، فقال له: تنصَّرْ وأنا أُشركُك في مُلكي وأُزوّجُك ابنتي. فقال له: لو أعطيتَني جميعَ ما تملِك وجميعَ ما تملِكُه العربُ، على أن أَرْجِعَ عن دين محمّدٍ طَرْفةَ عينٍ، ما فعلتُ! فقال: إذنْ أقتلَك. قال: أنت وذاك! فأمَرَ به فصُلب، وأمَرَ الرُّماةُ فرَمَوْه قريبًا من يدَيْه ورِجلَيْه، وهو يُعرَضُ عليه دينُ النَّصرانيّة فيأبَى، ثمّ أُمِر به فأُنزل، ثمّ أُمِر بقِدْر ـ وفي روايةٍ: ببقرةٍ من نحاسٍ ـ فأُحمِيَت، وجاء بأسيرٍ من المسلمينَ فألقاهُ وهو ينظُر، فإذا هو عظامٌ تلوح. وعُرِض عليه فأبَى، فأُمِر به أن يُلقَى فيها، فرُفع**

= ياسرًا، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يا رسول الله، إن عمارًا كفر، فقال رسول الله ﷺ: كلا، إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، وقال: ما لك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت». تفسير ضياء القرآن، تفسير المنير.

(١) تفسير القرطبي.

(٢) ابن ماجه، أبواب الطلاق، باب ١٦ برقم ٢٠٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير.

في البَكَرة ليُلقَى فيها، فبكَى فطَمِع فيه ودَعاه فقال له: إنّي إنّما بكيْتُ لأنّ نفسي إنّما هي نفسٌ واحدة، تُلقَى في هذه القِدْرِ السّاعةَ في الله، فأحبَبْتُ أن يكونَ لي بعدَد كلِّ شعرةٍ في جَسَدي نفسٌ تُعذَّبُ هذا العذابَ في الله. وفي بعضِ الرّوايات: أنّه سَجَنَه ومَنَع عنه الطّعامَ والشّرابَ أيّامًا، ثمّ أرسَلَ إليه بخمرٍ ولحم خنزيرٍ، فلم يَقرَبْه، ثمّ استدعاه فقال: ما منَعَك أن تأكلَ؟ فقال: أمَا إنّه قد حَلّ لي، ولكن لم أكنْ لأُشمِّتَك فيّ. فقال له المَلِك: فقبِّلْ رأسي وأنا أُطلقُك. فقال: وتُطلِقُ معي جميعَ أُسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبّل رأسَه، فأطلقَه وأطلَق معَه جميعَ أُسارى المسلمينَ عندَه، فلمّا رَجَع قال عمرُ بنُ الخطّاب: حقٌّ على كلِّ مسلمٍ أن يُقبِّل رأسَ عبدِ الله ابن حُذافة، وأنا أبدأُ. فقام فقبَّلَ رأسَه»[1].

تعريف المرتد:

الشخصُ الذي يكونُ مسلمًا، ثم يَترُكُ عقيدَةَ الإسلام بعدَ ذلك يُسمَّى مرتدًّا.

عقاب المرتد:

يقولُ العلّامة شمسُ الدِّين السَّرخَسيُّ في هذا الخصوص: «**وإذا ارتدَّ المسلمُ عُرِض عليه الاسلامُ وعلينا إزالةُ الشُّبُهات**»[2]، ويُروى عن الإمام أبي حنيفةَ والإمام أبي يوسُفَ رحمَهما اللهُ تعالى: «**أنه يُستحَبُّ للإمام أن يؤجِّلَه ثلاثةَ أيام**»[3]، حتى يمكنَه أن يفكِّرَ جيِّدًا في الإسلام وفي مستقبلِه، لكنْ إن لم يرجِعْ عنِ ارتدادِه فإنّ عقابَه القتلُ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**مَن بدَّل دينَه فاقتُلوه**»[4]، وقدِ اتّفق الأئمةُ الأربعةُ

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) المبسوط للسرخسي، ١٠: ٩٨.

(٣) المبسوط، ١٠: ٩٩.

(٤) البخاري، كتاب الجهاد، باب ١٤٩.

رحمَهم اللهُ تعالى «**على أنّ من ثَبَت ارتدادُه عن الإسلام ـ والعياذُ بالله ـ وَجَب قتلُه**»[1]، لكنْ «**لا تُقتَلُ النِّساءُ إذا هنَّ ارتَدَدْنَ عن الإسلام ولكنْ يُحبَسْنَ ويُدْعَيْنَ إلى الإسلام**»[2]، «**ولا يَقتُلُ المرتدَّ إلا الإمامُ أو نائبُه**»[3]، بمعنى: أنّ عقابَ المرتدِّ وتنفيذَه مسئوليّةُ الحكومةِ الإسلاميّة، وليس لأحدٍ الحقُّ في أن يقومَ هو بشكل شخصيٍّ فَرْديٍّ بتنفيذِ القانون، وإلّا لَقُتل الكثيرونَ بسببِ الخلافاتِ الشخصيّة تحتَ سِتار الارتداد، وهم ليسوا في الحقيقةِ مرتدِّين.

أسباب عقوبة المرتد:

١ـ حرِّيةُ الفِكرِ مسموحٌ بها في كلِّ بلدٍ متحضِّر، ولكنّ لهذه الحرِّيةِ حدودًا، فلو تحدَّث أحدٌ بالتمرُّدِ ضدَّ حكومةٍ من الحكومات، فإنّ هذه الحكومةَ لن تتحمَّلَ هذه الحرِّيةَ الفِكْريّة، وإنما ستَعتبِرُ هذا الشّخصَ متمرِّدًا وخائنًا، وستعاقبُه أشدَّ العقاب، وبنفسِ الطريقة تقومُ الحكومةُ الإسلاميّةُ دائمًا على أساسِ النَّظريّةِ الإسلاميّة، والمسلمُ الذي يتمرَّدُ على النّظريةِ الإسلاميّة هو في الأصل متمرِّدٌ على الحكومةِ الإسلاميّة وخائنٌ لها، ولهذا فهو أيضًا يستحِقُّ العقابَ الرادعَ، لكنّ الشّخصَ الذي لا يؤمنُ أصلًا بالنَّظريّةِ الأساس للحكومةِ الإسلاميّة، يعني: ليس مسلمًا أصلًا، وإنّما يعيشُ تحتَ الحكومةِ الإسلاميّة ذِمِّيًا، وسواءٌ قَبِل هذا الذِّمِّيُّ الإسلامَ أم أيَّ دينٍ آخَر، فإنه ليس متمرِّدًا على الحكومةِ الإسلاميّة، ولذا لا يستحِقُّ العقابَ.

٢ـ لا يجوزُ طبقًا للقرآنِ الكريم إجبارُ كافرٍ على الإسلام، ولهذا مسموحٌ للكافرِ تحتَ الحكومةِ الإسلاميّة أن يبقَى على كُفرِه، وإذا قَبِل الإسلامَ فلا يجوزُ

---

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ٥: ٤٢٣.

(٢) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ٥: ٤٢٣.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته، ٦: ١٨٨.

له الخروجُ منه وهو يعيشُ تحتَ الحكومةِ الإسلاميّة، فإذا تَرَكَ الإسلامَ فإنّ عقابَه القتلُ، ولذا ينبغي لمِثْلِ هذا الشخصِ أن يفكِّرَ جيِّدًا في هذا الضابطِ الأساس للحكومةِ الإسلاميّة قبلَ أن يَدخُلَ الإسلامَ ثم يَخْرُجَ منه.

عقاب المرتد في الكتاب المقدس:

١ـ «لو نَقَضَ أحدٌ في أرضِكم عهدَه معَ الله، سواءٌ كان رجلًا أم امرأةً، وأخَذَ يعبُدُ آلهةً أخرى، يعني: الشمسَ والقمرَ والنُّجومَ، فخُذوه خارجَ المدينة وارجُموه حتى الموت»[١].

٢ـ «لو هَمَس لكَ أحدُ أقاربِك الأقرباءِ، أو صديقُك المقرَّبُ، أو أخوك، أو ابنتُك أو ابنُك، أو زوجتُك المقرَّبةُ لك، بأنه سيَعبُدُ اليومَ آلهةً أخرى، فلا تستمعْ إلى ما يقول، ولا ترأَفْ لحالِه، ولا تأخُذْك به رأفةٌ في عقابِه، ولا تتستَّرْ على اقتراحِه البَشِع، وإنّما اقتُلْه، وينبغي أن تكونَ يدُك أولَ يدٍ تمتدُّ لقتلِه، ثم بعدَ ذلك تمتدُّ أيدي باقي القوم، ارجُمْه حتى الموت؛ لأنه حاوَلَ أن يُبعِدَك عن ربِّك»[٢].

٣ـ «مَن يتْرُكِ الله ويقدِّم القرابينَ لمعبودٍ آخَرَ فاقتُلْه»[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

٨٠ ـ ومن أسبابِ الارتدادِ أنّ المرتدِّينَ يفضِّلونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخِرة، ووَضَعوا على قلوبِهم وأسماعِهم وأبصارِهم غشاوةً سميكةً تمنَعُهم من الهداية،

---

(١) الكتاب المقدس الحي، الاستثناء، ١٧: ٢-٥.

(٢) الكتاب المقدس الحي، الاستثناء: ١٣: ٦-١٠.

(٣) الكتاب المقدس الحي، الخروج: ٢٢: ٢٠.

ومن المؤكَّد أنّ أمثالَ هؤلاءِ هم الخاسرونَ في الآخِرة. ولمزيدٍ من التفصيل عن عَدَم هدايةِ الله تعالى لهم، وخَتْمِه على قلوبِهم وأسماعِهم وأبصارِهم بالغِشاوة، راجع الحاشيةَ رقم ١٠ من سورة البقرة (٢).

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

٨١ـ كانت جبالُ الظُّلم تُهالُ على المسلمينَ في مكّةَ، فهاجَروا منها، وصبَروا على المصاعبِ التي واجهَتْهم في طريقِ الجهاد، فيا أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، بشِّرْهم بأنّ اللهَ تعالى سيَغفرُ لكم كلَّ أخطائكم لقاءَ أعمالِكم هذه، وسوف يَعُمُّكم برحمتِه.

۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

٨٢ ـ يومَ القيامة سيكونُ كلُّ شخصٍ منشغِلًا بنفسِه، ويحاولُ جاهدًا من أَجْل النَّجاة، ولكنْ في ذلك اليوم لن يستطيعَ أحدٌ أن يحصُلَ على النَّجاة بالكذبِ

أو الخِداع، وسينالُ كلُّ شخصٍ جزاءَ أفعالِه كاملًا، بمعنى: أنّ الصّالحينَ سينالونَ ثوابَ أعمالِهم الصّالحة، ولو شاء اللهُ تعالى لَزاد برحمتِه في ثوابِهم، وبنفسِ الطريقة سينالُ الأشرارُ العذابَ عقابًا على سيّئاتِهم، ولو شاء اللهُ لَخفَّف عنهُم العذابَ، على أيِّ حال لن يُظلَمَ أحدٌ في ذلك اليوم أو يُجارَ عليه.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

٨٣ ـ يمكنُ أن يكونَ المرادُ بالقرية هنا أيَّ قرية، لكنّ أكثرَ المفسِّرينَ على أنّ المرادَ: مكّةُ المكرَّمة، وكان كلُّ أهل الجزيرةِ العربيّة يُجِلُّونَ مكّةَ بسببِ وجودِ بيتِ الله فيها، ولذلك كان أهلُ مكّةَ يتمتَّعونَ بكلِّ أنواع الأمنِ والراحة، وتَصِلُهم الغِلالُ والفواكهُ والثِّمارُ من كلِّ أنحاءِ الجزيرةِ العربيّة وهم مستريحونَ في بيوتِهم، وحينَما جاءتهم النِّعمةُ الكبرى في صُورة بَعْثةِ النبيِّ ﷺ إليهم، كان ينبغي لأهلِ مكّةَ حينَئذٍ أن يشكروا اللهَ تعالى على نِعَمِه، ويؤمنوا بالنبيِّ ﷺ، لكنَّهم كَفَروا به، ولهذا أصابَهم زمنٌ من القَحْط بسببِ جحودِهم هذا.

كان الخوفُ يسيطرُ عليهم دائمًا بسببِ الزِّيادة المطَّردة في أعدادِ المسلمين، وبسببِ المعاركِ الإسلاميّةِ كذلك، وفي نهايةِ الأمرِ فَتَح المسلمونَ مكّةَ، واضْطُرَّ الجاحدونَ إلى الاعترافِ بهزيمتِهم المُنكَرة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

٨٤ ـ لمعرفة تفسيرِ هذه الآيةِ راجع الحاشيةَ رقم **١٢٤**، **١٢٥** من سُورة البقرة (٢)، والحاشيةَ رقم **٩** من سُورة المائدة (٥).

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

٨٥ ـ إنّ تحريمَ أيِّ شيء أو تحليلَه حقٌّ لله تعالى فقطْ، بينَما كان المشركونَ يحرِّمونَ بعض الأشياءِ ويحلِّلونَ البعضَ الآخَر من عندِ أنفسِهم، ويدَّعُونَ أنّ هذا حُكمُ الله تعالى، ولذلك جاء التنبيهُ على ذلك أنِ ارجِعوا عن تحليلِ الأشياءِ وتحريمِها بغيرِ سَنَد أو دليل؛ لأنّ هذا افتراءٌ على اللهِ تعالى، والذين يفتَرونَ على اللهِ الكذبَ لا يُفلحونَ أبدًا، وقد يستمتعونَ لبعضِ الوقت في هذه الحياةِ القصيرة، ولكنْ سيَنالُهم في الآخِرة عذابٌ عظيم.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

٨٦ ـ اليهودُ الذين قَتَلوا الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام، وأكَلوا أموالَ الناسِ بالباطل، حرَّم اللهُ تعالى عليهم عددًا من الأشياءِ الحَلال عقابًا لهم على جُرمِهم، وهو ما مرَّ ذِكرُه في الآية رقم ١٤٦ من سُورة الأنعام (٦)، وكان هذا العقابُ مؤقَّتًا، وبسببِ الظُّلم الذي ارتكَبوه بأنفُسِهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

٨٧ ـ الذين يرتكبونَ الذُّنوبَ عن عَمْد أو عن غَفْلة، ثم يتوبونَ إلى الله، ويُصلحونَ من أنفسِهم، يغفرُ اللهُ لهم ذنوبَهم برحمتِه. ولمزيدٍ من التفصيل عن التوبة راجع الحاشيةَ رقم ٢٣ من سُورة النِّساء (٤).

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾

ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

٨٨ ـ في هذه الآياتِ بيانٌ لعظَمةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام ومكانتِه، فقد واجَه عليه السّلامُ المشركينَ جميعًا بمفرَدِه وبشجاعةٍ منقطعةِ النَّظير، فأَثْبتَ أنّ اللهَ تعالى قد جَمَع في ذاتِه كلَّ الأوصافِ والكمالاتِ والفضائلِ التي لا تكونُ إلّا متفرِّقةً في جماعةٍ بأكمَلِها.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

٨٩ ـ التعاليمُ الأساسيّةُ التي جاء بها الأنبياءُ جميعًا واحدةٌ، يعني: التوحيدَ والرِّسالةَ والآخرةَ وغيرَها، لكنّ هناك اختلافًا في الشرائع بسببِ اختلافِ الظُّروف، ولنبيِّ آخِرِ الزَّمانِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ شريعةٌ مستقِلّة، فهو ليس تابعًا لشريعةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السلام، ولكنْ شريعتُه ﷺ في معظَمِها أكثرُ قُربًا فعلًا من شريعةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، ولهذا أُمِر النبيُّ ﷺ باتِّباع مِلّةِ جدِّه العظيم سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وفيه تكريمٌ لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السّلام، بأنّ شريعتَه تتوافقُ معَ شريعةِ سيّدِ الأنبياءِ وحبيبِ الله سيّدِنا محمدٍ ﷺ، إذ إنّ هناك بعضَ الأشياءِ التي حُرِّمت على بني إسرائيلَ، وبعضُ الأشياء حرَّمها بنو إسرائيلَ على

أنفسِهم، على سَبيل المثال: الجِمال والبَطُّ والأرانبُ وغيرُها، كلُّها كانت حَلالًا في شريعةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وهي حلالٌ أيضًا في الشريعةِ المحمَّدية، كما أنّ المشركينَ كانوا يَدَّعُونَ أنّهم أَتْباعُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وفي هذا إجابةٌ لهم بأنّ المتَّبعَ الحقيقيَّ لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام هو النبيُّ الكريم ﷺ؛ لأنّكم تشركونَ في عبادتِكم، في حينَ لم يكنْ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام مشركًا.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

٩٠ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ: «**تفرّغوا لله في كلِّ سبعةِ أيام يومًا، فاعبُدوه في يوم الجمُعة، ولا تعمَلوا فيه شيئًا من صنيعِكم، فأبَوْا أن يَقبَلوا ذلك، وقالوا: لا نبتغي إلّا اليومَ الذي فَرَغ فيه من الخَلْق، وهو يومُ السَّبت، فجَعَل ذلك عليهم، وشدَّد عليهم فيه**»[١].

ويومُ الجمُعة بالنِّسبة للمسلمينَ يومٌ معظَّم، يلتزمونَ فيه بصَلاة الجمُعة، ما عدا ذلك فلا قَيْدَ عليهم فيما يعمَلون، لكنْ لأنّ بني إسرائيلَ اختَلفوا معَ حُكم نبيِّهم، وأصَرُّوا على يوم السَّبت بدَلًا من يوم الجمُعة، مُنِعوا من العمَل بالتِّجارة والزّراعة والصَّيد وغيرِه أيامَ السبت، فمَن خالَفَ منهم هذا الأمرَ مَسَخَهم اللهُ قِردةً[٢]، وسيَحكُم اللهُ تعالى يومَ القيامة في كلِّ الاختلافات، والتي سيَدخُلُ المطيعونَ الجنّةَ طبقًا له، ويَدخُلُ العاصُونَ جهنَّم طبقًا له أيضًا.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

٩١ـ في هذه الآيةِ الكريمة بيّن اللهُ تعالى طريقةَ الدَّعوةِ إلى الإسلام ومنهجَها، وهي المبنيّةُ على النِّقاشِ بالحِكمةِ والموعِظة الحسَنة والنَّصيحة وبأحسنِ الأساليب.

---

(١) تفسير زاد المسير.

(٢) «فمسخهم الله تعالى قردة». تفسير روح المعاني.

الدعوة والتبليغ:

الدَّعوةُ إلى اللهِ تعالى فَرْضُ النُّبوةِ على كلِّ نبي، وهي فَرْضُ كفايةٍ على كلِّ أُمّة، مثلَما جاء في القرآنِ المَجيد:

١ـ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

٢ـ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٣ـ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

الحكمة:

المرادُ بالحِكمة: «**المقالةُ الصَّحيحةُ المُحكَمةُ، وهو الدَّليلُ الموضِّحُ للحقِّ المُزيلُ للشُّبهة**»(١)، والتي يراعَى فيها أحوالُ المخاطَبينَ وظروفُهم(٢)، وهي: «**الكلامُ الصَّوابُ القريبُ الواقعُ من النفْسِ أجمَلَ موقع**»(٣)، والمرادُ بالحِكمةِ أيضًا: «**البصيرةُ على رعايةِ المناسبة في مقتَضَياتِ الأحوال والمقاماتِ بالتليينِ والتخفيفِ والتعريضِ في مقاماتِها والتغليظِ والتّشديدِ والتصريح في مقاماتِها ونحوِ ذلك من المناسباتِ الحِكْميّة الجالبةِ للمصالح والسّالبةِ للمفاسد**»(٤)،

---

(١) تفسير النسفي.

(٢) «والدعوة بالحكمة، هي: النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم». في ظلال القرآن.

(٣) البحر المحيط.

(٤) تفسير روح البيان.

ولهذا قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «**الكلمةُ الحِكمةُ ضالّةُ المؤمن فحيثُ وَجَدَها فهو أحقُّ بها**»[١].

الموعظة الحسنة

المرادُ بالموعِظة الحسَنة: بيانُ أَجْرِ وثوابِ العمَل الصّالح بأسلوبٍ جميل يَدخُلُ القلبَ، بحيث يَميلُ قلبُ الإنسانِ من خلالِها إلى العمَل الصّالح ويَرغَبُ فيه، وبيانُ عاقبةِ العمَل السيِّئ بأسلوبٍ مَهِيب ومؤثِّرٍ بحيث يَنفِرُ قلبُ الإنسانِ بعدَه من الأفعالِ السيِّئة.

الجدال بالتي هي أحسن:

لو وَصَلتِ الأمورُ أثناءَ القيام بفَرْض الدَّعوة إلى النّقاشِ والمناظَرة، فيجبُ أن تكونَ بكلام ليِّن، وبأدِلّةٍ معقولة، وبأسلوبٍ مهذَّب ونظيف، بحيث يتيقَّنُ المخاطَبُ ـ من خلال ذلك ـ بأنّ هذا الذي يناظرُني يتمنَّى ليَ الخير، ولا يقصدُ إهانتي أو إحراجي.

أمثلة للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة:

١ـ **عن أبي أُمامةَ، قال: إنّ فتًى شابًّا أتَى النّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ائْذَنْ لي بالزّنا! فأَقْبلَ القومُ عليه فزَجَروه وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: «ادْنُهْ»، فدَنا منه قريبًا. قال: فجلسَ قال** (دونَ أن يُظهِرَ أيَّ غضَب): **«أتُحِبُّه لأُمِّك؟» قال: لا والله، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحِبّونَه لأُمّهاتِهم». قال: «أفتُحِبُّه لابنتِك؟» قال: لا والله يا رسولَ الله، جَعَلني اللهُ فداءك، قال: «ولا النّاسُ يُحِبّونَه لبناتِهم». قال: «أفتُحِبُّه لأُختِك؟» قال: لا والله، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحِبُّونَه لأخَواتِهم». قال: «أفتُحِبُّه لعمّتِك؟»**

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩.

قال: لا والله، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحِبّونَه لعمّاتِهم». قال: «أفتُحبُّه لخالتِك؟» قال: لا والله، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا النّاسُ يُحبّونَه لخالاتِهم». قال: فوَضَع يدَه عليه وقال: «اللهُمّ اغفِرْ ذنبَه وطهِّرْ قلبَه، وحصِّنْ فَرْجَه. قال: فلم يكنْ بعدَ ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيءٍ[1]. وبعدَ هذه النَّصيحة كَرِه هذا الشابُّ الزنا، بحيث أنه كلَّما فكَّر فيه تذكَّر أُمَّه وأُختَه، فتتلاشَى الفكرةُ من عقلِه[2].

٢ـ هذه القصّةُ تجسيدٌ صادقٌ لِما ينبغي أن يكونَ عليه الدّاعية. فيُروى أنّ الحَسَنَ والحُسَينَ عليهما السَّلامُ رأيا رجُلًا لا يُحسِنُ الوضوءَ، وأرادا أن يُعلِّماهُ الوضوءَ الصَّحيحَ دونَ أن يَجْرَحا مشاعرَه، فما كان منهُما إلّا أنّهما افتَعَلا خصومةً بينَهما، كلٌّ منهما يقولُ للآخَر: أنت لا تُحسنُ أن تتوضَّأَ، ثم تَحاكَما إلى هذا الرجُل أن يَرى كلًّا منهما يتوضَّأُ، ثم يَحكُم: أيُّهما أفضَلُ من الآخَر، وتوضَّأ كلٌّ منهُما فأحسَنَ الوضوءَ، بعدَها جاء الحُكم من الرجُل يقول: كلٌّ منكُما أحسَن، وأنا الذي ما أحسَنْتُ»[3].

٣ـ رأى رجلٌ أنّ نفسَه قد غَلَبَتْه وأنه أسرَفَ على نفسِه، فذهبَ إلى طبيبِ القلوبِ إبراهيمَ بن أدهمَ، وطَلَب منه أن يَعرِضَ عليه ما يكونُ زَجْرًا له عن فعلِ المعاصي، فقال إبراهيم: إنْ قَدَرتَ على خمسِ خِصال لن تكونَ من العاصِين، قال الرجل: هاتِ ما عندَك، فقال له إبراهيمُ بنُ أدهم:

الأولى: إنْ أردتَ أن تعصيَ اللهَ فلا تأكُلْ من رزقِه، فتعجَّب الرجُل ثم قال متسائلًا: كيف تقولُ ذلك يا إبراهيمُ والأرزاقُ كلُّها من عندِ الله؟ قال: إذا كنتَ تَعلَمُ ذلك فهل يَجدُرُ بكَ أن تأكلَ من رزقِه وتعصيَه؟ قال: لا يا إبراهيم. هاتِ الثانيةَ.

---

(١) مسند أحمد، ٥: ٢٥٦، وتفسير الشعراوي، سورة النحل (١٦): الآية ١٢٥.

(٢) «فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزني، وهو يقول: فوالله ما همّت نفسي بشيء من هذا، إلا ذكرت أمي وأختي وزوجتي». تفسير الشعراوي.

(٣) تفسير الشعراوي.

قال: الثانية: إذا أردت أن تعصيَ اللهَ فلا تسكُنْ بلادَه، فتعجَّب الرجلُ أكثرَ من تعجُّبِه الأول، ثم قال: كيف ذلك يا إبراهيمُ والبلادُ كلُّها مُلكُ الله؟ فقال له: إذا كنتَ تَعلَمُ ذلك فهل يَجدُرُ بكَ أن تَسكُنَ بلادَه وتعصيَه؟ قال: لا يا إبراهيمُ. هاتِ الثالثةَ.

قال: الثالثةُ: إذا أردتَ أن تعصيَ اللهَ سبحانه فانظُرْ مكانًا لا يراكَ فيه اللهُ فاعصِهِ فيه، قال: كيف تقولُ ذلك يا إبراهيمُ وهو يَعلَمُ السرَّ وأخفَى ويسمَعُ دبيبَ النَّملةِ السَّوداءِ على الصَّخرة الصَّمّاءِ في اللَّيلة الظَّلماء؟ فقال: إذا كنتَ تَعلَمُ ذلك، فهل يَجدُرُ بك أن تعصيَه؟ قال: لا يا إبراهيمُ. هات الرابعةَ.

قال: الرابعةُ: إذا جاءك مَلَكُ الموتِ لِيقبِضَ رُوحَك فقلْ له: أَخِّرْني إلى أَجَل معدود، فقال الرجل: كيف تقولُ ذلك يا إبراهيمُ واللهُ سبحانَه يقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾؟. فقال: إذا كنتَ تَعلَمُ ذلك فكيف ترجو النَّجاةَ؟ قال: نعَمْ يا إبراهيم. هات الخامسة.

قال: الخامسةُ: إذا جاءتْك ملائكةُ جهنَّم (الزَّبانِيَة) ليَأخُذوك إلى جهنَّم فلا تذهَبْ معَهم، فما كان الرجلُ يستمعُ إلى هذه الخامسة حتى قال باكيًا: كفَى يا إبراهيم، أنا أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، ولَزِم العبادةَ حتى مات»[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾

٩٢ـ إن مسئوليّةَ الداعي هي أن يدعوَ مُراعيًا مقتَضياتِ الحِكمة والموعِظة الحسَنة، وبعدَ ذلك إن لم يَقبَلْ أحدٌ الموعِظةَ، فلا حاجةَ بالداعيةِ إلى أن يَحزَنَ أو يغتمَّ، واللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم من يَضِلُّ عن السَّبيل ومن يَهتدي.

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾

٩٣ـ حين يقَعُ ظُلمٌ على أحدٍ فإنه ـ بشكلٍ عامّ ـ يتعدَّى الحدودَ في حماسِ

---

(١) الخطبة العصرية، إبراهيم محمد الجمل، ١٦٦، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.

الانتقام، وقد أمَرَ الإسلامُ بالتحكُّم في هذه الرَّغبةِ في الانتقام عندَ شدّةِ الغضَب، ومراعاةِ مقتَضَياتِ العدلِ والإنصاف؛ لأنّ هذا المظلومَ إن تعدَّى الحدودَ في انتقامِه، فسيصبحُ ظالمًا هو الآخَرُ، ولهذا يمكنُكم أن تأخُذوا حقَّكم من الظالم بقَدْرِ ما ظلَمَكم، بمعنى: أنه لو قَطَع لكم يدًا لا يمكنُكم أن تقتُلوه في مقابل هذا، وإنّما لكم أن تقطَعوا يدَه فقطْ، ولكنْ إن صبَرتُم وعفَوْتُم عنه، فإنّ ذلك خيرٌ لكم، حيث سيزيدُ ثوابُكم، وفوقَ ذلك يمكنُ لعدوِّكم هذا أن يصبحَ صديقًا لكم، متأثرًا من حُسن أخلاقِكم.

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

٩٤ـ في الآيةِ السابقة أَذِنَ اللهُ تعالى لعامّةِ المسلمينَ أن يأخُذوا حقَّهم ممَّن ظَلَمَهم بقَدْرِ ظُلمِه لهم، وأرشَدَهم إلى أنّ الصبرَ هو الأفضَل، وفي هذه الآيةِ خاطَبَ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بصفةٍ خاصّة قائلًا: أنك على مقام رفيع من علوِّ الهِمّة، ولهذا عليكَ الصَّبرُ في كلِّ حالٍ بتوفيق الله عزَّ وجل، ولا يَضيقُ صدرُك بمَكرِهم وخِداعِهم، فاللهُ ـ على وجهِ اليقين ـ معَ أولئك الذين يختارونَ التقوى، ويُحسنون إلى الآخَرين.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزَاده
جامعة الكَرم: إيتن هال: انجلترا

بعدَ صلاة العشاء من يوم الخميس ١٥ مارس عام ٢٠٠٧م
الموافق ٢٥ صفر عام ١٤٢٨هـ
واكتَمل تفسيرُ سورةِ النَّحل في اثنَيْن وعشرينَ يومًا
والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١٧) سُورَةُ الإِسۡرَاءِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها «سُورةُ بني إسرائيل»[١]؛ لأنّ فيها ذِكْرًا لبني إسرائيل، ومعَ أنه لم يكنْ لبني إسرائيلَ وجودٌ في مكّةَ أصلًا، لكنّ البعضَ ممَّن على شاكلتِهم كان قد قَبِلَ الإسلامَ في المدينة، لهذا جاء تقديمٌ لبني إسرائيلَ الذين يعيشونَ في المدينة في مِرآةِ ماضيهم، حتى يتَعلَّموا الدَّرسَ من هذا الماضي، ويدخُلوا في الإسلام، كما أنّ في هذه السُّورة تنبيهًا لأهل مكّةَ أيضًا أنْ يعتبِروا هم أيضًا من ماضي بني إسرائيلَ، ويؤمنوا بالنبيِّ الكريم ﷺ.

وللسُّورةِ اسمٌ آخَرُ وهو: «الإسراء»؛ لأنّ الآيةَ الأُولى منها ذَكَرت معجِزةَ الإسراء والمعراج للنبيِّ ﷺ، والسُّورةُ نَزَلت بعدَ هذه المعجِزة، ومن خلالِها عَرَّف النبيُّ ﷺ الناسَ بمعجِزةِ الإسراءِ والمعراج، وهذه المعجزةُ شرَّف اللهُ تعالى بها سيّدَنا محمّدًا ﷺ قَبلَ الهجرة بعام واحد، بمعنى: أنها نَزَلت في السنةِ الأخيرة من العهدِ المكّي، إلّا أنّ بعضَ آياتِها نَزَلت في المدينةِ المنوَّرة.

والمرادُ بالإسراءِ والمِعراج هنا: تلك المعجزةُ التي أَسْرى فيها اللهُ تعالى بالنبيِّ الكريم ﷺ في جزءٍ بسيطٍ من اللّيل: من بيتِ الله في مكّةَ إلى بيتِ المقدِس

---

(١) السورة معروفة في البلاد العربية باسم سورة الإسراء، باعتبار أنها بدأت بذكر مسرى النبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، وفي بلاد الناطقين باللغة الأردية (باكستان والهند) تعرف باسم سورة بني إسرائيل للسبب الذي ذكره المفسر الجليل، أي: لورود ذكر بني إسرائيل فيها. (المترجم).

في فِلَسطين، ثم من هناك عَرَج به إلى السَّماواتِ والمَلَكوتِ الأعلى، وفي هذه اللّيلة فُرِضت الصَّلواتُ الخمسُ على المسلمينَ بشكل منتظَم.

وحدَّدت السُّورةُ في الآياتِ من ٢٣ إلى ٣٨ منها ملامحَ المجتمع الإسلامي، ورَغْمَ أنّ هذا المجتمعَ لم يكنْ قائمًا في مكّةَ المكرَّمة، إلّا أنّ بدايتَه في المدينةِ المنوَّرة كانت قد أَوْشكَت، ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى في هذه السُّورة بحُسن التعامل معَ الوالدَيْن، وخِدمتِهما في شيخوختِهما، والدّعاءِ لهما بالرحمة، جَنْبًا إلى جنبٍ معَ توحيدِه وعبادتِه عزَّ وجلَّ، وأمَرَ كذلك بحُسن معاملةِ الأقاربِ والمساكين، وإيفاءِ الكَيْل والميزان، والوفاءِ بالعهد، ونَهَى عن الإسرافِ والزنا والقتل والغُرور والتكبُّر وأكلِ مال اليتيم، كما نَهى أيضًا عن قَتْل الأولادِ خشيةَ الفقرِ والإملاق، لأنّ الرازقَ هو اللهُ تعالى، ومن الممكنِ أن يُنعِمَ على الأولادِ برزقٍ وفيرٍ يقضي به على فقرِكم أنتم، ولذا لا تقتُلوا أولادَكم وتُفسِدوا دُنياكم وآخِرتكم.

جامعةُ الكرم: إيتن هال: إنجلترا
بعد صلاة الفجرِ من يوم الاثنين ١٩ مارس ٢٠٠٧م
الموافق ٢٩ صفر عام ١٤٢٨هـ

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسين بيرْزَاده

❊ ❊ ❊

سورة الإسراء (١٧)،

مكية (٥٠)، آياتها (١١١)، ركوعاتها (١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

١ـ معنى «سبحانَ»: تنزَّه اللهُ تعالى عن كلِّ عيبٍ ونَقْص وضَعْفٍ وعَجْز،

ويقالُ لفظُ «سبحانَ» ـ بصفةٍ عامّة ـ عندما يكونُ المقصودُ ذِكْرَ واقعةٍ عظيمةِ الشأن، وذِكرُها هنا يعني أنّ هذه الواقعةَ مهما كانت في نَظَر الناسِ مستحيلةً باعتبارِ الأسبابِ الظاهريّة، لكنّها ليست صعبةً أبدًا بالنِّسبةِ لله تعالى؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يحتاجُ إلى الأسباب، فهو القادرُ المطلَق، وهو الذي يفعَلُ ما يشاءُ بمجرَّدِ الإرادة.

لَمّا عَرَج اللهُ سبحانَه وتعالى بنبيِّه الكريم ﷺ ليلةَ السابع والعشرينَ من رَجَبٍ في جزءٍ صغير من اللَّيل، أَسْرى به أولًا من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى، والمسجدُ الأقصى هو الذي جَعَل اللهُ تعالى حولَه بَرَكةً عظيمةً، حيث أنّ هناك كثرةً من الفواكهِ بمثابةِ البَرَكة من الناحيةِ الماديّة والدُّنيويّة، وهو ما يوفِّرُ للناسِ الغذاءَ، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ هناك أضرِحةُ كثيرٍ من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام ومقابرُهم، وهي بَرَكةٌ من الناحيةِ الدِّينية. والمسجدُ الأقصى بعيدٌ عن المسجدِ الحرام بحيثُ لو أراد أحدٌ أن يذهبَ إليه من مكّةَ بمواصَلاتِ ذلك الزَّمن، أي: بالجِمال، لَتطلَّبَ الأمرُ شهرَيْنِ من السَّفَر، لكنّ اللهَ تعالى أَسْرى بنبيِّه ﷺ من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى في فترةٍ وجيزةٍ للغاية من الوقت، ثم عَرَج به من هناك إلى العالَم الأعلى، حتى يُريهِ آياتِ قُدرتِه.

واقعة الإسراء والمعراج:

في السَّنة الثانيةَ عشْرةَ من البَعْثة النَّبويّة، أي: قبلَ الهجرة النّبويّة بعامٍ واحد، أَسْرى اللهُ تعالى بنبيِّه الكريم ﷺ إلى المسجدِ الأقصى في السابع والعشرينَ من رجبٍ بطريقةٍ معجِزة ومحيِّرةٍ، ويُطلَقُ على هذه الرِّحلة من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى «الإسراءُ»، وهو ما ذُكِر في الآيةِ الأولى من سُورة الإسراء (١٧)، ويُطلَقُ على الرِّحلةِ من المسجدِ الأقصَى إلى العالَم العُلويِّ: «المعراجُ»، وهو ما جاء ذِكرُه في بدايةِ سُورة النَّجْم (٥٣)، ووَرَد كذلك في الأحاديثِ النَّبويّة

الشَّريفة، ولكنْ يُطلَقُ على الرِّحلتَيْنِ معًا بصفةٍ عامّة «المعراجُ»[١].

وقد ذَكَر النبيُّ ﷺ واقعةَ الإسراءِ والمِعراج مرّاتٍ عديدةً، وذَكَر منها أمامَ كلِّ شخص الجزءَ الذي يناسبُ استعدادَه وإدراكَه، وقد رَوى هذه الواقعةَ عن النبيِّ ﷺ ثلاثون صحابيًّا، ولا يوجَدُ تفصيلٌ كاملٌ لأحداثِ الواقعةِ في روايةٍ واحدة فقطْ، وفيما يلي سأحاولُ تقديمَ هذه الواقعة كاملةً مترابِطةً من خلالِ الأحاديثِ النَّبويّة والرِّواياتِ المتعدِّدة:

نزول سيدنا جبريل عليه السلام:

ذاتَ ليلةٍ كان النبيُّ ﷺ يستريحُ في الحَطِيم عندَ الكعبةِ المشرَّفة، إذْ جاءه سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلام وأَيْقظَه من نومِه، وأَخْبرَه بالإرادةِ الإلهيَّة، ثم اضْطَحَبه بالقُربِ من زَمْزم، وشَقَّ صدرَه الشّريفَ، ثم أَخْرجَ قلبَه منه، فغَسَله، وملأَه بالإيمان والحِكمة، ثم أعادَه إلى موضعِه وأَغْلقَ صدرَه كما كان، ثم قَدَّم للنبيِّ ﷺ حيَوانًا لِيمتطيَه، ويُدعَى «البُراقَ»، وكان البُراقُ في غايةِ السُّرعة بحيث كان يضَعُ قدَمَه حيث يصلُ بصَرُه[٢].

---

(١) في العربية يجمعون الرحلتين معًا فيقولون: «الإسراء والمعراج». (المترجم).

(٢) «عن أنس بن مالكٍ، عن مالك بن صعصعة - رضي الله عنهما - أنّ نبيّ الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أسري به: بينما أنا في الحطيم - وربّما قال: في الحجر - مضطجعًا، إذ أتاني آتٍ فقدّ - قال: وسمعته يقول: فشقّ - ما بين هذه إلى هذه - فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: من قصّه إلى شعرته - فاستخرج قلبي، ثمّ أتيت بطستٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيمانًا، فغسل قلبي ثمّ حشي، ثمّ أتيت بدابّةٍ دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه». البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٢ برقم ٣٨٨٧.

مغادرة مكة المكرمة:

وحين غادَرَ النبيُّ ﷺ مكّةَ المكرَّمةَ ووَصَل إلى أرضٍ تملأُها أشجارُ النَّخيل قال له سيّدنا جِبريلُ عليه السَّلام: انزِلْ هنا وصَلِّ، فنَزَلَ النبيُّ ﷺ وصَلَّى، ثم قال سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلام: هذه يثربُ (حيث سيُهاجِرُ النبيُّ ﷺ إليها فيما بعدُ)، ثم صَلّى النبيُّ ﷺ في بيتِ لَحْم، حيث وُلِد سيّدُنا عيسى عليه السَّلام[١]. قال النبيُّ ﷺ: حينَ مرَرْنا عندَ كَثِيبٍ أحمرَ بالقُرب من قبرِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وجَدناهُ واقفًا في القبرِ يُصلِّي[٢].

الوصول إلى بيت المقدس:

حينَ وَصَل النبيُّ ﷺ إلى بيتِ المقدِس رَبَطَ البُراقَ في الحلَقةِ التي كانت مطايا الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ مربوطةً فيها[٣]. قال النبيُّ ﷺ: جَمَع اللهُ تعالى ليَ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام فيه، وقدَّمني جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلام لإمامةِ الأنبياءِ في الصَّلاة، فصَلَّيتُ بالأنبياءِ جميعًا عليهمُ السَّلام[٤].

---

(١) دلائل النبوة، البيهقي، ٣: ٣٥٥: باب الإسراء، وفيه: «حتى بلغنا أرضًا ذات نخل فأنزلني، فقال: صلّ، فصليت، وقال: صلّيت بيثرب، ثم صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام».

(٢) «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلّي في قبره». مسلم، كتاب الفضائل، باب ٤٢ برقم ٢٣٧٥.

(٣) «حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيها». المواهب اللدنية، ٣: ٤٩، المقصد الخامس.

(٤) «ثمّ دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السّلام فقدّمني جبريل حتّى أممتهم». النسائي، كتاب الصلاة، باب ١.

العروج إلى السماء:

عَرَج سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلام بسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ إلى السَّموات، فالتَقى في السّماءِ الأولى بسيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وفي الثانيةِ بسيّدِنا يحيى وسيِّدِنا عيسى عليهما السَّلام، وفي الثالثةِ بسيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وفي الرابعةِ بسيِّدِنا إدريسَ عليه السَّلام، وفي الخامسةِ بسيّدِنا هارونَ عليه السَّلام، وفي السادسةِ بسيّدِنا موسى عليه السَّلام، وفي السابعةِ بسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، ثم وَصَل إلى سِدْرةِ المنتَهى[1].

---

(١) «فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتّى أتى السّماء الدّنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلمّا خلصت، فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ السّلام ثمّ قال: مرحبًا بالابن الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد حتّى أتى السّماء الثّانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت، إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما. فسلّمت فردّا، ثمّ قالا: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي إلى السّماء الثّالثة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ، ثمّ قال: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح، ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الرّابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ، ثمّ قال: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الخامسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد ﷺ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. فلمّا خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ، ثمّ قال: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء السّادسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قال: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلمّا خلصت، فإذا موسى، =

سدرة المنتهى:

هذا هو مقَرُّ سيِّدِنا جِبريلَ عليه السَّلام، ولهذا توقَّف سيِّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ هناك وقال: لو تقدَّمتُ أكثرَ من ذلك قَيْدَ أُنملةٍ لَاحتَرقتُ[1].

وصف المعراج:

نَقَل السيّد محمدُ الألُوسيُّ فيما يَتعلَّقُ بالمِعراج قولًا ترجَمَه العلّامةُ أبو الحَسنات سيّد محمَّد أحمدَ قادري إلى الأُرْديّة في تفسيرِه، وهو: «**أمرُ المعراج أجَلُّ من أن يُكَيَّف، وماذا عسى يقالُ سوى أنّ المُحبَّ القادرَ الذي لا يُعجِزُه شيءٌ دَعا حبيبَه الذي خَلَقَه من نُورِه إلى زيارتِه، وأرسَلَ إليه مَن أرسَلَ من خواصِّ ملائكتِه فكان جِبريلُ هو الآخِذَ بِركابِه، وميكائيلُ الآخِذَ بزِمام دابّتِه، إلى أنْ وَصَل إلى ما وَصَل**»[2].

= قال: هذا موسى فسلّم عليه، فسلّمت عليه فردّ ثمّ قال: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. فلمّا تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غلامًا بعث بعدي، يدخل الجنّة من أمّته أكثر من يدخلها من أمّتي. ثمّ صعد بي إلى السّماء السّابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به، فَنِعْمَ المجيء جاء، فلمّا خلصت، فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلّم عليه. قال: فسلّمت عليه، فردّ السّلام ثم قال: مرحبًا بالابن الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ رفعت لي سدرة المنتهى». البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب ٤٢ برقم ٣٨٨٧.

(١) «ويروى أن جبريل لما وصل إلى السدرة التي هي مقامه تأخر فلم يتجاوز، فقال عليه السلام: (أفي مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟) فقال: لو تجاوزت لأحرقت بالنور. وفي رواية: لو دنوت أنملة لأحرقت». تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

(٢) تفسير روح المعاني، نقلًا عن تفسير الحسنات، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

القرب الخاص:

توقَّف سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عندَ سِدرةِ المنتَهَى، ثم قَرَّب اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ، فكم كان هذا القُربُ؟ أكتفي بذِكرِ ألفاظِ القرآنِ الكريم إجابةً عن هذا السؤال، حيث يقولُ اللّهُ تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

رؤية اللّٰه تعالى:

١ـ **«لقيَ ابنُ عبّاسٍ كعبًا بعَرَفَة فسألهُ عن شيءٍ ... فقال كعبٌ: إنّ الله قَسَم رؤيتَه وكلامَه بيْنَ محمّدٍ وموسى، فكلَّم موسى مرّتَيْن، ورآه محمّدٌ مرّتَيْن»**[١].

٢ـ **عن عبدِ الله بن شَقيق، قال: قلتُ لأبي ذرٍّ: لو رأيتُ رسولَ الله ﷺ لَسألتُه، فقال: عن أيِّ شيءٍ كنتَ تسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هل رأيتَ ربَّك؟ قال أبو ذرٍّ: قد سألتُ فقال:** «**رأيتُ نورًا** (يعني: رأى ربَّه)»[٢].

٣ـ يقولُ العلّامةُ بدرُ الدِّين عَيْني في شَرْح البخاريِّ: «**ورَوى ابنُ خُزيمةَ بإسنادٍ قويٍّ عن أنس، قال: رأى محمّدٌ ربَّه، وبه قال سائرُ أصحاب ابن عبّاس وكعبُ الأحبار والزُّهريُّ وصاحبُ مَعْمَر وآخَرون، وحَكى عبدُ الرّزّاق عن مَعْمَر عن الحَسن أنه حَلَف أنّ محمّدًا رأى ربَّه**»[٣].

٤ـ سُئل الإمامُ أحمدُ بن حَنْبلٍ رحمه الله: هل رأى النبيُّ ﷺ ربَّه؟ فقال: «رآه، رآه»، وظلَّ يُردِّدُ ذلك حتى كاد ينقطعُ نفَسُه[٤].

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٣، سورة النجم (٥٣): برقم ٣٢٧٨.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٨، برقم ٢٩٢.

(٣) عمدة القاري شرح البخاري، ١٩: ١٩٨.

(٤) «وعن الإمام أحمد أنه كان يقول إذا سئل عن الرؤية: رآه رآه، حتى ينقطع نفسه، ولا يزيد على ذلك». تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

٥ـ يَذكُرُ العلّامةُ سيّد محمود الألُوسيُّ رأيَه الشخصيَّ فيما يتعلَّقُ برؤيةِ الله تعالى فيقول: «**وأنا أقولُ برؤيتِه صلى اللهُ تعالى عليه وسلَّم ربَّه سبحانَه وبدُنوِّه منه سبحانَه على الوَجْهِ اللائق**»[١].

حديث الحب:

يقولُ العلّامة سيّدُ سُليمان النَّدويّ: ربَّما رَفَع مستورُ الأزَل الحجابَ عن وجهِه، وأَنْعم برسالةِ الحُبِّ في خَلْوةِ الأسرار بما لا تتحمَّلُه لطافةُ ورِقّةُ الألفاظ ﴿ **فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم: ١٠]، فأوحَى اللهُ تعالى إلى عبدِه ما أوحَى وفقطْ[٢].

الصلوات الخمس:

ماذا أوحَى اللهُ تعالى في هذا القُربِ الخاصِّ؟ هذا يَعلَمُه اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ تمامَ العلم، وفي العَوْدة من المِعراج حينَ وَصَل النبيُّ ﷺ إلى سيّدِنا موسى عليه السَّلام قال له سيّدُنا موسى عليه السَّلام: إنّ خمسينَ صلاةً كثيرة، اسألْ ربَّك التخفيفَ: «**ودَنا الجبّارُ ربُّ العزّة فتَدلَّى حتّى كان منه قابَ قوسَيْنِ أو أدنَى، فأوحَى الله فيما أوحَى إليه خمسينَ صلاةً على أُمّتِك كلَّ يوم وليلةٍ. ثمّ هَبَط حتّى بَلَغ موسى فاحتَبَسه موسى فقال: يا محمّد، ماذا عَهِد إليك ربُّك؟ قال: عهِدَ إليّ خمسينَ صلاةً كلَّ يومٍ وليلةٍ. قال: إنّ أُمّتَك لا تستطيعُ ذلك فارجِعْ فلْيخفِّفْ عنك ربُّك وعنهم ... فقال وهو مكانَه: يا ربّ، خفِّفْ عنّا، فإنّ أُمّتي لا تستطيعُ هذا. فوضَعَ عنه عَشْرَ صلواتٍ ثمّ رَجع إلى موسى فاحتَبَسه، فلم يزَلْ يُردِّدُه موسى إلى ربِّه حتّى صارت إلى خمسِ صلواتٍ، ثمّ احتَبَسه موسى عندَ الخمسِ فقال: يا محمّد، والله لقد راوَدتُ بني إسرائيلَ قومي على أدنَى من هذا فضَعُفوا فترَكوه فأُمّتُك أضعَفُ أجسادًا وقلوبًا**

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

(٢) سيرة النبي، ٣: ٤٢٣.

وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا، فارجِعْ فلْيخفّفْ عنك ربُّك ... فقال: يا ربّ، إنّ أُمّتي ضُعَفاءُ أجسادُهم وقلوبُهم وأسماعُهم وأبدانُهم فخفِّفْ عنّا، فقال الجبّار: يا محمّد، قال: لبّيْكَ وسَعْدَيك. قال: إنّه لا يُبدَّلُ القولُ لديّ، كما فَرَضْتُ عليك في أمّ الكتاب ـ قال ـ فكلُّ حسَنةٍ بعَشْرِ أمثالِها، فهي خمسونَ في أمّ الكتابِ وهي خمسٌ عليك. فرجَعَ إلى موسى؟ فقال: كيف فَعلتَ؟ فقال: خفَّفَ عنّا، أعطانا بكلّ حسَنةٍ عشْرَ أمثالِها. قال موسى: قد والله راوَدتُ بني إسرائيلَ على أدنَى من ذلك فتركوه، ارجِعْ إلى ربِّك فلْيخفِّفْ عنك أيضًا. قال رسولُ الله ﷺ: يا موسى، قد والله استحيَيْتُ من ربّي ممّا اختلفتُ إليه. قال: فاهبِطْ باسم الله. قال: واستَيقَظَ وهو في مسجدِ الحرام»[1].

ذكر المعراج أمام قريش:

يقولُ سيّدِنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ فيما رَواه عن النبيِّ ﷺ: **«ثمّ أصبح بمكّةَ يُخبِرُهم بالعجائب: أنّي أتَيْتُ البارحةَ بيتَ المقدِس وعُرِج بيَ إلى السّماء، ورأيتُ كذا ورأيتُ كذا، فقال أبو جَهْل بنُ هشام: ألا تعجبَون ممّا يقولُ محمّد! يَزعُمُ أنّه أتَى البارحةَ بيتَ المقدِس، ثمّ أصبح فينا، وأحدُنا يضربُ مطيّتَه مُصعِدةً شهرًا ومنقلبةً شهرًا، فهذا مسيرةُ شهرَيْنِ في ليلةٍ واحدةٍ. قال: فأخبَرَهم بِعيرٍ لقُريشٍ لمّا كان في مَصعَدي رأيتُها في مكانِ كذا وكذا وأنّها نَفَرت، فلمّا رَجَعت رأيتُها عند العقبة، وأخبَرهم بكلِّ رجلٍ وبعيرُهُ كذا وكذا ومتاعُهُ كذا وكذا»**[2].

ورود بيت المقدس أمام النبي ﷺ:

يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ: **«فقال رجلٌ من المشركين: أنا أعلَمُ النّاسِ ببيتِ المقدِس وكيف بناؤه وكيف هيأتُه وكيف قُربُه من الجبل، فإنْ يكنْ محمّدٌ**

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٧ برقم ٧٥١٧.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي، ٢: ٣٩٥.

صادقًا فسأُخبِرُكم، وإن يكنْ كاذبًا فسأُخبِرُكم، فجاءه ذلك المشركُ فقال: يا محمَّد، أنا أعلَمُ النّاس ببيتِ المقدِس، فأخبِرْني كيف بناؤه وكيف هيأتُه وكيف قُربُه من الجبل؟ قال: فرُفِع لرسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلّم بيتُ المقدِس من مَقْعَدِه فنَظَر إليه كنَظَرِ أحدِنا إلى بيتِه، فقال: بناؤه كذا وكذا، وهيأتُه كذا وكذا، وقُربُه من الجبلِ كذا وكذا، فقال الآخَر: صَدَقْتَ. فرَجَع إلى الصّحابةِ فقال: صَدَق محمّدٌ فيما قال، أو نحوًا من هذا الكلام»[١].

ويَروي الإمامُ البخاريُّ، عن سيّدِنا جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، **أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «لمّا كذَّبتني قُريشٌ قمتُ في الحِجْر، فجَلا اللهُ لي بيتَ المقدِس، فطَفِقتُ أُخبِرُهم عن آياتِه وأنا أنظُرُ إليه»**[٢].

تصديق سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: **«فأصبح، فأَخبَر عمّا كان، فلمّا سمع المشركونَ قولَه أتَوْا أبا بكرٍ فقالوا: يا أبا بكرٍ، هل لكَ في صاحِبك؟ يُخبِرُ أنّه أتَـى في ليلتِه هذه مسيرةَ شهرٍ، ثمّ رَجَع في ليلتِه. فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: إنْ كان قالهُ فقد صَدَق، وإنّا لَـنُصدِّقُه فيما هو أبعَدُ من هذا، نُصدِّقُه على خبرِ السّماء. ومن ذلك سُمِّي أبو بكرٍ الصِّدِّيقَ»**[٣].

ويَروي الإمامُ الطبرانيُّ، عن الرُّواةِ الثقاة، **«أنّ عليًّا كان يَحلِفُ بالله أنّ اللهَ أَنْزل اسمَ أبي بكرٍ من السّماءِ: الصِّدِّيقَ، وكان ابتداءُ تسميتِه بذلك صبيحةَ الإسراء»**[٤].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي، ٢: ٣٩٥.

(٢) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤١، برقم ٣٨٨٦.

(٣) تفسير ابن كثير، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

(٤) الإمام الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، ١: ٤٤٥.

مشاهدة العقاب:

جَعَل اللهُ النبيَّ ﷺ يَرى في ليلةِ المِعراج عددًا من أنواع العقابِ بشكل عمَليٍّ، أَذكُرُ هنا بعضًا منها حتى نَعتبِر:

١ـ عقابُ تاركِ الصّلاةِ المفروضة:

«ثم أتَى على قوم تُرضَخُ رُءوسُهم، كلما رُضِخت عادت كما كانت. ولا يَفتُر عنهم من ذلك شيءٌ. فقال: يا جِبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الّذين تتشاغَلُ رءوسُهم عن الصّلاةِ المكتوبة»[1].

٢ـ عقابُ الزُّناةِ رجالًا ونساءً:

«ثم أتَى على قوم بينَ أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ في قُدور، ولحمٌ آخَرُ نيِّءٌ خبيث، فجَعَلوا يأكلونَ من النّيِّءِ الخبيثِ ويَدَعُونَ النَّضيجَ. فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرّجلُ من أُمّتِك تكونُ عندَه المرأةُ الحلالُ الطّيِّب، فيأتي امرأةً خبيثةً، فيَبيتُ عندَها حتّى يُصبح، والمرأةُ تقومُ من عندِ زوجِها حلالًا طيّبًا، فتأتي رجُلًا خبيثًا فتَبِيتُ معَه حتّى تصبح»[2].

٣ـ الخطيبُ الذي لا يعمَلُ بما يقول:

«ثم أتَى على قوم تُقرَضُ ألسِنتُهم وشِفاهُهم بمقاريضَ من حديدٍ، كلَّما قُرِضت عاد، لا يَفتُرُ عنهم من ذلك شيءٌ، فقال: من هؤلاء يا جِبريل؟ قال: هؤلاء خُطباءُ الفتنةِ من أُمّتِك يقولونَ ما لا يفعَلون»[3].

---

(١) سبل الهدى والرشاد، ٣: ١١٧.

(٢) سبل الهدى والرشاد، ٣: ١١٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد، ٣: ١١٧.

٤ـ المُغتابُون:

«فإذا أنا بأقوامٍ تُقطَّع من جنوبِهم اللَّحمُ فيُلقَمون، فيقالُ له: كلْ كما كنتَ تأكُل من لحم أخيك، قلت: يا جِبريل، من هؤلاء؟ قال هؤلاء الهَمّازُونَ من أُمّتِك اللَّمّازون»(١).

دلائل المعراج الجسماني:

١ـ يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقّي في تفسيرِه: **«قال الشّيخُ الأكبرُ قُدِّس سِرُّه: إنّ معراجَه عليه السَّلام أربعًا وثلاثين مرةً واحدة بجسَدِه والباقي بروحِه رُؤيا رآها»**(٢).

٢ـ يقالُ للرُّوح والجسَد معًا: «عَبْد»، وقد أَسْرى اللهُ تعالى وعَرَج في هذه الواقعة بعَبْدِه (عَبدِه الخاصِّ)، وفَرَض عليه في هذا المِعراج الجِسمانيِّ الصَّلَواتِ الخمسَ.

٣ـ بَدأَتْ سورةُ الإسراءِ في أول الآية الأُولى منها بقول: ﴿سُبْحَٰنَ﴾، ويُستعمَلُ هذا اللفظُ للتعجُّب وللأعمالِ عظيمةِ الشأن، ولو كان هذا الإسراءُ والمعراجُ في النوم بالرُّوح فقطْ، فأيُّ عَجَبٍ في هذا؟ إذ إنّ مِثلَ هذا الحُلم قد يَراهُ أيُّ إنسانٍ عادي، على سَبيل المثال: لو قال شخصٌ: إنه رأى أولًا بيتَ الله في نومِه ليلًا، ومن هناك ذَهَب إلى بيتِ المقدسِ، وصَلّى الجمُعةَ هناك، ثم طار في السَّماءِ وفوق السَّحاب، وحين فَتَح عينَيْه وَجَد نفسَه على فراشِه، فأيُّ عجَبٍ في هذا المنام؟

٤ـ كذَّب كُفّارُ مكَة هذه الواقعةَ حين سَمِعوها، وسَخِروا منها، بل إنّ إيمانَ

---

(١) دلائل النبوة، البيهقي، ٢: ٣٩٣.

(٢) تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

بعضِ المسلمينَ قدِ اهتزَّ أيضًا، ولو كان مَقصِدُ النبيِّ ﷺ بيانَ رؤيا في المنام، فهل كان أحدٌ يُنكرُ عليه ذلك؟

٥ـ لم يَجعَلِ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ يسافرُ ليلةَ الإسراءِ والمِعراج، وإنّما جَعَلَها له رحلةً؛ لأنّ السَّفر يُمكنُ أن يكونَ في حالةِ المنام، وفي حالةِ عَدَم الوعي أيضًا، على سبَيل المثـال: لو أنّي أستقِـلُّ طـائرةً من المـملكة العربيّـة السُّعوديّـة متَّجهةً إلى لندن، وغَلَبَني النومُ عندَما ارتفَعتِ الطائرةُ في السَّماء، فإنّ هذا لن يُعطِّلَ سَفَري، بل هو مستمرٌّ، لكنّي لا أشعرُ به، ولا أدري على أيِّ ارتفاع أطيرُ، ولا بأيِّ سُرعة، ولا حتّى أيُّ بلدٍ أمرُّ فوقَه، فالسَّفَرُ إذًا يمكنُ أن يكونَ في النّوم وفي حالةِ الغيابِ عن الوعي، لكنّ الرِّحلَة والتَّجوالَ لا يكونانِ إلّا حين يكونُ الإنسانُ في كامل وَعْيه، يرى بعينَيْه كلَّ شيءٍ أمامَه، وبالتالي فإنّ اللهَ تعالى لم يجعَل الإسراءَ والمِعراجَ سَفَرًا للنبيِّ ﷺ، وإنّما جَعَله رِحلةً له، حتى يشاهدَ آياتِ قُدرةِ الله تعالى، وبالتالي فإنّ الإسراءَ والمِعراجَ لم يكونا بالرُّوح فقطْ، وإنّما كانا بالرُّوح والجسَدِ معًا، وفي حالةِ الوعي واليَقَظة الكاملة، معَ الرؤيةِ العينيةِ أيضًا التي جَعَل اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ يرَاها بقُدرتِه الكاملة.

إنكار المعراج الجسماني:

النبيُّ ﷺ لم يَدَّعِ أنه ذَهَب في الإسراءِ والمِعراج، وإنّما كما جاء في الآيةِ الأولى من سُورة الإسراءِ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، وكما جاء على لسانِ النبيِّ ﷺ من أنه «عُرِج بي» و«أُسْريَ بي ليلًا»، ولو كان النبيُّ ﷺ هو الذي ادَّعى هذا لَكان من الممكنِ مناقشةُ الأمر، لكنْ بما أنّ اللهَ تعالى هو الذي قال بأنه هو الذي أَسْرى به وعَرَج به، فلا يُناقِشُ في هذا أصلًا إلّا الذي ليس لديه يقينٌ على قُدرة الله تعالى، على سَبيل المثال: لو قلتُ أنا: إنّ الطائرةَ أقلَّتني من المملكةِ

المتَّحدة إلى المملكة العربيّةِ السُّعودية بسُرعةِ خمسِمائة ميل في الساعة، فلا حاجةَ لأحدٍ أن يتفكَّرَ ويتدبَّرَ في سُرعتي وقوَّتي أنا، بمعنى أنني أستطيعُ أن أَسيرَ بهذه السُّرعةِ أم لا، وإنّما عليه أن يتفكَّرَ في محرِّكاتِ الطائرة، إذ لوِ استطاعتْ هذه المحرِّكاتُ أن تطيرَ بالطائرةِ بسُرعةِ خمسِمائة ميل في الساعة، فطبيعيٌّ أنّ الذي يركَبُ في الطائرة سيكونُ سَفَرُه بنفسِ هذه السرعة، وبنفسِ الطريقة فإنّ اللهَ تعالى هو الذي عَرَج بالنبيِّ ﷺ، وهو تعالى ـ من حيث القُدرةُ ـ قادرٌ على كلِّ شيء، ولهذا فإنّ مَن يُنكرُ مِعراجَ النبيِّ ﷺ هو في الحقيقة يُنكرُ قُدرةَ الله تعالى.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾

٢ـ أَنْـزل اللهُ تعـالى التَّـوراةَ على سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وبيَّـن فيها كلَّ الأحكام التي تكفي لهدايةِ بني إسرائيلَ، وكان أهمَّ حُكم فيها هو أن يتوكَّلوا على الله تعالى في كلِّ أمورِهم، وأنْ لا يعتقدوا بأنّ أحدًا غيرَه يدبِّرُ الأمرَ.

ويُعلَمُ من هذه الآية أيضًا أنّ التَّوراةَ أُنزلت لهداية بني إسرائيلَ فقطْ، في حينَ أنّ القرآنَ الكريمَ نَزَل لهداية البشَر جميعًا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

٣ـ بعدَ طُوفانِ سيّدِنا نُوحٍ عليه السَّلام، استمرَّ النَّسْلُ الإنسانيُّ في الوجودِ من أبناءِ سيّدِنا نُوح عليه السَّلام الذين رَكِبوا معَه في السَّفينة ونَجَوْا من الطُّوفان، وفي هذه الآية يُذكِّرُ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ بفَضْلِه هذا من أنه تعالى لو لم يُنقذْ أجدادَكم، يعني: المؤمنينَ من أولادِ سيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ بالسَّفينة، لَما كان لكم وجودٌ اليومَ، ولهذا ينبغي لكم أن تَشكُروا اللهَ على ذلك، وقد كان أبوكم نُوحُ عليه السَّلام عبدًا شكورًا أيضًا، فعليكم أنتم أيضًا أن تختاروا طريقَ الشُّكر والاعترافِ بالفضل.

«قال عِمرانُ بن سُليم: إنّما سُمِّي نوحُ عبدًا شكورًا لأنّه كان إذا أكلَ قال: الحمدُ لله الّذي أطعَمَني ولو شاء لَأجاعني، وإذا شربَ قال: الحمدُ لله الّذي سَقاني ولو شاء لَأظْمَأني، وإذا اكتسَى قال: الحمدُ لله الّذي كسَاني ولو شاء لَأعْراني»[1].

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

٤ـ أخبرَ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ ـ عن طريقِ التَّوراةِ والصُّحُفِ السَّماويةِ الأخرى ـ أنكم ستُفسدونَ في بلادكم ـ يعني: الشامَ وبيتَ المقدِس ـ مرَّتَيْن، وتتكبَّرونَ فيها، أي: أنكم ستُفسِدونَ بمخالفتِكم لحقوقِ الله تعالى، وستتكبَّرونَ بتضييعِكم حقوقَ العباد، وبالفعل حَدَث ذلك، ولكنْ كلَّما أفسَدوا وتكبَّروا، ذاقوا العذابَ الأليمَ في كلِّ مرة.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾

٥ـ أصاب بني إسرائيلَ التقدُّمُ والازدهارُ، والتأخُّرُ والتراجُعُ مرّاتٍ عديدةً، وعندَ أكثرِ المفسِّرين: المرادُ بالوَعْدِ الأوّل في هذه الآية: ذلك التَّدهوُرُ الذي حَدَث عندَما هاجَم بَخْتُ نَصَّر مَلِكُ بابلَ القُدسَ عام ٥٨٧ قبلَ الميلاد، وانتشَر جنودُه المحاربونَ في المدينة، وهَدَموا الهيكلَ السُّليمانيَّ، وذَبَحوا أعدادًا كبيرةً من اليهود كما تُذبَحُ الخِراف، واستَعْبدوا أعدادًا لا تُحصَى منهم.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾

٦ـ بعدَ موتِ بَخْتِ نَصَّر تغيَّر الحالُ، وأَنْعم اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ

---

(١) تفسير القرطبي.

بوَفْرةٍ من الأموال وكثرةٍ من الأولاد، وكَتَب لهمُ الازدهارَ ثانيةً في القُدس، وعاد أكثرُ اليهودِ إلى فِلَسطين، وأعادوا بناءَ الهيكل السُّليْمانيِّ من جديد، لكنْ حين أخَذوا يُفسِدونَ في البلاد ثانيةً ويتكبَّرونَ فيها، إلى درجةِ أنّهم حاوَلوا ـ بشدّة ـ قَتْلَ سيّدِنا عيسى عليه السلام (لكنّ الله نَجّاه ورَفَعه إليه)، وقَتَلوا سيّدَنا زكريّا وسيّدَنا يحيى عليهما السَّلام[1]، عاقَبَهم الله تعالى بالتراجُع والتَّدهُورِ ثانيةً، وهو الذي أصابَهم حين هاجمَ تويتس (Titus) مَلِكُ الرُّوم القُدسَ عام ٧٠م، وهَدَم الهيكلَ السُّليْمانيَّ كما حَدَث في المرةِ الأولى، وقَتَل أكثرَ من مليونِ يهودي، وباع مَن بقيَ على قَيْد الحياة من اليهودِ عَبِيدًا وإماءً، ونَفَاهم من البلاد. ولمزيدٍ من التفصيل راجعْ «تفسيرَ ضياءِ القرآن» في هذا الخصُوص.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾

٧ـ نَبَّه اللهُ تعالى بني إسرائيلَ إلى أنكم خالَفْتُم شريعةَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، فدمَّركم بَخْتُ نَصَّر عام ٥٨٧ ق.م، ثم خالَفتُم شريعةَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، فدمَّركم تويتس عام ٧٠م، والآنَ جاءتكم شريعةُ سيّدِنا محمّد ﷺ، فآمِنوا بها يَرحمْكمُ الله، ولئن عصَيْتُم ثانيةً فسوف نُعاقبُكم كما عاقَبْناكم من قبلُ، وبالفعل، حَدَث هذا، فاليهودُ الذين لم يؤمنوا بالنبيِّ ﷺ اضْطُرُّوا للرَّحيل عن المدينةِ المنوَّرة وعن خَيْبر، وفي نهايةِ الأمر استَوْلَى المسلمونَ على القُدسِ أيضًا، والفرقُ فقطْ هو أنّ الملوكَ الأُوَلَ أهانوا بيتَ المقدِس، بينَما أعاد المسلمونَ بناءه، ورَدُّوا إليه حُرمتَه.

واليومَ، المسلمونَ في العالَم مظلومون، وتُدنَّسُ أماكنُهم ورموزُهم المقدَّسة، والسببُ واضحٌ أيضًا، فكما أنّ بني إسرائيلَ خالَفوا أحكامَ الله تعالى فأصابَهم

---

(١) تفسير خزائن العرفان.

الانحطاطُ، كذلك ضَرَب المسلمونَ اليومَ بالأحكام الإلهيَّةِ عُرضَ الحائط، فحاقَ بهم الظُّلم:

*** لو أنَّنا لم ننسَ دَرْسَ القرآن، لَما أرانا الزّمنُ هذا الوقتَ الذي نعيشُه.**

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

٨ ـ كان طريقُ الكتُبِ السَّماوية الأُولى قويًّا ومستقيمًا، لكنّ طريقَ القرآنِ أكثرُ قوةً واستقامةً منها، فالذين سيعمَلونَ بالقرآن، سيَجزيهم اللهُ تعالى أحسَنَ الجزاء، والذين يُنكِرونَ الآخِرة، سيُعذِّبُهم اللهُ عذابًا أليمًا.

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾

٩ـ في بعض الأحيانِ يلعَنُ الإنسانُ ـ في غضَبه ـ مالَه وأولادَه، ويدعو بهلاكِه وهلاكِهم! معَ أنه لا يقصِدُ ذلك أبدًا، والحقيقةُ أنّ هذه علامةٌ على تعجُّلِه، لكنّ من رحمةِ الله وكرَمِه أنه لا يَقبَلُ مِثلَ هذا الدعاءِ فورًا، ولو أنّ اللهَ تعالى قَبِل مِثلَ هذا الدُّعاءِ من كلِّ إنسان، لَكان كثيرٌ من النّاس قد هَلَكوا حتى هذه اللَّحظةَ، مثلَما جاء في الآية رقم ١١ من سورة يونُس (١٠) ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾، لهذا ينبغي للإنسانِ أن يتَحلَّى بالصَّبر والتحمُّل في مواجَهةِ الظروف، وأن يتجنَّبَ الدعاءَ على نفسِه بتعجُّلِه.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾

١٠ـ جعَلْنا اللّيلَ لكم مُظلِمًا لتستريحوا فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾[يونس:٦٧]، والنهارَ مُضيئًا لتبحَثوا عن أرزاقِكم في نُورِه، وفي تعاقُب اللَّيل والنهارِ هكذا آياتٌ على قُدرةِ الله تعالى الذي خَلَقَها، وجَعَلها تدُوُر وتتعاقَبُ في نظام وترتيبٍ مستمرّ، كما أنّ لِـتَعاقُبِ اللّيل والنهارِ فائدةً أخرى، وهي أنكم تستطيعونَ من خلالِه حسابَ الشهورِ والسنينَ وعدِّها.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾

١١ـ فَصَّل اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم تفصيلًا كاملًا كلَّ شيءٍ ضروريٍّ لكم في الدِّين والدنيا.

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾

١٢ـ ذَكَر سيّدُنا الحَسَنُ البصريُّ رحمَه الله في تفسيرِ هذه الآية حديثًا قُدُسيًّا قال فيه اللهُ تعالى: «**يا ابنَ آدم، بَسَطْنا لك صحيفةً، ووُكِّل بك مَلَكانِ كريمان: أحدُهما عن يمينِك، والآخَرُ عن يسارِك، فأمّا الذي عن يمينِك فيَحفَظُ حسَناتِك، وأمّا الذي عن شمالِك فيحفَظُ سيئاتِك، فاعمَلْ ما شئتَ، أَقْلِلْ أو أكثِرْ، حتى إذا مِتَّ طُوِيَتْ صحيفتُك، فجُعِلت في عنُقِك معَك في قبرِك، حتى تُخرَجَ يومَ القيامة كتابًا يلقاهُ منشورًا**»[١].

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

١٣ـ أينَما كان الإنسانُ، وفي أيِّ حال كان، هناك مَلَكانِ معَه دائمًا وفي كلِّ وقت، يكتُبونَ كلَّ حسَنةٍ يعمَلُها، وكلَّ سيّئةٍ يقترفُها، في صحيفةِ أعمالِه، وحين يُبعَثُ يومَ القيامة توضَعُ أمامَه هذه الصَّحيفةُ مفتوحةً، ويقال له: اقرَأْها بنفسِك، وستعرفُ مباشرةً أيَّ أَجْر، أو أيَّ عقابٍ تستحِقُّه، ولهذا ينبغي لنا اليومَ أن نقومَ بالأعمالِ التي لا نَخْجَلُ منها حين نراها يومَ القيامة.

في هذه الدنيا لا يستطيعُ كلُّ شخصٍ القراءةَ والكتابة، كما أنّ أكثرَ المتعلِّمينَ لا يعرفونَ اللّغةَ العربيّة، ولكن يُعلَمُ من هذه الآية أنّ كلَّ إنسانٍ سيقرأُ صحيفةَ أعمالِه المكتوبةِ باللغةِ العربيّة بنفسِه، سواءٌ كان مسلمًا أم غيرَ مسلم، وسواءٌ كان أُمِّيًّا أم غيرَ أُمِّيٍّ، مثلَما رَوى الإمامُ الطبريُّ عن سيّدِنا قَتادةَ رضي اللهُ عنه: «**سيَقرأُ يومَئذٍ مَن لم يكنْ قارئًا في الدُّنيا**»[٢]، وقد قال سيّدُنا الحَسَنُ رحمَه الله: «**يقرأُه أُمِّيًّا كان أو غيرَ أُمِّيٍّ**»[٣].

---

(١) التفسير المنير.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم.

(٣) تفسير زاد المسير.

يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي اللهُ عنه: **قال رسولُ الله ﷺ**: «**إنّ الرّجُلَ لَيُؤتَى كتابَه منشورًا فيقولُ: يا ربّ، فأين حسَناتٍ كذا وكذا عمِلتُها ليست في صحيفتي؟ فيقول: مُحِيَتْ باغتيابِك للنّاس**»(١).

﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾

١٤ـ يُعلَمُ من هذه الآية أنّ كلَّ إنسانٍ مسئولٌ عن أعمالِه، ولن يَحمِلَ شخصٌ أوزارَ شخصٍ آخرَ يومَ القيامة، بمعنى: أنّ كلَّ شخصٍ سيُثابُ على حسَناتِه، ويُعاقَبُ على سيّئاتِه وضلالِه الذي اختارَه لنفسِه.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾

١٥ـ سنةُ اللهِ تعالى أن يُعرِّفَ كلَّ قومٍ أولًا بالهدايةِ عن طريقِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، أو عن طريقِ مَن ينُوبونَ عنهم، ومن يختارُ الضَّلالَ بعدَ ذلك عن عَمْد يعاقبُه، أمّا من لم تَبلُغْه رسالةُ الله تعالى، فإنّ العقلَ يقتضي أنه لا يستحِقُّ العذابَ، ولكنّ الحقيقةَ لا يَعلَمُها تمامَ العلم إلّا اللهُ تعالى(٢).

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾

١٦ـ عندَما يُفسِدُ أهلُ قريةٍ ما ويَطْغَوْنَ في الأرض، فإنّ اللهَ تعالى لا يُنزِلُ العذابَ عليهم فورًا، وإنّما يُمهِلُهم، ويُبلِّغُ رسالةَ الهداية إلى الأغنياءِ وأصحابِ النفوذِ في هذه القرية بدايةً عن طريقِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام أو مَن ينُوبونَ عنهم، حتى يُقلِّدَهم عامّةُ الناس ويهتدوا، ولكنْ إن عصَى هؤلاء وتكبّروا وطَغَوْا، وأصَرُّوا على هذا برَغْم ما سَبَق، وَجَب نزولُ العذابِ الإلهيِّ عليهم، واللهُ تعالى يدمِّرُ هذه القريةَ ويُهلكُها حين يشاء.

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) «ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل، والله أعلم». تفسير القرطبي.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الأغنياءَ وأصحابَ النُّفوذ يجبُ أن يكونوا أولَ من يخشَى اللهَ تعالى ويخافُه؛ لأنّ اللهَ تعالى أَنْعم عليهم أكثرَ من غيرِهم من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ فإنّ عامّةَ الناس يقلِّدونَهم، ولهذا إن كانت أعمالُ الأغنياءِ طيِّبةً، فإنّ أعمالَ عامّةِ الناس تكونُ طيِّبةً أيضًا، وإن أساءوا أساءَ عامّةُ الناسِ كذلك.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

١٧- سُنّةُ اللهِ تعالى أنّ الأقوامَ التي تُصرُّ على العِصيان والفسادِ برَغْم دعوةِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام لهم، سيأتي عليهم يومٌ - في نهايةِ الأمر - يُهلِكُهم، ومِثالُ قوم سيِّدِنا نوح عليه السَّلام وقوم عادٍ وثمُودَ أمامَنا، كما أنّ اللهَ تعالى لا يُهلِكُ أحدًا بغيرِ سبب، وهو يَعلَمُ تمامَ العلم أعمالَ عبادِه، ويعاقبُهم طبقًا لما يرتكبونَ من جُرمٍ.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾

١٨- الذي يَطلُبُ الدُّنيا فقطْ ليس من الضَّروريِّ أن يُعطاها بناءً على طلبِه، وإنّما يُعطاها فقطْ لأنّ اللهَ تعالى يريدُ أن يُعطيَها له، وبالقَدْر الذي يريدُه سبحانه وتعالى، لكنّه يستحِقُّ جهنَّمَ فقطْ لأنه طلَبَ الدُّنيا وغَفَل عن الآخِرة، وسوف يُلقَى به في جهنَّم يومَ القيامة ذليلًا صاغرًا محتقَرًا.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

١٩- الذي يُفضِّلُ الآخرةَ في مقابِل الدنيا، ويحاولُ قَدْرَ استطاعتِه بإيمانِه أن يكونَ في الآخِرة من المفلحِين، فإنّ اللهَ تعالى يَقبَلُ محاولةَ أمثالِ هؤلاء.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

٢٠- اللهُ تعالى يُعطي كلَّ فردٍ في هذه الدُّنيا رزقَه، سواءٌ كان مؤمنًا أم كافرًا،

وسواءٌ كان طالبَ دُنيا أم طالبَ آخِرة، وبابُ النِّعم الدُّنيويّة ليس حِكرًا على أحدٍ بعَيْنِه، وإنّما يصلُ إليه كلٌّ بقَدْر محاولتِه، أمّا نِعَمُ الآخرةِ فلا ينالُها إلّا أولئك السُّعداءُ المؤمنونَ الذين عَمِلوا الصالحات.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

٢١ـ فَضَّل اللهُ تعالى بعضَ الناس في هذه الدُّنيا على البعضِ الآخَر لحِكمةٍ عنده، ولكنْ في الآخِرةِ سيكونُ البعضُ أفضَلَ من البعضِ الآخَر بآلافِ الدَّرجات، بل بدرجاتٍ لا تُحصَى، إلى أن يَسعَدَ أهلُ الإيمانِ بربيع الجنَّة، ويَصلَى العُصاةُ نارَ جهنَّم.

وفي هذه الآيةِ ترغيبٌ للإنسانِ أنه كما يحاولُ في هذه الدُّنيا ليتقدَّمَ على غيره، عليه أن يحاولَ أيضًا من أَجْل التقدُّم على الآخَرينَ في الآخِرة؛ لأنّ الفرقَ بينَ الدّرجاتِ في الآخِرة يكونُ شاسعًا للغاية.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾

٢٢ـ لا يَليقُ بالسيِّدِ الإنسان ـ وهو أشرفُ المخلوقات ـ أن يَعبُدَ أحدًا آخَرَ معَ الله تعالى، ومَن يُشركْ بالله سيكونُ في الآخِرةِ ذليلًا مُهانًا لا عونَ له ولا سَنَد.

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

٢٣ـ في هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى بحُسن معاملةِ الوالدَيْن، وجَعَلَها في المرتَبة الثانية بعدَ عبادتِه، ومنه تتَّضحُ أهميّةُ خدمةِ الوالدَيْنِ وطاعتِهما.

الخالقُ الحقيقيُّ للإنسان هو اللهُ تعالى لا شكَّ في ذلك، لكنّ السببَ الظاهريَّ لمجيئه في هذه الحياةِ هو الوالدان، وبنفسِ الطريقة فإنّ المُربِّيَ الحقيقيَّ للإنسانِ هو اللهُ تعالى أيضًا، ولكنّ السببَ الظاهريَّ في هذه التربية هو الوالدانِ اللذانِ لا يَأْلُوانِ جُهدًا في العمل من أَجْل خيرِ الأبناء، رَغْم المصاعبِ والمشكلات، ولهذا يكونُ من حقِّهما أن يعملَ الأولادُ بجِدٍّ واجتهاد على خدمتِهما، وأن لا يقولوا لأحدِهما: «أُفٍّ»، وإنما يتحدَّثونَ إليهما بكلِّ تواضُع واحترام، ويَدْعُونَ اللهَ لهما دائمًا أنْ يا ربِّ، ارحَمْ والدَيَّ كما رَبَّياني في طفولتي صغيرًا برحمةٍ كبيرةٍ منهما.

حقوق الوالدين وفضلهما:

١ـ عن عبدِ الله بن عَمْرٍو رضي اللهُ عنهما، قال: قال رجلٌ للنّبيّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: أُجاهدُ؟ قال: «أَلَكَ أبوانِ؟»، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهِدْ»[١]، وطالما لم يكنِ الجهادُ فَرْضَ عَيْن لا يجوزُ للأبناءِ المشاركةُ في الجهادِ بغيرِ إذْنِ والدِيهم.

٢ـ عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ما مِن ولدٍ بارٍّ ينظرُ إلى والدَيْه نظرةَ رحمةٍ إلّا كَتَب اللهُ له بكلِّ نظرةٍ حَجّةً مبرورةً»، قالوا: وإن نَظَر كلَّ يومٍ مائةَ مرّةٍ؟ قال: «نعَمْ، اللهُ أكبرُ وأطيب»[٢].

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٥٩٧٢.

(٢) مشكاة المصابيح، باب البر، الفصل الثالث.

٣ـ عن ابنِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «نومُك على السَّرير بِرًّا بوالدَيْك تُضحِكُهما ويُضحِكانِك أفضَلُ من جهادِك بالسَّيف في سبيل الله عزَّ وجلّ»(١).

٤ـ عن مالكِ بن رَبيعةَ رضي اللهُ عنه، قال: بينَما نحن عندَ النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم إذ جاءه رجلٌ من بني سَلِمةَ فقال: يا رسولَ الله، أبقيَ من برِّ أبوَيَّ شيءٌ أَبرُّهما به من بعدِ موتِهما؟ قال: «نعَمْ، الصّلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإيفاءٌ بعهودِهما من بعدِ موتِهما، وإكرامُ صديقِهما، وصِلةُ الرّحم الّتي لا توصَلُ إلّا بهما»(٢).

٥ـ عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ العبدَ لَيموتُ والداهُ أو أحدُهما وإنّه لهما لَعاقٌّ، فلا يزالُ يدعو لهما ويستغفرُ لهما حتّى يَكتُبَه اللهُ بارًّا»(٣).

٦ـ عن محمّدِ بن النُّعمانِ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «مَن زار قبرَ والدَيْه أو أحدِهما في كلِّ جمُعةٍ مرّةً غَفَر اللهُ له وكُتِب بَرًّا»(٤).

٧ـ قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «لا يَرى وَجْهي (يومَ القيامة) ثلاثةُ أقوامٍ، أحدُها: العاقُّ لوالدَيْه، والثّاني: تاركُ سُنّتي والثّالث: مَن ذُكِرتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليّ»(٥).

٨ ـ عن هشام بن عُروة، أنّ أبا هريرةَ رضي اللهُ عنه أبصَر رجُلَيْن، فقال لأحدِهما: ما هذا منك؟ فقال: أبي، فقال: لا تُسمِّه باسمِه، ولا تمشِ أمامَه، ولا تجلسْ قبلَه»(٦).

---

(١) تفسير الدر المنثور.

(٢) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٢ برقم ٣٦٦٤.

(٣) مشكاة المصابيح، باب البر، الفصل الثالث.

(٤) مشكاة المصابيح، باب زيارة القبور، الفصل الثالث.

(٥) تفسير روح البيان، سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٥٦.

(٦) الإمام البخاري، الأدب المفرد، ٢٢.

٩ـ عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «الجنّةُ تحتَ أقدام الأُمّهات»[١].

١٠ـ عن بُرَيْدةَ رضي اللهُ عنه، أن رجُلًا كان في الطَّوافِ حاملًا أُمَّه، فسأل النبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلم: هل أدَّيتُ حقَّها؟ قال: «لا، ولا بَزْكةٍ واحدةٍ (طَلْقةٍ واحدةٍ)»[٢].

١١ـ عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنهما، قلتُ: قَدِمَتْ علَيّ أُمّي وهي مُشرِكةٌ في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فاستَفْتَيْتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم، قلت: إنّ أُمّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ، أفأَصِلُ أُمّي؟ «قال: نعَمْ، صِلي أُمَّكِ»[٣].

١٢ـ «حُكِيَ أنّ رجُلًا جاء إلى الأستاذِ أبي إسحاقَ فقال: رأيتُ البارحةَ في المنام أنّ لحيَتك مُرصَّعةٌ بالجواهرِ واليواقيت، فقال: صَدَقتَ، فإنّي البارحةَ مسحتُ لحيتي تحتَ قدم والدتي قبلَ أن نِمتُ، فهذا من ذاك. ويباشرُ ابنُ إسحاقَ خِدمتَها بيدِه ولا يُفوِّضُها إلى غيرِه؛ لأنه ليس بعارٍ للرجُل أن يَخدُمَ معلِّمَه وأبوَيْه وسُلطانَه وضيفَه ولا يؤمَّه للصّلاة وإن كان أفقَه منه أي: أعلمَ بالفقه من الأبِ، ولا يمشيَ أمامَهما إلّا أن يكونَ لإماطةِ الأذى عن الطريقِ، ولا يتصَدَّرَ عليهما في المجلس، ولا يَسبِقَ عليهما في شيءٍ أيْ: في الأكلِ والشُّرب والجلوسِ والكلام وغيرِ ذلك»[٤]، وراجعْ في ذلك الحاشيةَ رقم **٥١** من سورة النِّساء (**٤**).

---

(١) كنز العمال، برقم **٤٥٤٣٩**.

(٢) مجمع الزوائد، ٨: ١٣٧.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب **٣** برقم **٢٦٢٠**.

(٤) تفسير روح البيان.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾

٢٤ـ يعني: العاطفةُ التي تُكِنُّونَها في قلوبِكم لوالدِيكم، سواءٌ كانت حسنةً أم سيئة، اللهُ تعالى يعلَمُها تمامَ العلم، ولهذا فإنّه إذا كان أحَدُنا يُقصِّرُ في خِدمة والدَيْه وطاعتِهما من قبلُ، فعليه الآنَ التوبةُ إلى الله، وأن يكونَ صالحًا؛ لأنّ مَن يتوبُ إلى الله بصِدق من قلبِه يغفرُ اللهُ له.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

٢٥ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ مساعدةَ الأقاربِ الفقراءِ والمساكينِ وعابري السَّبيل المحتاجينَ ليس إحسانًا عليهم ولا منّةً، وإنما جَعَل اللهُ تعالى في مالِ الأغنياءِ حقًّا لهؤلاء الفقراء، ولذا على الأغنياءِ أن يفهَموا أنّ هذه المساعدةَ فرضٌ عليهم، وأن يُساعدوا الفقراءَ.

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾

٢٦ـ المالُ فضْلٌ من الله تعالى وإحسانٌ منه، وتضييعُه أو إنفاقُه فيما لا يفيدُ، أو إنفاقُه في معصيةِ الله تعالى يَدخُلُ كلُّه في باب التبذير، وقد مَنَع اللهُ من التبذير، وهو عملٌ مذموم بحيثُ أنّ مرتكبَه يُعَدُّ أخًا للشيطان، وكأنه كما أنّ الشيطانَ جاحدٌ فإنّ الإنسانَ الذي يُنفقُ المالَ فيما يُغضبُ اللهَ تعالى جاحدٌ أيضًا.

«قال عثمانُ بن الأسوَد: كنتُ أَطُوفُ في المساجدِ معَ مجاهدٍ حولَ الكعبة، فرَفَع رأسَه إلى أبي قُبَيسٍ وقال: لو أنّ رجلًا أنفقَ مِثلَ هذا في طاعة الله لم يكنْ من المُسرِفين، ولو أنفقَ درهمًا واحدًا في معصيةِ الله كان من المُسرِفين. وأنفقَ بعضُهم نفقةً في خيرٍ فأكثر، فقيل له: لا خيرَ في السَّرَف، فقال: لا سَرَفَ في الخير»[1].

---

(١) التفسير الكبير.

أي أنّ شخصًا أنفقَ مالًا كثيرًا في عمَلٍ من أعمالِ الخير، وقيل له: إنه لا خيرَ في التبذير، فقال: لا تبذيرَ في الخير[1]، يعني: أنه مهما تُنفقْ في طاعةِ الله تعالى، فإنه لا يُعَدُّ تبذيرًا.

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴾

٢٧ـ حين يسألُك الأقاربُ الفقراءُ والمساكينُ وعابرو السَّبيل المحتاجونَ العَوْنَ والمدَدَ، ولم تكنْ أحوالُك الماديّةُ ميسَّرةً إذْ ذاك بحيث تستطيعُ مساعدتَهم، وكنتَ أنت أيضًا من الذين يأمُلونَ ـ في فَضْل اللهِ ورحمتِه ـ أن يُيسِّرَ أحوالَك في القريب، فعليكَ أن تعتذرَ بكلِّ احترام ولِين من الأقاربِ الفقراءِ والمساكين، وأن تَعِدَهم أنه ما إنْ تتيسَّرْ أحوالُك الماديّةُ فسوف تساعدُهم، وذلك حتى يَعلَموا بأنك أيضًا مضْطَرٌّ مِثلُهم، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ لا تنكسرُ قلوبُهم.

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾

٢٨ـ في الآياتِ السابقة رَغَّب في الإنفاقِ، وفي هذه الآية علَّمنا آدابَ الإنفاق، بمعنى: لا تَبخَلوا إلى الحدِّ الذي لا تؤدُّونَ فيه حقوقَ العباد، فيلومَكم الناسُ، ولا تُسرفوا أيضًا حتى لا ينتهيَ مالُكم، وتَضْطَرُّوا إلى سؤالِ الناس، وإنما حافِظوا على الاعتدالِ والتوازُنِ في حالةِ اليُسر وحالةِ العُسرِ أيضًا.

بعضُ الأحاديثِ المتعلِّقةِ بالكرَم والبُخل:

١ـ عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ ـ رضي اللهُ عنها ـ قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: «أنفقي ـ أو انْضَحي أو انفَحي ـ ولا تُحصي فيُحصيَ اللهُ عليكِ»[2].

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) مسلم، برقم ١٠٢٩.

٢ـ عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من يوم يصبحُ العبادُ فيه إلّا مَلَكانِ ينزِلانِ فيقولُ أحدُهما: اللّهمّ أَعْطِ مُنفِقًا خَلَفًا. ويقولُ الآخَر: اللّهُمَّ أَعْطِ مُمسِكًا تَلَفًا»[١].

٣ـ قال النبيُّ ﷺ: «كلوا واشرَبوا والبَسوا وتصَدَّقوا، في غير إسرافٍ ولا مَخْيَلةٍ». وقال ابنُ عباسٍ: كلْ ما شئتَ والبَسْ ما شئتَ ما أخطأَتْك اثنتانِ: سَرَفٌ أو مَخْيَلة[٢].

٤ـ عن سهلٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنّ امرأةً جاءتِ النّبيَّ ﷺ ببُردةٍ منسوجةٍ فيها حاشيتُها ... «أتدرُونَ ما البُردةُ؟»، قالوا: الشَّمْلة، قال: «نعم». قالت: نسجتُها بيدي، فجئتُ لِأكسُوكها. فأخَذها النّبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، فخَرَج إلينا وإنّها إزارُه، فحسَّنها فلانٌ، فقال: اكسُنيها، ما أحسَنَها! قال القومُ: ما أحسنتَ، لبِسَها النّبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، ثمّ سألتَه وعَلِمتَ أنّه لا يَرُدُّ. قال: إنّي واللهِ ما سألتُه لألبَسَها، إنّما سألتُه لتكونَ كفَني. قال سَهلٌ: فكانت كفَنَه[٣]، ويقولُ العلاّمةُ ابنُ حَجَر العَسْقَلانيُّ في شَرْح هذا الحديث: **«وقال ابنُ بَطّال: فيه جوازُ إعدادِ الشيءِ قبلَ وقتِ الحاجة إليه، قال: وقد حَفَر جماعةٌ من الصّالحينَ قبورَهم قبلَ الموت»[٤].**

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

٢٩ـ يجعَلُ اللهُ تعالى سَعةً في الرِّزق لمن يشاء، ومن يشاءُ ضيَّق عليه وسائلَ الرِّزق، وسَعةُ الرِّزق وضِيقُه متوقِّفٌ على مشيئةِ الله تعالى، ولا يَعلَمُ الحِكمةَ منها تمامَ العِلم إلّا هو، ولكنْ ليس معنى هذا أنّ اللهَ يكونُ راضيًا عمَّن لدَيْه سَعةٌ في

---

(١) مسلم، برقم ١٠١٠.

(٢) البخاري، كتاب اللباس، باب ١.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٢٩ برقم ١٢٧٧.

(٤) فتح الباري، ٣: ١٤٤.

الرِّزق، وأنه غاضبٌ عمَّن لدَيْه ضِيقٌ في الرِّزق، وإنما يرضَى اللهُ تعالى عمَّن يُطيعُه، سواءٌ كان غنيًّا أم فقيرًا.

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾

٣٠ـ كان أكثرُ أهل الجزيرةِ العربيّة من الفقراءِ والبَدْو الرُّحَّل، وكانوا يعتقدونَ أنه: كيف يستطيعونَ توفيرَ الطعامَ لأولادِهم إذا كانوا يعانونَ صُعوباتٍ جَمّةً في توفيرِ الطّعام لأنفسِهم؟ ولهذا كان كثيرٌ من الناس يقتُلونَ أولادَهم بسببِ هذا الفقرِ الاقتصاديِّ، وفي هذه الآية يُخبِرُهم اللهُ تعالى أنّ القتلَ بغير حقٍّ ذنبٌ عظيم، ولا تقتُلوا أولادَكم خَشْيةَ الفقر؛ لأنّ الرازقَ الحقيقيَّ للمخلوقاتِ كلِّها هو اللهُ تعالى، وهو الذي سيرزُق أولادَكم أيضًا كما يرزُقُكم أنتم.

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

٣١ـ الزنا ذنبُ عظيم، فلا تقرَبوه، أي: تجنَّبوا الأسبابَ التي تؤدِّي إلى الزِّنا؛

لأنّ هذا فاحشةٌ إذا ارتكَبَها رجلٌ متزوِّجٌ أو امرأةٌ متزوِّجة لَوجبَ قتلُهما رجمًا بالحجارة، حتى يُصبحا عِبرةً لمن يَعتبِر.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الزِّنا أشدُّ جُرمًا من القتلِ أيضًا؛ لأنّ عقابَ القتلِ هو القتل، ولكنّ عقابَ الزِّنا هو الرَّجْم، وللبُعد عن الزِّنا راجعْ نصيحةَ النبيِّ ﷺ في الحاشية رقم **٩١** من سُورة النَّحل (١٦).

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

٣٢ـ قتلُ إنسانٍ بغيرِ سببٍ حرامٌ، ولكنْ يجوزُ قتلُ القاتل قِصَاصًا للمقتولِ بعدَ أن يَحكُمَ حاكمُ الوقتِ بذلك، وقد أكَّد الإسلامُ على الحُكّام أن يساعدوا وَرَثةَ المقتول في القِصَاص له، ولهذا يجبُ على وَرَثةِ المقتول شُكرَ الله تعالى، وأن لا يتجاوزوا الحدَّ في القِصَاص، بمعنى: أنه يجبُ لزومًا أن لا نَقتُلَ أكثرَ من واحدٍ في قتلِ واحد، أو أن نَقتُلَ مَن لم يرتكبْ جريمةَ القتل، فهذا كلُّه غيرُ جائز.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾

٣٣ـ اليتيمُ يقالُ لذلك: الطِّفل غيرِ البالغ الذي مات أبوه، إذ إن هذا المسكينَ يكونُ متألِّمًا للغاية وضعيفًا وغيرَ مُدركٍ بعدُ، ولذا ينبغي الاحتياطُ بشكل أكبرَ فيما يتعلَّقُ بمالِه، فعليكُم أن تَحفَظوا عليه مالَه، أو أن تستثمروه في تجارةٍ تضيفُ إليه وتزيدُه، وحين يَصِلُ الطِّفلُ إلى مرحلةِ الشَّباب، ويستطيعُ أن يُدرِكَ ما ينفَعُه وما يضُرُّه، عندَئذٍ سلِّموه أموالَه بكلِّ أمانة، وأَوْفُوا بوعدِكم، سواءٌ كان هذا الوعدُ ليتيم أم لغيرِه؛ لأنّكم ستُسألونَ يومَ القيامة عن هذه الوعود.

١ـ عن أبي بَرْزةَ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يُبعَثُ يومَ القيامة قومٌ من قبورِهم تأجَّجُ أفواهُهم نارًا»، فقيل: من هم يا رسولَ الله؟ قال: «ألم تَرَ أنّ الله تعالى يقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ **الآية**»[1].

٢ـ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ قال: قلنا: يا رسولَ الله، حدِّثنا ما رأيتَ ليلةَ الإسراءِ بك، قال: انطُلق بي إلى خَلْقٍ من خَلْق الله كثيرٍ، رجالٍ كلُّ رجلٍ منهم له مِشفَرانِ كمِشفَر البعير، وهو موكَّلٌ بهم، رجالٍ يَفُكُّون لَحْيَ أحدِهم، ثمّ يُجاء بصخرةٍ من نارٍ فتُقذَفُ في في أحدِهم حتّى تَخرُجَ من أسفلِه، وله خُوار وصُراخ، فقلت: يا جِبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الّذين يأكلونَ أموالَ اليتامَى ظُلمًا ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾»[2]، ولمزيدٍ من التفصيل عن اليتيم راجعِ الحاشيةَ رقم ٤ من سُورة النِّساء (٤).

﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾

٣٤ـ لا تُطفِّفوا في الكَيْل والميزان، فهو خيرٌ لكم، إذ بهذه الطريقةِ تزدادُ ثقتُكم وتجارتُكم، ويكونُ لكم الثوابُ في الآخِرة أيضًا، أمّا إنِ ارتكبتُم الغِشَّ في الكَيْل والميزان، فسوف يَفقِدُ الناسُ الثقةَ فيكم، ولن تكونَ تجارتُكم رابحةً.

١ـ عن أبي سعيدٍ، عن النّبيِّ ﷺ، قال: «التّاجرُ الصَّدوقُ الأمينُ مع النّبيّينَ والصّدِّيقينَ والشّهداء»[3].

٢ـ عن ابن عمر، قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «التّاجرُ الأمينُ الصّدُوقُ المسلم معَ الشّهداءِ يومَ القيامة»[4].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، سورة النساء (٤): الآية ١٠، برقم ٤٨٨١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، الموضع السابق، برقم ٤٨٨٤.

(٣) الترمذي، أبواب البيوع، باب ٤ برقم ١٢٠٩.

(٤) ابن ماجه، أبواب التجارات، باب ١ برقم ٢١٣٩.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

٣٥ـ يعني: الشيءُ الذي لا تَعلَمونَه إذا اتَّبعتُموه فسوف تُسألُ عنه آذانُكم وعيونُكم وقلوبُكم يومَ القيامة؛ هل رأيتُم هذا الشيءَ بأعيُنِكم وسمِعتُموه بآذانِكم؟ فماذا سيكونُ جوابُكم في ذلك الوقت؟ لهذا عليكم تجنُّبُ تقليدِ واتِّباع الأشياءِ التي لا تعرفونَها، واتَّبعوا القرآنَ المَجِيدَ وهو الحقّ.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾

٣٦ـ لا يليقُ بالإنسانِ أن يمشيَ بغُرورٍ كالمتكبِّرين؛ لأنه لا طاقةَ في قدمَيْه بحيث يمكنُه خَرْقُ الأرض وشقُّها، ولا رأسُه مرتفعٌ بحيث يُطاولُ الجبالَ، ولهذا عليه أن يختارَ طريقَ التواضُع، وهو الأفضَلُ له.

عن عُمرَ قال وهو على المِنبَر: يا أيُّها الناس، فإني سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من تواضَعَ لله رَفَعَه الله، فهو في نفسِه صغير، وفي أعيُن النّاس كبير، ومن تكبَّر وَضَعَه الله، فهو في أعيُن النّاسِ صغير، وفي نفسِه كبير، حتّى لَهو أهوَنُ عليهم من كلبٍ أو خنزيرٍ، واللهُ أعلم»[١].

ويَنقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسير هذه الآية بيتَيْن من الشِّعر لشاعر عربيٍّ هما:

*** ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلّا تواضُعًا — فكم تحتَها قومٌ هُمو منكَ أرفَعُ**

*** وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعةٍ — فكم ماتَ من قومٍ هُمو منكَ أمنَعُ**[٢]

ولمزيد من التفصيل عن ذمِّ التكبُّر راجعِ الحاشيةَ رقم **١٤** من سُورة النَّحل **(١٦)**.

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) تفسير القرطبي.

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾

٣٧- لا يحبُّ اللهُ تعالى ارتكابَ الأمورِ التي مَنَع منها في الآياتِ السابقة.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾

٣٨- الأحكامُ المليئةُ بالعِلم والحِكمة والتي أَنْزلَها اللهُ تعالى في هذه الآيات، بدَأَت بحُكم التوحيد في الآية رقم **٢٢**، وبَلَغَت نهايتَها في هذه الآية بحُكم التوحيدِ أيضًا، بمعنى: ألّا تُشركوا معَ الله أحدًا في العبادة، وإلّا أصابَكم الخِزْيُ والذّلُّ، وأُلقيتُم في جهنَّمَ مدحورينَ أذِلّاء.

ويُعلَمُ منه أنّ التوحيدَ هو أصلُ الأحكام الإسلاميّةِ كلِّها، والعمَلُ المقبولُ هو ذلك الذي يبدَأُ بالتوحيدِ وينتهي كذلك بالتوحيد.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

٣٩- كان أكثرُ العربِ يكرَهونَ البناتِ، في حينَ أنّ بعضَ القبائل كانت تدَّعي أنّ الملائكةَ بناتُ الله، وفي هذه الآية يُنبِّهُهم اللهُ تعالى إلى أنّ هذه حماقةٌ كبرى، وأمرٌ خلافُ الأدب، أن تُحِبُّوا لأنفسِكم البنينَ، وتُثبتوا لله تعالى البناتِ، معَ أنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ أصلًا عن الوَلَد.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ

وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

٤٠ـ بيَّن اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم العقائدَ والأعمالَ الإسلاميّةَ بطُرُق وأساليبَ مختلفة، حتى يتفكَّر كلُّ إنسانٍ في القرآنِ الكريم طبقًا لذَوْقِه ومُيولِه، ويحصُلَ منه على النَّصيحة، لكنّ المشركينَ بَلَغوا المدى في تعصُّبِهم، بحيثُ أنّ شِركَهم كان يزدادُ كلَّما سَمِعوا كلامَ التوحيد، فيغرَقونَ في مزيدٍ من الكَيْد للإسلام ومخالفتِه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

٤١ـ لو كان معَ الله آلهةٌ أخرى لَاجتَمَعوا سويًّا وتحَدَّوا اللهَ تعالى مالكَ العرش، وحاولوا التغلُّبَ عليه، ولكنّ هذا لا أصلَ له في الحقيقة.

ويُعلَمُ منه أنّ اللهَ تعالى واحدٌ، واللهُ تعالى منزَّهٌ ـ في الحقيقة ـ عن كلِّ الأشياءِ التي يُشرِكُها المشركونَ معَه وأعلى منها وأعظم.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

٤٢ـ كلُّ شيءٍ في السَّماءِ والأرضِ وما بينَهما يحمَدُ اللهَ تعالى ويُسبِّحُه بأسلوبِه وطريقتِه، ولأنّنا لا نفهَمُ لُغتَها، أو لا نسمَعُ أصواتَها، فإنّنا لا نفهَمُ تسبيحَها،

وبنفسِ الطريقة هناك ملائكةٌ معنا في كلِّ وقت، ولكنْ لأنّنا عاجزونَ عن أنْ نراهم أو أن نسمعَ كلامَهم، لهذا لا نستطيعُ أن نسمعَ تسبيحَهم أيضًا، إلّا أنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام بمعجِزاتِهم، وأولياءَ الله الصّالحينَ بكراماتِهم، يستطيعونَ سَماعَ هذه التسبيحاتِ مثلَما يتَّضحُ ممّا يلي:

١- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «**ولقد كنّا نسمَعُ تسبيحَ الطّعام وهو يؤكَلُ**»[١].

٢- عن جابرِ بن سَمُرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّي لَأعرفُ حَجَرًا بمكّةَ كان يُسلِّمُ عليَّ قبْلَ أن أُبعثَ، إنّي لَأعرفُهُ الآن»[٢].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

٤٣- حين كان النبيُّ ﷺ يقرأُ القرآنَ، ويحاولُ المشركونَ الاقترابَ منه لإيذائه، فإنّ اللهَ تعالى كان يَحُولُ بينَ الرَّسول ﷺ والمشركينَ بحائل غيرِ مَرْئيٍّ، بحيث لا يستطيعونَ رؤيتَه ﷺ، ويَنقُلُ العلّامةُ البَغَويُّ في تفسيرِ هذه الآيَةَ روايةً لسعيدِ بن جُبَير تقولُ: **أنّه لمّا نَزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ جاءتِ امرأةُ أبي لهبٍ ومعَها حَجَر، والنّبيُّ ﷺ معَ أبي بكرٍ، فلم ترَهُ، فقالت لأبي بكرٍ: أين صاحبُك؟ لقد بَلَغَني أنّه هَجاني؟ فقال: واللهِ ما ينطقُ بالشِّعر ولا يقولُه، فرجَعَت وهي تقولُ: قد كنتُ جئتُ بهذا الحَجَر لأرضَخَ رأسَه، فقال أبو بكرٍ: ما رأتْك يا رسولَ الله، قال: «لا، لم يَزلْ مَلَكٌ بيني وبينَها يستُرني»**[٣].

---

(١) البخاري، برقم **٣٥٧٩**.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب **١** برقم **٢٢٧٧**.

(٣) تفسير البغوي وتفسير الخازن.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾

٤٤ـ كان المشركونَ يَكرَهونَ التوحيدَ لدرجةِ أنهم ما إنْ يسمَعوا اسمَ التوحيد حتى كانوا يوَلُّونَ هاربين، بَلْهَ أن يسمَعوا الكلامَ عنه ويتدبَّروا فيه. ولمزيدٍ من الشرح لهذه الآية راجع الحاشيةَ رقم **٢٤** من سُورة الأنعام (٦).

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

٤٥ـ عندَما كان المشركونَ يسمَعونَ القرآنَ الكريم، لم يكونوا يقصِدونَ إلى فَهْمِه، وإنما كانوا يسمَعونَه للبحثِ عن نَقْص فيه أو عَيْب، ثم يتهامَسونَ فيما بينَهم، ومن يَقبَل الإسلامَ منهم يقولون: إنه سِحر، ولهذا يتكلَّمُ بما يخالفُ عقائدَ آبائنا وأجدادِنا، فلا تتَّبعوه.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

٤٦ـ ما أعجَبَ هؤلاءِ المشركين! في البداية كانوا يقولونَ عن النبيِّ ﷺ إنّه الصّادقُ الأمين، ثم خالَفوه بعدَ ذلك بسببِ دعوةِ التوحيد، فكانوا يقولونَ عنه أحيانًا: إنه لَمجنون، وأحيانًا أخرى يقولون: إنه شاعرٌ، وأحيانًا ثالثةً يقولون: إنه ساحرٌ، وأحيانًا رابعةً يقولون: لقد سُحِر، ولقد بَلَغ هؤلاءِ الأشرارُ المُسيئونَ في ضلالِهم حدًّا لا يمكنُ أن يعودوا معَه إلى الطريقِ المستقيم.

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

٤٧ـ قال المشركونَ: إنّنا لا نفهَمُ كيف سيمكنُ إحياؤنا من جديدٍ بعدَ أن نموتَ وتبلَى عظامُنا وتتفرَّقَ وتصيرَ تُرابًا؟

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾

٤٨- فأجابَ اللهُ تعالى المشركينَ بأنّ الترابَ على أيةِ حال شيءٌ ليّن، لكنْ حتّى إنْ صِرتُم بعدَ موتِكم حجارةً، أو حديدًا، أو حتى شيئًا أقسَى من ذلك، مما تعتقدونَ أنه من غيرِ الممكنِ أن تكونَ فيه حياة، فاللهُ تعالى - برَغْم ذلك - قادرٌ على كلِّ شيء، وكما خَلَقَكم أولَ مرةٍ من طِين أو من نُطفة، فإنه يستطيعُ كذلك أن يُحيِيَكم من جديد، وعليه سيقولُ المشركونَ بمزيدٍ من التعجُّب: إذًا، متى يأتي ذلك اليومُ؟ فيقولُ النبيُّ ﷺ: الوقتُ الحقيقيُّ للقيامةِ لا يَعلَمُه تمامَ العِلم سوى الله تعالى، ولكنّ القيامةَ على أيِّ حال اقترَبت؛ لأنّ وقتًا كبيرًا قد مضى من عمُرِ هذه الدنيا، ولم يبقَ إلّا وقتٌ قليل، كما أنّني النبيُّ الآخِر، ولن يأتيَ نبيٌّ بعدي، وإنما ستقومُ السّاعةُ.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

٤٩- بعدَ أن ينهضَ الناس من قبورِهم أحياءً يومَ القيـامة، سينادي مُنادٍ من قِبَل اللهِ تعالى للحساب، وسيقومُ المسلمونَ وغيرُ المسلمينَ بتنفيذِ الأمرِ ويَمثُلونَ في حضرةِ الله تعالى؛ لأنّ غيرَ المسلمينَ في ذلك اليوم سيتيقّنونَ برؤيةِ قُدرةِ الله تعالى من أنّهم كانوا - بالفعل - على خطأٍ، وأنّ القادرَ المطلَقَ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالى وليس سواه، كما أنهم سينظُرونَ إلى هذه الحياة الدنيا وحياةِ البرزَخ على أنّها قليلةٌ للغاية بسببِ هَيْبة يوم القيامة، والواقعُ أيضًا أنّ مدةَ الحياة الدنيا وحياةِ البَرْزخ في مقابلِ الحياةِ الآخِرة قليلةٌ جدًّا؛ لأنّ الدنيا فانيةٌ، والآخِرةُ دائمةٌ خالدة.

يقولُ سيّدُنا سعيدُ بن جُبَير رضي اللهُ عنه: «**تَخرُج الكُفّارُ من قبورِهم وهم يقولون: سبحانَك وبحَمْدِك، ولكنْ لا ينفعُهم اعترافُ ذلك اليوم**»[1].

---

(١) تفسير القرطبي.

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

٥٠ـ في هذه الآيةِ تربيةٌ أخلاقيَّةٌ للمسلمين، بأنّهم سواءٌ كانوا يتحدَّثونَ معَ المسلمين أمثالِهم، أم معَ غيرِ المسلمين، عليهم في الحالتَيْن مراعاةُ مقتضَى التحضُّر وحُسن الأخلاق، وأنْ لا يَجْرَحوا قلبَ أحدٍ دونَ مبرِّرٍ؛ لأنّ الشّيطانَ يستغلُّ بشكلٍ كبير ولو زَلّةً صغيرةً من اللِّسان، فيُحدِثُ بينَكم ـ من خلالِها ـ الفسادَ، ويحرِّضُ غيرَ المسلمين عليكم بشكلٍ أكبر.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

٥١ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيب ﷺ، لقد أدّيتَ حقَّ تبليغَ الرِّسالة، فإنْ أصرَّ هؤلاءِ برَغْم ذلك على شِركِهم وكُفرِهم، ولم يَرجِعوا عنه، فلا تحزَنْ ولا تغتمَّ، فأنت لستَ مسئولًا عن كُفرِهم وشِركِهم، واللهُ تعالى يَعرِفُهم تمامَ المعرفة، فإنْ قَبِلوا الإسلامَ

سيَرحمُهم اللهُ تعالى، وإن ظَلُّوا على كُفرِهم وشِركِهم فسيُعذِّبُهم اللهُ تعالى.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾

٥٢- اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، وعِلمُه محيطٌ بكلِّ شيء، وهو يَعلَمُ تمامًا مَن هو أهلٌ للنُّبوة، ولهذا فهو يختارُ من بني الإنسانِ من يَراهُ مناسبًا ويُنعِمُ عليه بمنصبِ النُّبوة، ويَمُنُّ على كلِّ نبيٍّ بما يَراهُ مناسبًا له من كُتبٍ أو صحائفَ، مثلَما أعطَى سيّدَنا داودَ عليه السّلامُ الزَّبور، وأعطَى سيّدَنا محمّدًا ﷺ القرآنَ، ثم إنّ اللهَ تعالى يفضِّلُ من يشاءُ من الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ على الآخَرين، رَغْمَ أنّ الأنبياءَ جميعًا باعتبارِ النُّبوة متساوون، ولكنْ باعتبارِ الدّرجاتِ بعضُهم أفضَلُ من بعض.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

٥٣- يقولُ العلّامةُ القُرطُبي: «**لمّا ابتُلِيَت قُريشٌ بالقَحْط** (لسبع سنوات) **وشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ، أنْزل اللهُ هذه الآيةَ، أي**: (أنّ اللهَ تعالى أمَرَ النبيَّ ﷺ أن يقولَ للمشركين أنِ) **ادْعوا الّذين تعبُدونَ من دونِه وزَعمتُم أنّهم آلهةٌ**»[1]، أي: لماذا لا تتَّجِهونَ بالشَّكوى إلى تلك الأصنام والأندادِ التي كنتُم تعبُدونَها من دونِ الله؟ ثم أخبَرَهم بنفسِه أنهم عاجِزونَ أصلًا، ولذلك لا يستطيعونَ أن يُخلّصوكم منَ المصاعبِ والمشاكل التي تواجِهونَها.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

٥٤- يعني: الملائكةَ والجنَّ المؤمنَ وبعضَ الأنبياءِ الذين كان يعبُدُهم هؤلاءِ، كلُّها ليست آلهةً، بل على العكس، إنّها تبحثُ هي الأُخرى عن وسيلةٍ

(١) تفسير القرطبي، وتفسير خزائن العرفان.

تَنالُ بها قُربَ الله تعالى ورحمتَه، ويخشَوْنَ عذابَه، ويُعلَمُ منه أنّ البحثَ عن وسيلةٍ تحقِّقُ القربَ من الله تعالى سُنّةٌ من سُنَن أولياءِ الله.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾

٥٥ـ كَتَب اللهُ في اللَّوح المحفوظِ هذا الحُكمَ، أنّ أهلَ أيِّ قريةٍ ظالمةٍ عاصيةٍ لا بدَّ وأن يَهلِكوا في يوم من الأيام إنْ عاجلًا أو آجلًا، وإن لم يَنزِلِ العذابُ عليهم قبلَ يوم القيامة، فإنّهم سيُعذَّبونَ في الآخِرة على وجهِ اليقين.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

٥٦ـ عن ابن عباس، قال: سألَ أهلُ مكّةَ النبيَّ ﷺ أن يَجعَلَ لهم الصَّفا ذَهبًا، وأن يُنحِيَ عنهم الجبالَ، فيَزرعوا، فقيل له: إن شئتَ أن نَسْتأنيَ بهم لعلَّنا نجتَني منهم، وإن شئتَ أن نؤتيَهم الذي سألوا، فإنْ كَفَروا أُهلِكوا كما أُهلِك مَن قبلَهم، قال: «بل نَسْتأني بهم»، فأنْزل اللهُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[1].

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾

٥٧ـ لم يكنْ من الصَّعبِ على اللهِ تعالى أن يُحوِّلَ جبلَ الصَّفا إلى ذَهَب، لكنّ اللهَ تعالى لم يفعَلْ ذلك؛ لأنّ الأُممَ السّابقةَ حينما كانوا يَروْنَ المعجِزاتِ التي يطلبونَها بأنفسِهم لم يكونوا يؤمنونَ، ولذلك أهلَكَهم اللهُ تعالى، ومثالُ قوم ثَمُودَ أمامَنا، إذْ أَخرج اللهُ تعالى من الصَّخرة الصَّماءِ ناقةً بناءً على طلبِهم، وكانت

---

(١) مسند أحمد، ١: ٢٥٨.

هذه الناقةُ بمثابةِ المعجِزة الواضحة، ولكنّ هؤلاءِ الظالمينَ بَدَلًا من أن يؤمنوا، قَتَلوا الناقةَ، فأتاهُم العذابُ بعدَ ثلاثةِ أيام من قَتْلِهم إياها.

وبنفسِ الطريقة إذا حَوَّل اللهُ جَبلَ الصَّفا إلى ذَهَبٍ بناءً على طلبِ كُفّار مكّةَ، فإنّهم لم يكونوا ليؤمنوا برَغْم رؤيتِهم هذه المعجزةَ، ولذلك كان لا بدَّ أنّ اللهَ مُهلِكُهم، لكنّ اللهَ تعالى كان يَعلَمُ أن بعضًا من هؤلاءِ سيؤمنونَ، أو أنّ مِن ذُرِّيتِهم وأنسالِهم من سيؤمنُ بالله ورسولِه، ولهذا لم يحقِّق اللهُ تعالى المعجزةَ بناءً على طلبِهم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾

٥٨ـ إنّ الهدفَ من الإتيانِ بالمعجِزاتِ هو أن يَرى الناسُ قُدرةِ اللهِ تعالى العظيمةَ، فيخافوا من عصيانِه، ولكنْ حيث عَلِم من البدايةِ أنّهم لن يؤمنوا حتى بعدَ أن يَروا المعجِزةَ، فإنه لا فائدةَ إذًا من الإتيانِ لهم بمعجزة.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾

٥٩ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيب ﷺ، إنّ أهلَ مكّةَ يتآمرونَ ضدَّك بكلِّ ما يملِكون، فلا تبالِ بهم، ولن يستطيعوا إيذاءك، فنحن نحفَظُك، وكلُّ هؤلاءِ جميعًا في محيطِ علمِنا وقبضةِ قُدرتِنا.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾

٦٠ـ جَعَل اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ يرى بعينَيْ رأسِه آياتِه في عالَم اليقَظةِ ليلةَ الإسراءِ والمِعراج، وكذلك شجرةُ الزَّقُّوم في جهنَّم، والتي سيأكلُ ثمارَها الملعونةَ أهلُ جهنَّم الملعونون، وهي الثمارُ التي تُشعِلُ النارَ في بطنِ مَن يتناولُها بحيث يَشعُرُ وكأنّ في بطنِه ماءً يغلي.

هذانِ المثالانِ أصبحا بمثـابةِ الابتلاءِ لضِعـاف الإيـمان؛ لأنّ إتمـامَ رحلةٍ طويلةٍ من الإسراءِ والمِعراج في عالَم اليقَظة، ووجودَ شجرةِ الزَّقُّوم الخَضْراءِ في نارِ جهنَّم التي تَحرِقُ الأحجار، أمرانِ لا يمكنُ تصديقُهما في الظاهر، لكنّ الذين يؤمنونَ بأنّ اللهَ قادرٌ مطلَق، لا يَصعُبُ عليهم الإيمانُ بكلِّ هذا.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴾

٦١ـ حين يَرى الكُفّارُ آياتِ قدرةِ الله تعالى فإنّ حقدَهم على الإسلام وبُغضَهم له يزداد، ويزدادُ معَهم عِصيانُهم وطُغيانُهم.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

٦٢- مرَّ ذِكرُ هذه القصّةِ من قبلُ عدّةَ مرّات، ويُعلَمُ منها أنّ طاعةَ أوامرِ الله تعالى بلا نقاشٍ أو جِدال إنما هو سُنّةُ الملائكة، وزَرْعُ الشُّبُهاتِ فيها هو تفكيرُ الشيطان.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

٦٣- طَلَب الشّيطانُ من الله تعالى قائلًا: لماذا فَضَّلتَ آدمَ علَيّ؟ لو أعطيتَني مُهلةً حتى يوم القيامة فسأَقْضي على إيمانِ أولادِ آدم، ولن يبقَى سوى قليلٍ من النّاس الذين لن أستطيعَ التغلُّبَ عليهم.

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾

٦٤- أعطَى اللهُ تعالى الشّيطانَ مُهلةً طويلةً طبقًا لرغبتِه هذه، يعني: أنك ستبقَى حيًّا طالما بقيَ الإنسانُ في هذه الدُّنيا، لتكونَ ابتلاءً له، وفي نفسِ الوقت نبَّه اللهُ تعالى بني الإنسانِ إلى أنّ من يتّبعُ الشيطانَ سيَدخُل جهنَّمَ معَ الشيطان.

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

٦٥- أَذِن اللهُ تعالى للشّيطانِ معَ الحياةِ الطّويلة أن يستخدمَ في إضلالِ الإنسان كلَّ أنواع الأسلحةِ المُمكنةِ له، مَثَلًا: بالنِّفاق ولَغْو الحديث، وبوَسْوَسة جيش حَوارِيِّيه من الجنِّ والبشَر، وبخَلْط الحرام بالحلال في الأموالِ والأولاد، وبالوعودِ الكاذبة، وباختصار: يستعملُ كلَّ سلاح مُتاح له، وبالرَّغْم من ذلك فإنّ عبادَ الله المقرَّبينَ لا يمكنُ للشّيطان أن يتغلَّبَ عليهم؛ لأنّ الذين يحاولونَ نَيْلَ رضا الله تعالى فإنّ اللهَ تعالى كافِيهِم.

﴿ رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

٦٦ـ من فَضْلِ اللهِ تعالى ورحمتِه أنه سَخَّر لكم ماءَ البحرِ العميق، وأنتم تحمِلونَ في السُّفُنِ بضائعَكم التِّجاريةَ لتسافروا بها إلى بلادٍ بعيدة، وتبيعوا وتشتروا وتربَحوا، ويُعلَمُ منه أنّ البحثَ عن الرِّزق الحلالِ فضلٌ من الله تعالى أيضًا، ولكنّ خَلْطَ الحرام به حرامٌ.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾

٦٧ـ حينَ تُواجِهونَ مشكلةً عصِيبةً في البحر، وتصبحونَ على يقينٍ من أنكم غارقونَ لا مَحالةَ، فإنّكم حينَئذٍ لا تَدْعونَ آلهتَكم التي ادَّعيتُموها لأنفسِكم، وإنما ترجِعونَ إلى الله تعالى، وتَعِدونَ وعدًا راسخًا بأنه إنْ نَجّاكُم اللهُ تعالى من هذا الطُّوفان، فستكونونَ من عبادِ الله الشاكرين، ولكنْ حين يُنجِيكمُ اللهُ تعالى من الطُّوفان، تَنسَوْنَ وعدَكم الذي وعَدتُم، فهل هناك جحودٌ أكبرُ من هذا؟

ويُعلَمُ من هذا أنّ بِذرةَ التوحيد موجودةٌ في الفِطرةِ الإنسانيّةَ، وحين يَحِيقُ بالإنسان وقتٌ عصِيب، وتتخلّى عنه كلُّ الوسائل الفانية، تَظهَرُ عندَئذٍ عقيدةُ التوحيد من نفسِها. ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح راجع الآيةَ رقم **١٢٢** من سُورة يونُس (١٠)، وكذا الحاشيةُ رقم **٢٣**.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾

٦٨ـلقد أصبحتُم بلا خوفٍ بعدَ الخروج من البحرِ إلى البرِّ لأنّكمُ اعتقدتُم أنكم لن تُواجِهوا مثلَ هذه المصيبةِ على البَرّ، معَ أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، وكما يستطيعُ إغراقَكم في البحر، يستطيعُ أن يعاقبَكم في البرِّ كذلك، ويَخسِفَ بكم الأرضَ، أو يُمطرَكم بحجارةٍ من عندِه فيُهلِكَكم، مثلَما حَدَث معَ بعضِ الأُمم السّابقة عليكم،

ولهذا سواءٌ كنتُم في البحرِ أم على البرِّ، عليكُم أن تخافوا من عصيانِكم لله تعالى.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾

٦٩- أَو أصبحتُم بلا خوفٍ باعتبارِ أنّكم لن تَنزِلوا البحرَ بعدَ ذلك؟ معَ أنّكم لو نزلتُموه لأيِّ طارئ يطرَأُ عليكم، وأرسَلَ اللهُ عليكم الرِّيحَ العاصفَ، وأغرَقَكم بسببِ كُفرِكم، فلن تستطيعوا أن تفعَلوا شيئًا إذْ ذاك؛ لأنه لا توجَدُ قوّةٌ في الكائناتِ كلِّها يمكنُها أن تسألَ اللهَ تعالى عما يفعَل.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

٧٠- إنّ الإمكانيّاتِ التي أَنْعم اللهُ بها على الإنسانِ من الشَّكل والصُّورة والقدِّ والقامةِ والعِلم والحِكمة، لم يُنعِمْ بمثلِها على أيِّ مخلوقٍ آخَرَ، ولهذا جَعَل اللهُ تعالى الإنسانَ خليفتَه، وأَنْعم عليه من العِلم بحيثُ سَجَد الملائكةُ للإنسان الأوّل، وقدِ استفادَ الإنسانُ من كلِّ هذه الإمكانيّاتِ الموهوبةِ له من اللهِ تعالى، وسَخَّر من خلالِها كلَّ شيء في البرِّ والبحر، وأعدَّ أشياءَ كثيرةً طاهرةً لطعامِه، ولكلِّ هذه الخصائص المميَّزة لا يَعْلو مخلوقٌ على الإنسانِ ولا يتفوَّقُ عليه.

من أفضل مخلوق؟

عندَ علماءِ الأحنافِ: الرُّسُلُ من البشَر هم أفضَلُ المخلوقاتِ، ثم الرُّسُلُ من الملائكة، ثم إنّ عامةَ الملائكةِ أفضَلُ من عامّةِ البشَر[1].

---

(١) «إن الرسل من البشر أفضل مطلقًا، ثم الرسل من الملائكة على من سواهم من البشر والملائكة، ثم عموم الملائكة على عموم البشر، وهذا ما عليه أصحاب الإمام أبي حنيفة عليه الرحمة وكثير من الشافعية والأشعرية». تفسير روح المعاني.

يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

٧١ـ يومَ القيامةِ سيُنادَى على كلِّ إنسان بإمامِه الذي كان يتَّبعُه في الحياةِ الدُّنيا، فإنْ كان مؤمنًا فسيُنادَى عليه بالأنبياءِ والأولياءِ والصَّالحينَ والأعمالِ الصّالحة، وما أن يسمعَ أهلُ الحَشْر اسمَ الإمام الصّالحِ حتى يتيقَّنوا من أنّ سعيدَ الطالعِ هذا من أهلِ الجنة. يا إلهي، اجعَلْ عبدَكَ الضّعيفَ هذا في ميدانِ الحَشْر مع حبيبك المصطفى ﷺ، ومعَ الإمام العظيم أبي حنيفةَ رحمه الله، ومعَ سيِّدِنا ضياءِ الأُمّة الشّيخ محمَّد كرَم شاهِ الأزهَريِّ، آمين.

أمّـا إن كـان ذلك الشـخصُ كافرًا ومـتمرِّدًا، فسـوف يُنـادَى عـليه بـاسم الشّياطينِ والمنكِرينَ والفاسقينَ والأعمالِ السيِّئة، وما أن يسمعَ أهلُ الحَشْر اسمَ إمام السُّوءِ حتى يتيقَّنوا من أنّ هذا التَّعِسَ من أهل جهنَّم، كما أنّ إحدى علاماتِ المفلحينَ في ذلك اليوم هي أنّ صحائفَ أعمالِهم ستكونُ في أيديهم اليُمنى، وسوف يُقبِلون على قراءةِ صحائفِهم بفرحةٍ وسرور.

ويُعلَمُ من هذا أنه لن يكونَ يومَ القيامة أحدٌ أُمِّيًّا؛ لأنّ كلَّ واحدٍ سيقرأُ

صحيفتَه بنفسِه، هذا أولًا، وثانيًا: يُعلَمُ منه أنّ لغةَ الناس جميعًا في القبرِ والحَشْر ستكونُ اللّغَة العربيّة؛ لأنّ صحائفَ الأعمالِ ستكونُ باللُّغة العربيّة[1]، وستكونُ لغةُ أهل الجنّة هي اللغةَ العربيّةَ، ويمكنُك في هذا الخُصوص مراجعةُ الآيةِ رقم ٢ من سورة يوسُفَ (١٢)، وكذا الحاشيةُ رقم ٢.

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ ﴾

٧٢- مَن أَنْعم اللهُ عليه في هذه الدُّنيا بعينَين تَريانِ، ولكنّه وَضَع على عينَيْه ضُمادةً من التعصُّب، وبقيَ متعاميًا عن فَهْم الحقِّ ورؤيـتِه عامدًا متعمِّدًا، فسيكونُ يومَ القيامة أبعدَ ما يكونُ من رحمةِ الله تعالى، وسيعاقبُه اللهُ تعالى بأنْ يُعميَ عينَيْه الظاهرتَيْن أيضًا، مثلما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾

٧٣- بابُ التَّوبة مفتوحٌ أمامَ الشّخصِ الذي ظلَّ ضالًّا متعاميًا عن الحقِّ في هذه الدنيا، ويمكنُ أن يتوبَ إلى الله في أيِّ وقتٍ ويحصُلَ على الهداية، ولكنْ من تكونُ نهايتُه على الضَّلال، فسيكونُ أكثرَ الناسِ ضَلالًا وعمًى يومَ القيامة، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يُنقذَه من نارِ جهنَّم؛ لأنّ توبتَه في الآخِرة لا يمكنُ قَبولُها.

﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾

٧٤- كان الكُفّارُ يريدونَ أن يخفِّفَ النبيُّ ﷺ بعضَ الأحكام، وعندَئذٍ يصادقونَه ويتولَّونَه، بل ويؤمنونَ به أيضًا، وكانت هذه مؤامرةً دنيئةً منهم، ولهذا

---

(١) تفسير نور العرفان.

قال اللهُ تعالى: لو لم نُثبِّتْ نحن أقدامَك لكنتَ تميلُ إليهم بشكلٍ أو بآخرَ، طمعًا في أن يؤمنوا بك، وليس معنى هذا أبدًا أنّ النبيَّ ﷺ كان قد عَقَد العزمَ على تنفيذِ ما أرادَتْه قُريشُ مكّةَ، وإنّما الواضحُ هنا تمامَ الوضوح هو أنّ اللهَ تعالى ثَبَّت النبيَّ ﷺ من البداية، ولهذا لم يركَن النبيُّ ﷺ إلى المشركين، مثلَما قال العلّامةُ ابنُ كثير: **«يُخبرُ تعالى عن تأييدِ رسولِه صلواتُ الله عليه وسَلامُه، وتثبيتِه، وعصمتِه وسلامتِه من شرِّ الأشرارِ وكَيْدِ الفُجّار، وأنّه تعالى هو المتولّي أمرَه ونَصْرَه، وأنّه لا يَكِلُه إلى أحدٍ من خَلْقِه، بل هو وَليُّه وحافظُه وناصرُه ومؤيِّدُه ومظفِّرُه، ومُظهِرُ دينِه على مَن عاداه وخالَفَه وناوَأَه، في مشارقِ الأرض ومغاربِها، صلى اللهُ عليه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدّين»**[1].

ويقولُ سيّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: **«كان رسولُ الله ﷺ معصومًا، ولكنّ هذا تعريفٌ للأُمّة لئلّا يَركَنَ أحدٌ منهم إلى المشركينَ في شيءٍ من أحكام الله تعالى وشرائعِه»**[2].

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

٧٥ـ وبفَرْضِ المستحيل لو أنه ﷺ مالَ إليهم لَنالَه عذابُ ضِعْفَيْنِ في الدنيا والآخِرة؛ لأنّ من كان أكثَر قُربًا فإنّ خطأَه البسيطَ يُعَدُّ خطأً جَسيمًا، وفي هذا تنبيهٌ لعلماءِ الأُمّة من أنّهم لو أخَذوا يبحثونَ عن تخفيفٍ في الأحكام الإلهيّة إرضاءً للأغنياءِ من الناس، فإنّ عذابَهم سيكونُ مضاعَفًا؛ لأنهم ـ بذلك ـ يُحرِّفونَ أحكامَ الله عن عَمْد رَغْم عِلمِهم بها.

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير القرطبي.

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

٧٦ـ عَزَم مشركو مكّةَ على إخراج النبيِّ ﷺ من مكّةَ، لكنّ الله تعالى لم يدَعْهم ينفِّذونَ عزْمَهم هذا[١]، وإنّما حذَّرهم اللهُ تعالى من أنّهم لو أَخْرجوه ﷺ فلن يبقَوْا هم أيضًا فترةً طويلة[٢]، ولهذا عندَما هاجَر النبيُّ ﷺ فيما بعدُ داخلَ الجزيرةِ العربيّة من مكّةَ إلى المدينة، تحقَّقت نبوءةُ القرآنِ الكريم بشكلٍ كامل، بحيث لم يستطعْ أهلُ مكّةَ أن يعيشوا يومًا واحِدًا في راحة، وبعدَ عام ونصفٍ لا أكثرَ قُتل منهم سبعونَ في ميدانِ بَدْر، وأُسِر سبعونَ آخَرون، ثم لَحِقَتْهم الهزائمُ المتتاليةُ في الغَزوات النَّبويّة إلى أنْ فَتَح المسلمونَ مكّةَ في نهايةِ الأمر في العام الثامنِ للهجرة، وبهذا انتهى الكُفرُ والشِّركُ من مكّةَ تمامًا.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

٧٧ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، كانت الأُممُ السابقةُ كلَّما أَخْرجَت أنبياءَهم من الأرضِ نزَل عليهمُ العذابُ، ولم تتغيَّرْ سنّتُنا حتى الآنَ، فإن أَخْرجوكَ من الأرض، فلن يبقَوْا هم فيها أيضًا؛ إمّا أن يَهلِكوا جميعًا، أو أن يَرجِعوا عن الشِّركِ ويدخُلوا الإسلامَ.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ

---

(١) «همّ المشركون كلهم وأرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه، فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه». تفسير الخازن.

(٢) «همّ الكفّار كلّهم أن يستخفّوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فمنعه الله، ولو أخرجوه من أرض العرب لم يمهلوا». القرطبي.

وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾

٧٨ـ هنا ذكرٌ لأربع صَلَواتٍ منذُ بداية فترةِ زوالِ الشّمس إلى إظلام الليل، يعني: صلاةَ الظُّهر والعصرِ والمغربِ والعشاء، بينَما جاء ذِكرُ صلاةِ الفجرِ منفرِدًا، وقد عبَّر عن صلاةِ الفجر بالقرآنِ لأنّ قراءةَ القرآن فيه تكونُ طويلةً.

﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

٧٩ـ الملائكةُ المقرَّرونَ لحفظِ الإنسان ليلًا وكـتابةِ أعمـالِه، يعودونَ بعدَ صلاةِ الفجر، ويحُلُّ محلَّهم ملائكةُ النّهار قبلَ صلاةِ الفجر، وبالتالي يجتمعُ ملائكةُ اللّيل وملائكةُ النَّهار في صَلاةِ الفجر، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «**يتعاقَبون فيكم ملائكةٌ باللّيل وملائكةٌ بالنّهار، ويجتمعونَ في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصر، ثمّ يَعرُجُ الّذين باتوا فيكم، فيَسألُهم ـ وهو أعلمُ بهم ـ كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون: تركْناهم وهم يُصَلُّون، وأَتيْناهم وهم يُصَلُّون**»(١)، كم هم سعداءُ الحظِّ أولئك المسلمونَ الذين يُصَلُّون، وتشهدُ الملائكةُ على صَلاتِهم عندَ الله تعالى! أمّا كيف تَحفَظُ الملائكةُ الإنسانَ فيمكنُك التعرُّفُ عليه بمراجعةِ الآية رقم ١١ من سورة الرَّعد (١٣)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٣.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾

٨٠ ـ الركعتانِ أو الأربعةُ أو الثمانيةُ من النوافلِ التي تُصَلَّى بعدَ النهوضِ من

---

(١) البخاري، برقم ٥٥٥، ومسلم، برقم ٦٣٢.

النوم ليلًا، يقالُ لها: صَلاةُ التهجُّد، وهذه الصَّلاةُ عبادةٌ نفْليّة للأُمّةِ المسلمة، لكنها بالنِّسبة للنبيِّ ﷺ صلاةٌ خاصّة، وكان يؤدِّيها بانتظام دائمًا.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

٨١ ـ يُطلَقُ على الشفاعةِ الكبرى التي سيَشفَعُها النبيُّ ﷺ يومَ القيامة بأمرِ الله تعالى: «المقامُ المحمود»، إذ إن كلَّ أهلِ الحَشْر سيُثنُونَ عليه ﷺ ويحمَدونَه، وإليك بعضَ مظاهرِ كلِّ هذا:

١ـ عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «هو المقامُ الذي أشفَعُ لأُمّتي فيه»[١].

٢ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه، قال: حدّثنا محمّدٌ ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة ماجَ النّاسُ بعضُهم في بعضٍ، فيأتُونَ آدمَ فيقولون: اشفَعْ لنا إلى ربِّك. فيقول: لستُ لها ولكنْ عليكم بإبراهيمَ فإنّه خليلُ الرّحمن، فيأتُونَ إبراهيمَ فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بموسى فإنّه كَليمُ الله. فيأتونَ موسى فيقول: لستُ لها ولكنْ عليكم بعيسى فإنّه رُوحُ الله وكلِمتُه. فيأتونَ عيسى فيقولُ: لستُ لها ولكنْ عليكم بمحمّدٍ ﷺ. فيأتوني فأقولُ: أنا لها. فأَستأذِنُ على ربّي فيؤذَنُ لي، ويُلهِمُني محامدَ أحمَدُه بها لا تَحضُرني الآنَ، فأحمَدُه بتلك المحامد وأَخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَهْ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقول: يا ربّ، أُمّتي أمّتي. فيقال: انطلِقْ فأَخْرِجْ مَن كان في قلبِه مثقالُ شعيرةٍ من إيمانٍ. فأنطلقُ فأفعَلُ، ثمّ أعودُ فأحمَدُه بتلك المحامد، ثمّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَهْ، واشفَعْ تُشفَّعْ، فأقول: يا ربّ، أُمّتي أُمّتي. فيقال: انطلِقْ فأَخْرِجْ منها من كان في قلبِه مثقالُ ذرّةٍ أو خَرْدلةٍ من إيمانٍ. فأنطلقُ فأفعَلُ، ثمّ أعودُ فأحمَدُه بتلك المحامد، ثمّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمّد، ارفَعْ

---

(١) مسند أحمد، ٢: ٤٤١.

رأسَك، وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَهْ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقولُ: يا ربّ، أُمّتي أُمّتي. فيقولُ: انطلِقْ فأَخْرِجْ مَن كان في قلبِه أدنى أدنَى أدنى مثقالِ حبّةِ خَرْدلٍ من إيمانٍ، فأُخرِجُه من النّار. فأنطلِقُ فأفعل» ... «ثمّ أعودُ الرّابعةَ فأحمَدُه بتلك، ثمّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَهْ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقول: يا ربِّ، ائْذَنْ لي فيمَن قال: لا إلهَ إلّا الله. فيقولُ: وعزّتي وجلالي وكبريائي وعظَمتي، لَأُخرِجَنّ منها مَن قال: لا إلهَ إلّا الله»[١].

٣ـ قال القاضي أبو الفَضْل عِياضٌ: «**شفاعاتُ نبيِّنا ﷺ يومَ القيامة خمسُ شفاعاتٍ، الأولى: العامّة. الثّانيةُ: في إدخال قومِ الجنّةَ دون حسابٍ. الثّالثةُ: في قومٍ من موحِّدي أُمّتِه استوْجَبوا النّارَ بذنوبِهم فيَشفَعُ فيها نبيُّنا ﷺ، ومن شاءَ اللهُ أن يشفعَ ويَدخُلونَ الجنّةَ. الرّابعة: فيمن دَخَل النّارَ من المُذنبِين فيَخرُجونَ بشفاعةِ نبيِّنا ﷺ وغيرِه من الأنبياء والملائكةِ وإخوانِهم المؤمنين. الخامسةُ: في زيادةِ الدّرجات في الجنّةِ لأهلِها وترفيعِها**»[٢].

٤ـ **عن جابرِ بن عبد الله، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن قال حينَ يسمَعُ النّداءَ: اللّهمَّ ربَّ هذه الدّعوةِ التّامّة، والصّلاةِ القائمة، آتِ محمّدًا الوسيلةَ والفضيلةَ وابعَثْه مقامًا محمودًا الّذي وعدتَه، حَلَّت له شفاعتي يومَ القيامة»**[٣].

٥ـ وهناك روايةٌ أخرى فيما يتعلَّقُ بالمقام المحمود مُفادُها: أنّ «**ذلك المقامَ المحمودَ الذي وَعَد اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وآلِه وسلم أن يَبعثَه إياه، هو: أن يُقاعدَه معَه على عَرْشِه**»[٤].

---

(١) البخاري، ، كتاب التوحيد، باب ٣٦ برقم ٧٥١٠. ومسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٤ برقم ١٩٣.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) البخاري، كتاب الأذان، باب ٨ برقم ٤٧١٩.

(٤) تفسير ابن جرير والقرطبي.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾

٨٢ ـ حين أُمِرَ النبيُّ ﷺ بالهجرةِ نَزَلت هذه الآيةُ، والتي جاء فيها تلقينٌ بهذا الدعاء: اللهُمَّ اجعَلْ هِجرتي من مكّةَ بالحقِّ، ودخولي المدينةَ بالحقِّ أيضًا، أي ـ أن يكونَ عاقبةُ كلٍّ منهما خيرًا، وكذلك انصُرْني من عندِك، بحيث يكونُ نَصْرُك ملازمًا لي في كلِّ حال حيثما ذَهبتُ ومن حيث خَرَجتُ، وهكذا رأتِ الدُّنيا كلُّها أنّ كلَّ حرفٍ من هذا الدُّعاءِ تحقَّق، فعندَما غادَرَ النبيُّ ﷺ مكّةَ، لم يستطع الكُفّارُ الذين تعقَّبوه أن يُمسِكوا به، وعندَما وَصَل ﷺ المدينةَ المنورَّة، حَصَل على الغَلَبةِ والنُّصرة، بحيث فُتِحت مكّةُ بعدَ سنواتٍ قليلة، ليس هذا فقطْ، وإنّما رَفْرَفتْ رايةُ الإسلام عاليةً خَفّاقةً حيثما وَضَع النبيُّ ﷺ قدمَه الطاهرةَ في الجزيرةِ العربيّة.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

٨٣ ـ كان هذا الإعلانُ عندَما كان المسلمونَ يعيشونَ في مكّةَ أوقاتًا عصِيبةً في حالةٍ من القهرِ والعَجْز، وكان الباطلُ مسيطِرًا في كلِّ اتّجاه، ولا تبدو في الأُفُقِ أيُّ آثارٍ أو شواهدَ ولو قليلةً تدُلُّ على انتصارِ الحقّ، لكنّ الدُّنيا كلَّها رأتْ أن نُبوءةَ القرآنِ الكريم تحقَّقت، وفُتِحت مكّةُ بعدَ سَنَواتٍ قلائلَ، وعندَها كان النبيُّ ﷺ يُسقِطُ بعصاهُ الشّريفةِ الأصنامَ الموضوعةَ حولَ الكعبة، ويَتْلو هذه الآيةَ، يعني ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

٨٤ ـ مثلَما يفِرُّ الباطلُ بمجيءِ الحقِّ، كذلك تفِرُّ العقائدُ الباطلةُ والأمراضُ الرُّوحيّة من القلوبِ التي يتجلّى فيها نورُ القرآنِ الكريم، وتَنزِلُ عليها رحمةُ الله

تعالى بحيثُ يصبحُ أصحابُها إلى الأبدِ من المتَّقين، ويُنْجيهمُ اللهُ تعالى من الأعمال الباطلة، أمّا الظالمونَ فلأنّهم لا يؤمنونَ بالقرآنِ الكريم، لهذا عندَما يسمعونَ القرآنَ الكريمَ يزدادُ بُغضُهم وحِقدُهم وعِنادُهم، وتزدادُ مخالفتُهم للإسلام وعداوتُهم له أكثرَ من ذي قَبْل، ولهذا تزيدُ خسارةُ هؤلاءِ وعذابُهم في الآخِرة.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾

٨٥ ـ جاءتِ الإشارةُ في هذه الآيةِ إلى نُقطةِ ضَعْفٍ عامّة في بني البشَر، بمعنى: أنهُ حين يُنعمُ اللهُ تعالى على أحدٍ يَجْحَدُ هذا الإنسانُ نِعَمَه، وحين يُصيبُ الأذى أحدًا، فإنه يَيْأسُ تمامًا، لكنّ الذين يؤمنونَ بالقرآنِ يكونُ حالُهم هو الشُّكرَ على النِّعمة، والصَّبرَ على الشِّدة، ولا يَيْأسُونَ من رحمةِ الله تعالى.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾

٨٦ ـ في هذه الدُّنيا كلُّ إنسانٍ يعمَلُ بطريقتِه وطِبقًا لِمزاجِه، واللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم مَن يسيرُ على الصِّراط المستقيم، ومن يَتِيهُ على طريقِ الخطأ، وفي الآخِرة سيُحاسَبُ كلُّ فردٍ ويُجازَى طبقًا لعمَلِه.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

٨٧ ـ جاء لفظُ الرُّوح في القرآنِ الكريم دالًّا على سيّدِنا جِبريلَ الأمينِ عليه السَّلام، وعلى سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، وعلى القرآنِ المَجيد، وعلى الوَحْي، لكنّ مرادَ السائلِ منه في هذه الآية الرُّوحُ البشَريّةُ ومعرفةُ حقيقتِها، وقد أجاب القرآنُ الكريم عن السُّؤال إجابةً إجماليّةً، بأنّ الرُّوح ليست شيئًا ماديًّا، وإنّما هي معجِزةٌ من أمرِ الله تعالى، والعِلمُ التفصيليُّ بحقيقتِها أكبرُ من إدراكِ عامّةِ الناس، لهذا فإنّ العِلمَ البسيطَ الذي أُعطيَ لك فيما يتعلَّقُ بالرُّوح إنّما هو طبقًا لفَهْمِك وحاجتِك، وعليك أن تكتفيَ بهذا، يعني: أنّ الرُّوحَ شيءٌ خُلِق بأمرِ الله تعالى، ولا ترَوْنَه أنتم، ولكنْ ليس معنى هذا: أنّ النبيَّ ﷺ نفسَه لا يَعلَمُ شيئًا عن حقيقةِ الرُّوح، وإنّما مثلَما قال العلّامةُ بدرُ الدِّين عَيْني: «**جَلَّ منصبُ النّبيِّ ﷺ، وهو حبيبُ الله وسيّدُ خَلْقِه، أن يكونَ غيرَ عالِم بالرُّوح، وكيف وقد مَنَّ اللهُ عليه بقولِه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ١١٣]. وقد قال أكثرُ العلماء: ليس في الآيةِ دليلٌ على أنّ الرُّوحَ لا تُعلَمُ ولا على أنّ النّبيَّ ﷺ لم يكنْ يَعلَمُها**»[١].

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾

٨٨ ـ يقولُ مَوْلانا شبير أحمَد عُثماني: «يعني: أنّ عِلمَ القرآنِ الذي أعطاهُ لك، يستطيعُ اللهُ تعالى إن شاء أن يَسلُبَه منك في لحظة، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يُعيدَه إليك ثانيةً، ولكنّ فَضْلَه عليك عظيمٌ، ولهذا أَنْعم عليك بهذه النِّعمة العُظمى، وليس هناك سببٌ لسَلْبِها منك، والمقصودُ فقطْ هو إظهارُ القُدرةِ العظيمة، وأنّ الرُّوحَ مهما كانت كاملةً فإنّ كلَّ كمالاتِها موهوبةٌ ومستعارةٌ، وليست ذاتيّةً»[٢].

---

(١) عمدة القاري، ٢: ٢٠١: برقم ١٢٥.

(٢) التفسير العثماني.

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

٨٩ ـ تفضَّل اللهُ تعالى على النبيِّ الكريم ﷺ بالفَضْل العظيم، فما هي حدودُ هذا الفضل؟ هذا لا يَعلَمُه تمامَ العِلم إلّا اللهُ تعالى، ولا يستطيعُ العقلُ الإنسانيُّ أن يتصوَّرَه، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الآيةَ ١١٣ من سُورة النِّساء (٤)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٢٢، حيث شَرّفَ اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ بألفاظِ الفَضْل العظيم.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

٩٠ـ كان المشركونَ يَدَّعونَ أنّ النبيَّ ﷺ هو الذي يؤلِّفُ القرآنَ الكريمَ وينسُبُه إلى اللهِ تعالى، وفي هذه الآيةِ تحدّاهم اللهُ تعالى بأنه لوِ اجتَمع الإنسُ والجنُّ في هذه الدنيا فلن يستطيعوا الإتيانَ بمِثلِ هذا القرآن، فكيف يمكنُ لإنسانٍ واحدٍ هو سيّدُنا محمّدٌ ﷺ أن يؤلِّفَ هذا القرآنَ من عندِ نفسِه؟ ورَغْم ذلك فقد حاولَ بعضُ المنكِرينَ الإتيانَ بمثلِ القرآن، وعلى رأسِ هؤلاء: مُسَيْلِمةُ الكذابُ، فقدِ ادَّعى النُّبوةَ كذبًا، وألَّف الكلامَ التاليَ دليلًا على نبوّتِـه، وهو لا يساوي شيئًا أمام فصاحةِ وبلاغةِ وعِلم وحِكمة القرآنِ الكريم:

١ـ الفيلُ ما الفيل. له ذَنَبٌ ذليل. وخُرطومٌ طويل. إنّ ذاك من خَلْقِ ربِّنا الجليل.

٢ـ يا ضُفدَع. بنتَ ضُفدَع نقِّي. ما تنقِّينَ. أعلاكِ في الماء وأسفَلُكِ في الطِّين. لا للشّاربِ تمنَعين. ولا للماءِ تُكدِّرين[1].

ولمزيدٍ من تفسيرِ هذه الآية راجع الآيةَ رقم ١٤ من سُورة هُود (١١)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٢.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

٩١ـ بيَّن اللهُ تعالى في القرآنِ المَجيد العقائدَ والأعمالَ الإسلاميّةَ عن طريقِ

---

(١) تفسير الحسنات.

مختلفِ الأمثلةِ مرّاتٍ عديدةً، حتى يحصُلَ كلُّ فردٍ على الهداية من القرآنِ الكريم حسَبَ ذَوْقِه، لكنّ أكثرَ الناس يُصرُّونَ على الجحودِ بسببِ التعصُّبِ والعناد، ولا يَقبلونَ الهدايةَ.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

٩٢- في الآياتِ الأربع السّابقةِ طالَبَ الكُفّارُ بمعجِزاتٍ عديدةٍ مختلفة، يعني: أن يُجريَ النبيُّ ﷺ لهم من الأرضِ عيْنَ ماء، وأن يُقدِّمَ لهم حديقةَ نخيل وأعنابٍ تجري فيها الأنهارُ، وأن يَشُقَّ السّماءَ ويُسقِطَها عليهم، وأن يَظهَرَ اللهُ تعالى والملائكةُ أمامَ أعيُنِهم! حتى يستطيعوا التحدُّثَ إليهم، وأن يكونَ له ﷺ بيتٌ من ذَهَب، وأن يُنزِلَ عليهم كتابًا من السَّماء يستطيعونَ قراءتَه، ولو أرَيْناهم هذه المعجِزاتِ لَما آمَنوا بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم، ولهذا قال لهمُ النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: ربِّي منزَّهٌ عن كلِّ ضعف، وهو القادرُ المطلَق، وأنا بشَرٌ رسول، وواجبي هو تبليغُ رسالةِ الله تعالى، وهو ما أفعَلُه الآنَ، لكنّ طلباتِكم المتعدِّدةَ كلَّ يوم بأنْ أُريَكم معجِزاتٍ أمرٍ يتوقَّفُ على حِكمةِ الله تعالى، فما يراهُ سبحانه وتعالى مناسبًا يَظهَرُ إلى حيِّزِ الوجود، ولكنّ هذا لا يعني أنّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ قادرًا على إظهارِ المعجِزات؛ لأنّ المعجِزاتِ التي أعطَى اللهُ تعالى للنبيِّ ﷺ الاختيارَ في إظهارِها كان قادرًا على إظهارِها بالفعل، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواهُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «**هل تَرَوْنَ قِبْلتي ها هنا؟ واللهِ ما يخفَى عليَّ ركوعُكم ولا خشوعُكم، وإنّي لَأراكم وراءَ ظهري**»[1]، والركوعُ يقال: للشكل

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب ٨٨ برقم ٧٤١.

الظاهريِّ للصّلاة، بينَما الخشوعُ يقال: للكيفيّةِ الباطنة لها، ولهذا فإنّ النبيَّ ﷺ في إمامتِه للصّلاة يتَّجهُ إلى القِبلة، ومعَ ذلك يستطيعُ رؤيةَ ظاهِر وباطنِ المأمومينَ خلفَه، وكانت هذه معجزةً يستطيعُ إظهارَها في أيِّ وقت، ومثلَما نحن قادرونَ على أن نقومَ بعمل مكَّنَنا اللهُ تعالى من القيام به، فإنّ المعجزاتِ التي أعطَى اللهُ تعالى الاختيارَ في إظهارِها للنبيِّ ﷺ كان يمكنُه إظهارُها.

ولمزيدٍ من التفصيل عن طلبِ المعجِزات راجعِ الآيةَ رقم ٥٩ من هذه السُّورة، وكذا الحاشيةُ رقم ٥٧، وفيما يتعلَّقُ بإظهارِ المعجِزات راجع الآيةَ رقم ٧ من سُورة الرَّعد (١٣)، وكذا الحاشيةُ رقم ٩.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾

٩٣ـ عندَما جاء القرآنُ الكريمُ إلى مشركي مكّةَ، وأُفحِموا أمامَ نُور الهداية، أَخَذوا يعترضونَ في النِّهاية بهذا الاعتراضِ الذي لا معنى له من أَجْل إخفاءِ تعصُّبهم

وعنادِهم، قائلينَ: لماذا أرسَلَ اللهُ تعالى رسولًا بشَرًا مثلَنا؟ لماذا لم يُرسِلْ مَلَكًا رسولًا؟ وعليه قال النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: لو أنّ الملائكةَ كانت تعيشُ على الأرض، لَأرسَلَ اللهُ تعالى مَلَكًا رسُولًا، لكنّ الأرضَ يعيشُ عليها البشَر، والإنسانُ يحتاجُ في هدايـتِه إلى إنسانٍ مثلِه، حتى يستطيعَ أن يقدِّمَ بأقوالِه وأفعالِه نموذَجًا يكونُ وسيلةً لهدايةِ الآخرين.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

٩٤- يعني: أنّ اللهَ تعالى أرسَلَني إليكم رسولًا، وقد أبلَغتُكم رسالتَه وأدَّيتُ واجبي، والآنَ سواءٌ آمنتُم بي نبيًّا أم لا، لا فَرْقَ عندي في ذلك؛ لأنّ شهادةَ الله تعالى على نُبوَّتي تكفيني، وهو يَعلَمُ تمامَ العِلم أحوالَ عبادِه وأعمالَهم، وسيَجزِيهم ويحاسبُهم طبقًا لهذه الأعمال.

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾

٩٥- الذين يعمَلونَ جاهدينَ بحثًا عن الهداية، يُرشدُهم اللهُ تعالى إلى طريقِ الهداية، أمّا الذين يُعرِضونَ عن الهداية عامِدينَ متعمِّدين، يترُكُهم اللهُ تعالى في ضلالِهم يعمَهون، ولا يَمُدُّ أحدٌ لهم يدَ العَوْن، ويومَ القيامة سيُحرَمونَ من السَّمع والبصَر والكلام، ثم يُلقَى بهم في نارِ جهنَّمَ الحاميةِ.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

٩٦- سيُلقَى بالكُفّار في جهنَّمَ لأنّهم أنكَروا دلائلَ الله تعالى وآياتِه البيِّنات، كما أنّهم أنكَروا أن يكونَ اللهُ تعالى هو الخالقَ والقادرَ، وكانوا يقولونَ ساخرينَ: إنه حين تتفرَّقُ عظامُنا وتَبلَى، وتتحوَّلُ إلى تُراب، كيف سيمكنُ إحياؤنا من جديد؟

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

٩٧ـ لقد خَلَقَ اللهُ تعالى القادرُ المطلَقُ أشياءَ عظيمةً مثلَ: السَّماواتِ والأرض، بغيرِ أيِّ مادة، فليس من الصَّعبِ عليه أن يُحييَ خَلْقًا بسيطًا مثلَكم، إذ إنّ هذا الأمرَ بالنسبة له أكثرُ سهولةً ويُسرًا، ولكنّ الإحياءَ من جديدٍ محدَّدٌ له يومَ القيامة، وهو يومٌ لا شكَّ في قدومِه، لكنّ الظالمينَ يَجْحَدونَ ويُنكرون.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾

٩٨ـ كان المشركونَ يطالبونَ أن تتحوَّلَ أرضُ مكّةَ إلى حدائقَ وأنهارٍ، وأن تتحوَّلَ الجبالُ إلى ذَهَب، وقد ردَّ اللهُ عليهم في هذه الآية بأنّ هذه الأمورَ عاديّةٌ وبسيطةٌ بالنِّسبة لله تعالى، ولوِ افترَضْنا أنّ اللهَ تعالى أعطاكم خزائنَ رحمتِه التي لا تنتهي، فإنّ طمَعَكم عندَ ذلك لن يَقِلَّ، ولن تُنفِقوا شيئًا تساعدونَ به فقيرًا؛ لأنّ الإنسانَ بصفةٍ عامّة ضيِّقُ الصّدرِ بخيل.

قال النبيُّ ﷺ فيما يتعلَّقُ بالبُخل، فيما رواه سيِّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «**لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لابْتغَى ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلّا التّرابُ، ويتوبُ اللهُ على من تاب**»(١).

وقال النبيُّ ﷺ عن الكريم والبخيلِ فيما رواهُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «**السَّخِيُّ قريبٌ من الله قريبٌ من الجنّة قريبٌ من النّاس، بعيدٌ من النّار، والبخيلُ بعيدٌ من الله بعيدٌ من الجنّة بعيدٌ من النّاس قريبٌ من النّار، ولَجاهلٌ سَخِيٌّ أحبُّ إلى اللهِ عزّ وجلَّ من عابدٍ بخيل**»(٢).

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ١٠ برقم ٦٤٣٦.

(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ٤٠ برقم ١٩٦١.

ولمزيدٍ من التفصيل عن الكريم والبخيل راجع الآيةَ رقم **٢٩** من هذه السُّورة، وكذا الحاشيةُ رقم **٢٨**.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾

٩٩- في هذه الآياتِ ردَّ اللهُ تعالى على مشركي مكّةَ فيما يتعلّقُ بالمعجِزات التي طالَبوا بها، يعني: لو أنّنا نَعلَمُ أنّكم ستؤمنونَ بعدَ رؤيةِ هذه المعجِزات لَحقَّقناها لكم، ولكنَّنا على يقينٍ من أنّكم لن تؤمنوا بسببِ تعصُّبكم، ولذلك لن نُريَكم المعجِزاتِ التي طلبتُموها، كما أنّنا قد أَريْنا بني إسرائيلَ من قبلُ معجزاتٍ أكبرَ وأعظمَ من هذه، وذِكْرُها موجودٌ في التَّوراةِ أيضًا، وتستطيعونَ أن تتأكّدوا من هذا بسؤالِ علماءِ بني إسرائيل، ولكنْ برَغْم هذه المعجزاتِ لم يؤمنْ فِرعَوْن، وإنما قال لسيّدِنا موسى عليه السَّلام: لقد سُحِرتَ، ولهذا تَهْذي بكلامٍ غيرِ مفهوم.

ذكر القرآنُ الكريمُ معجِزاتٍ عديدةً لسيّدِنا موسى عليه السَّلام، على سَبيل المثال: شَقُّ طريقٍ في البحر، وتفجيرُ عَيْن الماءِ في الأحجارِ الصَّخْرية، وإخراجُ الماءِ منها، وإنزالُ المنِّ والسَّلوى، وغيرُها، وقد ذَكَر سيّدُنا ابنُ عبّاس رضيَ الله تعالى عنهما تسعًا من هذه المعجِزاتِ فيما يلي: «**اليدُ والعصا والطُّوفانُ والجرادُ والقُمَّلُ والضَّفادع والدّمُ والسِّنينُ وطمسُ الأموال**»[1]. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ ٦٥ من سُورة الأعراف (٧).

وعندَ بعضِ المفسِّرين أنّ المرادَ من هذه المعـجِزاتِ التِّسـع: الأحكـامُ التِّسعة، مثلَما وَرَد عن سيّدِنا صَفْوانَ بن العَسّال رضي الله عنه المراديِّ: «**أنّ يهوديَّيْنِ، قال أحدُهما لصاحبِه: اذهَبْ بنا إلى هذا النّبيّ نسألْه، فقال: لا تقُلْ له: نبيّ** (أي: لا داعيَ لأنْ تقولَ ذلك، فنحن أيضًا نؤمنُ أنه نبيٌّ) **فإنّه إنْ سَمِعَنا نقولُ: نبيٌّ، كانت له أربعةُ أعيُنٍ، فأتَيا النّبيَّ ﷺ فسألاهُ عن قولِ الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾، فقال رسولُ الله ﷺ: «(١) لا تُشركوا بالله شيئًا (٢) ولا تَزْنوا (٣) ولا تقتُلوا النّفْسَ الّتي حرَّم اللهُ إلّا بالحقّ (٤) ولا تَسرِقوا (٥) ولا تَسحَروا (٦) ولا تمشُوا ببريءٍ إلى سلطانٍ فيقتلَه (٧) ولا تأكُلوا الرّبا (٨) ولا تَقذِفوا مُحصَنةً (٩) ولا تَفِرُّوا من الزَّحف ـ شكّ شُعبةُ ـ وعليكم اليهودَ خاصّةً أن لا تَعْدُوا في السَّبت»**. (يقول سيّدُنا صَفْوانُ رضي اللهُ عنه: إنهما عندَما سَمِعا هذه الإجابةَ الجامعةَ من النبيِّ ﷺ) **فقَبّلا يدَيْه ورجلَيْه وقالا: نشهدُ أنّك نبيّ. قال: «فما يمنَعُكما أن تُسلما؟». قالا: إنّ داودَ دعا الله أن لا يزالَ في ذُرّيّته نبيٌّ، وإنّا نخافُ إنْ أَسْلَمْنا أن تَقتُلَنا اليهود**»[2].

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، سورة الإسراء (١٧) برقم ٣١٤٤.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾

١٠٠- قال سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ لفِرعَون: أنت تَعلَمُ جيِّدًا أنّ هذه المعجِزات نَزَلتْ من اللهِ تعالى؛ لأنّها لا يَقدِرُ عليها إنسانٌ، ولهذا عليكَ أن تعتبرَ منها، وإلّا أهلكَكَ الله، وعليه قرَّر إخراجَ بني إسرائيلَ من مِصرَ، مما نَتَج عنه أن أَغْرقَ اللهُ تعالى فِرعَوْنَ وأَتْباعَه في البحر.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

١٠١- بعدَ غَرَقِ فِرعَونَ وجيشِه قلنا لبني إسرائيل: «**اسكُنوا الأرضَ التي أراد فِرعونُ إخراجَكم منها، وهي أرضُ مِصرَ، أو أرضُ الشام التي وُعدتُم بها**»[1]، لكنَّنا سنَجمَعُكم جميعًا يومَ القيامة، سواءٌ المؤمنونَ والكافرون، وسواء الصالحونَ والأشرارُ، وسنُحاسبُكم على أعمالِكم، ونُجازيكم طبقًا لها.

في هذه الآيةِ الكريمة عِبرةٌ لمشركي مكّةَ، بأنه مثلَما أراد فِرعَونُ وجيشُه طَرْدَ سيّدنا موسى عليه السَّلام وبني إسرائيلَ من مِصرَ، وفي نهاية أمرِهم أَخْرجَهم اللهُ من مِصرَ وأَغْرقَهم في البحر، بنفسِ الطريقة، يا مشركي مكّةَ، أنتم تريدونَ إخراجَ النبيِّ ﷺ وأَتْباعِه من مكّة، وإن لـم تَرجِعوا عن عـدائكم هذا، فليس ببعيدٍ أن يُخرِجَكمُ اللهُ تعالى من هنا، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فقد فُتِحت مكّةُ بعدَ سنواتٍ قليلة، وتمَّ إخراجُ المشركينَ من هناك.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

١٠٢- لقد أَنْزلنا القرآنَ بالحقِّ، وأنت يا رسولَ الله ﷺ أبلغتَه للناسِ كما هو بالحقِّ، والآنَ إذا لم يؤمنِ المشركونَ، فهذه حماقةٌ منهم، فلا تحزَنْ ولا تغتمَّ؛ لأنّنا

(١) التفسير المنير.

أرسَلْناك مبشِّرًا ونذيرًا من العذابِ فقطْ، وقد أدَّيتَ حقَّ الدعوةِ والتبليغ.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

١٠٣ـ الكتُبُ والصُّحفُ السَّماويةُ التي نَزَلت على الأنبياءِ السابقينَ عليهم السَّلام، نَزَلت مرّةً واحدةً، لكنّنا أَنْزلنا عليكَ القرآنَ منجَّمًا في شكل سُوَرٍ وآياتٍ مختلفةٍ متفرِّقة، حتى يَسهُلَ على الناسِ تلاوتُه وحِفظُه، وعليك أن تَتْلوَه عليهم بتأنٍّ وعَدَم تَسرُّع، وبفاصل في القراءة، حتى يَسهُلَ عليهم فهمُه، ولقد أَنْزلناه تدريجيًّا على مدى ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا طبقًا للظروفِ والأحوال، حتى يستطيعوا استيعابَ مناسبةِ وسببِ وموقعِ نزولِ الآياتِ والأحكام، ويبحَثوا عن حلولٍ لمشاكِلِهم في ضَوْئها.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾

١٠٤ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، قلْ لمشركي مكّةَ: سواءٌ آمَنتُم بالقرآنِ الكريم أم لم تؤمِنوا به، لن يؤثِّرَ هذا على صِدق القرآنِ الكريم في شيءٍ، فإنّ علماءَ أهل الكتابِ الذين أعطاهمُ اللهُ تعالى عِلمَ الوَحْي والنُّبوة قبلَ نزولِ القرآن الكريم، ومن بَيْنِهم سيّدُنا زَيْدُ بن عَمْرو وسيّدُنا سَلْمانُ الفارسيُّ، وسيّدُنا أبو ذرٍّ رضي اللهُ عنهم جميعًا[١]، بلا شكٍّ عندما سمعَ هؤلاءِ القرآنَ الكريمَ أَحْنَوا رؤوسَهم خضوعًا لحقّانيّتِه، وسَجَدوا لله تعالى شكرًا له، وسبَّحوه؛ لأنه حقَّق وعدَه في الكتُبِ السّابقةِ بنزولِ الكتابِ الأخيرِ وبَعْثةِ النبيِّ الآخِرِ ﷺ، فقد ظَهَر إلى عالَم الوجودِ آخِرُ نبيٍّ في صورةِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وآخِرُ كتابٍ في صُورة القرآنِ الكريم.

ومن هذا تيقَّن أهلُ الكتابِ أنّ كتُبَهم كانت صادقةً؛ لأنّ النُّبوءةَ التي وَردت

---

(١) تفسير خزائن العرفان.

فيها ثَبَت صدقُها، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ: تيقَّنوا من أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ نبيٌّ حقًا وصِدقًا؛ لأنّ فيه كلَّ الصِّفاتِ التي جاء ذِكرُها في الكتُبِ السَّماوية السابقة.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

١٠٥ـ كانت سجدةُ الشُّكرِ الأُولى في الآية رقم ١٠٧ لأنّ اللهَ تعالى وفَّقهم إلى الإيمانِ بالنبيِّ الآخِرِ ﷺ، أمّا هذه السَّجدةُ الثانيةُ فكانت بأثَرٍ من تعاليم القرآنِ الكريم؛ لأنهم كانوا يَبكُونَ حينَ يَتْلُونَ القرآنَ الكريم، ويزدادُ خشوعُهم لله تعالى وخضوعُهم له.

فضل البكاء من خشية الله:

١ـ عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «عَيْنانِ لا تَمَسُّهما النّار: عيْنٌ بكَتْ من خَشْيةِ الله، وعَيْنٌ باتت تحرُسُ في سبيل الله»[(١)].

٢ـ عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن عبدٍ مؤمنٍ يَخرُجُ من عينَيْه دموعٌ وإن كان مثلَ رأسِ الذُّباب ـ من خَشْية الله ـ ثمّ تُصيبُ شيئًا من حرِّ وجهِه، إلّا حرَّمَه اللهُ على النّار»[(٢)].

٣ـ «عن أبي حازم: أن النّبيَّ ﷺ نَزَل عليه جِبريلُ وعندَه رجلٌ يبكي، فقال: من هذا؟ قال: «فلان»، قال جِبريلُ: إنّا نزِنُ أعمالَ بني آدمَ كلَّها إلّا البكاءَ فإنّ اللهَ يطفئُ بالدمعة نُهورًا من نيرانِ جهنَّم»[(٣)].

---

(١) الترمذي، أبواب فضائل الجهاد، باب ١٢ برقم ١٦٣٩.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ١٩ برقم ٤١٩٧.

(٣) تفسير الدر المنثور.

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾

١٠٦ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: **«صلّى صَلَواتُ الله عليه بمكّةَ ذاتَ يوم، فدَعا اللهَ تعالى، فقال في دعائه: «يا الله، يا رحمن»، فقال المشركون: انظُروا إلى هذا الصابئ، يَنْهانا أن ندعوَ إلهَيْن، وهو يدعو إلهَيْنِ، فنَزَل:** ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ ... **الآيةَ»**[١]، يعني: أنّ اللهَ والرَّحمنَ ليسا اسمَيْنِ لذاتَيْنِ مختلفتَيْنِ، وإنّما الرَّحمنُ اسمُ صفةٍ لمنِ اسمُه الذاتيُّ: **الله**.

صفاتُ الله تعالى كثيرةٌ للغاية، ولهذا فإنّ أسماءَ صفاتِه تعالى كثيرةٌ أيضًا، مثلَ: الرَّحمن، الرَّحيم، الخالق، الرازق، وغيرِها ممّا وَرَد ذكرُه في القرآنِ الكريم والسُّنّةِ النّبويّة المطهَّرة، وصفاتُ الله تعالى هي الأكمَلُ والأعلى، والأسماءُ العظيمةُ التي تدُلُّ على هذه الصِّفات هي الأفضَلُ والأعلى أيضًا، ولهذا أيًّا كان الاسمُ الذي تنادُونَ به اللهَ تعالى، فهو الأفضَلُ، والمرادُ من كلِّ هذه الأسماءِ ذاتٌ واحدةٌ هي ذاتُ الله تعالى.

﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾

١٠٧ـ **«رَوى ابنُ عبّاسٍ، في قولِه تعالى:** ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ **قال: نَزَلت ورسولُ الله ﷺ مُتَوارٍ بمكّةَ، وكان إذا صَلّى بأصحابِه رَفَع صوتَه بالقرآن، فإذا سَمِع ذلك المشركونَ سَبُّوا القرآنَ ومَن أَنْزلَه ومَن جاء به، فقال الله تعالى:** ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ **فيسمَعَ المشركونَ قراءتَك.** ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ **عن أصحابِك، أسمِعْهمُ القرآنَ ولا تجهَرْ ذلك الجهرَ»**[٢].

ويُعلَمُ منه أنه حيثُما كانتِ الظروفُ مشابهةً لظروفِ مكّةَ، فعليكَ قراءةُ القرآنِ

---

(١) التفسير المنير.

(٢) تفسير القرطبي.

وذِكرُ الله تعالى والدُّعاءُ له بصوتٍ متوسِّط، حتى لا تُتاحَ لغيرِ المسلمينَ فُرصةٌ لإهانة الإسلام.

ويُروى «**أنّ أبا بكرٍ رضي اللهُ عنه كان يَخفُتُ في قراءتِه، ويقول: أُناجي ربِّي، وقد عَلِم حاجتي، وعُمرُ كان يَجهَرُ بها ويقول: أَطرُدُ الشيطانَ وأوقظُ الوَسْنان، فلمّا نَزلت الآية، أمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أبا بكرٍ رضي اللهُ عنه أن يرفعَ صوتَه قليلًا وعُمرَ رضي اللهُ عنه أن يَخفِضَ قليلًا**»[1].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾

١٠٨ـ الحمدُ والثّناءُ كلُّه لله تعالى، فهو المتَّصفُ بكلِّ صفاتِ الكمال، وهو المنزَّه عن كلِّ عَيْبٍ ونَقْص وضَعْف وحاجةٍ لغيرِه، ولا يحتاجُ إلى مُعِين أو ابنٍ أو شريك، فهو وحدَه مالكُ هذه الكائنات، ولهذا هو وحدَه الذي يليقُ أن يتمَّ بيانُ كبريائه.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزَاده
جامعةُ الكرَم، إيتن هال، إنجلترا

اكتمَل تفسيرُ سُورة الإسراءِ بعدَ صلاةِ ظُهر اليوم السَّبت ٥ من مايو عام ٢٠٠٧م
الموافق ١٧ من ربيع الثاني عام ١٤٢٨هـ
في شهرٍ وثمانيةَ عشَرَ يومًا
والحمدُ لله ربِّ العالمين،
والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين،
وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

(١) التفسير المنير.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١٨) سُورَةُ الكَهۡفِ

هذه السُّورةُ مكِّيّةٌ، واسمُها «الكَهْف»، بمعنى: «الغار»؛ لأنّ فيها ذِكرًا لأصحابِ الكهفِ «الذين كانوا في الغار».

وفي الآية الأولى من هذه السُّورة إعـلانٌ بأنّ اللهَ تعالى أَنْزل القرآنَ المَجِيدَ على عبدِه الخاصِّ سيّدِنا محمَّد ﷺ، وأنّ القرآنَ المَجِيدَ صحيفةٌ كاملةٌ من الرُّشدَ والهداية، وليس في تعاليمِه أيُّ عيبٍ أوِ اعوِجاج، وجاء فيه أيضًا بيانٌ لعظَمة الله تعالى بحيثُ لو تبدَّلت مياهُ البحار إلى أحبارٍ، وكُتِبت بهذه الأحبارِ أحاديثُ حِكمةِ الله تعالى وقُدرتِه، فسوف تنتهي مياهُ بحارٍ كثيرةٍ ولن يمكنَ الإحاطةُ بكلِّ ما يتعلَّقُ بهذه العظَمةِ والقُدرة.

جاء في هذه السُّورة بيانٌ تفصيليٌّ لثلاثِ قِصَص:

١ ـ قصّةُ أهلِ الكهف:

وكان هؤلاءِ مجموعةً من الشَّباب المؤمنِ الذين هاجَروا من وطَنِهم حفاظًا على دينِهم، ولجَأوا إلى غارٍ في الجبل، وسلَّطَ اللهُ تعالى عليهمُ النَّومَ لثلاثِمائةٍ وتسع سنين[1]، ثم أيقَظَهم اللهُ من نومِهم.

وفي القصّةِ درسُ عِبرةٍ للمشركين، وهو أنّ اللهَ تعالى، الذي بثَّ الحياةَ من

---

(١) «وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فرارًا بدينهم ولجأوا إلى غار في الجبل، ثم مكثوا فيه نيامًا ثلاثمائة وتسعَ سنين، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة». صفوة التفاسير.

جديدٍ في أصحابِ الكهفِ بعدَ نوم استمرَّ مئاتِ السنين، يستطيعُ أيضًا أن يبعثَكم يومَ القيامة أحياءً من جديد، وكان بعضُ المسلمينَ من مكّةَ قد هاجَروا إلى الحبَشة فِرارًا بدينِهم، وكان الباقونَ سيهاجِرون إلى المدينة قريبًا، وبالتالي كان في قصّةِ أصحاب الكهفِ تسرِيةٌ عن قلوبِهم، بأنّ أهلَ الإيمان قبلَكم أيضًا كانوا يهاجِرونَ فرارًا بدينِهم.

٢ ـ قصّةُ سيّدِنا موسى وسيّدِنا الخَضِر عليهما السَّلام:

رأى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ثلاثةَ أحداثٍ تبدو ـ في الظاهر ـ منافيةً للعدل والحِكمة، ولكنْ حين رَفَع سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام الحجابَ عن حقيقةِ هذه الأحداث ثَبَت أنها الحِكمةُ بعينِها، ويمكنُكَ مراجعةُ هذه الحِكمة في الآيات من ٧٩ إلى ٨٢ من السُّورة.

وبنفسِ الطريقة، نحن أيضًا نرى في هذه الدُّنيا بعضَ الأحداث لا نستطيعُ استيعابَها، ونظنُّها منافيةً للعدلِ والحِكمة، وهذا ظنُّنا نحن، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ أيَّ فعل من أفعال الله تعالى لا يخلو من حِكمة، وحينَ يُرفَعُ الحِجابُ عن حقيقةِ هذه الأحداثِ في ميدانِ الحَشْر، ستبدو لنا حينَئذٍ هي الحِكمةَ بعَيْنِها.

٣ ـ قصّةُ ذي القرنَيْن:

في هذه القصّة درسُ عِبرةٍ للأثرياءِ والحُكّام، بأنّكم ـ في نَشوة ثروةٍ بسيطة، أو حكومةٍ عاديَّة ـ تنسَوْنَ اللهَ تعالى، بينَما كان ذو القرنَيْنِ يَحكُمُ منطِقةً شاسعةً من الشرقِ إلى الغرب، ولكنّه ـ مع ذلك ـ كان يتَّقي اللهَ تعالى، وكان رحيمًا على رعاياه.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العصر من يوم الأحد ٦ مايو ٢٠٠٧م
الموافق ١٨ ربيعٍ الثاني عام ١٤٢٨هـ

سُورَةُ الكَهْفِ (١٨)،

مكية (٦٩)، آياتها (١١٠)، ركوعاتها (١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾

١ ـ يُعلَمُ من الآيةِ الأولى أنّ القرآنَ الكريمَ الذي أَنْزله اللهُ تعالى على عبدِه المقرَّب سيّدِنا محمدٍ ﷺ ليس فيه أيُّ زيادةٍ أو نقصانٍ، ويُعلَمُ من الآيةِ الثانية أنّ القرآنَ الكريمَ بذاته كتابٌ كاملٌ لا عيْبَ فيه، ليس هذا فقط، وإنّما يصحِّحُ عقائدَ

الذين يؤمنونَ به وأعمالَهم أيضًا، كما أنه يُنذر الذين يعملونَ السيِّئاتِ من عذابِ الله تعالى بأنّهم إن لم يَرجِعوا عن أعمالِهم السيِّئة فسيكون مصيرُهم جهنَّمَ، وفي نفسِ الوقت يبشِّر الذين يعملونَ الصّالحاتِ بأنّ لهم الأَجْرَ العظيمَ والجنّةَ التي سيُخلَّدون فيها.

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾

٢ ـ مِن مقاصدِ نزول القرآنِ الكريم أيضًا: أنه يحذِّرُ الذين يُثبِتُون لله تعالى الولَدَ من عذابِ الله تعالى، مثلَما قالوا عن سيّدِنا عيسى عليه السلام: إنه ابنُ الله! وكان بعضُ المشركينَ يقولون: إنّ الملائكةَ بناتُ الله، معَ أنه ليس لديهم ولا لدى آبائهم وأجدادِهم دليلٌ علميٌّ على هذا الكلام، فما أعظمَ هذا الكذبَ والافتراءَ على الله تعالى.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

٣ ـ في هذه الآية طَمْأَن اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بأنْ لا تُحزِنْ نفسَك على المشركينَ الذين لا يؤمنونَ بك، ولا تنغِّصْ حياتَك بسببِ عدم إيمانِهم؛ لأنك قد أدَّيتَ حقَّ الدَّعوة إلى الله، ولهذا إذا لم يؤمنْ هؤلاءِ فلن تُسألَ عنهم؛ لأنهم هم المسئولونَ عن كفرِهم.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

٤ ـ زيَّن اللهُ تعالى هذه الأرضَ بالحقولِ والأشجارِ والحدائقِ وغيرِها، وأراد ابتلاءَ الإنسانِ بكلِّ هذه النِّعم؛ مَن يستغرِقُه جَمالُ هذه النِّعم وحُسنُها فينسَى اللهَ تعالى، ومَن سيَحنِي رأسَه خضوعًا لحُكم الله تعالى رَغْم هذه النِّعم؟

قال رسولُ الله ﷺ «إنّ لكلّ أُمّةٍ فتنةً، وفتنةُ أُمّتيَ المالُ»[1]، ولمزيدٍ من التعرُّف على حقيقة زينةِ الدنيا وأموالِها راجع الآيةَ رقم **١٨٥** من سُورة آلِ عمران **(٣)**، وكذا الحاشيةُ رقم **١٣٢**، وأيضًا الآيةُ رقم **١٠٠** من سُورة الإسراء **(١٧)**، وكذا الحاشية رقم **٩٨**.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾

٥ النِّعمُ في هذه الأرض عارِضةٌ مؤقَّتةٌ فانية، وستزولُ في يوم من الأيام، ولن يكونَ في ميدانِ القيامة حدائقُ ولا خُضرة، وستكونُ الأرضُ كلُّها كميدانٍ صَخْريٍّ بُور، ولهذا فإنّ تَرْكَ نِعَم الله الخالدة، والتعلُّقَ بهذه النِّعم الفانية ليس من العقل في شيءٍ.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾

٦ ـ المرادُ بأصحابِ الكَهْف: تلك المجموعةُ من الشّبابِ المؤمنِ الذين كانوا موحِّدين، ومِن أَتْباع سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، وقد هاجَروا من وطنِهم حفاظًا على دينِهم، ولَجَأوا إلى الجبل، ودَعَوا اللهَ تعالى أن يُثبِّتَهم على إيمانِهم.

والمرادُ بالرَّقِيم: إمّا أن يكونَ تلك المنطقةَ التي كان بها الكهفُ، أو تلك اللَّوحةَ التي كان مكتوبًا عليها أسماءُ أصحابِ الكهف، ولهذا فإنّ المرادَ بأهلِ الكهف وأصحابِ الرَّقيم هو: تلك الجماعةُ.

وفي هذه الآية يُخبِرُ اللهُ تعالى أهلَ مكّةَ بأنّكم تَعجَبونَ لهذه الواقعةِ فقط؟ معَ أنّ خَلْقَ السّماءِ والأرضِ والشمسِ والقمر آياتٌ أكبرُ وأعظَمُ من هذه القصَّة، كما أنّ تعاقُبَ اللّيل والنهارِ الذي يجري منذ ملايينِ السِّنينَ بكلِّ تنظيم وترتيبٍ، ليس آيةً بسيطةً بدَوْرِه.

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب **٢٦** برقم **٢٣٣٦**.

قصة أهل الكهف:

قصّةُ سيّدنا يوسُفَ عليه السَّلام هي القصّةُ الوحيدةُ التي جاء بيانُها تفصيلًا في القرآنِ الكريم؛ لأنّ كثيرًا من أحداثِ حياة سيّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام وأحداثِ حياة سيّدِنا محمّدٍ ﷺ متشابهةٌ إلى حدٍّ كبير، بينَما بيَّنَ القرآنُ الكريمُ أجزاءً من القَصَص الأُخرى التي تتعلَّقُ بتعليم الناس وهدايتِهم، وهكذا بيَّن القرآنُ الكريمُ بعضَ الوقائع الخاصّة من قصةِ أهل الكهف، وإن كان المفسِّرونَ قد كَتَبوا كثيرًا عنها، وأنا فيما يلي أُقدِّمُ خلاصةَ بعضِ ما كتبوا.

كان حاكمُ الرُّوم وَثَنيًّا، وفي عام ٢٤٨م ارتقَى دِقْيانوسُ (Decius) عرشَ الرُّوم، فقام بحَظْر النَّصرانيّةِ في بلادِه، وكان يقتُل النصارى في أيِّ منطقةٍ يذهبُ إليها من البلاد[١]، وحين ذهبَ دِقْيانوسُ إلى آسيا الصُّغرى رَفَض سبعةٌ من الشّبابِ النَّصارى تَرْكَ النَّصرانيّة، فقال لهم دِقْيانوس: أنتم شبابٌ، ولهذا أُمهِلُكم ثلاثةَ أيام، فإنْ لم تقبَلوا عبادةَ الأصنام خلالَ هذه الأيام الثلاثِ قتلتُكم، فاستغلَّ هؤلاءِ الشّبابُ مُهلةَ الثلاثةِ أيام هذه وهاجَروا من هناك، وفَرُّوا إلى كهفٍ في جبلٍ للحفاظِ على دينِهم، ودَعَوا اللهَ تعالى أن يُنجيَهم من شرِّ هذا الحاكم الظالم، وأن يُثبِّتَهم على الإيمان، فاستجابَ اللهُ دعاءهم، وسَلَّط عليهم النَّومَ، وكان معَهم كلبٌ سار معَهم، وحاولوا إبعادَه عنهم، لكنّه لم يترُكْهم، وحينَ نام هؤلاءِ الشّبابُ ظلَّ الكلبُ جالسًا ممدِّدًا رجلَيْه أمامَ باب الغارِ لحراستِهم.

وهكذا مضَت ثلاثُمائةٍ وتسعةُ أعوام، وفي تلك الفترة مات دِقْيانوسُ، وخَلَفَه ملوكٌ آخَرونَ حَكَم كلٌّ منهم فترةً ورَحَل، وخَربت مُدنٌ وعمِّرت مدُنٌ، إلى أنْ جاء يومٌ دَخَل فيه أهلُ الرُّوم وحاكمُهم في النَّصرانية، وعندَئذٍ أَيْقظَ اللهُ

(١) دائرة المعارف البريطانية، المجلد ٧: ١٢٠.

تعالى هؤلاءِ الشّبابَ من نَوْمِهم الطَّويل، فنَهَضوا وهم يَفرُكونَ أعيُنَهم بأيديهم، وظنُّوا أنهم ربَّما ناموا اليومَ أكثرَ من الأيام العاديَّة، لكنّهم لم يتخيَّلوا أبدًا أنهم ناموا هنا لأكثرَ من ثلاثةِ قرون، ولهذا كانوا يسألُ بعضُهم بعضًا: كم نِمْنا هنا؟

وقال أهلُ الكهفِ لواحدٍ منهم أن يذهبَ إلى المدينة ليشتريَ لهم طعامًا، وأخبَروه أن يكونَ على حَذَرٍ حتى لا يتعرَّف عليه الناسُ، ولكنْ حينَما ذهبَ هذا الشابُّ إلى المدينة أخَذتْه الحَيْرةُ والدَّهشة، فقد تغيَّرت الدنيا تمامًا، وأصبح الناسُ جميعًا نَصارَى، فقام بشراءِ بعضِ الخُبز من أحدِ حوانيتِ الخبز، وأعطى الخبازَ العُملةَ الفِضِّيَّة القديمةَ التي كان منقوشًا عليها صورةُ الملِك دِقْيانوسَ، تعجَّبَ صاحبُ الحانوتِ كثيرًا حين رأى العُملةَ الفِضِّيَّة، وطال النقاشُ بينَه وبينَ الشابِّ، حتى تجمَّع أصحابُ الحوانيتِ القريبة، واتَّهموه بأنه سَطَا على كَنْزٍ ملكيٍّ قديم، ووَصَل الأمرُ إلى حاكم المدينة، فعَلِموا عندَئذٍ أنّ هذا الشابَّ واحدٌ من أولئك السبعةِ الذين فَرُّوا من مظالم الملِك دِقْيانوسَ، وفَرِح الناسُ كثيرًا، واتَّجهوا جميعًا إلى الكهفِ لرؤيتِهم، وحين رأى أهلُ الكهفِ هذا الجَمْعَ الغفيرَ قادمًا ناحيتَهم ظنُّوا أنّ زميلَهم قد أُلقي القبضُ عليه فأرشَدَ إلى مكانِهم وهذا الجَمْعُ قادمٌ للإمساكِ بهم. وحين وَصَل الناسُ بقيادةِ حاكم المدينة إلى الكهفِ عَلِم هؤلاءِ أنه قد مضَى عليهم في هذا المكانِ أكثرُ من ثلاثةِ قرون، والتقَى الناسُ بأصحابِ الكهف، وتبرَّكوا بهم، ثم فجأةً استلقَى هؤلاءِ الشبابُ السبعةُ وصَعِدت روحُهم إلى بارئها، وبنَى الناسُ مزارًا على بابِ الكهف، وهذه كرامةٌ من كراماتِ أولياءِ بني إسرائيلَ الصّالحين.

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

٧ ـ أغلقَ اللهُ تعالى آذانَهم حتى لا يُقلِقَ صوتٌ من الأصواتِ منامَهم.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾

٨ ـ حينَ استيْقَظوا من نومِهم أخَذوا يتناقشونَ سويًّا؛ كم من الوقت ناموا؟ قال أحدُهم: لقد ناموا اليومَ كلَّه، وقال الآخَر: بل ناموا بعضَ اليوم لا اليومَ كلِّه، بينَما أخبَرهم أهلُ المدينة أنهم ناموا ثلاثَمائةِ عام وتسعًا.

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

٩ ـ حين آمَن هؤلاءِ الشّبابُ السَّبعةُ بربِّهم مخلِصينَ من قلوبِهم في بيئةِ عبادةِ الأصنام هذه، أضاء اللهُ تعالى لهم طريقَ الهداية وزاده نورًا، مثلَما قال اللهُ تعالى في موضعٍ آخَرَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾:

١٠ ـ كما أننا جعَلْنا قلوبَهم قويّةً بحيثُ أنّهم وَقَفوا في وجْهِ حاكمٍ ظالم قائلين:

ربُّنا هو ربُّ السّماواتِ والأرض، ولن نعبُدَ سواه أبدًا، ولو أنّنا عبَدْنا هذه الأصنامَ فلن يكونَ هو الحقَّ، ولهذا لن نرتكبَ هذا الخطأَ أبدًا.

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾

١١ ـ ما أعجَبَ قومَنا! فقدِ اتَّخَذوا لهم آلهةً من دونِ الله تعالى، وليس لديهم أيُّ دليلٍ واضح يؤيِّدُ عبادتَهم لغيرِ الله تعالى؛ لأنّ اللهَ تعالى لا شريكَ له، ولهذا هل هناك أكثرُ ظلمًا ممَّن يفتري على الله كذبًا؟

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

١٢ ـ ثم أخَذ هؤلاء الشبابُ يقولونَ لبعضِهم: إذا كنتُمُ اختَرتُم البُعدَ عن آلهتِهم، فعليكم أن تَخرُجوا من هنا نجاةً من فِتَنِهم، وفِرُّوا إلى غارٍ تختبئونَ فيه، واللهُ يرحمُكم، وييسّرُ أمرَكم. وهكذا، خَرَجوا إلى الغارِ واختبأوا فيه، وقد حاول جنودُ الحاكم الظالم البحثَ عنهم ولكنْ دونَ جَدْوى، مثلَما خَرج كُفّارُ مكةَ بحثًا عن النبيِّ ﷺ حتى غارِ ثور، ولكنّهم لم يَصِلوا إليه ﷺ في الغار.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ﴾

١٣ ـ رَغْمَ أنّهم كانوا مستَلْقِينَ في مكانٍ فسيح في الغار، لكنّ ضوءَ الشمس لم يكنْ يصِلُ إليهم، وكان الوضعُ هو أنّ فتحةَ الغارِ كانت باتّجاهِ الشمال، وهكذا

كانت الشمسُ تُشرقُ من الناحيةِ اليُمنى للغار، وتَغرُبُ في الناحيةِ اليُسرى له، وبهذا الشَّكل كانوا في مَأْمنٍ من شدّةِ الحرارة وحدّتِها طيلةَ النهار.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾

١٤ ـ هذه الواقعةُ بمثابةِ آيةٍ على قُدرةِ الله تعالى وكرامةٍ لأهل الكهف، كما أنها درسُ عِبرةٍ أيضًا، فالذين يطلُبونَ الهدايةَ مخلِصينَ صادقين، يصبحُ حتى الكهفُ في الجَبلِ أيضًا سببًا في حفظِ إيمانِهم، أمّا الذين يختارونَ طريقَ الضّلال عَمْدًا، فلن يستطيعَ إنسانٌ أن يهديَهم مهما كان عظيمًا.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾

١٥ ـ حين نام أهلُ الكهفِ كانت أعيُنُهم مفتوحةً، وكانوا يتقلبّونَ يمينًا ويسارًا،

في مثلِ هذه الحالة لوِ افترَضْنا أنّ أحدًا رآهُم، فإنه كان يظُنُّ أنهم مستَيْقِظون، ولكنّ اللهَ تعالى، حفاظًا عليهم، جَعَل الجوَّ داخلَ الكهفِ مُوحِشًا ومُرعِبًا لدرجةِ أنه لو حاوَلَ أحدٌ أن يتلصَّصَ عليهم لَخاف ووَلَّى هاربًا.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾

١٦ - ينقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ - في هذا الإطار - قولَ كعبٍ «مَرُّوا بكلبٍ فنَبَح لهم فطَردوه، فعاد فطَردوُه مرارًا، فقام الكلبُ على رِجلَيْه ورفَعَ يدَيْه إلى السّماءِ كهيئةِ الدّاعي، فنَطَق فقال: لا تخافوا منّي أنا أُحبُّ أحِبّاءَ الله تعالى فناموا حتّى أحرُسَكم»[1].

حب أولياء الله الصالحين:

١ - يقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ: «إذ كان بعضُ الكلابِ قد نال هذه الدّرجةَ العليا بصُحبتِه ومخالطتِه الصُّلَحاءَ والأولياءَ حتّى أخبَر اللهُ تعالى بذلك في كتابِه جلّ وعلا، فما ظنُّك بالمؤمنينَ الموحِّدينَ المخالِطينَ المحبِّينَ للأولياءِ والصّالحين؟»[2].

٢ - يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: «جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متى قيامُ السّاعة؟ فقام النّبيُّ ﷺ إلى الصّلاة، فلمّا قضَى صلاتَه قال: «أين السّائلُ عن قيام السّاعة؟». فقال الرّجل: أنا يا رسولَ الله. قال: «ما أعددتَ لها؟» قال: يا رسولَ الله، ما أعدَدْتُ لها كبيرَ صلاةٍ ولا صومٍ، إلّا أنّي أحبُّ اللهَ ورسولَه. فقال رسولُ الله ﷺ: «المرءُ معَ مَن أحبَّ، وأنت معَ مَن أحبَبْتَ». (قال أنسٌ رضي الله عنه: فما رأيتُ فَرِح المسلمونَ بعدَ الإسلام فرَحَهم بهذا)[3].

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٥٠ برقم ٢٣٨٥.

٣ ـ وفي روايةٍ أخرى: قال سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه: فما فَرِحنا بعدَ الإسلام فَرَحًا أشدَّ من قولِ النّبيّ ﷺ: «فأنت معَ من أحبَبْتَ». قال أنسٌ: فأنا أحبُّ اللهَ ورسولَه وأبا بكرٍ وعُمرَ، فأرجو أن أكونَ معَهم وإن لم أعمَلْ بأعمالِهم[1].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أبو موسى رضي اللهُ عنه: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، كيف ترى في رجلٍ أحبَّ قومًا ولمّا يلحَقْ بهم؟ قال رسولُ الله ﷺ: «المرءُ معَ مَن أحبّ»[2].

الحب في الله:

١ ـ عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لو أنّ عبدَيْنِ تَحابَّا في الله، واحدٌ بالمشرق وآخَرُ بالمغرب، لَجَمعَ اللهُ بينَهما يومَ القيامة، يقول: هذا الذي كنتَ تحبُّه فيّ»[3].

٢ ـ قال اللهُ تعالى في الحديثِ القُدُسي: «وَجَبتْ محبّتي للمتحابّينَ فيَّ والمتجالسينَ فيّ والمتزاورينَ فيّ والمُتباذِلينَ فيَّ»[4].

٣ ـ قال رسولُ الله ﷺ ـ فيما رواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه ـ: «إنّ اللهَ يقولُ يومَ القيامة: أين المتحابُّونَ بجلالي؟ اليومَ أُظِلُّهم في ظِلّي يومَ لا ظلَّ إلّا ظلّي»[5].

٤ ـ قال النبيُّ ﷺ ـ فيما رواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه ـ: «إنّ رجلًا زار أخًا له في قريةٍ أخرى، فأَرْصَد اللهُ له على مَدرَجتِه مَلَكًا، فلمّا أتَى عليه قال: أين تريدُ؟ قال: أريدُ أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمةٍ تَرُبُّها؟ قال: لا، غيرَ أنّي

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٥٠ برقم ٢٦٤٠.

(٣) كنز العمال، ٩: ٤ برقم ٢٤٢٤٦.

(٤) مسند أحمد، ٥: ٢٣٣.

(٥) مسلم، كتاب البر، باب ١٢ برقم ٢٥٦٦.

أحببتُه في الله عزّ وجلّ. قال: فإنّي رسولُ الله إليك بأنّ الله قد أحبَّك كما أحببته فيه»[١].

٥ - يُروى عن سيّدِنا أنسِ بن مالك رضي الله عنه، أنّ رجلًا كان عندَ النّبيِّ ﷺ، فمرَّ به رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إنّي لَأُحبُّ هذا. فقال له النّبيُّ ﷺ: «أعلَمْته؟». قال: لا. قال: «أعلِمْهُ». قال: فلَحِقَه فقال: إنّي أحبُّكَ في الله. فقال أحبَّك الّذي أحببتَني له[٢].

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

١٧ - كما أننا جعَلْناهم ينامونَ لفترةٍ طويلة، يمكنُنا أن نَجعَلَهم يستَيْقِظونَ أيضًا، بمعنى: أنّ النومَ لهذه الفترة الطويلة، ثم النهوضَ سالمينَ لا شيءَ فيهم، ما هما إلا آيتانِ على قدرةِ الله تعالى، وبعدَ أنِ استَيْقَظوا شعَروا أنّهم قد ناموا اليومَ أكثرَ من ذي قَبْلُ، ولهذا سأل بعضُهم بعضًا: كم من الوقتِ ناموا؟ قال أحدُهم: نِمْنا اليومَ كلَّه، وقال الآخَر: بل نِمْنا بعضَ اليوم. ثم قالوا: دَعْكم من هذا النقاشِ العقيم، واللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم كم من الوقتِ نِمْنا، والآنَ عليكم أن تُرسِلوا أحدَكم إلى المدينةِ ليشتريَ لنا طعامًا، ولكنْ على مَن يذهبُ أن يبحثَ لنا عن الطّعام الحَلالِ الطاهر، هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ عليه أن يكونَ حَذِرًا، وألّا يجادلَ أحدًا، حتّى لا يعرفَ أحدٌ بوجودِكم؛ لأنه لو عَلِم أَتْباعُ ذلك الحاكم الظالم بوجودِكم فسيمُسِكونَ بكم ويرجُمونَكم، أو يعيدونَكم إلى الكُفرِ والشِّرك، ولئن نَجَحوا في

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٢ برقم ٢٥٦٧.

(٢) أبو داود، كتاب الأدب برقم ٥١٢٥.

إعادتِكم إلى الكُفرِ والشِّرك، فقد ضاعَ هدفُكم من هذه الهجرة، ولن تُفلِحوا بعدَ ذلك أبدًا. وقد مرَّت مثلُ هذه الواقعة قبلَ ذلك في الآية رقم **٢٥٩** من سُورة البقرةِ (٢)، حيث أحيا اللهُ تعالى سيّدَنا عُزَيْرًا عليه السلام بعدَ أن أماتَه مائةَ عام.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾

١٨ ـ في واقعةِ أهل الكهفِ هذه نموذَجٌ ممتازٌ لمُنكري يوم القيامة، بأنه مثلَما أحيا اللهُ تعالى هؤلاءِ بعدَ مئاتِ السنين، يستطيعُ أن يُحييَ الجميعَ مرةً ثانية، ومن المؤكَّدِ أنّ وعدَ الله تعالى ـ فيما يتعلَّقُ بقيام الساعة ـ صادقٌ تمامًا.

﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾

١٩ ـ بعدَ أن استَيْقَظ أصحابُ الكهفِ من نومِهم الطَّويل وماتوا مِيتةً طبيعيَّة، اختلف الناسُ في وَضْع ما يحدِّدُ مكانَ قبرِهم، فقال البعضُ: نبني مبنىً عند فتحةِ الغار يُخلِّدُ ذِكراهم، لكنّ رأيَ الأكثريّةِ كان أن يَبْنوا مكانًا للعبادة قربَ الغار، حيث يعبُدُ الناسُ فيه اللهَ سبحانه وتعالى.

بناء المساجد بالقرب من الأضرحة:

١ ـ يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي: «هذه الآيةُ تدُلُّ على جوازِ بناءِ المسجد ليُصَلَى فيه عندَ مقابرِ أولياءِ الله قصدًا للتبرُّكِ بهم. وقد كان الشيخُ الأستاذُ محمَّد فاخِر المحدِّثُ رحمه الله يكرَهُ ذلك مستدِلًّا بما رواه مسلم، عن ابن الهَيّاج الأسَديِّ، قال: قال لي عليٌ: ألَا أبعثُك على ما بعثَني رسولُ الله ﷺ؟ أن لا تدعَ تمثالًا إلا طمسْتَه، ولا قبرًا مُشرِفًا إلّا سوَّيتَه ... وما رَوى مسلمٌ، عن جابر، قال: نَهى رسولُ الله ﷺ

أن يُجصَّصَ القبرُ وأن يُبنَى عليه وأن يُقعَدَ عليه ... وما رَوى الشَّيخانِ عن عائشةَ وابنِ عبّاس رضي الله عنهم، قالا: لمّا نَزَل برسولِ الله ﷺ طَفِق يَطرَحُ خَمِيصةً له على وجهِه، فإذا اغتمَّ كشَفَها عن وجهِه ويقول وهو كذلك: لعنةُ الله على اليهودِ والنَّصارى اتَّخَذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ ... قالت: يحذِّرُ مثلَ ما صَنَعوا. قلت: هذه الأحاديثُ تدُلُّ على كراهةِ تجصيصِ القبورِ والبناءِ عليها وجَعْل القبورِ مُشرِفةً ... ولا دلالةَ لها على كراهةِ بناءِ المسجد بقربٍ منها ... ومعنى: «اتَّخَذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» أنهم يسجُدونَ إلى القبور»[١]، كما هو صريحٌ في حديثِ أبي مَرثَدٍ الغَنَويِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ولا تجلسوا على القبور ولا تُصَلُّوا إليها»[٢].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا صَدْرُ الأفاضل: «يُعلَمُ من هذه الآية أنّ بناءَ المساجدِ بالقربِ من أضرحةِ الأولياءِ طريقةٌ قديمةٌ من طُرُقِ أهل الإيمان، وذِكرُه في القرآنِ الكريم وعَدَمُ المَنْع منه بمثابةِ الدَّليل القويِّ على صحّةِ هذا العمل، ويُعلَمُ منه أيضًا أنّ البرَكةَ تحُلُّ بجوارِ الأولياء، ولهذا يذهبُ الناسُ لزيارةِ أضرحة أولياءِ الله للتبرُّكِ بها، ولهذا أيضًا فإنّ زيارةَ القبورِ سُنّةٌ ومُوجِبةٌ للثواب[٣].

٣ ـ يقولُ العلّامةُ سيّدُ محمَّد الأَلُوسيُّ: «ويكفيكَ في معرفةِ الحقِّ تتبُّعُ ما صَنَع أصحابُ رسول الله ﷺ في قبرِه عليه الصّلاةُ والسلام، وهو أفضَلُ قبرٍ على وجهِ الأرض، بل أفضَلُ من العرش، والوقوفُ على أفعالِهم في زيارتِهم له والسّلامُ عليه، عليه الصّلاةُ والسلام، فتتبَّعْ ذاك»[٤].

---

(١) التفسير المظهري.
(٢) مسلم، كتاب الجنائز، باب **٣٣** برقم **٢٢٥٠**.
(٣) تفسير خزائن العرفان.
(٤) تفسير روح المعاني.

٤ ـ بُني قبرُ رسولِ الله ﷺ في حُجرةِ أُمِّ المؤمنينَ السيِّدةِ عائشةَ رضي الله عنها، وهذه الحُجرةُ على أيِّ حالٍ كانت بناءً مسقّفًا (أي: ذا سَقْف)، والمسجدُ النبويُّ بجوارِ هذا القبرِ المبارك، حيث يُصلِّي المسلمونَ فيه من زمنٍ بعيد وحتى يومِنا هذا[1].

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

٢٠ ـ جاء في هذه الآية بيانٌ لأقوالِ الناس عن عددِ أهل الكهف، وهي ثلاثةُ أقوال؛ أي: ثلاثةٌ وخمسةٌ وسبعة، وأكثرُ المفسِّرينَ على أنّ عددَهم كان سبعةً، والثامنُ هو الكلب؛ لأنّ القرآنَ الكريم يقولُ بعدَ القولَيْنِ الأوَّلَيْنِ: إنّ هذا هو حَدْسُهم بغيرِ أن يرَوْا شيئًا، وبعدَ القولِ الثالثِ لا يتحدَّثُ عن حَدْسٍ آخَر، مما يشيرُ إلى صحةِ هذا القول.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾

٢١ ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم عددَهم، ولهذا ناقِشوا عن أصحابِ الكهف بما أوحَى اللهُ به فقطْ، ولا حاجةَ لكم إلى سُؤالِ أهل الكتابِ عنهم، ولكنْ هناك القليلُ من الناسِ يعرِفونَ عددَهم الصَّحيحَ، مثلَما كان سيّدُنا ابنُ عباس رضي اللهُ عنه يقول: «أنا من ذلك القليل»، (أي: الذين يعرِفونَ أنهم كانوا سبعةً وثامنُهم كلبُهم)، ثمّ ذَكَر السّبعةَ بأسمائهم[2].

---

(١) تفسير تبيان القرآن.

(٢) تفسير القرطبي.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾

٢٢ ـ في هذه الآية جاء الإرشادُ إلى أهل الإيمان أنه كلَّما أراد مسلمٌ أن يقومُ بعملٍ من الأعمال، عليه أن يقولَ: «إن شاء الله»، وإذا نَسِي أن يقولَ: «إن شاء اللهُ» في وقتِها، فعليه أن يقولَها حالَما يَذكُرُها، فالبركةُ تحُلُّ في العمل بسببِها، ومن الممكن أن يهديَه اللهُ إلى عملٍ أفضلَ منه أيضًا.

سهو النبي ﷺ في الصلاة:

١ ـ ذاتَ مرةٍ سَها النبيُّ ﷺ في الصَّلاة، فسَجَد سجدتَيْنِ للسَّهو، ثم قال: «إنّه لو حَدَث في الصّلاةِ شيءٌ لَنبّأتُكم به، ولكنْ إنّما أنا بَشرٌ مثلُكم (يعني: لستُ إلهًا)،

أنسى كما تنسَوْن، فإذا نَسِيت فذكِّروني، وإذا شكَّ أحدُكم في صلاتِه فلْيتحرَّ الصّوابَ، فلْيُتِمَّ عليه ثمّ يُسلِّمْ، ثمّ يسجُدْ سجدتَيْنِ»[١].

٢ ـ رَوى الإمامُ مالكٌ بسندِه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّي لَأنسى أو أُنَسَّى لِأَسُنَّ»[٢]، بمعنى: أنه إذا لَحِق السَّهوُ بأحدٍ من أُمتي فإنّ عمَلي أمامَه ليقتديَ به.

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾

٢٣ ـ «حَكَى النّقّاشُ ما معناه: أنّهم لبِثوا ثلاثَمائةِ سنةٍ شمسيّةٍ بحسابِ الأيّام، فلمّا كان الإخبارُ هنا للنّبيِّ العربيِّ ذُكِرت التِّسعُ، إذِ المفهومُ عندَه: من السّنينَ القمريّة، وهذه الزّيادةُ هي ما بينَ الحسابَيْن. ونحوَه ذَكَر الغَزْنَويّ. أي: باختلافِ سِنِيِّ الشّمس والقمر؛ لأنّه يتفاوتُ في كلِّ ثلاثٍ وثلاثينَ وثُلُثِ سنةٍ سنةً، فيكونُ في ثلاثِمائةٍ تسعُ سنين»[٣].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾

٢٤ ـ عُلِم من الآيةِ السابقة أنّ أهلَ الكهفِ مَكَثوا فيه بالحسابِ القمَريِّ ثلاثَمائةِ عام وتسعًا، ولكنْ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، رَغْمَ ذلك يختلفُ الناسُ في هذا، فقلْ لهم: هل أنتم أعلمُ أم اللهُ تعالى الذي كان يراهم؟ فإذا كان اللهُ تعالى قال: إنهم مَكَثوا في الغارِ ثلاثَمائةٍ سنينَ وتسعًا، فهذا هو الصَّحيحُ؛ لأنه هو ـ وحدَه فقط ـ الذي يَعلَمُ كم مَكَثوا في كهفِهم.

---

(١) البخاري، كتاب الصلاة، باب ٣١ برقم ٤٠١.
(٢) الموطأ، كتاب السهو، برقم ٢.
(٣) تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير.

﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

٢٥ ـ كلُّ غيبِ السماواتِ والأرض يَعلَمُه اللهُ تعالى، وهو المدبِّرُ لأمرِ أهل الكهف، فهو الذي حَفِظَهم هذه المدةَ الطويلةَ، إنه واحدٌ أحدٌ، قادرٌ مطلَقٌ، ولا شريكَ له.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾

٢٦ ـ رَغْمَ أنّ الخطابَ في هذه الآية للنبيِّ ﷺ، لكنه موجَّهٌ للأُمةِ الإسلاميّة كلِّها، يعني: عليكم بتلاوةِ كلِّ ما نَزَل في القرآنِ الكريم، فهو الحقُّ ويكفيكُم، ومَن يحاولُ التحريفَ في كلام الله تعالى، لن يستطيعَ أحدٌ أن يُفلِتَه من قَبْضتِه.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾

٢٧ ـ جاء هذا المضمونُ قَبْلًا في الآية رقم ٥٢ من سورة الأنعام (٦)، يعني: أنّ قُريشَ مكّةَ ذاتَ مرّة حينَ رأَوْا سيّدَنا بلالًا وسيّدَنا صُهيْبًا وسيّدَنا عمارًا رضي اللهُ عنهم جميعًا وأمثالَهم من فقراءِ الصَّحابة ومساكينِهم يجلسونَ عند النبيِّ ﷺ، قالوا في تكبُّر: يا محمَّد، ﷺ، إن كنتَ تريدُ أن نجلسَ نحن أيضًا عندَك، ونسمعَ كلامَك، فاطرُدْ هؤلاءِ المساكينَ من عندِك، إذْ تفوحُ منهم رائحةٌ كريهة، وجلوسُنا معَهم إهانةٌ لنا، فنَزَلت هذه الآيةُ، والمخاطَبُ الأصليُّ في هذه الآية هو الأُمةُ المسلمة، يعني: يا أهلَ الإيمان، إنّ صُحبةَ هؤلاءِ المساكين شرفٌ لكم وغنيمة، فطيِّبوا خاطرَهم، فهم الذين يَذكُرونَ اللهَ تعالى صباحَ مساءَ طلبًا لرضاه، وابتَعِدوا عن عُبّادِ الدنيا

أولئك، وهم الذين تغفُلُ قلوبُهم عن ذِكرِ الله، وقدِ ابتُلوا بالإفراطِ والتفريط في اتِّباع رغَباتِ أنفسِهم.

ويُعلَمُ من هذا أنّ صحبةَ الصالحينَ أمرٌ طيِّب، حتى وإن كانوا فقراءَ لا يملِكونَ شيئًا، وأنّ صحبةَ الأشرارِ أمرٌ سيِّئٌ، حتى وإن كانوا أغنياءَ يملِكونَ الكثيرَ.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

٢٨ ـ يعني: أنّ القرآنَ الكريمَ هو الحقُّ من ربِّكم، وقد أوضَحَ الحقَّ من الباطل تمامًا، والآنَ سواءٌ آمنتُم أم لم تؤمنوا فالأمرُ يرجعُ إليكم، لكنّ الذين لا يؤمنونَ بهذا الحقِّ، ولا يستمعونَ إليه جيِّدًا، سيُلقَوْنَ يومَ القيامة في نارِ جهنَّم تحيطُ بهم من كلِّ جانب، وإذا غَلَبَهم الظَّمأُ وطلَبوا الماءَ، فسيُسْقَوْنَ رصاصًا مصهورًا يحرقُ وجوهَهم أيضًا. ما أسوأَ هذا الشرابَ! وما أسوأها من عاقبةِ جهنَّم.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

٢٩ ـ أجرُ الصّالحينَ لا يَضِيع، وسيَخلُدونَ في الجِنان ونعيمِها إلى أبدِ الآبدين، وسيَلبَسُونَ أساورَ من ذهبٍ ولباسًا من الحرير، ويجلسونَ على أرائكَ وأسِرّةٍ بكلِّ عظَمةٍ وفخامةٍ ورفعةِ شأن.

ونحنُ لا نستطيعُ أن نتصوَّرَ نِعَمَ الجنّةِ بشكلٍ دقيق في هذه الدنيا؛ كيف تكونُ هذه الأساورُ، وكيف يكونُ ذلك اللِّباسُ؛ لأنّ نِعَمَ الجنّةِ لا مثيلَ لها، ولم تَرَها عينٌ، ولم تخطُرْ على قلبِ بشَر، ولهذا لا يَعلَمُ كيفيتَها الحقيقيةَ تمامَ العلم سوى الله تعالى، لكنّ وَعْدَ الله تعالى أنّ الأَجْرَ سيكونُ عظيمًا، وأنّ المصيرَ سيكون عظيمًا أيضًا.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾

٣٠ ـ ضَرَب اللهُ تعالى ـ في هذه الآيات ـ مثلًا لرجلٍ كافرٍ ثَرِيٍّ ورجُلٍ مؤمن فقير، أعطَى اللهُ تعالى الكافرَ حديقتَيْنِ من العنب، يحيطُ بـهما سُورٌ من أشجارِ النخيل، وداخلَ الحديقتَيْنِ أرضٌ خَصْبة للزراعة، وأنهارٌ تجري لسُقياها، وتُنتجانِ محاصيلَ وثمارًا بوَفْرة، فوجودُ مِثل هذه الحدائقِ وهذه الأنهارِ والقنَواتِ في أرضِ شبهِ الجزيرة العربيّةِ الصَّحراويّةِ الجرداءِ ليس نعمةً عاديّة!

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

٣١ ـ كان الكافرُ يعيشُ في رَغَدٍ من العيش، وكان لديه من المالِ والمتاعِ الكثيرِ، علاوةً على الحديقتَيْنِ، وذاتَ يوم قال للمؤمن محاولًا إثباتَ تفوُّقِه عليه: إنني أكثرُ منكَ من حيثُ المال، وأقوى منك من حيثُ الأولادُ أيضًا.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾

٣٢ ـ ذاتَ يوم دَخَل هذا الكافرُ حديقتَه، وقال متكبِّرًا: مالي هذا ومتاعي وحديقتاي ستبقَى كلُّها عندي بطبيعةِ الحال في هذه الدنيا، ولن تفنَى أو تبلَى أبدًا، وأعتقدُ أيضًا أنّ الساعةَ لن تقومَ أبدًا، وعلى افتراضِ أنّ الساعةَ ستقوم، فسأكونُ في الآخِرة أيضًا مقرَّبًا إلى الله ومحبَّبًا عنـدَه، وسيـكونُ لدَيَّ في الآخِـرة حـدائقُ أكثرُ جمالًا، مثلَما أنا في الدُّنيا مقرَّبٌ إليه ومحبَّبٌ عندَه، إذْ جَعَلني مالكًا لهاتَيْنِ الحديقتَيْنِ الجميلتَيْن، ولو لم يكنِ اللهُ تعالى راضيًا عن أعمالي، لما أنعَمَ عليَّ في الدنيا برَغَدٍ من العيش؟

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾

٣٣ ـ حاولَ المؤمنُ إفهامَه كثيرًا بأنْ فكِّرْ قليلًا في مولدِك أنت وتدبَّرْه، فاللهُ تعالى هو الذي خَلَق الإنسانَ الأوّلَ من التراب، وخَلقَك من نُطفة وجَعَلَك إنسانًا مكتملًا، أتُنكرُ هذا؟ على أيِّ حال إنّ عقيدتي واضحةٌ تمامًا، وهي أنّي أومنُ بالله تعالى إيمانًا لا يتزلزَل، فهو ربيِّ، وأنا لا أُشركُ به أحدًا.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

٣٤ ـ قال المؤمنُ لرفيقِه الثَّرِيِّ: هذه الحدائقُ نعمةٌ من الله تعالى، وكان يجبُ عليك أن تشكُرَ اللهَ تعالى عليها بدَلًا من أن تغترَّ بها، وأن تقول: «ما شاء اللهُ لا قوّة إلّا بالله»، ولو قلتَ هذا لَكانت هذه الحدائقُ خيرًا أكثرَ بالنسبة لك، مثلَما قال سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: «من رأى شيئًا من مالِه فأعجَبَه فقال: ما شاء الله، لا قوّة إلا بالله: لم يُصِبْ ذلك المالَ آفةٌ أبدًا»[١].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، وتفسير الدر المنثور.

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾

٣٥ ـ قال المؤمنُ: إنك تحتقرُني وتعتبرُني أضعَفَ منك؛ لأني أقلُّ منكَ باعتبارِ المال والأولاد، معَ أنّ الوقتَ ليس ببعيدٍ حين يُنعِمُ اللهُ تعالى علَيَّ في هذه الدُّنيا أو في الآخِرة بجنّةٍ أفضَلَ من جنّتِك، ويُنزلَ على جنّتِك هذه عذابًا من السماء يُحِيْلُها إلى أرضٍ جَدْباءَ قاحلةٍ، ويجعَل ماءها يغوصُ في الأرض ويَنضِب، بحيث لا تستطيعُ أن تحصُلَ عليه ثانيةً، لهذا ليس من العقلِ أن تغترَّ بهذا المالِ الفاني وهذه الحدائقِ الزائلة، وتُعرِضَ عن ربِّك سبحانه وتعالى.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

٣٦ ـ لم تؤثِّرْ نصيحةُ المؤمنِ المخلِصةُ في هذا الكافرِ بشيءٍ، وظلَّ مُصِرًّا على تكبُّره وشِركِه، إلى أنِ انتهت ساعاتُ المُهلة، إذْ نَزَل عذابُ الله عليه بَغْتةً، وتساقَطت إلى الأرضِ تلك الأعمدةُ الخَشَبيّةُ التي تتسلَّقُ عليها أغصانُ وقطوفُ العنب وتنمو عليها، وتَلِف محصُولُ العنبِ كاملًا، وأخَذ يضرِبُ كفًّا بكفٍّ أسفًا ونَدمًا قائلًا: ليتَني لم أُشركْ معَ ربِّي أحدًا، كما أنّ كثرتَه العدَديّةَ في عائلتِه لم تستطعْ أن تساعدَه في شيء، بل ولم تعُدْ لديه هو نفسِه طاقةٌ لينتصرَ لنفسِه.

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

٣٧ ـ عندَما ينزِلُ عذابُ الله تعالى على أيِّ طاغية، ويكونُ هذا الطاغيةُ في النَّزْع الأخيرِ من حياتِه، أو عندَما يبعَثُه اللهُ من جديدٍ يومَ القيامة، عندَئذٍ يتيقَّنُ هذا الطاغيةُ من أنّ مالكَ كلِّ السُّلُطاتِ هو اللهُ تعالى فعلًا، ولكنّ الإحساسَ بهذا

في ذلك الوقتِ لن يفيدَه بشيء، لكنّ الذين أطاعوا اللهَ تعالى في هذه الدنيا، سيمتِّعُهم اللهُ تعالى بأفضلِ أَجْرٍ وثواب، وعاقبةٍ جميلةٍ رائعة.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

٣٨ ـ في هذه الآية شَبَّه اللهُ تعالى هذه الحياةَ الدُّنيا بنبتةٍ خضراءَ نَمت وتَرعرعتْ بسببِ الماء، مثلَما يُمطرُ اللهُ الأرضَ اليابسةَ الخاليةَ بالمطر، فيُغطِّيها ربيعُ الخُضرةِ من كلِّ اتّجاه، وتختفي تربةُ الأرض تحتَ هذه الخُضْرة، ولكنْ بعدَ فترةٍ وجيزة، وحين يتغيَّرُ الجوُّ، تيبَسُ هذه الخُضرةُ وتجِفُّ وتتطايَرُ معَ الهواء، بحيث لا يبقَى لها أثرٌ في مكانِها، والحياةُ الدنيا أيضًا مثلُ هذه الخُضرة، تظَلُّ في ربيع لأيام معدودةً، وفي النهاية سيطويها الفناءُ، وقد مرَّ ذِكرُ مثلِ هذا المثال في الآية رقم ٢٤ من سورة يونُس (١٠).

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

٣٩ ـ قال اللهُ تعالى في هذه الآية: المالُ والأولادُ زينةُ هذه الحياةِ الدُّنيا، وقال

في موضع آخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٥]، ويُعلَمُ منه أنّ المالَ والأولادَ بمثابةِ الابتلاء، وسيَفْنَيانِ جميعًا، مثَلُهما مثَلُ الحياةِ الدُّنيا أيضًا، ولهذا فإنّ التخلِّيَ عن طاعةِ الله تعالى، والاستغراقَ في محبّةِ المالِ والأولاد، ما هو إلا طريقٌ إلى جهنَّم، بينَما حبُّ المالِ والأولاد طبقًا لطاعةِ الله تعالى هو الطريقُ إلى الجنّة، وفي هذه الحالة يصبحُ المالُ والأولادُ بمثابةِ الصَّدَقةِ الجارية التي تكونُ في الآخِرة وسيلةً لأعظم الأمل في الثّوابِ منَ الله تعالى، مثلَما قال سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: «الحَرْثُ حَرْثانِ: فحرْثُ الدّنيا المالُ والبَنُون، وحَرثُ الآخِرة الباقياتُ الصّالحات، وقد يجمَعُهنَّ اللهُ تعالى لأقوامٍ»[1].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

٤٠ ـ قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، إذ سوف تتطايرُ هذه الجبالُ قبلَ يوم القيامة كالقُطنِ المنفوش، وكالسَّحابِ أيضًا، وتنتهي تمامًا، بل كلُّ الكائناتِ الموجودةِ عندَئذٍ ستفنَى أيضًا، وستظهرُ إلى الوجودِ أرضٌ جديدةٌ في صُورةِ ميدانٍ فسيح نظيف، وفي هذا اليوم سيبعَثُ اللهُ تعالى الأوَّلينَ والآخِرينَ، ويجمَعُهم في هذا الميدانِ للحساب، وفي هذا اليوم لن يستطيعَ أحدٌ أن يختفيَ هنا أو هناك، وسيحاسَبُ كلُّ إنسانٍ على أعمالِه في محكمةِ العدلِ والإنصافِ الإلهيَّة.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾

٤١ ـ في ذلك اليوم، حين تقفُ المخلوقاتُ جميعًا مصطَفَّةً في حضرةِ الله تعالى، سيقولُ اللهُ تعالى لمُنكري يوم القيامة: لقد أخبَرَكُم أنبيائي الكرامُ عليهم السَّلام أنه مثلَما خَلَقَكم اللهُ تعالى في المرّةِ الأُولى، فإنه سوف يُحييكم من جديدٍ يومَ القيامة، لكنَّكم كنتُم تُنكرونَ ذلك، معَ أنّكم قد بُعِثتُم اليومَ من جديدٍ فعلًا! فأخبِروني الآنَ؛ هل كانت رسالةُ أنبيائي صادقةً، أم تفكيرُكُم المعَوجُّ هو الذي كان صادقًا؟

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

٤٢ ـ ستُقدَّمُ أمامَ كلِّ إنسانٍ صحيفتُه، وحين يجِدُ المجرمونَ كلَّ ذنوبِهم ـ الصغيرةَ والكبيرةَ على السَّواء ـ مدوَّنةً في صحيفةِ أعمالِهم، يرتعِدونَ خوفًا ورُعبًا من مجرَّد تصوُّر العقاب، لكنّ اللهَ تعالى لن يظلمَ أحدًا، وإنما سيعاقَبُ كلُّ إنسانٍ طبقًا لذنوبِه.

يقولُ المفتي أحمد يار خان: «يُعلَمُ من هذا أنه لن يكونَ هناكَ شخصٌ يومَ القيامة لا يقرَأُ، فالجميعُ عندَئذٍ يستطيعونَ القراءةَ، ويعرِفونَ اللُّغةَ العربيّة؛ لأنّ صحائفَ الأعمالِ ستكونُ باللُّغةِ العربيَّة، بل إنّ اللُّغةَ العربيّةَ ستكونُ لغةَ كلِّ إنسان بمجرَّد موتِه؛ لأنّ سؤالَ القبرِ سيكونُ باللُّغة العربيّة، وسيُجيبُ الناس جميعًا باللُّغةِ العربيّة[1]، وستكونُ لغةُ أهل الجنّة هي اللُّغةَ العربيّةَ مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «أحِبُّوا العربَ لثلاثٍ: لأنّي عربيٌّ، والقُرآنُ عربيٌّ، وكلامُ (لسانُ) أهل الجنّةِ عربيٌّ»[2].

---

(١) تفسير نور العرفان.

(٢) المستدرك، ٤: ٩٨.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾

٤٣ ـ في هذه الآيةِ تصريحٌ بأنّ إبليسَ لم يكنْ من الملائكة، وإنّما كان من الجنّ؛ لأنّ الملائكةَ لا تَعصي الله أبدًا: ﴿**لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، في حينَ أنّ إبليسَ عصَى اللهَ تعالى، وأيضًا الملائكةُ مخلوقاتٌ نُورانيّة، في حينَ أنّ إبليسَ مخلوقٌ من النار، وليس للملائكةِ أولادٌ، بينَما للجنِّ قبيلةٌ وأولاد، لكنّ إبليسَ كان يُعَدُّ من الملائكة بسببِ ملازمتِه لهم كثيرًا، ولهذا كان من بينِ مَن صَدَر لهمُ الحُكمُ من الله تعالى بالسجودِ لسيّدِنا آدمَ عليه السلام.

عصَى إبليسُ أمرَ الله تعالى من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى رَفَضَ تعظيمَ أبيكم آدمَ عليه السَّلام، كما أنه عدّوٌ مُبينٌ لكم، فهو يدعوكم إلى عصيانِ الله تعالى، فهل يليقُ بكم أن تترُكوا اللهَ تعالى وتتَّخِذوا من إبليسَ وذُرِّيتِه أولياءَ وهم أعداءُ أبيكم آدمَ عليه السَّلام، وأعداءُ ربِّكم، وأعداؤكم أيضًا؟ ولئن اتَّخذتُم إبليسَ وليًّا برَغْم ذلك، وظللتُم مصِرِّينَ على عصيانِكم لله تعالى، فأنتم أيضًا من الظالمينَ إذًا، وسيلقَى الظالمونَ يومَ القيامة عقابًا شديدًا وعذابًا أليمًا ومصيرًا سيِّئًا لقاءَ المظالم التي ارتكبوها، كما أنّ الظالمينَ لم يتَّخِذوا اللهَ وليًّا، واختاروا بدَلًا منه صَداقةَ إبليس،

وهذا بدلٌ سيِّئ، واختيارٌ غايةٌ في السُّوء، ولمزيدٍ من التفصيل عن إبليسَ راجع الآيةَ رقم ١٢ من سُورة الأعراف (٧)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٠ أيضًا.

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾

٤٤ ـ الشياطينُ الذين اتَّخذتُموهم شُرَكاءَ لي، وتصوَّرتُم أنهم مدبِّرو أمرِكم، لم أستعِنْ بأحدٍ منهم في خَلْق السمواتِ والأرض، ولست في حاجةٍ أصلًا إلى عَوْنٍ منهم، بل إنّهم حتى ذلك الوقتِ لم يكونوا قد خُلِقوا بعدُ، وعندَما خَلَقتُ هؤلاءِ الشياطينَ بعدَ ذلك لم أستَشِرْهم في شيءٍ أيضًا، فإذا كنتُ أستطيعُ أن أخلُقَهم بغيرِ عَوْنٍ منهم، فما حاجتي إذًا لأنْ أتَّخِذَ منهم شُرَكاءَ؟ وبفَرْضِ المستحيل لو أنّي سأُشرِكُ أحدًا معي، فلماذا أُشرِكُ هؤلاءِ الشياطينَ الذين يعصونَني أصلًا.

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾

٤٥ ـ سيقولُ اللهُ تعالى للمُنكِرينَ يومَ القيامة أنْ نادوا أولئك الذين اعتقدتُم أنهم شُرَكاءُ لي حتى يُنقذوكم من العذاب، وسوف ينادونَهم، ولكنْ لن يُلبِّيَ أحدٌ نداءهم، بل ستَحُولُ بينَهم حُفرةٌ من جهنَّم، وحين يرى المجرمونَ نارَ جهنَّم، سيتيقَّنُونَ أنهم مُلقَوْنَ فيها لا مَحالَة، وأنه ليس هناك سبيلٌ للإفلاتِ منها.

وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ

يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾

٤٦ ـ بيَّن اللهُ تعالى العقائدَ الإسلاميّةَ في القرآنِ الكريم بطُرُقٍ وأمثلةٍ متعدِّدة، حتى يَفهَمَها الناسُ بسهولة، كلٌّ طبقًا لاستعدادِه، لكنّ الإنسانَ العاصيَ المتمرِّدَ كثيرُ الجَدَل العقيم، وبَدلًا من أن يَقبَلَ الحقَّ، تراه يُجادلُ جدَلًا عقيمًا لا طائلَ من ورائه حتى في الأمورِ البسيطةِ الواضحة.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

٤٧ ـ أَنْزل اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ فوَضَح طريقُ الهداية تمامَ الوضوح، فمَن مَنَعَهم من الإيمانِ بالرَّغم من كلِّ هذا؟ هل يريدونَ أن يأتيَهم العذابُ بَغْتةً ويُهلِكَهم، مثلَما نَزَل على الأُمم السّابقةِ عليهم وأهلَكَها، أو أن يأتيَ العذابُ أمامَهم تمامًا، فيتوبوا إلى الله، في حينَ أنّ وقتَ قَبولِ التوبةِ سيكونُ قدِ انتهى بعدَ رؤية هذا العذاب؟

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾

٤٨ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى الرُّسُلَ حتى يبشِّروا عُبّادَ الحقِّ بالجنة، وعُبّادَ الباطل بعاقبةِ السُّوء، والآنَ كان يجبُ على عُبّادِ الباطل أن يَخافوا من عذابِ الله تعالى، ويختاروا لأنفُسِهم طريقَ الحق، لكنْ على العكس من ذلك، يجادلونَ من أَجْل القضاءِ على الحق، معتمِدينَ على أدِلّةِ الباطل، ويسخَرونَ من كلام الله تعالى ومن عذابِه.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

٤٩ ـ الذين تمَّت نصيحتُهم عن طريقِ آياتِ الله تعالى، ومعَ ذلك أَعْرَضوا عن هذه النَّصيحة، ونَسُوا أعمالَهم السيِّئةَ ومصيرَهم السيِّئَ، هؤلاءِ ظالمونَ غايةَ الظلم، وعقابًا لهم على ظُلمِهم هذا طَبَع اللهُ تعالى على قلوبِهم غِشاوةً، وجَعَل في سَمْعِهم ثِقْلًا بحيث أصبح من المستحيل عليهم سماعُ القرآنِ الكريم وفَهْمُه وقَبولُ النَّصيحةِ منه، ولهذا كيف يمكنُ دعوتُهم إذًا، فهم ليسوا مستعِدِّينَ تمامًا للسَّير على طريقِ الهدايةِ أبدًا، ولمزيدٍ من الشّرح والتوضيح لمسألةِ القَدَر راجع الآيةَ رقم ٧ من سُورة البقرة (٢)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٠.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾

٥٠ ـ لو كان اللهُ تعالى يؤاخِذُ على الذنوبِ فورًا لَنزَّلَ العذابَ على الظالمينَ سريعًا، لكنّ اللهَ تعالى رحيمٌ غايةَ الرحمة، ويُمهلُ الظالمينَ لوقتٍ محدَّد حتى يتوبوا ويستغفروا اللهَ من ذنوبِهم، ولكنْ إن لم يَرجِعوا عمّا هم فيه، وحان الوقتُ المحدَّد، فسيُنزلُ العذابَ عليهم لا مَحالَة، ولن يستطيعوا الإفلاتَ منه بصورةٍ أو بأخرى.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

٥١ ـ كان العربُ يشاهدونَ خلالَ أسفارهم التِّجارية قُرى قوم عادٍ وثَمُودَ المدمَّرة، حيث ارتكَبَ أهلُ هذه القُرى الظُّلمَ فأَمْهَلَهم اللهُ تعالى إلى وقتٍ محدَّد، ولكنْ حين لم يَرجِعوا عن ظُلمِهم دمَّرهم اللهُ تعالى هم وقُراهم أيضًا.

وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ لأهلِ مكّةَ أيضًا بأنّ المُهلةَ المحدَّدةَ التي أُعطِيتْ لكم لا تعني ـ أبدًا ـ أنكم لن تُسألوا عما تفعَلون، ولكنّ عليكم أن تستغِلُّوا هذه الفُرصةَ لإصلاح أنفسِكم، وإلّا فإنّ الوقتَ المحدَّد إذا حان موعدُه فسيكونُ مصيرُكم هو نفسَ مصيرِ الأُمم السّابقةِ عليكم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾

٥٢ ـ طلَبَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ منَ الله تعالى أن يلتقيَ سيّدَنا الخَضِرَ عليه السَّلام، فقال اللهُ تعالى: اذهَبْ إلى مُلتقى البحرَيْن، وهناك ستلتقيه، وهكذا قال سيّدُنا موسى عليه السّلامُ لخادمِه يوشَعَ بنِ نون: إنّ علينا أن نواصلَ سفرَنا حتى نَصِلَ إلى مَجْمَعِ البحرَيْن، حتى لوِ اضْطُرِرنا إلى السَّير سنينَ طِوالًا. وقد جاء بيانُ قصّة سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ معَ سيّدِنا الخَضِر عليه السَّلام في الآياتِ من هذه الآية وحتى الآيةِ رقم ٨٢، وأرى أنّ من المناسبِ أن أُقدِّمَ ـ أولًا ـ تعريفًا بسيّدِنا الخَضِر عليه السَّلام وبالبحرَيْن، قبلَ أن أُقدِّمَ خلاصةَ قصّةِ اللقاءِ هذه.

سيدنا الخضر عليه السلام:

«جاء في التواريخ أنّ اسمَه: بليا بن ملكان، والخَضِرُ لقبٌ له، سُمِّي به لأنه جلسَ على فَرْوةٍ بيضاءَ فاخضَرَّت»(١).

هل كان سيدنا الخضر عليه السلام نبيًا أم وليًا؟

يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي: «قال البَغَويُّ: لم يكن الخَضِرُ نبيًّا عندَ أكثرِ أهل العلم. قلتُ: وهذا عندي محَلُّ نظر؛ لأنّ العِلمَ الحاصلَ للأولياءِ بالإلهام وغيرِ ذلك علمٌ ظنِّيٌّ يحتملُ الخطأَ، ولذلك ترى تعارُضَ علومِهم المُلهَمة، فلو لم يكنِ الخَضِرُ نبيًّا لَما جاز له قتْلُ نفسٍ زَكيّةٍ بإلهامٍ أنه لو عاش لَأرهَقَ أبوَيْهِ طُغيانًا وكفرًا»(٢)، ويقولُ العلّامة أبو حَيّانَ الأندَلُسيُّ: «والجمهورُ على أنّ الخَضِرَ نبيٌّ»(٣). ويقولُ العلاّمةُ القُرطُبيُّ: «والخَضِرُ نبيٌّ عندَ الجمهور. وقيل: هو عبدٌ صالحٌ غيرُ نبيٍّ، والآيةُ تشهدُ بنُبوّتِه؛ لأنّ بَواطنَ أفعالِه لا تكونُ إلّا بوحيٍ»(٤).

ويقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسير الآية رقم **٦٥** من هذه السُّورة: إنّ الخَضِرَ نبيٌّ عندَ أكثرِ العلماء، وبيَّن لذلك أسبابًا عديدةً.

هل سيدنا الخضر عليه السلام حي إلى الآن أم لا؟

يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي: إنّ أقوالَ العلماءِ في هذا الخصُوص مختلفة، «ولا يمكنُ حلُّ هذا الإشكالِ إلّا بكلام المجدِّد للألفِ الثاني رضي اللهُ عنه، فإنه

---

(١) تفسير البغوي.

(٢) التفسير المظهري.

(٣) البحر المحيط.

(٤) تفسير القرطبي، سورة الكهف (١٨): الآية **٦٥**.

حين سُئل عن حياة الخَضِر عليه السَّلامُ ووفاتِه توجَّه إلى اللهِ سبحانه مستَعْلِمًا من جنابِه عن هذا الأمر ... فرأى الخَضِرَ عليه السَّلامُ حاضرًا عندَه، فساله عن حالِه فقال: أنا وإلياسُ لسنا من الأحياء لكنّ اللهَ سبحانه أعطَى لأرواحِنا قوةً نتجسَّدُ بها ونفعَلُ بها أفعالَ الأحياءِ من إرشادِ الضالِّ وإغاثةِ الملهوف إذا شاء اللهُ وتعليم العِلم اللَّدُنِّيِّ وإعطاءِ النِّسبةِ لمن شاءَ اللهُ تعالى»[1]. ويقولُ العلاّمةُ أبو حَيّانَ الأندَلُسيّ: «والجمهورُ على أنه مات»[2].

مجمع البحرين:

أين مَجْمَعُ البحرَيْنِ وملتقاهما هذا؟ أقوالُ العلماءِ في هذا أيضًا مختلفة، لكنّ الأقربَ للقياس هو: ذلك المكانُ الذي يلتقي فيه خليجُ العقَبة بخليج السُّويس، ثم يصُبّانِ في البحرِ الأحمر[3]، على أيِّ حال، المرادُ منه هو: ذلك المكانُ الذي التقى فيه سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ سيِّدَنا الخَضِرَ عليه السلام.

قصة سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر عليه السلام:

ذاتَ مرّة، وقَفَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ يخطُبُ في بني إسرائيلَ، فسألهُ أحدُهم: هل بينَ الناسِ من هو أعلمُ؟ فقال سيِّدُنا موسى عليه السَّلام: أنا أعلمُ الناس. فعاتَبَه اللهُ تعالى قائلًا: لماذا لم يَنسُبِ العِلمَ إلى اللهِ تعالى؟ (وفيه درسُ عِبرةٍ عن طريق سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ لكلِّ أهل الإيمان حتى قيام الساعةِ بأنْ يقولوا في مِثل هذه الحالة: إنّ اللهَ يعلَمُ من هو الأعلَم)، وهكذا أرسَلَ الله تعالى الوَحْيَ إلى سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ أنّ عبدًا لي (الخَضِرَ) في مَجمَع البحرَيْنِ، وهو أعلمُ منك.

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) البحر المحيط في التفسير.

(٣) تفسير تبيان القرآن.

فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: يا إلهي، كيف ألقاه؟ فقال اللهُ تعالى: ضَعْ سمَكَةً في سَلّةٍ، وحين تَضيعُ منك هذه السَّمكةُ (أي: بعدَ أن تعودَ إليها الحياة)، ستجدُ عَبْدي هذا. وهكذا اصْطحَبَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ خادمَه يوشَعَ بنَ نونٍ ومعَهما سمكةٌ، وسارا حتى وَصَلا إلى صخرة، فوَضَعا رأسَيْهما عليها وناما، وأثناء ذلك تحرَّكت السَّمكةُ وخَرَجتْ من السَّلّة، وشَقَّت لنفسِها طريقًا في البحر كأنه السِّردابُ، ورأى يوشَعُ بنُ نونٍ السمكةَ وهي تَنزِلُ إلى البحر، لكنّه رأى أنّ من غيرِ المناسب حينَئذٍ أن يوقظَ سيّدَنا موسى عليه السَّلام، وقال لنفسِه: سأُخبرُه حينَ يستيقظُ، ثم نَسِي أن يُخبرَه أيضًا. وحينَ تحرَّكا من عندِ الصَّخرة، وبعدَ سفرِ يوم كامل سأل سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ خادمَه أن يُجهِّز لهما الإفطارَ. عندَئذٍ قال يوشَعُ بنُ نون: لقد قَفَزتِ السَّمكةُ في البحرِ حين كنا نائمَيْنِ عند الصَّخرة، ونَسِيتُ أن أُخبرَكَ بذلك. فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: إذًا هذا هو المكانُ الذي كنا نبحثُ عنه.

وعاد الاثنانِ إلى الصَّخرة، فرأَيا سيّدَنا الخَضِرَ عليه السَّلامُ موجودًا هناك. فقال له سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ بعدَ أن سَلَّم عليه: هل أستطيعُ أن أبقَى معَك بشَرْطِ أن تُعلِّمَني شيئًا مما عَلَّمك الله؟ فقال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السلام: إنك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؛ لأنّ اللهَ تعالى علَّمني علمًا لا تعلَمُه أنت، وقد عَلَّمك اللهُ تعالى علمًا لا أعلَمُه أنا (لأنّ العلومَ كلَّها لم يجمَعْها اللهُ تعالى لأحدٍ إلّا لذاتِ النبيِّ الكريم سيّدِنا المصطفى عليه التحيّةُ والثناء). فقال سيّدُنا موسى عليه السّلام: إن شاء اللهُ تعالى ستجدُني صابرًا، ولن أعصيَ لك أمرًا. قال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام: إذا أردتَ أن تصحَبَني فلا تسألْني عن أيِّ شيءٍ إلى أن أُخبرَكَ أنا عنه بنفسي.

وهكذا، سارا بمحاذاةِ شاطئِ البحر، وفي تلك الأثناءِ مرَّت سفينةٌ من أمامِهم، وعَرَف أصحابُ السَّفينة سيّدَنا الخَضِرَ عليه السَّلام، فأركبوهُما معَهما دونَ أن يتقاضَوْا منهما أُجرةً، وقام سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام باقتلاع لوحٍ من الألواح

من أسفلِ السَّفينة وألقَى به بعيدًا، فقال له سيّدُنا موسى عليه السلام: هؤلاءِ الناسُ أركَبونا معَهم بغيرِ أُجرة، وأنت اقتَلعتَ لوحًا من السَّفينة حتى تُغرقَ مَن يركبونَ فيها؟ إن هذا أمرٌ سيّئ. فقال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام: ألم أقُلْ لك: إنك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؟ فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: لقد نَسِيت، فسامِحْني.

وفي تلك الأثناءِ جاءت عصفورةٌ وحطَّتْ على حافَةِ السَّفينة، والتقَطَت بمِنقارِها بعضَ الماء، فقال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلامُ لسيّدِنا موسى عليه السَّلام: عِلمي وعِلمُك معًا بالنِّسبة إلى عِلم الله تعالى لا يَعدِلانِ مقدارَ الماءِ الذي التقَطَتْه هذه العصفورةُ بمِنقارِها من البحر.

ثم خَرَجا من السَّفينة وسارا على الشاطئ، فرَأَيا غلامًا صغيرًا يلعبُ معَ أترابه، فقَتَل سيّدُنا الخَضِرُ عليه السّلامُ هذا الغلامَ، وعندَئذٍ قال له سيّدُنا موسى عليه السَّلام: لقد قَتَلْتَ غلامًا بغيرِ حقٍّ وبغير جَرِيرةٍ ارتكَبَها، إنك لم تُحسن الصُّنعَ. فقال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السّلام: ألم أقُلْ لك: إنك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؟ فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: لن أفعلَ ذلك مستقبَلًا.

ثم دَخَلا قريةً، وطَلَبا طعامًا من أهلِها، إلّا أنّ أهلَ القرية رَفَضوا استضافتَهما، فرَأَيا جِدارًا مائلًا في هذه القرية، وقاما بإصلاحِه وإقامةِ اعوِجاجِه، فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: أنّ أهلَ القريةِ لم يُقدِّموا لنا حتى مجرَّدَ الطعام، فإن شئتَ يمكنُكَ أن تطالبَهم بأَجْرٍ على هذا العمل. فقال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام: هذا فِراقُ بَيْني وبَيْنِكَ الآنَ[1].

---

(١) حدّثني أبيّ بن كعبٍ، أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل: أيّ النّاس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه. إنّ لي عبدًا بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا ربّ، فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مكتلٍ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ، فأخذ حوتًا فجعله في مكتلٍ ثمّ انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نونٍ، حتّى إذا أتيا الصّخرة وضعا رءوسهما فناما، واضطرب =

ثم قال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام: هيا أُخبِرْك الآنَ قبلَ أن نَفترقَ بحقيقةِ كلِّ هذه الأشياءِ التي لم تستطع الصَّبرَ عليها.

= الحوت في المكتل، فخرج منه، فسقط في البحر فاتّخذ سبيله في البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطّاق، فلمّا استيقظ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقيّة يومهما وليلتهما، حتّى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، قال: ولم يجد موسى النّصب حتّى جاوز المكان الّذي أمر الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قال: فكان للحوت سربًا ولموسى ولفتاه عجبًا، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: رجعا يقصّان آثارهما حتّى انتهيا إلى الصّخرة، فإذا رجلٌ مسجًّى ثوبًا، فسلّم عليه موسى. فقال الخضر: وأنّى بأرضك السّلام؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلّمني ممّا علّمت رشدًا. قال: إنّك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى إنّي على علمٍ من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علمٍ من علم الله علّمك الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾. فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينةٌ فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نولٍ، فلمّا ركبا في السّفينة، لم يفجأ إلّا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السّفينة بالقدوم. فقال له موسى: قومٌ حملونا بغير نولٍ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئًا إمرًا. قال: ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾». قال: وقال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسيانًا». قال: «وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السّفينة فنقر في البحر نقرةً، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثمّ خرجا من السّفينة، فبينا هما يمشيان على السّاحل، إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله. فقال له موسى: أقتلت نفسًا زاكيةً بغير نفسٍ؟ لقد جئت شيئًا نكرًا. قال: ألم أقل لك: إنّك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: وهذا أشدّ من الأولى، قال: إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنّي عذرًا. فانطلقا، حتّى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقضّ ـ قال: مائلٌ ـ فقام الخضر فأقامه بيده فقال موسى: قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيّفونا، لو شئت لاتّخذت عليه أجرًا. قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾». البخاري، كتاب التفسير، سورة الكهف (١٨): باب ٢.

أمّا السَّفينةُ فكانت لمساكينَ فقراءَ، وكان هناك مَلِكٌ ظالمٌ يأخُذُ السُّفنَ الجيِّدَة غصبًا، ولقد أحدَثتُ عيبًا في السَّفينةِ لكي لا يغتصبَها المَلِكُ الظالم، وتظلَّ السَّفينةُ وسيلةَ كَسْبِ العيش لهؤلاءِ المساكينِ الفقراء. وأما الولَدُ الذي قتلتُه فكان والداهُ من أهلِ الإيمان، ولو بقيَ هذا الولدُ على قَيْد الحياةِ لَأجبَر والدَيْه على الكُفر، والآنَ سيرزُقُهما اللهُ تعالى بولدٍ أفضَلَ منه. وأمّا الجدارُ الذي كان آيلًا للسُّقوطِ فكان لطفلَيْنِ يتيمَيْن، وكان تحتَه كَنْزٌ لهما خبَّأه والداهما الصّالحُ لهما، إلى أن يكبَرا فيستخرجاه، ولو سَقَط ذلك الجدارُ لنَهبَ الناسُ هذا الكَنْزَ.

ويُعلَمُ من هذه الواقعة أنّ الذهابَ للقاءِ عالِم كبيرٍ من أَجْل طلبِ العلم، والسَّفَرَ الطويلَ في سبيلِ ذلك إنما هو من سُنّةِ الأنبياء.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

٥٣ ـ حينَ وَصَل سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ وخادمُه يوشَعُ بنُ نونٍ إلى ملتقى البحرَيْنِ وَضَعا رأسَيْهما على الصَّخرةِ وناما، وفي هذه الأثناءِ عادت الحياةُ إلى السَّمكة، وشَقَّت طريقَها إلى البحرِ مثلَ السِّرداب، ورَغْمَ أنّ يوشَع بنَ نونٍ رأى السمكةَ وهي تقفزُ إلى البحرِ، لكنه نَسِي أن يُخبرَ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بهذا الأمر.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾

٥٤ ـ بعدَ أنِ استراحا عندَ الصَّخرة قاما وواصَلا سفرَهما، وبعدَ سفرِ يوم كامل قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ لغُلامِه: أحضِرْ لنا طعامَ الفَطُور، فلقد تَعِبْنا كثيرًا.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾

٥٥ ـ قال الخادمُ: حين نِمْنا عندَ الصَّخرة عادتِ الحياةُ إلى السَّمكة وقَفَزت في البحر، وقد أنساني الشيطانُ أن أُخبرَك بأمرِها.

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾

٥٦ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ: هذا هو المكانُ الذي كنا نبحثُ عنه إذًا، وهكذا عادا متتبِّعَيْنِ آثارَ أقدامِهما متَّجهَيْنِ إلى تلك الصخرة.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

٥٧ ـ حينَ وصَلا عائدَيْنِ إلى الصخرة كان ذلك ـ في الحقيقة ـ هو المكانَ الذي يقالُ له: «مجمَعُ البحرَيْن»، وكان سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام موجودًا هناك، فسلَّم عليه سيّدُنا موسى عليه السَّلام، فردَّ عليه سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام قائلًا: وعليك السَّلامُ يا نبيَّ بني إسرائيل. فسأله سيّدُنا موسى عليه السَّلام: كيف عرفتَني؟ فأجابه سيّدُنا الخَضِرُ عليه السلام: الذي أرسَلَك إلى هنا هو الذي عرَّفَني بك. ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ اللهَ تعالى قد أَنْعم على سيّدِنا الخَضِرِ عليه السَّلامُ برحمةٍ خاصّة من عندِه وعِلم خاصّ، أي: العلم اللَّدُنِّي.

تعريف العلم اللدني:

يقولُ المُلّا عليٌّ القاري: «والعِلمُ نورٌ في قلبِ المؤمن مقتبَسٌ من مصابيح مشكاةِ النُّبوّةِ من الأقوالِ المحمّديّة، والأفعالِ الأحمَديّة، والأحوالِ المحموديّة، يُهتدَى به إلى الله وصفاتِه وأفعالِه وأحكامِه، فإنْ حصَلَ بواسطةِ البشَر فهو كَسْبيٌّ، وإلّا فهو العِلمُ اللَّدُنّيُّ المنقسمُ إلى: الوَحْي، والإلهام، والفِراسة»[1].

اللهُ تعالى يُنعمُ على أنبيائه الكرام عليهم السَّلامُ وعلى أوليائه الكاملينَ بالعِلم اللَّدُنِّي، لكنّ درجاتِهم ومراتبَهم مختلفةٌ ومتفاوتة، والوحيُ خاصٌّ بالأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، ويَحصُلُ منه العلمُ اليقينيُّ، والذي هو حُجّةٌ في الشريعة،

---

(١) مرقاة المفاتيح، كتاب العلم، ١: ٤٠٥.

بينَما الإلهامُ والفِراسةُ بمثابةِ علامةٍ على عظَمةِ أولياءِ الله الكاملين، ولكن يحصُلَ منه العِلمُ الظَّنِّي، وهو ليس حُجّةً في الشريعة.

المراد بالعلم اللدني:

فَهِم المفسِّرونَ من العِلم اللَّدُنِّيِّ في هذه الآية على أنه عِلمُ الغيب، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَنْعم على سيّدِنا الخَضِر عليه السَّلامُ بعِلم الغيب، على سَبيل المثال:

١ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطُبي: «أي: علمُ الغيب»[١].

٢ ـ يقولُ القاضي البيضاوي: «مما يختَصُّ بنا ولا يُعلَمُ إلا بتوفيقِنا، وهو علمُ الغيوب»[٢].

٣ ـ يقولُ العلّامةُ محمَّد علي الصابوني: «أي علمًا خاصًّا بنا لا يُعلَمُ إلا بتوفيقِنا، وهو عِلمُ الغيوب»[٣].

٤ ـ يقولُ العلّامةُ الشَّوْكانيُّ: «وهو ما عَلِمه اللهُ سبحانه من عِلم الغيبِ الذي استَأْثَر به»[٤].

٥ ـ يقولُ العلّامةُ أبو حَيّانَ الأندَلسيُّ: «أي: من عندِنا، أي: ممّا يختصُّ بنا من العِلم، وهو الإخبارُ عن الغيوب»[٥].

٦ ـ يقولُ العلّامةُ محمودُ الآلوسيّ: «أي: علمًا لا يُكتَنَهُ كُنْهُه ولا يُقادَرُ قَدْرُه، وهو علمُ الغيوبِ وأسرارُ العلوم الخفِيّة»[٦].

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير البيضاوي.

(٣) صفوة التفاسير.

(٤) تفسير فتح القدير.

(٥) تفسير البحر المحيط.

(٦) تفسير روح المعاني.

٧ ـ يقول العلّامةُ أبو مسعود: «عِلمًا خاصًّا لا يُكتَنَهُ كُنهُه ولا يُقادَرُ قَدْرُه، وهو عِلمُ الغيوب»[١].

٨ ـ يقولُ العلّامةُ ابنُ جرير الطّبري: «وكان رجلًا يَعلَمُ علمَ الغيب»[٢].

علم سيدنا محمد ﷺ للغيب:

يُعلَمُ من القرآنِ والحديثِ والأقوالِ المذكورةِ لأهل العِلم أنه إذا كان اللهُ تعالى قد أَنْعم على سيّدِنا الخَضِر عليه السَّلام ليس بعِلم الغَيْب فقطْ، وإنّما بعِلم الغيوب، فإنّ عِلمَ النبيِّ ﷺ، وهو إمامُ الأنبياءِ والمرسَلينَ وسيّدُهم، بالغَيْب، وعِلمُه بالغيوبِ أكثرُ بكثير.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾

٥٨ ـ طلَبَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ـ بكلِّ أدبٍ واحترام ـ من سيّدِنا الخَضِر عليه السَّلامُ أنِ اسْمحْ لي أن أرافقَك لفترةٍ أتعلَّمُ فيها منك، ويُعلَمُ منه أنّ على الإنسانِ مهما كانت رُتبتُه ومكانتُه، أن يتأدَّبَ معَ أستاذِه ويحترمُه في كلِّ حال، وعلى كلِّ طالبِ عِلم أن يتأسَّى في هذا بالأُسوةِ الحسَنة من سيّدِنا موسى عليه السَّلام.

يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي: «هذه الآيةُ دليلٌ على أنّ المفضولَ قد يكون له فضلٌ جُزئيٌّ على مَن هو أفضَلُ منه، وعلى أنّ الفاضلَ ينبغي أن يَطلُبَ هذه الحِصّةَ من الفَضْل من المفضولِ ولا يستنكِفَ عنه»[٣]. ومثلَما قال النبيُّ ﷺ

---

(١) تفسير أبي السعود.
(٢) تفسير ابن جرير الطبري.
(٣) التفسير المظهري.

فيما رواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «الكلمةُ الحِكمةُ ضالّةُ المؤمن، فحيثُ وَجَدَها فهو أحقُّ بها»[١].

و«قيل لابن مسعودٍ رضي الله عنه: بمَ وجدتَ هذا العِلمَ؟ قال: بلسانٍ سَؤولٍ وقلبٍ عَقُولٍ»[٢].

و«رُويَ: العالِمُ أرأَفُ بالتلميذ من الأبِ والأُمِّ؛ لأنّ الآباءَ والأُمّهاتِ يحفظونَه من نارِ الدنيا وآفاتِها، والعلماءُ يحفظونَه من نارِ الآخِرة وشدائدِها»[٣].

و«قيل: فإنّ الآباءَ ثلاثة: مَن عَلَّمك، ومَن زَوَّجَك، ومَن وَلَدَك»[٤]، وقال الإمامُ الغزَاليُّ رحمه الله: «وخيرُالآباءِ مَن عَلَّمك»[٥].

وقد رَوى سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه هذا الإرشادَ للنبيِّ ﷺ أنِ اطلُبوا العِلم، وتَعلَّموا السُّكونَ والوقارَ من أَجْل العلم، وتواضَعوا أمامَ من تتعلَّمونَ منه[٦].

ذاتَ مرّةٍ سأل الخليفةُ العباسيُّ هارونُ الرَّشيدُ رجالَ بَلاطِه: أخبِروني، مَن الأكثرُ احترامًا والأرفَعُ قَدْرًا في هذه البلاد؟ فقالوا: أنت يا أميرَ المؤمنين. فكرَّر الخليفةُ سؤالَه ثلاثَ مرات، وأعاد عليه الحاضرونَ نفسَ الإجابة، وهو ما اعتَبره الخليفةُ جوابًا خاطئًا، فسأله الحاضرونَ في البَلاط: لو أنّ جوابَنا ليس صحيحًا، فأخبِرْنا أنت. قال هارونُ الرَّشيد: الأكثرُ احترامًا في هذه البلاد كلِّها هو الأصمعيُّ

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩.
(٢) التفسير الكبير، سورة البقرة (٢): الآية ٣١.
(٣) المرجع السابق، سورة البقرة (٢): الآية ٣١.
(٤) روح المعاني، سورة الضحى (٩٣): الآية ٨.
(٥) منهاج المتعلم، المكتبة الشاملة، ٨١.
(٦) «تعلّموا العلم، وتعلّموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلّمون منه». كنز العمال، ١٠: ١٤١.

أستاذُ ولديَّ: المأمونِ والأمين؛ لأنّ ولَديَّ يتسابقانِ دائمًا في حَمْل حذاءِ أستاذِهما، بينَما لا يفعلانِ ذلك في حَمْل حذائي[1].

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

٥٩ ـ كان سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام يَعرِفُ أنّ مِثلَ هذه الواقعاتِ التي تتنافَى معَ الشّريعة ـ في الظاهر ـ سوف تحدُث، ولا يمكنُ لنبيٍّ أن يسكُتَ على أمورٍ مخالفةٍ للشَّرع ما لم يظهَرْ له سببٌ لحدوثِها، ولهذا قال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام لسيّدِنا موسى عليه السلام: إنك لن تستطيعَ معيَ صبرًا، وفي نفسِ الوقت بيَّن السببَ في قولِه هذا بأنّ من الطبيعيِّ أنك لن تستطيعَ الصبرَ على عَمَل يخالفُ الشَّرع ولا تَعلَمُ حِكمتَه، لكنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ وَعَدَه بأنه إن شاء اللهُ سيصبِر، ولن يعصيَ له أمرًا.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

٦٠ ـ قال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السلام: عندَما أقومُ بعملٍ لا تَعلَمُ حِكمتَه، عليك بالصَّبر، ولا تستفسِرْ عنه فورًا، إلى أنْ أُبيِّنَ لك أنا الحِكمةَ من ورائه.

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

---

(١) مجلة ضياء الحرم (بالأردية)، إفتتاحية عدد يوليو ١٩٨٩م.

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

٦١ ـ سار سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ وسيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلامُ كلاهما بمُحاذاةِ شاطئِ البحر، وفي تلك الأثناءِ مرَّت سفينةٌ من أمامِهم، وعَرَف أصحابُ السّفينةِ سيّدَنا الخَضِرَ عليه السّلام، فأركَبوهُما معَهما دونَ أن يتقاضَوْا منهما أُجرةً، وقام سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام باقتلاع لوح من الألواح من أسفلِ السَّفينةِ وألقى به بعيدًا، فقال له سيّدُنا موسى عليه السَّلام: هؤلاءِ الناسُ أركبونا معَهم بغيرِ أُجرة، وأنت اقتلعتَ لوحًا من السَّفينة! وبهذه الطريقة سيَغرَقُ رُكّابُ السَّفينة في الماء، لقد قمتَ بعملٍ خطيرٍ للغاية، فقال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السلام: ألم أَقُلْ: إنك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؟ وعليه قال سيّدُنا موسى عليه السلام: لقد أخطأتُ، فلا تَقْسُ علَيَّ وسامِحْني.

يقولُ المفتي أحمدُ يار خان: لقدِ اقتَلَع سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام من السَّفينةِ ذلك اللَّوحَ الذي يَفصِلُ بينَ الماءِ والسَّفينة، ومعَ ذلك لم يتسرَّب الماءُ إليها[1].

وهنا إشارةٌ إلى معجزتَيْنِ من معجزاتِ سيّدِنا الخَضِر عليه السلام، بمعنى: أنه اقتَلَع اللَّوحَ من السَّفينة بطريقةٍ معجِزة، بحيث لم يشعُرْ بالأمر أحدٌ غيرُ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وفي نفسِ الوقت لم يتسرَّبِ الماءُ إلى السَّفينة رَغْم حدوثِ الثُّقبِ فيها.

---

(١) تفسير نور العرفان.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾

٦٢ ـ ثم خَرَجا من السَّفينة وسارا على شاطئ البحر، فرَأيا غلامًا يلعبُ مع أترابه، فقَتَل سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلامُ هذا الغلامَ، فقال له سيّدُنا موسى عليه السَّلام: لقد قتَلتَ هذا الطِّفلَ البريءَ بغيرِ حق، إنّ هذا فعلٌ شنيعٌ غيرُ لائق! فقال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام: ألم أقُلْ: إنك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؟ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: أعطِني فُرصةً أخرى، وإنْ سألتُك بعدَها فلا تُبقِني معَك، وستكونُ على حقٍّ في قرارِك هذا، ولن أعترضَ عليكَ في شيء.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

٦٣ ـ ثم دَخَلا قريةً، وطلَبا طعامًا من أهلِ هذه القرية، لكنّ أهلَ القريةِ رَفَضوا استضافَتهما، ثم وَجَدا جدارًا على وَشَكِ السُّقوطِ في هذه القرية، عندَئذٍ أقامَه سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلامُ بيدِه بطريقةٍ معجزةٍ فاستقام الجدارُ، فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: إنّ أهلَ هذه القريةِ لم يُقدِّموا لنا مجرَّدَ الطعام، ولو شئتَ يُمكنُكَ أن تطلُبَ منهم أَجْرًا على إقامتِك الجدارَ. قال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام: يكفي هذا، الآنَ حان وقتُ الفِراق بَيْني وبَيْنَك؛ لأنك لم تستطع الصَّبرَ.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

٦٤ ـ ثم قال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام لسيّدِنا موسى عليه السَّلام: هيَّا قبلَ أن نفترقَ أُخبِرْكَ بحقيقةِ تلك الأمورِ التي لم تستطع الصَّبرَ عليها:

فقد كانت تلك السَّفينةُ يملِكُها بعضُ الفقراء، وكان يقفُ أمامَهم مَلِكٌ ظالمٌ

يغتصبُ السُّفُنَ الجيِّدَة التي لا عيبَ فيها من أصحابِها، ولم يكنْ أصحابُ هذه السَّفينة يعلَمونَ بهذا الأمر، ولهذا أحدَثْتُ عيبًا في السَّفينة حتى لا يأخُذَها المَلِكُ الظالمُ غصبًا، وحتى تستمرَّ وسيلةُ كَسْب العيشِ لهؤلاء المساكينِ الفقراء.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾

٦٥ ـ أمّا ذلك الغلامُ الذي قتَلْتُه فكان والداه من أهلِ الإيمان، ولو بقيَ على قَيْدِ الحياة لَأجبرَهما على الكُفرِ والطُّغيان، والآن سوف يُنعِمُ اللهُ تعالى عليهما بخيرٍ منه، يكونُ أكثرَ طُهرًا في ذاتِه، وأكثرَ رحمةً بوالدَيْه.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾

٦٦ ـ وأمّا الجدارُ الذي أقمتُه وكان على وَشَكِ السُّقوط، فهو لطِفلَيْنِ يتيمَيْنِ، وتحتَه كنزٌ مدفون، دَفَنه والدُهما الصّالحُ لهما، حتى يَستخرِجاه عندما يشِبَّا عن الطَّوق، ولو سَقَط الجدارُ لَنهبَ الناسُ كنزَ هذَيْنِ اليتيمَيْن.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

٦٧ ـ وفي النهاية قال سيّدُنا الخَضِرُ عليه السَّلام: إنّني لم أفعَلْ كلَّ هذا برغبةٍ مني وهوًى في نفسي، وإنّما فعلتُه بأمرٍ من الله تعالى.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ

وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾

٦٨ ـ استَفْسَر مشركو مكّةَ بالتشاورِ معَ يهودِ المدينةِ عن ذي القرنَيْنِ من النبيِّ ﷺ، فقال ﷺ: إنّ اللهَ تعالى أنْعم على ذي القرنَيْنِ بحُكم بلادِ فارسَ، وأنْعم عليه بكثيرٍ من العِلم والحِرفة والمتاع، ساعدَتْه كلُّها على تحقيقِ فتوحاتٍ كبيرة، بحيث أصبح حاكمًا على المشارقِ والمغارب. ويُعلَمُ ممّا قاله القرآنُ الكريمُ أنّ ذا القرنَيْنِ كان إنسانًا صالحًا ومؤمنًا صادقًا، وكان مَلِكًا يهتمُّ برعيَّتِه ويعطفُ عليهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾

٦٩ ـ اتَّجه ذو القرنَيْنِ أولًا إلى الغرب، وفَتَح البلادَ في طريقِه، إلى أنْ وَصلَ إلى الساحلِ الغربيِّ لآسيا الصُّغرى حيث تنتهي الأرضُ وينتهي العَمَار، ولا يوجَدُ سوى الماءِ على امتدادِ البصَر، حيث كان يبدو مِثلَ عَيْن الوحلِ الأسودِ بسببِ تناثُرِه موزَّعًا في خُلجانٍ صغيرة، وكانت الشمسُ تغرُبُ بينَ أمواجِ المياه، ورَغْمَ

أنّ الشمسَ أكبرُ بكثيرٍ من الأرضِ والبحـر، وتسـيرُ في مدارِها الخاصِّ بها، ولا تغرُبُ في مكانٍ أبدًا، ولكنّ الذي يقفُ على ساحلِ البحر - يشاهدُ منظرَ غروبِ الشمس - يشعرُ وكأنّ الشمسَ تغرُبُ في الماء.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾

٧٠ - كان أولئك القومُ الذين أغاروا على بلادِ ذي القرنَين، وحاوَلوا الاستيلاءَ على عرشِه، يسكُنونَ بالقُربِ من البحرِ باتّجاه الغرب، وقد سيطرَ ذو القرنَيْنِ على هؤلاءِ القوم، فأَلْهَم اللهُ تعالى ذا القرنَيْنِ - بنفسِ الطريقةِ التي أَلْهمَ بها أُمَّ سيّدِنا موسى عليه السلام ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٨]، أي: عليكِ يا أُمَّ موسى أن تَضَعي موسى في صندوقٍ وتلقي به في البحر - وهكذا أَلْهمَ ذا القرنَيْنِ أنْ إذا شئتَ يمكنُكَ أن تنتقمَ من هؤلاءِ القوم؛ لأنّهم هم الذين أغاروا على بلادِك، وإنْ أردتَ يمكنُكَ أن تعفوَ عنهم(١).

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾

٧١ - عَفَا ذو القرنَيْنِ عن الأخطاءِ السّابقة لهؤلاءِ القوم، لكنّه حذَّرهم بأنَّهم لوِ اختاروا السَّيرَ على طريقِ الظُّلم والاعتداءِ مستقبَلًا، فسوف نُعاقبُهم في هذه الدنيا، وفي الآخِرة يُعذِّبُهم اللهُ عذابًا شديدًا بسببِ ظُلمِهم.

﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾

٧٢ - وأمّا مَن آمَن وعَمِل صالحًا، فسيكونُ له الأَجْرُ العظيمُ في الآخِرة، ونحن في هذه الدُّنيا سنعمَلُ على تيسيرِ أمورِه.

---

(١) تفسير ضياء القرآن.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾

٧٣ ـ وبعدَ فتوحاتِه في الغربِ اتَّجه ذو القرنَيْنِ إلى الشَّرق، حيث نهايةُ العُمرانِ البشَري؛ لأنّ بعضَ قبائلِ البدوِ كانت قد أشعلتْ هناك نارَ الفتنة، وكان هؤلاءِ يعيشونَ في الجبالِ والغاباتِ كالحَيواناتِ المتوحِّشة بغيرِ منازلَ يستقِرُّونَ فيها ولا حتى ملابسَ تستُرُ عَوراتِهم، ويَلي أماكنَ تواجُدِ هؤلاءِ باتّجاهِ الشرقِ سلسلةٌ من الجبالِ طويلةٌ شاهقة، وحين ترتفعُ الشّمسُ فوقَ هذه الجبال، يشعُرُ الناظرُ إليها وكأنّها تُشرقُ فعلًا من بينِ هذه الجبال.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

٧٤ ـ كلُّ ما ذُكِر عن ذي القرنَيْنِ كانت هذه هي حقيقتَه، فاللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم كلَّ إمكانيّاتِ ذي القرنَيْن، وقد أَنْعم عليه بالإمكانيّاتِ التي جعَلَتْه يسيطرُ على العالَم المعروفِ كلِّه في ذلك الوقت.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

٧٥ ـ مفهومُ الآياتِ ـ من الآية رقم **٩٢** إلى الآية رقم **٩٧** ـ هو أنّ ذا القرنَيْنِ اتَّجه من الشَّرقِ إلى الشِّمالِ، وحين وَصَل إلى معبرٍ بينَ جَبَلَيْن، وَجَد خلفَ هذَيْنِ الجَبَلَيْنِ قومًا لا يعرفونَ ذا القرنَيْنِ ولا لغةَ جيشِه، فاشتكَوْا إليه بلُغتِهم قائلينَ: إنّ يأجُوجَ ومَأْجُوجَ يسكُنونَ في الجانبِ الآخَرِ من هذه الجبال، وقد أحالوا حياتَنا إلى عذاب، فهم يتسَلَّلونَ من خلالِ هذا المعبَر، ويدمِّرونَ قُرانا ويَعِيثُونَ فيها فسادًا، وينهَبُونَ أموالَنا ومتاعَنا، ونحن على استعدادٍ لأنْ نقدِّمَ لك النفَقاتِ اللازمةَ لكي تقيمَ بينَنا وبينَ هؤلاءِ سدًّا عاليًا، حتى نبقَى في أمانٍ من شرورِهم وظُلمِهم. وقد فَهِم ذو القرنَيْنِ لغةَ هؤلاءِ وما قالوا عن طريقِ العِلم الذي أَنْعم اللهُ

به عليه، فقال لهم: لستُ في حاجةٍ إلى أموالِكم، وقد أَنْعم اللهُ تعالى علَيَّ بالعِلم والحِرفة، وهذا أفضَلُ من مالِكم، لهذا عليكم أن تساعدوني بجُهدِكم، وأحضِروا لي صفائحَ الحديد، وأنا سأُقيمُ بينَكم وبينَ هؤلاءِ القوم سدًّا عاليًا. وهكذا أقام ذو القرنَيْنِ سدًّا من الحديدِ بينَ الجَبَلَيْنِ وبارتفاعِهما، ثم أشعَل النارَ وصَهَر هذا الحديدَ، وأسالَ فوقَه المعدِنَ المُذابَ بحيث أضاف إليه مزيدًا من القوّةِ والصَّلابةِ، وفي نفسِ الوقتِ جَعَلَه أملسَ، حتى لا يستطيعَ يأجُوجُ ومَأْجوجُ تسلُّقَ هذا السدِّ، ولا إحداثَ ثُقبٍ فيه، ويَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ من أولادِ سيّدِنا آدمَ عليه السلام، لكنَّهم ظالمونَ ويأكُلونَ البشر.

أين يأجوج ومأجوج الآن؟

هناك رأيٌ فيما يتعلَّقُ بيَأْجُوج ومَأْجُوجَ، وهو: أنّهم لا يزالونَ محبوسينَ خلفَ ذلك المعبَرِ الجَبَلي، وسوف يتحطَّمُ السدُّ قربَ يوم القيامة، ويَخرُجُ يَأْجُوجُ ومَأْجُوج، ويُعمِلونَ القتلَ والخرابَ والدَّمارَ في العالَم كلِّه.

يبقى هناك سؤالٌ، وهو: أين ذلك الجَبَلُ الذي يعيشُ يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ محبوسينَ خلفَه؟ لا يوجَدُ أيُّ تصريح بذلك في القرآنِ الكريم ولا في الأحاديثِ النَّبويّة، كما أنه ليس هناك أيُّ حُكم إسلاميٍّ مرتبطٌ بالتحقيقِ في هذا الأمر، فقد يكونُ ذلك السدُّ الحديديُّ قد تحوَّل إلى ترابٍ واختَلطَ بالأحجارِ الآنَ بعدَ مرورِ آلافِ السنين، وليس منَ الضَّروريِّ أيضًا أن يكونَ يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ يعيشونَ في منطقةٍ واسعةٍ من الأرض؛ لأنّ إعطاءهم الأعمارَ الطويلةَ والأولادَ الكُثْرَ ليس من سُنّةِ الله تعالى، وإنّما لإظهارِ قُدرةِ الله تعالى، واللهُ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، فكما أنه قادرٌ على أن يَمُدَّ يومَ القيامة لِيَعدِلَ خمسينَ ألفَ يوم مما نَعرِفُه، كذلك يستطيعُ أن يُحيلَ الملياراتِ من يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ إلى أجسادٍ صغيرةٍ في صِغَر حجم النَّمْل،

ويحبِسَهم في غارٍ في جَبَل، ثم يُخرِجَهم قُربَ يوم القيامة من الجَبَل ويُعيدَهم إلى حالتِهم الأُولى، مثلَما رَوى سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما «أنّ إبليسَ جاء إلى عالِم وقال: هل يَقدِرُ ربُّك أن يَجعَلَ الدُّنيا فى جَوْفِ بيضة؟ قال: نعَمْ، قال: وكيف؟ قال: يقولُ لذلك إذا أراد: كنْ، فيكون»[١].

وهناك روايةٌ أخرى في هذا الخصُوص جاء فيها: يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنهما: «يَطْوي اللهُ السّمواتِ السبعَ بما فيها من الخليقة، والأَرَضينَ السّبعَ بما فيها من الخليقة، يَطْوي ذلك كلَّه بيميـنِه، يكونُ ذلك كلُّه في يدِه بمنزلةِ خَرْدَلة»[٢]، وكما أنّ الله تعالى يَطْوي كلَّ مخلوقاتِ السّماءِ والأرضِ مثلَ حبّةِ خَرْدَل، فإنه كذلك يُمكنُه أن يَطْويَ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ أيضًا مثلَ حبّةِ خَرْدَل، ثم يعيدَهما إلى حالتِهما الأَصْليّة مرةً أخرى قربَ يوم القيامة.

وهناك رأيٌ آخَرُ فيما يتعلَّقُ بيَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، وهو: أنّ فترةَ اقترابِ يوم القيامة قد بدأتْ بالفعل معَ بَعْثةِ نبيِّ آخِرِ الزّمان سيّدِنا محمدٍ ﷺ، ومن الممكنِ جدًّا أن يكونَ موضوعُ إخراج يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ قد حَدَث بالفعل، مثلَما يقولُ الشهيدُ سيِّد قُطْب: «وهذا النصُّ لا يحدِّدُ زمانًا. ووعدُ الله ـ بمعنى: وَعْدِه بدَكِّ السدِّ ـ ربَّما يكونُ قد جاء منذُ أنْ هَجَم التتارُ وانساحوا في الأرض، ودَمَّروا الممالكَ تدميرًا»[٣].

ويقولُ العلّامةُ عبدُ الحقِّ: إنّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ همُ التتاريُّونَ وأهلُ التتارِ الصِّينيُّون، وهم الذين أقام ذو القرنَيْنِ السدَّ من أَجْل إيقافِ أجدادِهم، وسوف تُغيرُ هذه الأقوامُ في آخِرِ الزَّمان على بلادِ الدنيا، أو أنها أغارت بالفعل، واللهُ أعلم[٤].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ٤٢، رواية رقم ١١٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، سورة الأنبياء (٢١): الآية ١٠٤.

(٣) تفسير في ظلال القرآن.

(٤) تفسير حقاني.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾

٧٦ ـ قال ذو القرنَيْنِ: هذا فَضْلٌ من ربِّي سبحانه وتعالى ورحمةٌ، بأنْ جَعَل هذا السدَّ قويًّا، وسوف يتحطَّمُ هذا السدُّ في الوقتِ المحدَّدِ له، وعندَها سيَخرُجُ هؤلاءِ القومُ كأمواجِ البحرِ الهادرة، يَعِيثُونَ في الأرضِ قتلًا وتخريبًا وإفسادًا.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾

٧٧ ـ بدايةً من هنا تُقدِّمُ الآياتُ مشهدًا من مشاهدِ القيامة، يعني: حين يُنفَخُ في الصُّور، ويُبعَثُ الناسُ من قبورِهم فيَخرُجونَ إلى ميدانٍ فسيح يتجمَّعونَ فيه، أمّا أولئك الكُفّارُ الذين كانوا يُنكِرونَ الآخرةَ، وحَرَموا آذانَهم وأعيُنَهم من ذِكْري، فستبدو لهم جهنَّمُ أمامَهم تمامًا، وهي التي سيُلقَوْنَ فيها.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾

٧٨ ـ أولئك الكُفّارُ الذين يَترُكونَ اللهَ تعالى ويعبُدونَ الملائكةَ وسيّدَنا عيسى عليه السَّلام وسيّدَنا عُزَيرًا عليه السَّلام، ويتوقَّعونَ منهم أن يُنقِذوهم من عذابِ يوم القيامة، هؤلاءِ في غايةِ الجهل، وعلى العكسِ من ذلك، سيُظهِرُ سيّدُنا

عيسى عليه السَّلام نفسُه براءتَه من حَرَكاتِهم الكُفْريّةِ هذه يومَ القيامة، ولهذا فإنّ المؤمنينَ بالله تعالى سيستفيدونَ يومَ القيامة يقينًا بحبِّ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام وأولياءِ الله الصّالحين، بينَما لن يستفيدَ الكُفّارُ من صَداقةٍ أو محبةٍ لأحدٍ بسببِ كُفرِهم، وسيَدخُلونَ جهنَّمَ داخِرين.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴾

٧٩ ـ أخبرَ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ عن أولئك الذين سيكونونَ في خسارةٍ باعتبارِ أعمالِهم، بمعنى: أنه ستكونُ لديهم أعمالٌ، لكنْ بلا جدوى، وهؤلاءِ هم الذين ضاعت جهودُهم كلُّها في تحسينِ الحياةِ الدُّنيا فقطْ، وظَلُّوا يعتقدونَ بأنّ هذا من الأعمالِ الصّالحة، أمّا الخسارةُ التي سيواجهونَها بسببِ نسيانِهمُ الآخِرةَ، فهم لا يشعُرونَ بها، أو أنّ المرادَ الكُفّارُ والمُراءونَ الذين لن تفيدَهم أعمالُهم الصّالحةُ أيضًا بشيءٍ يومَ القيامة.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾

٨٠ ـ الذين لا يؤمنونَ بالله تعالى ولا بالآخِرة، ولا يؤمنونَ بحقيقةِ أنّهم سوف يمثُلونَ أمامَ الله تعالى يومَ القيامة لمحاسبتِهم على أعمالِهم، هؤلاءِ ليس لأعمالِهم الدُّنيويّةِ أيُّ قيمةٍ عندَ الله يومَ القيامة؛ لأنّ هذه الأعمالَ فَقَدتْ قيمتَها وأَثَرَها بسببِ كُفرِهم، كما أنّهم لن يقامَ لهم الميزانُ يومَ القيامة؛ لأنّ الميزانَ يكونُ لأولئك الذين تتراوحُ أعمالُهم بينَ الحَسَن والسيِّئ، أمّا الذين لا توجَدُ في صحائفِ أعمالِهم حسَنةٌ واحدةٌ فلا حاجةَ لهم بالميزان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

٨١ ـ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ سيَدخُلونَ جنّاتِ الفِردَوْس.

الدعاء بالجنة:

١ - ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥].

٢ - دعا النبيُّ ﷺ قائلًا: «اللّهُمَّ إنّي أسألُك الدَّرجاتِ العُلَى من الجنّة. آمين»[١].

أحوال أهل الجنة:

١ - قال النبيُّ ﷺ: «يَدخُلُ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ جُرْدًا مُرْدًا مكَحَّلينَ أبناءَ ثلاثينَ أو ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً»[٢].

٢ - قال رسولُ الله ﷺ: «أهلُ الجنّة عشرونَ ومائةُ صفٍّ، ثمانونَ منها من هذه الأُمّة، وأربعونَ من سائر الأُمم»[٣].

٣ - قال رسولُ الله ﷺ عن أهلِ الجنة: «وأكرَمُهم على الله مَن يَنظُرُ إلى وجهِه غُدْوةً وعَشِيّةً»[٤].

جنة الفردوس:

قال رسولُ الله ﷺ: «في الجنّة مائةُ درجةٍ، ما بينَ كلِّ درجتَيْنِ كما بينَ السّماءِ والأرض، والفِردَوْسُ أعلاها درجةً ومنها تُفجَّرُ أنهارُ الجنّةِ الأربعةُ، ومن فوقِها يكونُ العرشُ، فإذا سألتُم اللهَ فسَلُوه الفِردَوْسَ»[٥].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني، ٢٣: ٣١٧: رواية رقم ٧١٧.

(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٥٤٥.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٣ برقم ٢٥٤٦.

(٤) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٧ برقم ٢٥٥٣.

(٥) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٤ برقم ٢٥٣١.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾

٨٢ ـ سيَخلُدُ أهلُ الجنّةِ في الجنّة، وسيَنعُمونَ مطمئنِّينَ بنِعَمِها بحيثُ لا يرغبونَ أبدًا في الانتقالِ منها إلى مكانٍ آخَر، والحقيقةُ أنه لا يوجَدُ مكانٌ أفضَلُ من الجنّةِ أصلًا، فمن ـ يا ترى ـ يُمكنُ أن يرغبَ في غيرِها؟

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾

٨٣ ـ لو كُتِبتْ كلماتُ أوصافِ الله تعالى وكمالاتِه وقُدرتِه وحِكمتِه، وجُعِل ماءُ البحرِ مِدادًا وأحبارًا تُكتَبُ بها، فسوف تَنفَدُ مياهُ البحارِ مهما كانت واسعةً وعميقةً قبلَ أن تكتملَ الكتابةُ؛ لأنّ مياهَ البحار محدودةٌ على أيِّ حال، بينَما كلماتُ الله وكمالاتُه غيرُ محدودة، ولهذا فإنّ من البديهيِّ تمامًا أنّ الكيانَ المحدودَ لا يُمكنُه الإحاطةُ بالكلماتِ غير المحدودة، كما أنّ اللهَ تعالى قال في سورة لُقمانَ من القرآنِ الكريم: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾

٨٤ ـ بشَريّةُ النبيِّ ﷺ:

لمّا رأى الناسُ معجِزاتِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام وكمالاتِه اعتَبَروه إلهًا وابنَ الله، وحين بُعِثَ سيّدُ الأنبياءِ جميعًا والمعجزةُ المجسَّدةُ سيّدُنا محمَّدٌ ﷺ، والذي سَلَّمتْ عليه الأشجارُ والأحجار، كان هناك خطرُ احتمالِ أن تَعتبرَه أُمّتُه إلهًا أو ابنَ الله، ولسدِّ الطريق على هذا الاحتمالِ من سُوءِ الفهم أمَرَ اللهُ تعالى أنْ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، قلْ لهم: لا شكَّ أنّني بشَرٌ مِثلُكم، ويَنزِلُ علَيّ الوَحْيُ بأنّ

إلهكم إلهٌ واحد: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، يعني: أنا مِثلُكم في مسألةِ عدَمِ ألوهيَّتِنا، فأنا لستُ إلهًا، وأنتم كذلك لستُم آلهةً، ولكنّ هذا لا يعني أبدًا أنه ﷺ مِثلُ باقي البشَر تمامًا، وممّا لا شكَّ فيه أنّ كلَّ نبيٍّ بشَرٌ، ولكنْ بداخِل بشَريّةِ النبيِّ صلاحيّةُ وإمكانيّةُ استقبالِ الوَحْي، وهو ما يُميِّزُه عن باقي البشَر، ولأنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ سيِّدُ الأنبياءِ جميعًا، لهذا فإنّ بشَريّته هي أرقَى وأرفعُ بشَريّةً بينَ بني الإنسان، وهذا هو السببُ في أنّ الصَّحابةَ الكرامَ رضوانُ الله عليهم جميعًا حينَ رأَوْا عبادةَ النبيِّ ﷺ وصيامَه واصَلوا الصيامَ (أي: وَصَلوا صومَ اليوم بالذي قبلَه، ولم يتناولوا بينَهما طعامًا)، فشَقَّ ذلك عليهم كثيرًا، وعليه نَهاهم النبيُّ ﷺ عن ذلك، فقالوا له: إنّك تُواصِل. قال: «لستُ كهيْئتِكم، إنّي أظَلُّ أُطعَمُ وأُسقَى»[1]، وفي حديثٍ آخَرَ قال: «إنّي لستُ مِثلَكم، إنّي أُطعَم وأُسقَى»[2]، وفي آخَر، قال ﷺ: «وأيُّكم مِثْلي؟ إنّي أَبيتُ يُطعِمُني ربّي ويَسقيني»[3].

نورانية النبي ﷺ:

كما أنّ بشَريّةَ النبيِّ ﷺ لا مثيلَ لها، فإنّ نُورانيّته ﷺ أيضًا لا مثيلَ لها، مثلَما قال النبيُّ ﷺ:

١ ـ «أوّلُ ما خَلَق اللهُ تعالى نُوري»[4].

٢ ـ «كنتُ أوّلَ النّبيِّينَ في الخَلْق وآخِرَهم في البَعْث»[5].

---

(١) البخاري، كتاب الصوم، باب ٢٠.

(٢) مسلم، كتاب الصيام، باب ١١ برقم ٢٥٦٤.

(٣) مسلم، كتاب الصيام، باب ١١ برقم ٢٥٦٦.

(٤) تفسير روح المعاني، سورة الأنعام (٦): الآية ١٦٣.

(٥) كنز العمال، ١١ برقم ٣٢١٢٦.

٣ ـ يَروي سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ الصحابةَ الكرامَ قالوا: يا رسولَ الله، متى وَجَبتْ لكَ النُّبوّة؟ قال: «وآدمُ بينَ الرُّوح والجسَد»[١].

ويقولُ العلّامةُ سيّد محمود الأَلُوسي: «المحبُّ القادرُ الذي لا يُعجِزُه شيءٌ دعا حبيبَه الذي خَلَقَه من نورِه إلى زيارتِه»[٢].

ويقولُ العلّامةُ الطَّبري: «فهو نورٌ لمنِ استنارَ به يُبيِّنُ الحقَّ»[٣].

وقالت السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: استَعَرْتُ من حَفْصةَ بنتِ رَواحةَ إبرةً كنتُ أَخيطُ بها ثوبَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلّم، فسقَطَت عنّي الإبرةُ، فطَلَبْتُها فلم أقدِرْ عليها، فدَخَل رسولُ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلَّم فتبيَّنتُ الإبرةَ بشُعاع نورِ وجهِه»[٤].

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بيرْزَاده،
جامعة الكرَم، إيتن هال، إنجلترا
اكتَمَل تفسيرُ سورةِ الكهف اليومَ الخميس ٣١ من مايو عام ٢٠٠٧م
الموافق ١٤ من جُمادى الأولى عام ١٤٢٨هـ
وقد استغرقَ تفسيرُها خمسةً وعشرينَ يومًا.
والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسلين،
وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❊ ❊ ❊

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١.
(٢) تفسير روح المعاني، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.
(٣) تفسير ابن جرير الطبري، سورة المائدة (٥): الآية ١٥.
(٤) كنز العمال، ١٢ : ٤٢٩ برقم ٣٥٤٩٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٩) سورة مريم

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها مَرْيَمُ؛ لأنها تحدَّثت ـ تفصيلًا ـ عن السيّدةِ مرْيمَ عليها السلام.

زمن النزول:

نَزَلت هذه السُّورةُ قبلَ العام الخامسِ من البَعْثةِ النَّبويّة، ودليلُ ذلك: الواقعةُ التاليةُ من الهجرةِ إلى الحبَشة، والتي قَرأَ فيها سيّدُنا جعفرٌ الطيّارُ رضيَ اللهُ عنه جزءًا من هذه السُّورةِ أمامَ النَّجاشيِّ ملِكِ الحبشة، وقد كانت الهجرةُ إلى الحبشةِ في السَّنة الخامسة من البَعْثة النَّبويّة، ويُعلَمُ من هذا أنّ هذه السُّورةَ كانت قد نَزَلت قبلَ السَّنةِ الخامسةِ هذه.

الهجرة إلى الحبشة:

عندَما رأى النبيُّ ﷺ أنّ ظُلمَ كُفّارِ مكَّةَ للمسلمينَ يزداد، أَذِن لفدائيّيهِ وعُشّاقِه في الهجرةِ إلى الحبشة، إذ إن هناك المَلِكَ النجاشيَّ، وهو مَلِكٌ رحيمُ القلبِ عادل، لا يَظلِمُ أحدًا، ولا يسمَحُ لأحدٍ بظُلم الضُّعَفاء، وهكذا خَرَجت أولُ قافلةٍ من المهاجرينَ من وَطَنها مكةَ في العام الخامسِ للبَعْثةِ النَّبويّة متَّجِهةً إلى الحبَشة، وكانت هذه القافلةُ تضُمُّ اثنَيْ عشَرَ رجلًا وأربَع نساء، وكان قائدَ القافلة هو سيّدُنا

عثمانُ الغنيُّ رضيَ اللهُ عنه، وكانت فَلْذةُ كبِدِ النبيِّ ﷺ السيّدةُ رُقَيّةُ رضي اللهُ عنها زوجةُ سيّدِنا عثمانَ رضي اللهُ عنه ضمنَ هذه القافلةِ المهاجِرة.

وحين وَصَلت قافلةُ المسافرينَ على طريقِ الحقِّ هذه استقبَلَها النَّجاشيُّ بكلِّ احترام وتقدير، وهيَّأَ لهم مكانًا آمِنًا لإقامتِهم، ومَضَت ثلاثةُ أشهُر في أمنٍ واطمئنان، وفي تلك الأثناءِ انتشَر خبرٌ بأنّ أهـلَ مكّةَ قد أَسْلمـوا، ولهـذا عاد أكثرُ أفرادِ القافلة من الحبَشةِ إلى مكّةَ، وهناك عَرَفوا أنّ هذا الخبَرَ مجرَّدُ إشاعة، وأنّ أحوالَ المسلمينَ هنا أكثرُ سوءًا من ذي قَبْلُ، وهكذا أَذِن النبيُّ ﷺ لهم بالهجرةِ ثانيةً إلى الحبَشة، وفي هذه المرّة كان ضمنَ أفرادِ القافلة سيّدُنا جعفرٌ الطيّارُ رضيَ اللهُ عنه ومسلمونَ آخَرون، وكان عددُ أفرادِ القافلة ثلاثةً وثمانينَ فردًا.

عندما تَرَك هذا العددُ الكبيرُ مكّةَ مهاجِرًا إلى الحبَشة، أصابَ القلقُ كُفّارَ مكّةَ بهذا الشَّأن، خوفًا من أن يَستجمِعَ المسلمونَ هناك طاقاتِهم ويُغِيروا عليهم، وهكذا تشاوَرَ كُفّارُ مكّةَ فيما بينَهم، وأرسَلوا سفيرَيْنِ إلى النَّجاشيِّ، لكي يلتَقِياهُ، ويؤثِّرا عليه بطريقةٍ أو بأُخرى، بحيث يَطرُدُ المسلمينَ المهاجِرينَ من الحبَشة، ويُجبِرَهم على العودةِ إلى مكّة، ولكي يَجعَلوا هذه السِّفارةَ أكثرَ تأثيرًا أرسَلوا الهدايا النفيسةَ الغاليةَ إلى النَّجاشي، لكي يَحصُلوا على تأييدِه هو ورجالِ بَلاطِه، ولمّا وَصَل سفيرا قُريشٍ إلى الحبَشة قالوا لمَلِكِها:

بعضُ السُّفَهاءِ من بلادِنا جاءوا إلى بلادِك وأقاموا فيها، هؤلاءِ السُّفهاءُ تَرَكوا دينَ قومِهم، ولم يَقبَلوا دينَك، وإنّما جاءوا بدِينٍ لهم من عندِ أنفُسِهم، وقد أرسَلْنا إليك سادةَ قُريشٍ حتى تأمُرَ هؤلاءِ السُّفَهاءَ بالخروج من بلادِك، والعودةِ إلى أهليهم في وَطَنِهم.

وهكذا استدعَى النَّجاشيُّ المسلمينَ المهاجِرينَ إلى بَلاطِه وسألَهم: أيُّ دينٍ هذا الذي تَرَكتُم من أَجْلِه دينَ آبائكم؟ فقال سيّدُنا جعفرٌ الطيَّارُ رضيَ اللهُ عنه: أيُّها الملِك، كنّا قومًا جُهَلاءَ، نعبُدُ الأصنامَ، وقد أرسَلَ اللهُ تعالى إلينا رسولًا نَعرِفُ نَسَبَه وصِدقَه وأمانتَه جيِّدًا، فدَعانا إلى الإيمانِ باللهِ تعالى.

وبعدَ ذلك تلا سيّدُنا جعفرٌ الطيّارُ رضيَ اللهُ عنه بضعَ آياتٍ من سُورةِ مرْيَم، استَمَع إليها النَّجاشيُّ، فطَرَأتْ عليه حالةٌ من الرِّقة، ثم قال: هذا الكلامُ، والكلامُ الذي نَزَل على سيّدِنا عيسى عليه السَّلام أشِعّةٌ لشمسٍ واحدة.

وهكذا قال النَّجاشيُّ مَلِكُ الحَبشةِ لسفيرَيْ مكّةَ: ارحَلوا أنتم من هنا، فإنّي لستُ بطاردِ هؤلاءِ ولا مُسَلِّمِهم لأحدٍ، وأشهدُ أنّ النبيَّ الذي يؤمنُ به هؤلاءِ هو رسولُ الله فعلًا، وهو الرسولُ الذي بشَّرَنا سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ بقدومِه، وقَسَمًا باللهِ لولا اضْطراري في الحُكم لَحَضرْتُ في خِدمةِ النبيِّ الكريم ﷺ، ولَسَعِدتُ بأنْ أُوضِّئَه، ولهذا عندما مات النَّجاشيُّ صَلّى عليه النبيُّ ﷺ والصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم صلاةَ الجَنازة، ودَعَوْا له بالمغفرة.

مضامين سورة مريم:

في بدايةِ السُّورة جاءتِ البُشرى لسيّدِنا زكريّا عليه السَّلامُ بمولِد ابنِه سيّدِنا يحيى عليه السَّلام، في الوقتِ الذي كان شَعَر سيّدُنا زكريَّا عليه السَّلامُ قدِ ابيَضَّ من الشَّيخوخة، وأصبحتِ السيِّدةُ زوجتُه عقيمًا، ثم جاء ذِكرُ مولدِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ من السيِّدةِ مرْيَمَ العَذْراءِ عليها السَّلامُ بغيرِ أبٍ، لإبرازِ حقيقةِ أنّ اللهَ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، وأنه ليس في حاجةٍ إلى الأسبابِ الظاهريَّة.

لمّا رأى الناسُ ولادةَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ المعجِزةَ قال عنه بعضُهم:

إنه إلهٌ، أو إنه ابنُ الله، والبعضُ الآخَرُ وَجَّه النقدَ والإساءةَ والتشنيعَ إلى السيِّدةِ مرْيَمَ العَذْراءِ عليها السَّلام، ولكنّ اللهَ تعالى أنهَى هذا الإفراطَ والتفريطَ بأنْ جَعَل سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ يتكلَّمُ وهو في حِجْرِ أُمِّه، ليشهدَ على عِفَّةِ والدتِه وطهارتِها من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ ليُعْلِنَ نبوَّتَه قائلًا: إنّني لستُ إلهًا، وإنّما عبدُ الله ونبيُّه، وقد أعطاني كتابًا أيضًا لهدايةِ البشَر.

ثم بعدَ ذلك جاء ذِكرُ بعضِ الأنبياءِ الكرام الآخَرينَ عليهم السَّلام جميعًا، وكذا الحديثُ عن كمالاتِهم الخاصَّة، وأيضًا عن ذُرِّيـتِهم بأنّ منهم مَن سيترُكُ الصلاةَ، ويتَّبعُ شهَواتِه، وأنّ اللهَ تعالى سيُعاقبُ هؤلاء، وسيُعطي من يعمَلونَ الصالحاتِ أجرًا عظيمًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده
جامعة الكرَم، إيتن هال ـ إنجلترا
يومَ الثلاثاء الثانيَ عشَرَ من يونيه عام ٢٠٠٧م
الموافق السادسَ والعشرين من جُمادى الأولى عام ١٤٢٨هـ.

❋ ❋ ❋

سورة مريم (١٩)،

مكية (٤٤)، آياتها (٩٨)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

﴿كٓهيعٓصٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعات، وهي سرٌّ بينَ اللهِ تعالى وحبيبِه المكرَّم سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، ولمزيدٍ من الشَّرح لها راجع الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة (٢).

﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾

٢ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، الوقائعُ التي يجري ذِكرُها في هذه الآياتِ فيها رحمةٌ من ربِّك الكريم، الذي أَنْعم على عبدِه سيّدِنا زكريَّا عليه السَّلام، يعني: أَنْعم عليه بولَدٍ في شيخوختِه هو سيّدُنا يحيى عليه السَّلام.

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾

٣ ـ دَعا سيّدُنا زكريَّا عليه السَّلام ربَّه خُفْيةً، والدعاءُ سواءٌ كان بصوتٍ مرتفع أم خُفْية لا فَرْقَ بينَهما، لكنْ في الدُّعاء بصوتٍ خَفِيض إخلاصٌ أكثر، ويكونُ أكثَرَ بُعدًا عن الرِّياء، والذِّكرُ كذلك صحيحٌ في الحالتين، ولكنّ الإخلاصَ أكثرُ مع الذِّكرِ بالصّوتِ الخَفِيض. عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: كنّا معَ النّبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فجَعَل النّاسُ يجهَرونَ بالتّكبير، فقال النّبيُّ ﷺ: «أيُّها النّاس، اربَعُوا على أنفُسِكم، إنّكم ليس تَدْعُونَ أصمَّ ولا غائبًا، إنّكم تَدْعُونَ سميعًا قريبًا وهو معَكم»[1].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾

٤ ـ لم يكنْ لدى سيّدِنا زكريَّا عليه السَّلام أولادٌ، وذاتَ يوم توجَّه إلى اللهِ تعالى بالدُّعاءِ بكلِّ عَجْز وتواضُع قائلًا: يا ربِّ، إنّ عظامي قد وَهَنتْ على وَجْهِ اليقين، ولقد بَلَغتُ من الشَّيخوخةِ عُمرًا تبدو معَه إمكانيّةُ إنجابِ أولادٍ معدومةً في الظاهر، ولكنَّك قادرٌ مطلَق، ولا تحتاجُ إلى سببٍ لتفعَلَ، ولهذا أدعوك يا ربِّ أن تُنعِمَ علَيَّ بولَدٍ من قُدرتِك، وأنا لستُ يائسًا من رحمتِك؛ لأنّني كلَّما دعوتُك من قبلُ أيضًا، كنتَ تقبَلُ دعائي بفضلِك وكرَمِك، وأنا الآنَ على يقينٍ من رحمتِك، وبأنك ستستجيبُ دعائي هذا.

---

(١) مسلم، كتاب الذكر، باب ١٣ برقم ٢٧٠٤.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾

٥ ـ لم يكنْ لدى سيّدِنا زكريَّا عليه السَّلامُ أولاد، وكان شيخًا كبيرًا، وكانتِ امرأتُه عاقرًا، وكان أقاربُه لا دينَ لهم، ولهذا كان يشعُر بخَطَرٍ من أنه إذا مات، مَن سيقومُ بتبليغ علوم النُّبوَّةِ والدعوةِ لها؟ ومن هنا دَعا الله تعالى أن يرزُقَه ولَدًا يرِثُ علومَه وعلومَ آلِ يعقوبَ، ويكونُ مقرَّبًا عندَ الله تعالى.

تركة الأنبياء الكرام عليهم السلام:

تَركةُ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام لا تكونُ مالًا، وإنما تكونُ عِلمًا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَوَتْه السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: «لا نورِّث، ما ترَكْنا صَدَقةٌ»[١].

وممّا لا شكَّ فيه أنّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياء، وأنّ الأنبياءَ لا يورِّثونَ دينارًا ولا درهمًا، وإنّما يورِّثونَ العِلمَ، ولهذا فإنّ مَن حَصَّل العِلمَ فقد حصَلَ على جزءٍ كبير[٢].

يقولُ العلّامةُ سيِّد محمود الألُوسيُّ: «ومذهبُ أهل السُّنة أنّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ لا يَرِثونَ مالًا ولا يورِّثونَ، لِما صَحَّ عندَهم من الأخبار. وقد جاء ذلك أيضًا من طريقِ الشِّيعة، فقد روَى الكُلَيْـنِي في «الكافي»، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن أبي عبدِ الله جعفرٍ الصّادقِ رضي اللهُ تعالى عنه، أنه قال: إنّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياء، وذلك أنّ الأنبياءَ لم يورِّثوا درهمًا ولا دينارًا وإنّما ورَّثوا أَحاديثَ من أحاديثِهم، فمَن أَخَذ بشيءٍ منها فقد أخَذ بحظٍّ وافر»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب الفرائض، باب ٤ برقم ٦٧٢٧.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «... إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء، لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا إنّما ورّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافرٍ». الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٢.

(٣) تفسير روح المعاني.

وبقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعيدي، نقلًا عن «الكافي»: إنّ أبا عبد الله، قال: كان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلام وارثًا لسيّدِنا داودَ عليه السَّلام، وكان سيّدُنا محمدٌ ﷺ وارثًا لسيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، ونحن وَرَثةُ سيّدِنا محمدٍ ﷺ[1].

ويظهَرُ من هذا أنّ المرادَ بتركةِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام: علومُ النُّبوة؛ لأنه ليس هناك أيُّ احتمالٍ لتركةٍ ماليّةٍ يرِثُها سيّدُنا محمدٌ ﷺ من سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴾

٦ ـ استجابَ اللهُ تعالى دعاءَ سيّدِنا زكريَّا عليه السَّلام، فبشَّره ـ عن طريق ملائكتِه ـ بالوَلَد، واقترحَ له اسمًا هو «يحيى»، ولم يكنْ أحدٌ قبلَه قد سُمِّي بهذا الاسم.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾

٧ ـ قال سيّدُنا زكريَّا عليه السَّلامُ: يا ربِّ، إنّ زوجتي عاقرٌ، وأنا شيخٌ كبير، فكيف سيولَدُ لي ولدٌ؟ هل ستعيدُنا شبابًا ثانيةً، أم هل سترزُقُني الولدَ في هذه الشيخوخة؟ وجاءه الجواب: سيولَدُ لكَ ولَدٌ في هذه الحالة من الشَّيخوخة، وهذا ليس بالأمرِ العَسِير علَيّ، فكما أَتيتُ بكَ من العَدَم، سأُنعمُ عليك بالوَلَدِ في هذه الشَّيخوخة.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾

٨ ـ قال سيّدُنا زكريَّا عليه السَّلام: يا ربِّ، اجعَلْ لي علامةً أو آيةً أعرِفُ منها أنّ وقتَ تحقُّقِ البُشرى قريب، فأخبَره اللهُ تعالى بأنّ الآيةَ هي: أنك لن تستطيعَ

---

(١) تفسير تبيان القرآن.

التحدُّثَ إلى الناسِ لثلاثةِ أيام وثلاثِ ليالٍ، وسوف تتفاهمُ معَهم بالإشارة، وهذا الصَّمتُ الذي يلحَقُ بك ليس بسببِ مرضٍ يصيبُك، وإنّما سيكونُ علامةً لك لكي تطمئنَّ نفسُك، وقد مرَّت هذه الواقعةُ من قبلُ في الآياتِ من ٣٨ إلى ٤١ من سُورة آل عِمران (٣).

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾

٩ ـ كان سيّدُنا زكريَّا عليه السَّلام معتادًا على أن يَخرُجَ من مكانِ تعبُّدِه في أوقاتٍ معيَّنة، ويَعِظَ الناسَ، وقدِ استمرَّت دعوتُه ووَعْظُه هذا خلالَ الثلاثةِ أيام التي كان صامتًا فيها، ولكنْ بالإشارةِ فقط، ويُعلَمُ من هذا أنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام يواصِلونَ دعوتَهم وتبليغَهم في كلِّ حال.

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾

١٠ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطُبي: «قولُه تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ في الكلام حَذْفٌ، المعنى: فوُلِد له وَلَدٌ وقال الله تعالى للمولود: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾، أي: بجَدٍّ واجتهادٍ، قاله مجاهدٌ. وقيلَ: العلمُ به، والحِفظُ له والعمَلُ به، وهو الالتزامُ لأوامرِه، والكفُّ عن نواهيه.......... ورَوى مَعْمَرٌ، أنّ الصِّبيانَ قالوا ليحيى: اذهبْ بنا نلعبْ، فقال: ما للعبِ خُلِقتُ. فأنْزل الله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾. وقال قَتادةُ: كان ابنُ سنتَيْنِ أو ثـلاثِ سنيـن. وقال مقاتلٌ: كان ابنَ ثلاثِ سنين»[١]، وقد أُعطِيَتِ النُّبوةُ لسيّدِنا عيسى عليه السَّلام بمجرَّد مولدِه، بينَما أُعطِيت لسيّدِنا يحيى عليه السَّلام وهو ابنُ ثلاثِ سنين[٢]، ويقولُ العلاّمةُ فخرُ الدين

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «كان ابن ثلاث سنين». التفسير المنير.

الرازي: «إنّ اللهَ تعالى بَعَث يحيى وعيسى عليهما السَّلامُ وهما صِبْيانِ»[١]، بينَما كان نبيُّنا سيّدُنا محمّدٌ ﷺ نبيًّا منذ الوقتِ الذي كان فيه سيّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ بينَ الرُّوح والجسَد[٢]، في حينَ أنّ معظمَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام قد أُعطُوا النُّبوةَ في سنِّ الأربعين[٣].

النبي معصوم حتى قبل بعثته:

يقولُ المفتي أمجدُ علي: أَجْمع العلماءُ على أنّ الأنبياءَ معصومونَ ـ حتى قبلَ بَعثتِهم ـ من الكُفرِ والشِّرك، ومن كلِّ أمرٍ يَنفِرُ منه البشَر مثلَ: الكذبِ والخيانةِ والجهل وغيرِها، وكذا من الصِّفاتِ الذَّميمة مثلَ تلك الأفعالِ التي تتنافَى معَ الوَجاهة والمروءة، أمّا الكبائرُ فهم معصومونَ منها تمامًا، والحقُّ أنّهم معصومونَ منَ ارتكابِ الصَّغائرِ عَمْدًا قبلَ النُّبوةِ وبعدَها أيضًا[٤].

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾

١١ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا يحيى عليه السَّلام برِقّةِ القلب والطُّهر، وكان عليه السَّلامُ يعاملُ الناسَ برحمةٍ ولين، كما أنّه عليه السَّلامُ كان يتّقي اللهَ ويخشاه، ويُحسنُ معاملةَ والدَيْه.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

١٢ ـ يقولُ ابنُ جَرير الطَّبري: إنّ معنى «سَلامٌ» هنا هو الأمان، فالشّيطانُ

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النّبوّة؟ قال: «وآدم بين الرّوح والجسد». الترمذي، أبواب المناقب، باب ١، كنز العمال، برقم ٣١٩١٧.

(٣) «ولم ينبأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين». روح المعاني.

(٤) بهار شريعت، المجلد الأول: ١١.

يَضُرُّ كلَّ إنسانٍ عندَ مولدِه، لكنّ سيّدَنا يحيى عليه السَّلام ظلَّ محفوظًا من ضرَرِه، وعندَما يموتُ يكونُ محفوظًا من عذابِ القبر(١).

هذه الأيامُ الثلاثةُ: (يومُ الميلاد، ويومُ الوفاة، ويومُ البَعْث) في غايةِ الوَحْشة، إذ يرى كلُّ إنسانٍ فيها ما لم يرَهُ من قبلُ، لكنّ الله تعالى تكرَّم على سيّدِنا يحيى عليه السَّلام وبشَّره بالسَّلام والأمان، وبنفس الطريقة فإنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام يكونونَ في سَلام في هذه المواضع الثلاثةِ أيضًا، مثلَما قال سيّدُنا عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾

(١) «وقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ يقول: وأمان من الله يوم ولد، من أن يناله الشيطان من السوء، بما ينال به بني آدم، وذلك أنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلّ بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنبٌ إلا ما كان من يحيى بن زكريّا». حدثنا بذلك ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، قال: ثني ابن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ذلك. حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ قال: كان ابن المسيب يذكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ يلقى الله يوم القيامة، إلا ذا ذنبٍ، إلا يحيى بن زكريّا». قال: وقال قتادة: ما أذنب، ولا هم بامرأة.
وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ يقول: وأمان من الله تعالى ذكره له من فتّاني القبر، ومن هول المطلع، ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ يقول: وأمان له من عذاب الله يوم القيامة، يوم الفزع الأكبر». تفسير ابن جرير الطبري.

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾

١٣ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، اقرَأْ على الناس قصّةَ السيِّدة مريَمَ عليها السَّلامُ من القرآنِ المَجيد، وذلك حينَ غادرتْ بيتَها وانفَصلت عن أهلِها، واتَّجهت إلى الجانبِ الشَّرقيِّ من بيتِ المقدِس، وصنَعتْ لنفسِها حِجابًا بينَها وبينَ الناس لتنجوَ من أنظارِهم، وفي أثناءِ وَحْدتِها هذه أرسَلَ اللهُ تعالى إليها سيِّدَنا جِبريلَ عليه السَّلام في شكلِ بشَر، وحين رأتِ السيّدةُ مريَمُ عليها السَّلامُ بشرًا بالقُرب منها قالت وهي مُضْطَرِبةٌ خائفة: إنّي أعوذُ بالرحمن منكَ، إن كنتَ تخشَى اللهَ تعالى فلِمَ أَتيتَ إلى هنا؟

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾

١٤ ـ قال جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلام: لا تخافي، فأنا لستُ إنسانًا، وإنّما مَلَكٌ مرسَلٌ من ربِّك، أرسَلَه إليكِ، وقد جئتُ لِأُبشِّرَكِ بمَوْلِدِ ابنٍ طاهرٍ لكِ.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

١٥ ـ قالتِ السيّدةُ مريَمُ عليها السَّلام: إنّي فتاةٌ عذراء، ولم تلمِسْني يدُ إنسان، كما أنّي لستُ بَغِيًّا، فكيف إذًا يولَدُ لي ولدٌ؟

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾

١٦ ـ أجاب جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلام: هذا سيكونُ فعلًا؛ لأنّ هذا حُكمُ ربِّكِ، وخَلْقُ ولَدٍ بغيرِ أبٍ أمرٌ يسيرٌ بالنِّسبة له، وكما أنّ اللهَ تعالى خَلَق سيّدَنا آدمَ عليه السَّلام بغيرِ أبٍ أو أمٍّ، بنفسِ الطريقة قرَّرَ أن يَخلُقَ ابنَكِ بغيرِ أبٍ، ولن يكونَ طفلًا عاديًّا، وإنّما سيكونُ آيةً على قدرةِ الله ورحمتِه.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾

١٧ ـ نَفَخ سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلام نَفْخةً فحَدَث الحَمْلُ، وقد كانت السيّدةُ مريَمُ عليها السَّلام مطمئنّةً باطِّلاعِها على الإرادةِ الإلهيَّة، لكنَ مِثلَ هذا الأمرِ فوقَ مستوى فَهْم الناس وإدراكِهم، لهذا اعتزَلتِ الناسَ في مكانٍ بعيد، أي: في صحراءِ بيتَ لحم، وذلك لتتجنَّبَ افتراءاتِ الناس عليها واتهاماتِهم لها، في هذا المكانِ قال سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلام لسيّدِنا محمّدٍ ﷺ ليلةَ الإسراءِ والمعراج أن يُصلِّيَ ركعتَيْنِ فيه؛ لأنه المكانُ الذي وُلِد فيه سيّدُنا عيسى عليه

السلام[١]، وقد زار هذا العبدُ الفقيرُ إلى الله بيتَ لَحْمَ أيضًا في يناير من عام ٢٠٠١م بعد أنْ زارَ المسجدَ الأقصى.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

١٨ ـ عندَما بدَأَت مرحلةَ وَضْع الحَمْل جَلَست السيّدةُ مريَمُ عليها السَّلام إلى جانبِ جِذْع نخلةٍ متَّكئةً عليها، وقالت لنفسِها: إنه حين يولَدُ طفلي ويراهُ الناسُ، فسيتَّهمونَني بارتكابِ الفاحشة، فكيف أُقنعُهم إذ ذاك؟ ولهذا خَرَجت من فمِها هذه الألفاظُ بلا اختيارٍ منها: ليتَني مِتُّ قبلَ أن أَلِدَ هذا الطِّفلَ، وأصبحتُ مَنْسيّةً لا يذكُرُني أحد!

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾

١٩ ـ حينَ وُلِد سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام لم يكنْ لدى السيّدةِ مريَمَ عليها السَّلام في تلك الصَّحراء دايةٌ «مولِّدةٌ»، ولا شيءٌ من الطعام والشراب، وفي هذه الظروفِ العصِيبة ناداها سيِّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ من الوادي أسفلَها أنْ لا تحزَني، وانظُري تحتَكِ، فقد أَجْرى اللهُ تعالى تحتَكِ في الوادي عينَ ماءٍ أيضًا.

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾

٢٠ ـ يعني: حرِّكي جِذْعَ شجرةِ النَّخيل، وسيتساقَطُ عليكِ منها رطبٌ طيِّب، ولهذا يمكنُكِ أن تشربي الماءَ من العَيْن، وتأكلي التمرَ، وتَقَرِّي عيْنًا برؤيةِ مولودِكِ، أي: يطمئنَّ قلبُكِ.

---

(١) «ثم صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام». دلائل النبوة للبيهقي، باب الإسراء، المجلد الثاني، ٣٥٥.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

٢١ - من الطبيعيِّ أنّ كلَّ مَن يَرى هذا الطِّفلَ معَ السيّدةِ مريَمَ العذراءِ عليها السَّلام سيَسألُ عنه، ولهذا قيلَ للسيّدة مريَمَ عليها السَّلام أنِ انوي صَوْمًا من الصَّمت، فإذا ما سألكِ أحدٌ عنه فعليكِ أن تُخبِريهم بالإشارةِ أنك صائمةٌ عن الكلام، ولهذا لا تستطيعينَ التحدُّثَ إليهم، وكان الصَّومُ عن الكلام جائزًا في شريعةِ بني إسرائيلَ من قبلُ، ولكنه الآنَ غيرُ جائز.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾

٢٢ - قال وَهْبُ بنُ منبِّه: «لمّا أَتَتْ به قومَها تحمِلُه تَسامَعَ بذلك بنو إسرائيلَ، فاجتَمعَ رجالُهم ونساؤهم، فمَدَّتِ امرأةٌ يدَها إليها لتضربَها فأجفَّ اللهُ شَطْرَها فحَمَلتْ كذلك. وقال آخَر: ما أراها إلّا زَنَت، فأَخْرسَه اللهُ تعالى، فتحامَى النّاسُ من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمةً تؤذيها، وجَعَلوا يخفِضُونَ إليها القولَ ويُلينونَ، فقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: عظيمًا»[1]، معَ أن والدَيْكِ كانا صالحَيْنِ، وهارونُ الذي أنت أُختُه، هو أيضًا رجلٌ صالحٌ، بمعنى: أنّ عائلتَكِ كلَّها من الصّالحين، فلماذا ارتكبتِ أنت هذا العملَ السيِّئ؟

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

٢٣ - عندَما سألَ بنو إسرائيلَ عن هذا الطِّفل، ألقَى اللهُ تعالى في قلبِ السيّدةِ مريَمَ عليها السَّلامُ أنْ أشيري إلى الطِّفل، وسوف يجيبُ الطِّفلُ عن سؤالِهم، وحين أشارتِ السيّدةُ مريَمُ عليها السَّلام إلى الطِّفل قالوا: كيف يمكنُ أن نتحدَّثَ معَ هذا

(١) تفسير القرطبي.

الطِّفل الصَّغير البريءِ وهو لا يزالُ حتى الآنَ في حِجر أُمِّه؟ وعندئذٍ نَطَق الطفل و﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، وكأنه أوضَح أنّ مولِدَه لم يكنْ نتيجةَ ارتكابِ فاحشة، وإنّما هو آيةٌ على قُدرةِ الله تعالى وعِفّةِ أُمِّه وطهارتِها؛ لأنّ من يختارُه اللهُ تعالى من عبادِه للنُّبوةِ يكونُ غايةَ الطهارةِ في مولدِه ونَسَبِه.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾

٢٤ ـ لقد جَعَلني اللهُ تعالى مباركًا؛ لأنّ الموتَى سيَحْيَوْنَ بدعائي، وسيعودُ البصرُ إلى الأعمى، ويبرَأُ الأبرصُ من مرضِه بدعائي أيضًا.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

٢٥ ـ يُعلَمُ من هذه الآية أنّ ولادةَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام كانت بغيرِ أبٍ؛ لأنه لو كان له أبٌ لَما ذَكَر حُسنَ المعاملة معَ الأُمِّ فقطْ، وإنما كان سيَذكُر حُسنَ المعاملة معَ الوالدَيْنِ معًا، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنّ الشّخصَ الذي لا يَخدُم والدتَه، هو عندَ الله تعالى بمثابةِ العاصي التَّعِس.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

٢٦ ـ لتفسير هذه الآية راجع الحاشيةَ رقم ١٢، وكذا الآيةُ رقم ١٥.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

٢٧ ـ في الآياتِ الأربع السابقة جاء الكلامُ المعجِزُ لسيّدِنا عيسى عليه السَّلام والذي قاله وهو في حِجرِ أُمِّه، ثم لم يتحدَّثْ بعدَ ذلك إلى أنْ وَصَل إلى عمُرِ الكلام، مَثَلُه مَثَلُ باقي الأطفال، وحقيقةُ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام هي التي جاء بيانُها في هذه الآيات، يعني: أنه عبدُ الله ونبيُّه، وهذا هو الأمرُ الصّادقُ الذي يُشكُّ

فيه الناسُ، ويقَعُونَ في الإفراطِ والتفريطِ فيما يخصُّه وبلا داعٍ أيضًا.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

٢٨ ـ اللهُ تعالى ليس في حاجةٍ إلى أولاد، فهو القادرُ المطلَق، ويفعَلُ ما يريدُ بمجرَّدِ الإرادة، أو بمجرَّدِ قوله: «كن» ليس إلّا.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

٢٩ ـ يمكنُ أن يكونَ هذا من كلام سيّدِنا عيسى عليه السلام، ويمكنُ أن يكونَ من كلام نبيٍّ آخِرِ الزّمانِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ أيضًا؛ لأنّ الرسالةَ الأَصْليّةَ للأنبياءِ جميعًا واحدة، يعني: أنّ اللهَ تعالى هو ربِّي وربُّكم بلا شكّ، ولهذا ينبغي أن تعبدوه هو، وهذا هو الصِّراطُ المستقيم.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾

٣٠ ـ هناك اختلافٌ في الآراءِ بينَ أهل الكتابِ فيما يتعلَّقُ بسيّدِنا عيسى عليه السلام، فهو ـ عليه السَّلامُ ـ في نظرِ اليهود ساحرٌ وابنٌ غيرُ شَرْعيٍّ، وفي نظرِ الفِرقة النِّسطُوريّة (البروتستانت: Protestant) النَّصْرانية عيسى عليه السَّلامُ ابنُ الله تعالى، وفي نظَرِ المَلْكانيِّين (الكاثوليك: Catholic) هو الضِّلعُ الثالثُ من الثالوثِ المقدَّس، وفي نظَر اليعقوبيِّين (الأرثوذوكس: Orthodox) هو اللهُ نفسُه، وهكذا اتَّسم اعتقادُ اليهودِ فيما يتعلَّقُ بسيّدِنا عيسى عليه السَّلام بالتفريط، بينَما اتَّسم اعتقادُ النَّصارى بالإفراط[1].

---

(١) «اختلف الأحزاب بينهم. وقال قتادة: أي: ما بينهم، فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السّلام. فاليهود بالقدح والسّحر. والنّصارى قالت النّسطوريّة منهم: هو ابن الله. والملكانيّة: ثالث ثلاثةٍ. وقالت اليعقوبيّة: هو الله، فأفرطت النّصارى وغلت، وفرّطت اليهود وقصّرت». القرطبي.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾

٣١ ـ سيكونُ يومُ القيامة ـ باعتبارِ شدائدِه وأهوالِه ـ يومًا قاسيًا وشديدًا، وباعتبار طُولِ المدّة سيكونُ يومًا في غايةِ الطُّول، وحينَما يَمثُلُ المُنكِرونَ في ذلك اليوم للحساب، سيكونُ الحُكمُ بدمارِهم وهلاكِهم عقابًا لهم على إنكارِهمُ الحقَّ.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

٣٢ ـ يعني: أنّ هؤلاءِ الناسَ عُمْيٌ اليومَ عن رؤيةِ الحقِّ، وصُمٌّ عن سَماع الحقِّ، ويَعمَهونَ في ضلالٍ واضح وصَريح، ومهما أفهمتَهم فإنّهم لا يحاولونَ الفَهْمَ، ولكنْ حين يَصدَعُ الحقُّ بوجودِه يومَ القيامة، فسيرى هؤلاءِ ويسمَعون، وسيُضْطَرُّونَ إلى الاعترافِ بالحق، ولكنّ مِثلَ هذا الاعترافِ بالحقِّ لا جَدْوى من ورائه في ذلك الوقت، ليتَهم يشعُرونَ بهذا اليوم.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

٣٣ ـ قيل ليوم القيامة: «يومُ الحَسْرة» لأنّ الأشرارَ أيضًا في ذلك الوقتِ سيتحسَّرونَ بأنْ ليتَهم لم يَرتكِبوا السُّوءَ، والصّالحونَ أيضًا سيتحسَّرونَ: لماذا لم يَستزيدوا من العمل الصالح[1]، وباختصار: سيتقرَّر يومَ القيامة مَن يدخُل الجنّةَ ومن يدخُل جهنَّم، وكلاهما سيَخلُدُ فيما سيَدخُلُ فيه إلى الأبد، ولكنّ الناسَ في أيامِنا غافلونَ عن يوم القيامة، ولا يؤمنونَ به.

---

(١) وروى البغوي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يموت إلا ندم»، قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: «إن كان محسنًا أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم أن لا يكون نزغ». التفسير المظهري.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

٣٤ ـ أَنْعم اللهُ تعالى في هذه الدُّنيا على بعضِ الناس بالمِلْكيّةِ المؤقَّتة لبعضِ الأرض وبعض الأشياء، ويُمكنُهم التصرُّفُ فيها، ولكنّ المالكَ الحقيقيَّ المباشرَ يومَ القيامة للأرض وأهلِ الأرض وحاكمَهم هو اللهُ تعالى فقطْ، وسوف يَمثُلُ الناسُ جميعًا في حضرتِه يومَ القيامة للحساب.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾

٣٥ ـ كان العربُ يقولونَ عن سيّدِنا إبراهيمَ: إنه أبوهم، هذا من جانب، ومن جانب آخَرَ يقدِّمونَ الدّليلَ على عبادتِهم الأصنامَ بأنه لمّا كان أجدادُهم يعبُدونَ الأصنامَ، فإنّهم لا يستطيعونَ تَرْكَ عبادةِ الأصنام، وفي هذه الآيةِ الكريمة أمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ بأن يقُصَّ على أهل الجزيرةِ العربيّة من قصّةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام ما وَرَد في القرآنِ المَجيد، بأنّ أباكم المكرَّمَ والمحترمَ كان سيّدَنا إبراهيمَ عليه السّلام، وقد أنكَرَ عبادةَ الأصنام، ولهذا ينبغي لكم أنتم أيضًا أن

ترجِعوا عن عبادةِ الأصنام، وأن تتَّبِعوا سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام، فقد كان بلا شكٍّ نبيًّا لله صادقًا.

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾

٣٦ ـ المرادُ بالأبِ هنا هو: آزَرُ عمُّ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السلام، والذي نهاه سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام عن عبادةِ الأصنام، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الآيةَ رقم ٧٤ من سُورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشيةُ رقم ٧٠.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾

٣٧ ـ قال سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لعمِّه آزَرَ: رَغْم أنك أكبرُ منّي عمُرًا، لكنّ اللهَ تعالى أَنْعم علَيّ بالعِلم عن طريقِ الوحي، وهذا العِلمُ ليس عندك، ولهذا ينبغي أن تتَّبعَني، وسأهديكَ إلى الصِّراطِ السَّويّ.

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾

٣٨ ـ قال سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام لعمِّه آزر: الشيطانُ عاصٍ لله تعالى، وهو الذي يدعو الناسَ إلى عبادةِ الأصنام، وهكذا فإنّ عبادةَ الأصنام هي ـ في الأصل ـ عبادةٌ للشيطان، ولهذا ينبغي أن تَرجِعوا عن عبادةِ الشيطان، ولئن مِتُّم على حالتِكم هذه من الكُفر، فستكونونَ رُفقاءَ للشيطان، وستواجهونَ العذابَ الإلهيَّ دائمًا.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾

٣٩ ـ قال آزَرُ لسيّدنا إبراهيمَ عليه السلام: يبدو أنك لا تعترفُ بآلهتِنا، ولهذا تَنْهاني أنا أيضًا عن عبادتِها، ولكنْ تذكَّرْ أنك إن لم تَرجِعْ عن مخالفةِ هذه الآلهة، فسأرجُمُكَ، ولذا يجبُ أن تَغرُبَ عن أنظاري بعيدًا.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾

٤٠ ـ للسَّلام قسمانِ؛ أحدُهما: تحفةُ السَّلام ودعاءٌ بالسَّلامة، والذي هو المقصِدُ الأَصْليُّ للسَّلام، والثاني: السَّلامُ الذي يكونُ لإنهاءِ الحديثِ معَ أحد، وللتخلُّص منه، وهنا ألقَى سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ على آزَرَ السَّلامَ لكي يعتزلَه، بمعنى: اقبَلْ سَلامي الأخيرَ هذا، والآنَ سأُهاجرُ من هنا، ولكنْ برَغْم عدم تقديرِك ولا مبالاتِك فإنّني سأظلُّ أدعو لكَ بالهداية حتى يغفرَ اللهُ لك، ولكنْ حين ماتَ آزَرُ على الكُفر تَرَك سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ الدُّعاءَ له، ولمزيدٍ من التوضيح راجعِ الآيةَ رقم ١١٤ من سُورة التوبة (٩)، وكذا الحاشيةُ رقم ٩٢.

يقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ فيما يتعلَّقُ بالسَّلام على الكُفّار: «سُئل الأَوْزاعيُّ عن مسلمٍ مرَّ بكافرٍ فسَلَّم عليه، فقال: إن سلَّمتَ فقد سلَّم الصّالحونَ قبلَك، وإن تركتَ فقد تَرَك الصّالحونَ قبلَك. ورُوي عن الحَسَن البصريِّ أنّه قال: إذا مَررتَ بمجلسٍ فيه مسلمونَ وكُفّارٌ فسلِّمْ عليهم»(١).

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾

٤١ ـ قال سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لأقاربِه وأهلِ بلدتِه: بما أنّكم لا تَقبَلونَ نصيحتي، وإنّما على العكس من ذلك تهدِّدونَني بالرَّجْم، فلا فائدةَ إذًا من بقائي هنا معَكم، ولهذا فإنّني سأترُكُكم وأترُكُ آلهتَكم، وأُهاجرُ من هنا، حتى أستطيعَ أن أعبدَ ربِّي بكلِّ سَكينةٍ واطمئنان، وعندي أملٌ كاملٌ في رحمةِ الله تعالى بأنّني لن أبقَى محرومًا من برَكةِ عبادتِه.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾

٤٢ ـ الذي يُهاجرُ إرضاءً لله تعالى لا يبقَى محرومًا ولا خائبًا، وحين هاجَرَ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام من وطنِه إلى الشام، أَنْعم اللهُ تعالى عليه بابنٍ مثلَ سيّدِنا إسحاقَ عليه السَّلام، وحفيدٍ مِثلِ سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام، وأَنْعم على هذَيْنِ بالنُّبوةِ أيضًا.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾

٤٣ ـ تفضَّل اللهُ تعالى على سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام بكَرَم خاصٍّ وفَضْل من عندِه، وأعلى ذِكرَه كثيرًا، حتى أنّ اليهودَ والنَّصارى والمسلمينَ في أيامِنا هذه أيضًا يعترفونَ بعظَمةِ وقُدسيّةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، رَغْمَ اختلافاتِهم فيما بينَهم، أمّا نحن المسلمينَ فإنّ صلاتَنا لا تكتملُ ما لم نَذكُرْ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ بالخيرِ معَ صَلاتِنا على نبيِّنا الكريم ﷺ، بينَما في الحجِّ فإنّنا ـ في كثير من مواضعِه ـ نتَّبعُ أعمالَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وسيّدَنا إسماعيلَ عليه السلام، والسيّدةَ هاجَرَ عليها السَّلام.

وفي هذه الآياتِ طَمْأَنةٌ للمهاجِرينَ أيضًا بأنه كما أنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ هاجَرَ في سَبيل رضا الله تعالى ولم يُصِبْه الخُسران، بل على العكسِ كان الفلاحُ من نصيبِه، فإنّكم أنتم أيضًا سيُكتَبُ لكمُ الفوزُ والفلاحُ بهجرتِكم في سَبيل الله تعالى، والتاريخُ شاهدٌ على أنّ اللهَ تعالى قد مَنَّ على المهاجِرينَ بالرِّفعة والعظَمة ممّا لم يكنْ كُفّارُ قُريشٍ يتصوَّرونَه.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ

فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

٤٤ ـ للرسولِ والنبيِّ مُهمّةٌ بعَيْنِها، يعني: إبلاغَ رسالةِ الله تعالى إلى خَلْقِه، وهذان اللفظانِ عادةً يُستعمَلانِ بمعنًى واحد، لكنّ هناك فرقًا بينَهما، أي: أنّ النبيَّ: الذي يأتي بكتابٍ وشريعةٍ يكونُ رسولًا أيضًا، أمّا النبيُّ الذي يدعو لكتابِ نبيٍّ قبلَه ويُبلِّغُ شريعتَه فهو نبيٌّ فقطْ وليس رسولًا، ولهذا فإنّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس ـ من الضّروريِّ ـ أن يكونَ كلُّ نبيٍّ رسولًا.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾

٤٥ ـ كان سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ متَّجِهًا من مَدْيَنَ إلى مِصرَ، وحين مرَّ في طريقِه بجبلِ الطُّور، كان هذا الجبلُ على جهتِه اليمنى، ومن هذه الجهةِ ناداه اللهُ تعالى وكلَّمَه وأَنْعم عليه بقُربٍ خاصّ، والمرادُ بالمناجاةِ هنا: أنّ كلامَ الله تعالى لسيّدِنا موسى عليه السَّلام كان بشكلٍ مباشر دونَ واسطةٍ من مَلَكٍ، ولهذا لُقِّب بكليمِ الله.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾

٤٦ ـ دعا سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ في حضرةِ الله تعالى: اجعَلْ أخي هارونَ نبيًّا لكي يُعينَني، فاستجابَ اللهُ تعالى دعاءه، وأَنْعم على سيّدِنا هارونَ بالنُّبوةِ لكي يُعينَه ويُقوِّيَه، ويُعلَمُ من هذا أنه إذا كان نعمةٌ عظيمةٌ مِثلُ النُّبوةُ يُنعِمُ اللهُ تعالى بها استجابةً لدعاءٍ من أحدِ أحبّائه، فما تكونُ نعمةُ الأولاد، أو أيُّ نعمةٍ أخرى من نِعَم الدنيا قياسًا بالنُّبوة، بحيث لا يُنعِمُ اللهُ بها استجابةً لدعاءٍ من أحدِ أوليائه!

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾

٤٧ ـ كان سيّدُنا إسماعيلُ عليه السَّلامُ رسولًا نبيًّا، والأنبياءُ جميعًا صادقونَ فيما يَعِدُونَ به، ولكنّ سيّدَنا إسماعيلَ كان معروفًا أكثرَ من غيرِه بهذه الصِّفة، ووَرَد أنه «وَعَد رجلًا أن يَلقاهُ في موضعٍ، فجاء إسماعيلُ وانتظر الرّجُلَ يومَه وليلتَه، فلمّا كان في اليومِ الآخَر جاء، فقال له: ما زلتُ ها هنا في انتظارِك منذُ أمسِ»[1].

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ أبي الحَمْساءِ رضي اللهُ عنه: بايعتُ النّبيَّ ﷺ ببَيْعٍ قبلَ أن يُبعَث، وبقِيَتْ له بقيّةٌ، فوعدتُه أن آتيَه بها في مكانِه، فنسِيتُ، ثمّ ذَكَرتُ بعدَ ثلاثٍ، فجئتُ فإذا هو في مكانِه، فقال: «يا فتى، لقد شقَقْتَ علَيَّ، أنا ها هنا منذ ثلاثٍ أنتظرُك»[2].

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾

٤٨ ـ يُعلَمُ من هذا أنّ على الإنسانِ أن يبدَأَ دعوتَه من أهلِ بيتِه، ومن يفعَلُ ذلك فهو شخصٌ مقرَّبٌ إلى الله تعالى محبَّبٌ إليه.

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٩٠ برقم ٤٩٩٦.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

٤٩ ـ جَعَل اللهُ تعالى سيّدَنا إدريسَ عليه السَّلامُ نبيًّا، ورَفَعَه إلى أعلى المراتبِ وأرفع مكانةٍ، ورَغْم أنّ بعضَ الرواياتِ تذكُر أنه رُفِع إلى السّماءِ حيًّا، لكنّ مصدرَ هذه الرواياتِ كلِّها هو الإسرائيليّاتُ، والتي لا يمكنُ بناءُ عقيدةٍ على أساسِها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ﴾

٥٠ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام بفَضْل خاصٍّ من عندِه، فقد هداهم، واختارَهم للنُّبوة، وبرَغْم هذا المقام العظيم والمكانةِ الرَّفيعة، فقد بَلَغوا في تواضُعِهم وعُبوديَّتِهم لله تعالى شأنًا عاليًا، بحيث أنهم كلَّما قُرِئتْ آياتُ الله تعالى أمامَهم فإنهم يخِرُّونَ لله تعالى ساجدينَ باكِينَ.

يجبُ على كلِّ إنسانٍ إذا ما وَصَل في أثناءِ تلاوته للقرآنِ الكريم إلى آياتِ الخوفِ منَ اللهِ تعالى أن يُحاولَ البكاءَ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «فإذا قرأتُموه فابكُوا، فإنْ لم تَبكُوا فتباكَوْا»[١]، والسُّجودُ واجبٌ بعد تلاوةِ هذه الآية.

ـ قال سيّدُنا عليٌّ كرَّم الله وجهَه: «إذا بكَى أحدُكم من خَشْيةِ الله فلا يمسَحْ دموعَه بثوبِه ولْيدَعْها تسيلُ على خدَّيْهِ يلقَى اللهَ عزَّ وجلّ بها»[٢].

ـ رُوِي فيما يتعلَّقُ بسيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضيَ اللهُ تعالى عنه: «أنّه كان في وجهِه خطّانِ أسودانِ من البكاء»[٣].

---

(١) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ١٧٦ برقم ١٣٣٧.
(٢) شعب الإيمان، ١: ٤٩٣ برقم ٨٠٨.
(٣) شعب الإيمان، ١: ٤٩٣ برقم ٨٠٦.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾

٥١ ـ خَلَف الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام أيضًا أناسٌ غيرُ جديرينَ بأن يكونوا خَلَفًا لهم، عَصَوا اللهَ تعالى واتَّبعوا شهواتِهم، وغَفَلوا عن فريضةٍ في غاية الأهميّةِ مثلَ الصلاة، وسوف يلقَى هؤلاءِ العُصاةُ ـ يقينًا ـ عقابَ ضلالِهم هذا.

بعض الأحاديث النبوية عن الصلاة:

١ ـ قال النبيُّ ﷺ «قال الله تعالى: إنّي فرَضْتُ على أُمّتِك خمسَ صلواتٍ، وعَهِدتُ عندي عهدًا أنّه مَن جاء يُحافظُ عليهِنّ لوقتهِنّ أدخلتُه الجنّةَ، ومَن لم يحافظْ عليهِنّ فلا عهدَ له عندي»(١).

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ أوّلَ ما يحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامة من عمَلِه: صلاتُه، فإنْ صَلَحتْ فقد أفلَح وأَنْجح، وإن فَسَدت فقد خابَ وخَسِر، فإنِ انتَقَص من فريضتِه شيءٌ قال الرّبُّ عزَّ وجلّ: انظُروا هل لعبدي من تطوُّعٍ؟ فيُكمَّلُ بها ما انتَقَص من الفريضة، ثمّ يكونُ سائرُ عملِه على ذلك»(٢).

٣ ـ قال رسولُ الله ﷺ «أسوأُ النّاسِ سرقةً الّذي يسرقُ صلاتَه». قالوا: يا رسولَ الله، وكيف يسرقُ صلاتَه؟ قال: «لا يُتمُّ ركوعَها ولا سجودَها»(٣).

٤ ـ رُوي عن سيّدِنا جابرِ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مِفتاحُ الجنّةِ الصّلاة، ومِفتاحُ الصّلاةِ الطَّهُور»(٤).

---

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ٩ برقم ٤٣٠.

(٢) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ١٨٨ برقم ٤١٣.

(٣) سنن الدارمي، كتاب الصلاة، باب ٧٨.

(٤) مسند أحمد، ٣: ٣٤٠.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾

٥٢ ـ المُذنبونَ الذين يتوبُونَ إلى الله تعالى من قلوبِهم صادقين، ويختارونَ لأنفُسِهم طريقَ عملِ الصالحات، سيُدخلُهم اللهُ تعالى ـ كما وَعَد ـ جنّاتِ عدنٍ، حيث الأمنُ التامُّ والسَّلامُ الدائم، وحيثُ لا يسمَعُ الإنسانُ ما لا يَسُرُّه أبدًا.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾

٥٣ ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: قال رسولُ الله ﷺ لِجبريلَ: «ما يمنَعُك أن تزورَنا أكثرَ ممّا تزورُنا؟»، فنزَلتْ[١]، يعني: أنّ سيّدَنا جِبريلَ الأمينَ عليه السَّلام أجابَ قائلًا: إنّنا لا نَنزِلُ بغير حُكمٍ من الله تعالى، وهو الذي يُرسلُنا في الوقتِ الذي يشاء، فهو مالكُ الكائناتِ كلِّها، ويفعَلُ كلَّ شيءٍ في وقتِه ومحلِّه، وهو منزَّهٌ عن النِّسيانِ والغَفْلة.

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

٥٤ ـ اللهُ تعالى وحدَه هو خالقُ هذه الكائناتِ ومالكُها وربُّها، وهو متفرِّدٌ في ذاتِه وصفاتِه، ولهذا لا تليقُ العبادةُ إلّا به سبحانَه وتعالى.

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ

---

(١) البخاري، سورة مريم (١٩)، باب ٢ برقم ٤٧٣١.

فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾

٥٥ ـ الذي لا يؤمنُ بيوم القيامة يبدو له أنّ إحياءه ثانيةً بعدَ موتِه، وبَعْثَه من قبرِه، أمرٌ مستحيلٌ، وردًّا على هذا قال اللهُ تعالى: ألا يَذكُرُ الإنسانُ أنّ اللهَ تعالى قد خَلَقَه أولَ مرة، ولم يكنْ شيئًا من قبلُ؟ الآنَ وقد جَعَله يقضي حياتَه في شكلِه الإنسانيِّ للمرةِ الأولى، فليس من الصَّعبِ في المرّةِ الثانية خَلْقُ إنسانٍ مثلِ هذا الذي خَلَقَه من قبلُ، فاختراعُ شيءٍ لأولِ مرة شيءُ صعب، ولكنّ عمَلَه ثانيةً ليس بالأمرِ الصَّعب.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾

٥٦ ـ سيَجمَعُ اللهُ تعالى يومَ القيامة مُنكري القيامةِ والشياطينَ الذين أضَلُّوهم، وحين يتمُّ إحضارُ هؤلاءِ جميعًا حولَ جهنَّم، لن يستطيعوا وقوفًا عندما يرَوْنَ أهوالَ العذابِ الإلهيِّ، وإنما سيَجْثُونَ على رُكَبِهم.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾

٥٧ ـ ثم يَفصِلُ اللهُ تعالى من كلِّ مجموعةٍ من المُنكرينَ أكثرَهم عصيانًا وطُغيانًا، حتى يبدأَ بإلقائه هو في جهنَّم أولًا، ليذوقَ مزيدًا من الذُّلِّ والهوان.

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾

٥٨ ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أولئك الطُّغاةَ الذين يستحِقُّونَ جهنَّمَ أكثرَ من غيرِهم.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾

٥٩ ـ جهنَّمُ في الطريقِ إلى الجنة، وعليها جِسرٌ يقال له: الصِّراطُ، وسيكونُ على كلِّ شخصٍ المرورُ من فوقِ هذا الصِّراط يومَ القيامة، أمّا المتَّقونَ فيَمُرُّونَ من فوقِه بسلام، وأمّا الظالمونَ فتزِلُّ أقدامُهم ويَسقُطونَ في جهنَّم على رُكَبِهم.

روَى الإمامُ مسلمُ حديثًا طويلًا، عن سيّدِنا أبي سعيدٍ الخُدريِّ جاء فيه: «ثمّ يضربُ الجِسرُ على جهنَّم وتحُلُّ الشّفاعةُ ويقولون: اللّهُمَّ سلِّمْ سلِّمْ... فيَمُرُّ المؤمنونَ كطَرْفِ العين وكالبَرْقِ وكالرّيح وكالطَّير وكأجاويدِ الخَيْل والرِّكابِ فناجٍ مسلَّمٌ ومخدوشٌ مرسَلٌ ومكدوسٌ في نارِ جهنّم . حتّى إذا خَلَص المؤمنونَ من النّار فوالّذي نفسي بيدِه، ما منكم من أحدٍ بأشدَّ مناشدةً لله في استقصاءِ الحقّ من المؤمنينَ لله يومَ القيامة لإخوانِهم الّذين في النّارِ يقولونَ: ربَّنا كانوا يصُومونَ معَنا ويُصَلُّونَ ويَحُجُّون، فيقالُ لهم أخْرِجوا من عرَفتُم. فتُحرَّمُ صُوَرُهم على النّار فيُخرِجونَ خَلْقًا كثيرًا قد أخذَت النّارُ إلى نصفِ ساقَيْه وإلى رُكبتَيْه»[1] .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

٦٠ ـ حينَما كان كُفّارُ مكّةَ يُدعَوْنَ إلى الإسلام، ويُخوَّفون من عذابِ الله تعالى، كانوا يقولونَ لأهل الإيمان: إلى أيِّ حال سيِّئٍ وعَجْزٍ وإفلاسٍ تدعونَنا؟ في حينَ أن بيوتَنا ومجالسَنا أفضَلُ ممّا عندَكم كثيرًا، وكما أنّنا نستمتعُ في هذه

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨١ برقم ٣٠٢.

الدنيا بحياةٍ أفضَلَ من حياتِكم، فإنّنا في الآخِرة كذلك إذا كانت هناك جنّةٌ كما تقولون، ستكونُ هذه الجنّةُ من نصيبِنا أيضًا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾

٦١ ـ في هذه الآية يتمُّ إزالةُ سُوءِ الفَهْم لدى كُفّارِ مكّة، بأنه قد مضَتْ أُممٌ من قَبْلِهم، وكانوا أكثرَ من كفّارِ مكّةَ باعتبارِ متاع الدنيا، وباعتبار العظَمةِ والجاهِ الدُّنيَوي، ولكنّ اللهَ تعالى أهلَكَهم عقابًا لهم على طُغيانهم، ولذا ينبغي أن لا يغترَّ كُفّارُ مكّةَ بهذه الثَّروةِ الدُّنيَويّة والجاهِ الظّاهري، وإنّما عليهم أن يعتبِروا من عاقبةِ الأُمم السابقة، وأن يَرجِعوا عن طُغيانِهم.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ المالَ والمتاعَ والعظَمةَ والجاهَ الدُّنيويَّ ليس دليلًا على أنّ من لدَيْه هذه الأشياءُ هو على الحقِّ أيضًا، كما أنّ الفقرَ والإفلاسَ ليس دليلًا على أنّ من ابتُليَ به هو على الباطل، وعلى سَبيل المثال: هناك العديدُ من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام كانوا في عُسرةٍ باعتبارِ مالِ الدُّنيا ومتاعِها، لكنَّهم كانوا على الحقِّ، كما أنّ العديدَ من الكُفّار الطُّغاةِ ـ مثلَ قارونَ وفِرعَونَ ـ كانوا في غايةِ الثَّراء، لكنّهم لم يكونوا على الحقّ. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الآيةَ رقم **٢٦** من سُورة الرعد (**١٣**)، وكذا الحاشيةُ رقم **٣٥**.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾

٦٢ ـ الذين يختارونَ ـ عن عَمْد ـ طريقَ الضَّلال، ويفضِّلونَ قصورَهم والجيوشَ التي تحميهم، لا يأخُذُهم اللهُ تعالى على الفَوْر، وإنّما يُمهِلُهم لكي يتوبوا، فإذا انتهت ساعاتُ المُهلة، ولَحِقَ بهم عذابٌ في الدنيا، أو أتاهمُ العذابُ

يومَ القيامة، فإنّهم يعلَمونَ حينَ يرَوْنَ العذابَ أنّ قصورَهم وجيوشَهم هي الأسوأُ، ولكنّ النَّدمَ لا يفيدُ بشيءٍ في ذلك اليوم؛ لأنه لن تكونَ هناك أيُّ صورةٍ لتدارُكِ ما حدَث.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾

٦٣ ـ الذين يختارونَ طريقَ الهداية بنِيّةٍ خالصة، يزيدُ اللهُ تعالى في نورِ هدايتِهم، وإذا لم يَستطيعوا ـ لمرضٍ أو لظروفٍ خارجةٍ عن إرادتِهم ـ مواصلةَ العمل الصّالح، فإنّ سلسلةَ الأعمالِ الصّالحة تظَلُّ تُدوَّنُ في صحائفِ أعمالِهم، طالما استمرَّ مرَضُهم، أو تواصَلت الظروفُ الخارجةُ عن إرادتِهم.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرو بن العاصِ رضي الله عنهما: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ العبدَ إذا كان على طريقةٍ حسَنةٍ من العبادة، ثمّ مَرِض، قيل للمَلَكِ الموكَّل به: اكتُبْ له مِثلَ عملِه إذا كان طليقًا، حتّى أُطلقَه، أو أَكفِتَه إليَّ»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا ابتَلَى اللهُ العبدَ المسلمَ ببلاءٍ في جسَدِه، قال للمَلَكِ: اكتُبْ له صالحَ عملِه الّذي كان يعمَلُ، فإنْ شفاه، غَسَله وطَهّره، وإن قبَضَه، غَفَر له ورحِمَه»[2].

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾

٦٤ ـ في هذه الآيةِ تسرِيةٌ عن قلوبِ الفقراءِ والمساكين من المسلمين، بأنّ الثَّروةَ والعظَمَة الدُّنيويّةَ التي يتفاخَرُ بها كُفّارُ مكّة، ستفنَى جميعُها، وأنّ الأعمالَ الصّالحةَ التي تقومونَ بها باقيةٌ خالدة، وهي أفضَلُ بكثيرٍ من حيثُ الأَجْرُ والثواب.

---

(١) مسند أحمد، ٢: ٢٠٣.

(٢) مسند أحمد، ٣: ٢٥٨.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾

٦٥ ـ يقولُ سيِّدُنا خَبّابُ بن الأَرتِّ رضي اللهُ عنه: «جئتُ العاصيَ بنَ وائلٍ السَّهْميَّ أتقاضاهُ حقًّا لي عندَه، فقال: لا أُعطيكَ حتّى تكفُرَ بمحمّدٍ، فقلت: لا، حتّى تموتَ ثمّ تُبعَث. قال: وإنّي لَميّتٌ ثمّ مبعوثٌ؟ قلتُ: نعم. قال: إنّ لي هناك مالًا وولدًا فأقضيكَهُ، فنَزَلتْ هذه الآيةُ»[1].

يعني: ما يدَّعيه هذا المُنكِرُ من أنّ عندَه عِلمَ الغيب، أو أنه أخَذَ من الله ميثاقًا أنه سيُنعمُ عليه يومَ القيامة أيضًا بالمالِ والأولاد، معَ أنّ هذا ليس صحيحًا بالمرَّة، فالمالُ والأولادُ الذين يتحدَّثُ عنهم هذا الدَّعِيُّ نحن وارثوه، وسوف تنتهي علاقتُه به كلِّه فَوْرَ أن يموتَ، وسوف يجيءُ يومَ القيامةِ وحيدًا، ولن يكونَ لديه مالٌ ولا أولاد، لكنّه سيواجهُ العذابَ على طُغيانِه، وسوف نُضيفُ عذابًا إلى هذا العذاب.

﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾

٦٦ ـ الذين يترُكونَ اللهَ تعالى ويعبُدونَ غيرَه طمَعًا في أن تساعدَهم هذه الآلهةُ، هذا لن يحدُثَ أبدًا، على العكسِ، ستكونُ هذه الآلهةُ مخالفةً له يومَ القيامة، وستُعلنُ براءتَها من عبادتِهم لها، يعني: أننا لم نقُلْ لهم أبدًا أنِ اعبُدونا، ولا نحن نستحقُّ العبادةَ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن الكريم، سورة مريم (١٩): باب ٣.

هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾

٦٧ ـ يعني: يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، الذين يعتقدونَ أنك صادقٌ، ولكنّهم لا يؤمنونَ بكَ بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم، سَلَّطْنا عليهم الشياطينَ بسببِ تكذيبِهم هذا، ليُحرِّضوهم على مزيدٍ من المخالفةِ للإسلام.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الشيطانَ لا يُجبرُ أحدًا على ارتكابِ السُّوء، وإنما يُرغِّبُه في السُّوءِ عن طريقِ الوَسْوسة، وهذه حماقةٌ من الإنسانِ الذي يتَّبعُ الشّيطانَ دونَ مبالاةٍ بالعاقبة.

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾

٦٨ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيب ﷺ، لقد أدَّيتَ حقَّ الدَّعوة، فإذا لم يؤمنْ بك الكُفّارُ برَغْم كلِّ هذا، فلا تحزَنْ ولا تغتمَّ، ولا تتعجَّلْ نزولَ العذابِ عليهم؛ لأنّنا نحن نَعُدُّ أيامَ حياتِهم، وما أن تنتهيَ حياتُهم حتى تبدأَ سلسلةٌ من العذابِ تُحيقُ بهم.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾

٦٩ ـ حينَ نَزَلت هذه الآيةُ قال سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه: يا رسولَ الله، إنّي قد رأيتُ الملوكَ ووفودَهم فلم أرَ وفدًا إلّا رُكبانًا، فما وفدُ الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أَما إنّهم لا يُحشَرونَ على أقدامِهم ولا يُساقُونَ سَوْقًا، ولكنّهم يؤتَوْنَ بنُوقٍ من

نُوقِ الجنّة لم ينظُر الخلائقُ إلى مِثلِها، رحالُها الذَّهبُ وزِمامُها الزَّبرجَد، فيركبونَها حتّى يقرَعوا بابَ الجنّة»[١].

يقولُ سيّدُنا عَمْرُو بن قَيْس رضي اللهُ عنه: «إنّ المؤمنَ إذا خَرَج من قبرِه استقبَلَه عملُه في أحسنِ صورةٍ وأطيبِ ريحٍ، فيقولُ: هل تعرفُني؟ فيقول: لا، إلّا أنّ اللهَ قد طيَّب ريحَك وحسَّن صورتَك. فيقول: كذلك كنتَ في الدّنيا، أنا عمَلُك الصّالحُ طالما رَكِبتُك في الدّنيا اركَبْني اليومَ، وتلا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾»[٢].

ويقولُ سيّد محمود الآلُوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «أنهم يَركَبونَ عندَ خروجِهم من القبورِ ويَنتهُونَ إلى بابِ الجنة، وهو ظاهرٌ في أنهم لا يُحاسَبون»[٣]، مثلَما رُوي عن سيّدِنا ابن عبّاس رضي الله عنهما، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «عُرِضَت عليَّ الأُممُ فرأيتُ النّبيَّ ومعَه الرُّهَيْط والنّبيَّ ومعَه الرَّجُلُ والرَّجُلانِ والنّبيَّ ليس معَه أحدٌ إذْ رُفع لي سوادٌ عظيمٌ فظَنَنْتُ أنّهم أُمّتي فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومُه، ولكنِ انظُرْ إلى الأُفُق، فنَظرتُ فإذا سَوادٌ عظيمٌ فقيل لي: انظُرْ إلى الأُفُق الآخَرِ، فإذا سَوادٌ عظيمٌ فقيل لي: هذه أُمّتُك ومعَهم سبعونَ ألفًا يدخُلونَ الجنّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذاب»[٤].

ورُويَ عن سيّدِنا عَمْرِو بن حَزْم الأنصاريِّ رضي اللهُ عنه، فيما أَخْرجَه الطبرانيُّ والبيهقيُّ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ ربّي وَعَدَني أن يُدخِلَ من أُمّتي الجنّةَ سبعينَ ألفًا بلا حسابٍ، وإنّي سألتُ ربّي في هذه الثّلاثِ أيّامِ المزيدَ، فوجدتُ ربّي

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) تفسير الطبري وتفسير القرطبي.
(٣) تفسير روح المعاني.
(٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٩٤ برقم ٣٧٤.

ماجدًا كريمًا فأعطاني معَ كلِّ واحدٍ سبعينَ ألفًا»[١]، وطبقًا لبعض الرواياتِ فإن الأشخاصَ التالي ذِكرُهم من بيْنِ مَن يَدخُلونَ الجنةَ بغيرِ حساب:

١ ـ الذين يحمَدونَ الله تعالى ويشكرونَه في العُسرِ واليُسر.

٢ ـ الذين يسهَرونَ الليالِيَ في ذِكرِ الله تعالى.

٣ ـ الذين لا تُلهيهم تجارتُهم الدُّنيويّةُ عن ذِكرِ الله تعالى.

٤ ـ طالبُ العلم.

٥ ـ المرأةُ المطيعةُ لزوجِها.

٦ ـ الأولادُ البارُّونَ بوالديهِم[٢].

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

٧٠ ـ يقولُ سيّدُنا عَمْرُو بن قَيْس رضي اللهُ عنه: «وإنّ الكافرَ يستقبلُه عمَلُه (أي: حين يَخرُجُ من القبر) في أقبح صورةٍ وأنتنِ ريحٍ، فيقول: هل تعرفُني؟ فيقول: لا، إلّا أنّ اللهَ قد قبَّح صورتَك وأنتَنَ ريحَك. فيقول: كذلك كنتَ في الدّنيا، أنا عملُك السّيِّئُ طالما ركبتَني في الدّنيا وأنا اليومَ أركَبُك. وتلا: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[٣].

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) «وفي بعضها ذكر من يدخل الجنة بغير حساب بوصفه كالحامدين لله تعالى شأنه في السراء والضراء، وكالذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وكالذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى، وكالذي يموت في طريق مكة ذاهبًا أو راجعًا، وكطالب العلم، والمرأة المطيعة لزوجها، والولد البار بوالديه، وكالرحيم الصبور وغير ذلك». روح المعاني.

(٣) تفسير القرطبي.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾

٧١ ـ لن يكونَ لأحدٍ يومَ القيامة الإذْنُ بالشفاعة، لكنّ أهلَ الإيمانِ الذين يأذَنُ اللهُ تعالى لهم بالشَّفاعة سيَشفَعون.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾

٧٢ ـ الذين يَدَّعُونَ أنّ لله تعالى ولدًا يَجري هنا مُخاطبتُهم بشكلٍ مباشر، بأنّكم قلتُم عن الله تعالى كلامًا في قمّةِ العيبِ وغايةِ الاستحالة، لأنّ من الضَّروريِّ لوجود الابن أن يكونَ من نَفْس جِنس الأب، في حينَ أنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن المثيلِ والنظير.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾

٧٣ ـ ادِّعاءُ أنّ لله تعالى ولدًا أمرٌ في غايةِ الإساءة، بحيث لو أنّ اللهَ تعالى غَضِب لهذا لَانشقَّت السماءُ والأرض، وانهارَت الجبالُ وتطايَرت كالحَصَى، لكنه تعالى حليمٌ، ولا يتعجَّلُ المؤاخَذة، وإنما يُمهلُ الناسَ لكي يتوبوا، مثلَما رُوي عن سيّدِنا أبي موسى الأشعريِّ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما أحدٌ أصبرُ على أذًى سمِعَه من الله، يَدَّعونَ له الوَلَد، ثمّ يُعافيهم ويَرزُقُهم»[١].

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾

٧٤ ـ إذا كانت كلُّ ملائكةِ السماءِ والأرض، والجنُّ وبنو الإنسانِ عبادًا محتاجينَ اليومَ أيضًا إلى اللهِ تعالى، وسيَمثُلونَ في حضرته يومَ القيامة عبادًا محتاجينَ له، فلا حاجةَ له أن يتَّخذَ من أحدٍ ولدًا، ولا يليقُ هذا بشأنِه تعالى؛ لأنه منزَّهٌ عن الوَلَد.

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣ برقم ٧٣٧٨.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾

٧٥ ـ أحاطَ اللهُ تعالى ـ بقُدرتِه ـ ببني الإنسانِ جميعًا، ويَعلَمُ تمامَ العِلم أعمالَهم وأعدادَهم، وليس أحدٌ بخافٍ عليه.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾

٧٦ ـ سيَمثُلُ كلُّ فردٍ أمامَ الله تعالى يومَ القيامة بنفسِه وحيدًا، ولن يكونَ معَه من متاع الدنيا ومالِها شيءٌ، كما لن يكونَ معَه مُعِينٌ أو مساعدٌ، لكنّ أهلَ الإيمان سيُعينُ بعضُهم بعضًا بإذْنِ الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾

٧٧ ـ الذين آمَنوا وعمِلوا الصّالحاتِ يُحبُّهم اللهُ تعالى أيضًا، كما تتولَّدُ محبَّتُهم في قلوبِ عامةِ الناس، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «إنّ اللهَ تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبدًا نادى جِبريلَ: إنّ اللهَ قد أحبَّ فلانًا فأَحِبَّه فيُحبُّه جِبريلُ، ثمّ ينادي جِبريلُ في السّماء: إنّ اللهَ قد أحبَّ فلانًا فأحِبّوه، فيُحبُّه أهلُ السّماءِ ويوضَعُ له القَبولُ في أهل الأرض»[١].

رَغْم أنّ أهلَ الحقِّ يُضْطَرُّونَ للتصادُم معَ قُوى الباطل من أَجْل رِفعةِ الحق، وفي بعضِ الأحيان تَلحَقُ بهم الهزيمةُ في الظاهر، لكنّ الحقَّ ينتصرُ في النهاية، ويُضْطَرُّ الناسُ إلى الاعترافِ بعظَمةِ أهل الحق.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾

٧٨ ـ يعني: أنّنا أَنْزلنا القرآنَ المَجيدَ بلُغتِك العربيَّة، وأوضَحْنا تعاليمَه ويسَّرناها بشكلٍ كامل، حتى لا يبقَى أَدْنى شكٍّ أو إبهام في تبشيرِ المتَّقينَ وتحذيرِ المخالفين.

---

(١) البخاري، برقم ٧٤٨٥، ومسلم، برقم ٦٧٠٥.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

٧٩ ـ في هذه الآية تنبيهٌ لأهل مكّةَ بأنّ العديدَ من الأُمم السابقة عليهم قد هَلَكوا عقابًا لهم على طُغيانِهم، فلم يبقَ لهم وجودٌ بأنفسِهم، ولم يَعُدْ لهم أثرٌ يدُلُّ اليومَ عليهم، ولهذا ينبغي لأهل مكّةَ أن يعتبِروا من هؤلاء، ويَرجِعوا عن عصيانِهم لله تعالى.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده
جامعة الكرَم: إنجلترا
يومَ الأحد ٤ نوفمبر ٢٠٠٧م، الموافق ٢٤ شوال ١٤٢٨هـ.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٠) سورة طه

هذه السُّورةُ مكِّية، وهي واحدةٌ من بينِ تسع وعشرينَ سورةً نَزَلت في بدايتِها الحروفُ المقطَّعات، وأولُ كلمةٍ في هذه السُّورة هي «طه»، ولهذا سمِّيت «سورةَ طه».

في بدايةِ هذه السُّورة جاءت تسريةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنّ هذا القرآنَ لم يُنزَلْ عليك لكي تشقَى به، أو لكي يحمِّلَك مسئوليّةَ أن يُسلمَ الكُفّارُ جميعًا، وإنّما واجبُك هو النُّصحُ لهم وإبلاغُهم أحكامَ الله تعالى فقط.

جاءت في هذه السُّورة قصّةُ سيّدِنا موسى عليه السَّلام تفصيلًا؛ لأنه هو أيضًا كان يواجهُ قومًا من المتعصِّبينَ المتكبِّرينَ مثلَ كُفّارِ مكّة، وذلك لكي يطمئنَّ النبيُّ الكريمُ ﷺ بأنّ الأنبياءَ الكرامَ السابقينَ عليهمُ السَّلام أيضًا تعامَلوا معَ أمثالِ هؤلاءِ الأقوام المتعصِّبة.

جاء في آخِر هذه السُّورةِ ذِكرٌ لعقابِ الذين يُعرِضونَ عن أحكام القرآن الكريم، وجاء كذلك تلقينٌ للمسلمينَ بأنْ يصبِروا على إيذاءِ الكُفّارِ لهم.

هذا وقد نَزَلتْ هذه السُّورةُ قبلَ إسلام سيّدِنا عُمرَ رضي اللهُ عنه؛ لأنّ الآياتِ الأولى منها كانت سببًا في إسلام سيّدِنا عُمر، ولهذا حَرِص أكثرُ المفسِّرينَ على

الحديثِ عن قصّةِ إسلام سيّدِنا عُمرَ رضي اللهُ عنه في بدايةِ السُّورة.

وهذه القصّةُ مذكورةٌ في كتُبِ الحديثِ والتاريخ، وأنا هنا أقدِّم خلاصتَها:

إسلام سيدنا عمر رضي الله عنه:

رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما، أنّ رسولَ الله ﷺ دَعا ربَّه قائلًا: «اللّهمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إليك: بأبي جهلٍ أو بعُمرَ بن الخطّاب»[١]؛ لأن هذَيْنِ كانا زعيمَيْنِ من زعماءِ مكّةَ المقبولينَ ذوي النفوذ، وإنْ أَسْلم أحدُهما كان ذلك بمثابةِ زيادةٍ في قوة المسلمينَ، على أيِّ حال دَعا النبيُّ ﷺ بهذا الدُّعاءِ يومَ الأربعاء، وأَسْلم سيّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه في اليوم التالي مباشرةً، أي: يومَ الخميس[٢].

حينَ بدأَ النبيُّ ﷺ الجهرَ بالدَّعوةِ إلى الإسلام في مكَّة، كانتِ الخلافاتُ تدِبُّ في بيوتِ وعائلاتِ الذين يَدخُلونَ الإسلامَ، وهو ما نَتَج عنه الكثيرُ من التّفرُّقِ في المدينةِ كلِّها، وعليه قرَّر سيّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه في داخلِه أن يَقتُلَ سيّدَنا محمدًا ﷺ، حتى يعودَ السلامُ والاطمئنانُ إلى البلاد، وهكذا خَرَج ذاتَ يوم من بيتِه ومعَه سيفُه، وفي الطريق رآه سيّدُنا نُعَيمُ بن عبدِ الله رضي اللهُ عنه، ولاحَظَ تجهُّمَ وجهِه، فسأله: أين تريدُ يا عُمر؟ قال: أريدُ محمدًا هذا الصابئَ الّذي فرَّقَ أمرَ قُريشٍ وسَفَّه أحلامَها وعابَ دينَها وسبَّ آلهتَها فأَقتُلُه. فقال له نُعيمٌ: أفلا ترجِعَ إلى أهل بيتِك فتُقيمَ أمرَهم؟ قال: وأيِّ أهلِ بيتي؟ قال: خَتَنُك وابنُ عمِّك سعيدُ بن

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٨ برقم ٣٦٨١.

(٢) «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمربن الخطاب أو لأبي جهل بن هشام، فأصبح عمر وكانت الدعوة يوم الأربعاء فأسلم عمر يوم الخميس». البداية والنهاية، المجلد الثاني: ٣١.

زَيْدٍ وأُختُك فاطمةُ، فقد ـ والله ـ أَسْلما وتابَعا محمّدًا ﷺ على دينِه، فعليك بهما، فرَجَع عُمرُ عائدًا إلى أُختِه فاطمةَ وعندَها خَبّابُ بن الأَرَتّ معَه صحيفةٌ فيها «طه» يُقريها إيّاها، فلمّا سَمِعوا حسَّ عُمرَ تغيَّبَ خَبّابٌ في مَخْدَعٍ لهم ـ أو في بعض البيت ـ وأَخَذت فاطمةُ بنتُ الخطّاب الصّحيفةَ فجعَلتْها تحتَ فخِذِها، وقد سمع عُمرُ حين دَنا إلى البابِ قراءةَ خَبّابٍ عليها: فلمّا دَخَل قال: ما هذه الهَيْنمةُ الّتي سمِعتُ؟ قالا له: ما سمعتَ شيئًا. قال: بلى والله، لقد أُخبِرتُ أنّكما تابعتُما محمّدًا على دينِه، وبَطَش بخَتَنِه سعيد بن زيدٍ. فقامت إليه أُختُه فاطمةُ بنتُ الخطّابِ لتكُفَّه عن زوجِها فضَرَبها فشَجَّها، فلمّا فَعَل ذلك قالت له أُختُه وخَتَنُه: نعَمْ، قد أَسْلمنا وآمنّا بالله ورسولِه فاصنَعْ ما بدا لك، فلمّا رأى عُمرُ ما بأُختِه من الدّم نَدِم على ما صَنَع وارْعَوى، وقال لأُختِه: أعطيني هذه الصَّحيفةَ التي كنتُم تقرأونَ آنفًا أنظُرُ ما هذا الّذي جاء به محمَّد، وكان عُمرُ كاتبًا، فلمّا قال ذلك قالت له أُختُه: إنّا نخشاكَ عليها، قال: لا تخافي، وحَلَف لها بآلهتِه لَيرُدَّنَّها إذا قَرأَها إليها، فلمّا قال ذلك طمِعت في إسلامِه فقالت: يا أخي، إنّك نَجِسٌ على شِركِك، وإنّه لا يمَسُّه إلّا المطهَّرون [٥٦: ٧٩] فقام عُمرُ فاغتَسل فأعطَتْه الصَّحيفةَ وفيها «طه»، فقَرأَها، فلمّا قَرأَ منها صدرًا قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه! دُلَّني يا خَبّابُ على محمّدٍ حتّى آتيَه فأُسلِم[١].

وكان النبيُّ ﷺ في ذلك الوقتِ يجلسُ في دارِ الأرقم معَ أصحابه وفدائييه، فلمَّا طَرَق سيّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه البابَ «وسَمِعوا صوتَه، قام رجلٌ فنظَر من خَلَل البابِ فرآه متوشِّحًا سيفَه (أي: ولم يَر معَه خَبّابًا ولا سعيدًا) فرَجَع إلى النبيِّ ﷺ وهو فَزِعٌ، فقال: يا رسولَ الله، هذا عُمرُ بنُ الخطاب متوشِّحًا سيفَه، نعوذُ بالله من

(١) البداية والنهاية، ٢: ٨٠.

شرِّه، فقال حمزةُ بن عبد المطَّلب: فائْذَنْ له، فإن كان جاء يريدُ خيرًا بذَلْناهُ له، وإن كان جاء يريدُ شرًّا قتَلناهُ بسيفِه[1].

فلما فَتَح البابَ دَخَل سيّدُنا عُمرُ رضيَ الله عنه، فأجلسَه النبيُّ ﷺ بالقربِ منه قائلًا: «أَسْلمْ يا ابنَ الخطاب»[2]، فأَسْلَم سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه على الفَوْر، «فكبَّر رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وأهلُ البيت تكبيرةً سُمِعت بأعلى مكّةَ»[3]. يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «لمّا أَسْلم عُمرُ نَزَل جِبريلُ فقال: يا محمّد، لقد استَبْشَر أهلُ السّماءِ بإسلام عُمر»[4]. ورُويَ عن عبدِ الله بن عُمر رضي الله عنهما «أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم ضَرَب صدرَ عُمرَ بن الخطاب بيدِه حينَ أَسْلم ثلاثَ مراتٍ وهو يقول: اللهُمَّ أَخرجْ ما في صدرِه من غِلٍّ وأبدِلْه إيمانًا. يقول ذلك ثلاثًا»[5].

عندما أَسْلم سيّدُنا عُمرُ رضي اللهُ عنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، ألسنا على الحقِّ إن مِتْنا وإن حَيِينا؟ قال: «بلى، والّذي نَفْسي بيدِه، إنّكم على الحقّ إن مِتُّم وإن حَيِيتُم»، فقلت: ففيمَ الاختفاءُ، والذي بَعَثَك بالحقِّ ما بقي مجلسٌ كنتُ أجلسُ فيه بالكفرُ إلا أظهرتُ فيه الإسلامَ غيرَ هائبٍ ولا خائف، والذي بَعثَك بالحقِّ لَنخرُجَنَّ، فخَرجْنا في صفَّيْنِ: حمزةُ في أحدِهما وأنا في الآخَر، له (أي: لذلك الجَمْع) كَديدٌ ككَديدِ الطَّحين، (أي: لذلك الجَمْع غُبارٌ ثائرٌ من الأرض لشدّةِ وطءِ الأقدام؛ لأنّ الكَديدَ: الترابُ الناعمُ إذا وَطِئ ثار غبارُه). قال:

---

(١) السيرة الحلبية، ١: ٤٦٧.

(٢) «فجلست بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ بمجامع قميصي فجذبني إليه ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده». السيرة الحلبية، ١: ٤٦٦.

(٣) البداية والنهاية، ٢: ٣١.

(٤) ابن ماجه، المقدمة، باب ١١ برقم ١٠٣.

(٥) المستدرك للحاكم، ٣: ٩١ برقم ٤٤٩٢.

حتّى دخَلْنا المسجد، فنظَرتْ قُريشٌ إليَّ وإلى حمزةَ فأصابَتْهم كَآبةٌ لم يُصِبْهم مِثْلُها، فطافَ ﷺ بالبيتِ وصَلّى الظهرَ مُعلِنًا، ثم رَجَع ومَن معَه إلى دارِ الأرقم، فسَمَّاني رسولُ الله ﷺ يومَئذٍ الفاروقَ، فَرَق اللهُ بي بينَ الحقِّ والباطل»[1].

ـ عن أُبيٍّ بن كعبٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كان جِبريلُ يُذاكرُني فَضْلَ عُمرَ، فقلتُ: يا جِبريل، ما بَلَغ فَضْلُ عُمر؟ قال لي: يا محمّد، لو لبِثتُ معَك ما لبِثَ نوحٌ في قومِه ما بلَّغتُ لك فَضْلَ عُمر»[2].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزَاده
جامعة الكرم، إنجلترا
بعدَ صلاة الجمُعة من يوم التاسع من نوفمبر ٢٠٠٧م
الموافق ٢٨ شوال عام ١٤٢٨هـ

* * *

(١) السيرة الحلبية، ١: ٤٧٣.

(٢) تفسير القرطبي، سورة العنكبوت (٢٩): الآية ١٤، ١٣: ٣٣٤.

سُورَةُ طه (٢٠)،

مكية (٤٥)، آياتها (١٣٥)، ركوعاتها (٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾

﴿طه ﴾

١ ـ يقولُ محمّد علي الصَّابونيُّ: «سُمِّيتْ «سُورةَ طه»، وهو: اسمٌ من أسمائه الشَّريفة عليه الصَّلاةُ والسلام»(١).

﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾

٢ ـ في بداياتِ نزولِ القرآنِ الكريم كان النبيُّ ﷺ يُمضي اللّيلَ كلَّه واقفًا يُصلِّي النوافلَ ويَتْلو القرآنَ، حتى كانت قَدَماهُ الشّريفتانِ تتورَّمانِ، ثم يَقْضي النهارَ كلَّه في دعوةِ أهل مكّةَ إلى القرآنِ الكريم، وبرَغْم ذلك لم يؤمنْ أكثرُ أهل مكّةَ، وكان النبيُّ ﷺ يحزَنُ كثيرًا على ضَلالِهم.

وفي هذه الآية قال اللهُ تعالى لكي يخلِّصَه ﷺ من هاتَيْنِ المَشقَّتَيْنِ: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، إنّنا لم نُنزِل القرآنَ عليك لكي تَهجُرَ الراحةَ والنَّوم، وهما ضروريّانِ لحياةِ بني الإنسان، وإذا لم يؤمنْ كُفّارُ مكّةَ بتعاليم القرآنِ الكريم فلا تُشْقِ نفسَك بسببِهم؛ لأنّ الذين يحصُلونَ على النَّصيحة من القرآنِ الكريم هم أولئك الذين يخافونَ اللهَ تعالى فقطْ.

﴿ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴾

٣ ـ في هذه الآيةِ جاء الحديثُ عن حقيقةِ القرآنِ المَجيد وفَضْلِه، بمعنى: أنّ هذا ليس من كلام البشَر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى الذي خَلَق السّماواتِ والأرضَ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾

٤ ـ طِبقًا لهذه الآية من القرآنِ الكريم فإنّ إيمانَنا هو أنّ اللهَ تعالى مُتَجلٍّ

---

(١) صفوة التفاسير.

على العرشِ بما يَليقُ بشأنِه، ولكنْ ما حقيقةُ هذا التجلِّي، وما كيفيَّتُه؟ فهذا ما لا نستطيعُ إدراكَه. ويُعلَمُ منه أيضًا أنّ اللهَ تعالى ليس خالقَ الكائناتِ فقطْ، وإنّما هو حاكمُها المطلَقُ والأعلى، وحُكمُه نافذٌ في أعلى الكائناتِ وأدناها.

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

٥ ـ سواءٌ تحدَّث الإنسانُ بصوتٍ عالٍ أم بصوتٍ خَفِيض، فاللهُ تعالى يَعلَمُ الحالَتيْنِ تمامَ العلم، بل إنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ أيضًا ما يُخْفيه الإنسانُ في قلبِه، ويَعلَمُ كذلك ما لا يَعلَمُه الإنسانُ حتى وقتِه، وما هو فاعلُه في المستقبَل(١).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

٦ ـ يعني: أنّ خالقَ الكائناتِ كلِّها ومالكَها وحاكمَها، والذي يَعلَمُ ما يُخْفيه الناسُ من أسرار، هو ـ وحدَه ـ الذي تليقُ به العبادةُ، وأسماؤه التي ينادَى بها هي أفضَلُ الأسماء.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ لله تسعةً وتسعينَ اسمًا مائةً إلّا واحدًا، مَن أحصاها دَخَل الجنّةَ»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا زَيْدُ بن أرقمَ رضيَ اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن قال: لا إلَه إلّا اللهُ مخلِصًا دَخَلَ الجنّةَ». قيل: وما إخلاصُها؟ قال: «أن تَحجُزَه عن محارم الله عزَّ وجلّ»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ الله سيُخلِّصُ رجلًا من أُمَّتي على رءوسِ الخلائق يومَ القيامة فينشُرُ عليه

---

(١) «ما خفي على ابن آدم ممّا هو فاعله وهو لا يعلمه فالله تعالى يعلم ذلك كلّه». القرطبي.

(٢) البخاري، كتاب الشروط، باب ١٨ برقم ٢٧٣٦.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٢: ١٣٧ برقم ١٢٥٧.

تسعةً وتسعين سِجِلًّا كلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مدِّ البصَر، ثم يقول: أتُنكرُ من هذا شيئًا؟ أظلَمَك كَتَبتي الحافظونَ؟ فيقول: لا يا ربِّ. فيقول: أفلكَ عُذرٌ؟ فيقول: لا يا ربِّ. فيقول: بلى، إنّ لكَ عندَنا حسَنةً فإنه لا ظُلمَ عليكَ اليومَ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها أشهدُ أنْ لا إلَه إلّا الله وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقول: احضِرْ وزنَك، فيقول: يا ربِّ، ما هذه البطاقةُ معَ هذه السِّجِلّات؟ فقال: إنك لا تُظلَم. قال: فتوضَعُ السِّجِلّاتُ في كِفَّةٍ والبطاقةُ في كِفّةٍ فطاشَتِ السِّجِلّاتُ وثَقُلتِ البطاقةُ، فلا يَثقُلُ معَ اسم الله شيءٌ»[1].

﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾

٧ ـ هنا ذَكَّر اللهُ تعالى نبيَّه الحَبيبَ ﷺ بقصّةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام حتى يطمئنَّ قلبُه بأنه ليس وحدَه الذي يُعاني من المشكلات، وإنّما عانَى من قَبْلِه الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام.

والحكايةُ هي أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلام تَوجَّه من مِصرَ إلى مَدْيَن، وأمضَى عدةَ سنواتٍ عندَ سيّدِنا شُعَيْب عليه السلام، في هذه الأثناء تزوَّج بابنةِ سيّدِنا شُعَيْبٍ عليه السلام، ثم اصْطَحَب زوجتَه عائدًا إلى مِصرَ، وكان فَصْلُ الشتاءِ في ذلك الوقت، وبالقُربِ من جبل الطُّور رأى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ باللَّيل نارًا من بعيدٍ، فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام لزوجتِه: انتظريني هنا، وسأذهبُ أنا عندَ تلك النار، ربَّما آتي ببعضِ جَمَراتِها من هناك لكي نُشعلَها ونستدفئَ بحرارتِها من البرودة، أو ربَّما أجدُ عندَها أحدًا يدُلُّنا على الطريقِ الصَّحيح إلى مِصرَ، حتى لا نَتِيهَ بغير هدىً في ظلام اللَّيل.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾

٨ ـ عندَما وَصَل سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ إلى النار رأى منظَرًا عجيبًا،

---

(١) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ١٧ برقم ٢٦٣٩.

حيث رأى ـ كما قال البَغَوي ـ «شجرةً خضراءَ من أسفلِها الى أعلاها أطافت نارًا بيضاءَ تتَّقِدُ كأضوَأِ ما يكونُ ـ فلا ضوءَ يُغيّر خُضرةَ الشَّجرةَ ولا خُضرةُ الشَّجرةِ تُغيِّرُ ضوءَ النار»[١].

وفي تلك الأثناءِ جاءه صوتٌ من الغَيْب يقولُ: يا موسى، هذه النارُ التي تتراءى لكَ ليست نارًا، وإنّما هو التجَلّي منّي، وأنا ربُّك، والآنَ أنت في وادي طُوى المقدَّس تُكلِّمُ ربَّك سبحانَه وتعالى، ولهذا عليكَ أن تَخلَعَ حذاءك تأدُّبًا واحترامًا لهذا الوادي المقدَّس، حتى تنالَ قدماك البَركةَ[٢].

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾

٩ ـ يعني: لقد اخترتُكَ من بَيْن بني قومِك لتكونَ رسُولًا ونبيًّا، وكان سيّدُنا موسى عليه السَّلام على يقينٍ من أنّ هذا كلامُ الله تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَخلُقُ بداخلِ النبيِّ مَلَكةً يستطيعُ من خلالها التمييزَ بينَ ما هو كلامُ الله تعالى مباشرةً وما هو من كلام مَلَكِ الوحي والتعرُّفَ عليهما، ولمزيدٍ من التفصيل في هذا الخُصوص راجع الحاشيةَ رقم ٧٥ من سُورة يونُس (١٠).

ويقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعِيدي أيضًا: إنّ إجماعَ المتقدِّمينَ والمتأخرِّين على أنّ النبيَّ يكونُ مؤمنًا منذُ مولدِه، ولا يكونُ للَمْحةٍ بغيرِ إيمان[٣].

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ النُّبوّةَ أمرٌ وَهْبيٌ، ولا يمكنُ لإنسانٍ أن يكونَ نبيًّا من خلال كثرةِ التّريُّضِ والعبادة، وإنّما النُّبوةُ عطاءٌ إلهيٌّ، يُعطيها من فَضْلِه لمن يشاءُ من عبادِه.

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) «ثم أمره أن يخلع نعليه احترامًا للبقعة المقدسة، فقال: فاخلع نعليك لأنك بالوادي المطّهر المسمى بطوى، فاخلعهما ليحصل للقدمين بركته». تفسير المراغي.

(٣) تفسير تبيان القرآن.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾

١٠ ـ هنا بيانٌ لحِكمةٍ من حِكَم الصَّلاة، يعني: جدِّدوا تذكُّرَكم لله تعالى بإقامةِ الصَّلاة بينَ الحينِ والآخَر، ولا تَغفُلوا عنه؛ لأنه يَسهُلُ على الشّيطانِ إضلالُ الغافلين.

وهناكَ معنًى آخَرُ لذلك وهو: أنْ أقيموا الصَّلاةَ حتى يَذكُرَكم اللهُ تعالى؛ لأنّ وَعْدَ الله تعالى هو أن يُنعِمَ بذِكرِه على مَن يَذكُرُه، وهل هناكَ أفضَلُ حظًّا من أن يَذكُرَ اللهُ تعالى عبدَه بفضلِه وكرَمِه؟

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾

١١ ـ الموتُ والقيامةُ حقيقة، لكنّ اللهَ تعالى أخفَى وقتَهما حتى يظَلَّ الخوفُ في قلوبِ الناسِ دائمًا بأنْ يَعلَمَ اللهُ تعالى متى تقومُ القيامة، ولو أن اللهَ تعالى أَخْبر الناسَ بوقتِ الموتِ والقيامة، لَبقيَ الناسُ منهمِكينَ في السيِّئاتِ باعتبارِ أنه لا يزالُ هناك متَّسَعٌ في الحياة، وعندَما يقتربُ وقتُ الموتِ والقيامة يتوبونَ قبلَها بساعاتٍ، لِينجُوا من العذاب.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾

١٢ ـ الذي لا يؤمنُ بيوم القيامة، ويتَّبعُ هوى نفسِه، يسيرُ باطِّرادٍ نحوَ الهلاك، وسيَدخُلُ جهنَّمَ يومَ القيامة، ولهذا لا تطيعوا أمثالَ هؤلاءِ أبدًا، وإلا ستَهلِكونَ أنتم أيضًا.

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾

١٣ ـ كان اللهُ تعالى يَعلَمُ أنّ في يدِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ عصًا، ولكنّه سألهُ

حتى يَستحضرَ سيّدُنا موسى عليه السَّلام في ذِهنِه حقيقةَ هذه العصا وخصائصَها، ثم يشاهدَ بعينَيْهِ قُدرةَ الله تعالى، أي: كيف تتحوَّلُ عصًا جامدةٌ لا روحَ فيها إلى حيّةٍ تسعى.

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾

١٤ ـ كان يكفي للإجابةِ عن هذا السؤالِ أن يقولَ سيّدُنا موسى عليه السَّلام: هذه عصايَ، لكنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ أطال الجوابَ حتى يَحْظَى بشَرَفِ مزِيد من الكلام معَ الله تعالى، وهذا من فِطرة الإنسان، بأنه حينَ يتكلَّمُ معَ شخصيّةٍ عظيمةٍ محبوبةٍ فإنه يستمتعُ كثيرًا بهذا، ويحاولُ أن يُطيلَ الحديثَ.

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾

١٥ ـ جَعَل اللهُ تعالى سيّدنا موسى عليه السَّلامُ يشاهدُ بنفسِه تحوُّلَ العصا إلى ثُعبانٍ، ثم قال: لا تخَفْ من هذا الثُّعبانِ، فما أن تُمسكَ به حتى نُحِيلَه إلى عصًا كما كان من قَبْلُ، وهكذا وَضَع سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ يدَه في فم الثُّعبان، وأمسَكَ به من فكَّيْه، فاستَحالَ إلى عصًا من جديد، وقد جاء ذِكرُ هذه المعجِزةِ في التَّوراة[١].

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾

١٦ ـ جاء هنا ذِكرُ معجِزتَيْن من معجِزاتِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، فذَكَر اللهُ تعالى في الآياتِ السابقةِ معجزةَ العصَا، وفي هذه الآية ذَكَر معجِزةَ اليدِ البيضاء، يعني: عندَما وَضَع سيّدُنا موسى يدَه تحتَ إبطِه وأَخْرَجَها من تحتِه،

(١) الكتاب المقدس الحي، سفر الخروج، ٤: ٤ ـ ١.

خَرَجت بيضاءَ لامعةً دونَ سببٍ من مرضٍ ونحوِه، وأضاءت ما حولَها، وحين وَضَعَها ثانيةً تحتَ إبطِه ثم أَخْرجَها عادَتْ إلى حالتِها الأُولى.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾

١٧ ـ بعدَ أنْ أعطَى اللهُ تعالى لسيّدِنا موسى عليه السَّلام هاتَـيْنِ المعجِزتَيْنِ أمَرَه أنِ اذهَبْ إلى فِرعَوْنَ وقُمْ بدعوتِه إلى الحقِّ؛ لأنه قد طَغَى، حتى أنه ادَّعى أنه ربُّ الأربابِ أيضًا: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾

١٨ ـ لم يكنْ فرعَوْنُ حاكمًا على مِصرَ فقطْ، وإنّما كان يَعتبِرُ نفسَه الربَّ الأعلى، وحينَ أمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بالذهابِ إلى فرعَوْن، توجَّه سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ إلى الله تعالى بدعاءٍ اشتَملَ على إحدى عشْرةَ آيةً، يعني: يا ربِّ، اجعَلْ في صدري تلك السَّعةَ والجُرأةَ والشّجاعةَ التي تتطلَّبُها النُّبوة، ويسِّرْ كلَّ المصاعبِ التي تعترضُ طريقَ هذه المُهمّة، واحلُلْ عُقدةَ لساني، أي: خلِّصْني من تلك اللُّكْنَةِ التي في لساني، واجعَلْ فيه فصاحةً وسَلاسة، حتى يفهَمَ الناسُ جيِّدًا ما أقولُ. ثم يقولُ سيّدُنا موسى عليه السَّلام في الجزءِ الثاني من الدُّعاء: واجعَلْ هارونَ أخي وزيرًا لي لكي ترتفعَ معنويّاتي، واجعَلْه كذلك شريكًا لي في عمَلي. ثم يقولُ في الجزءِ الأخير من الدُّعاء: الهدفُ من دُعائي هذا هو أنْ نُكثِرَ أنا وأخي هارونُ من ذِكرِك وتسبيحِك، كما أنّك تَعلَمُ تمامَ العِلم ما نحتاجُه من الضَّروريّات، فحقِّقْ يا ربِّ هذه الضَّروريّاتِ كلَّها، حتى نستطيعَ القيامَ بمسئوليّاتِنا خيرَ قيام.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾

١٩ ـ في هذه الآيةِ بشَّر اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بأنه استجابَ لكلِّ دُعائه.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾

٢٠ ـ بعدَ أن بشَّر اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلام بقَبول دُعائه، ذَكَر هنا إحسانًا منه تكرَّم به عليه دونَ أن يَطلُبَه، يعني: أنه أنقَذَه من القَتْل عندَ مولدِه، وهو ما تَذكُرُه الآيةُ التالية.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾

٢١ ـ قال المنجِّمونَ لفرعَوْنَ: إن هناك طفلًا سيولَدُ في بني إسرائيلَ سيكونُ سببًا في زوالِ مُلكِه، ولهذا أَمَر الفرعَوْنُ بقَتْل كلِّ طفلٍ يولَدُ في بني إسرائيلَ، حتى «لا يبقى النايُ، ولا الغابُ الذي يُصنَعُ منه»[1]، وفي تلك الأيام وُلِدَ سيّدُنا موسى عليه السَّلام، فأَلْهمَ اللهُ والدتَه، أي: ألقَى في رُوعِها أن تَضَعَ الطِّفلَ في صندوق، ثم تُلقيَ به في النِّيل، ولا تغتمَّ ولا تحزَنْ، فسوف يحمِلُه ماءُ النّهرِ إلى السّاحل، وسيَحمِلُه من هناك الفِرعَوْنُ، الذي هو عدوُّ الله تعالى وعدوُّ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، فهو عدوُّ الله تعالى لأنه كان مشركًا، بل ويدَّعي الأُلوهيّةَ لنفسِه، وهو عدوٌّ لسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ لأنه سيُعاديه بالفعل في المستقبَل، بل إنه في ذلك الوقتِ كان عدوًّا لسيّدِنا موسى حقيقةً، ولكنّه لم يكنْ يَعلَمُ أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ هو ذلك الطِّفلُ الذي سيكونُ سببًا في زوالِ مُلكِه، ولو عَلِم هذا عندَ ولادتِه لَقتَلَه على وَجْه اليقين، لكنّ اللهَ تعالى خَلَق من الأسبابِ ـ لحفظِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام ـ ما لا يستطيعُ الفِرعَوْنُ فَهْمَه.

لقد خَلَق اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ جميلًا بمحبَّتِه ورحمتِه الخاصّة، وكان كلُّ مَن يراه يَهِيمُ بجمالِه. وذاتَ يوم كان الفِرعونُ يشاهدُ منظرَ النِّيل

(١) مثل بالأردية، وهو: «نه رهے بانس نه بجے بانسرى»، ويقال في موضع اقتلاع أمر ما من جذوره. (المترجم).

معَ زوجته، إذْ رأى صُندوقًا عائمًا فوقَ المياه، فأمَرَ عَبِيدَه أنْ أحضِروا هذا الصُّندوقَ أمامي، وحين فَتَح الصُّندوقَ وَجَد فيه طفلًا جميلًا جَذّابًا، حيث قرَّر الفِرعَونُ بناءً على رغبةِ زوجتِه أن يُبقيَه في القَصْر وأن يُرْبِيَه أيضًا، وهكذا تَربَّى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ في رعايةٍ وحفظٍ خاصٍّ من الله تعالى.

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ ﴾

٢٢ ـ بعدَ أن أَلْقتْ أمُّ سيّدِنا موسى عليه السلام بوَلَدِها في النَّهر قالت لابنتها: راقبي هذا الصُّندوقَ، وحينَ وَصَل الصُّندوقُ إلى قصورِ فرعَوْن، واستَدعَتْ زوجةُ فرعَوْنَ عدَّة نساءٍ لإرضاعِه، حَضَرت أُختُ سيّدِنا موسى أيضًا، ورأتْ أنّ أخاها سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ لا يَرضَعُ من أيِّ امرأة، وحينَئذٍ قالت أُختُ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ لامرأةِ فرعَوْن: أنا أُخبِرُكم عن امرأةٍ سيَرضَعُ هذا الطِّفلُ من لبَنِها، وهكذا استَدعَتْ أُمَّها، وأخَذ سيّدُنا موسى عليه السَّلام يَرضَعُ منها، ففَرِحتْ زوجةُ فرعَوْنَ بذلك كثيرًا، وقالت لأُمِّ سيّدِنا موسى عليه السَّلام: ابقي معَنا هنا في القصر، وقومي بتربيةِ الطِّفل، لكنّ أُمَّ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ قالت: لا أستطيعُ أن أترُكَ زوجي وأطفالي وأعيشَ هنا، وهكذا تقرَّر أن تأخُذَ الطِّفلَ معَها إلى بيتِها، وتربِّيه هناك، وتُعطَى مقابلَ ذلك من الخِزانة المَلَكيّة، وهكذا أعاد اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ إلى أُمِّه لكي تقَرَّ عينُها ولا تحزَنَ، وقد قَبِلت السيِّدةُ أُمُّ سيّدِنا موسى عليها السَّلامُ ما أُعطيَ لها من الأُجرةِ حتى لا ينكشفَ السرُّ بأنّها هي الأُمُّ الأَصْليّةُ لهذا الطِّفل.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾

٢٣ ـ وهناك إحسانٌ آخَرُ من اللهِ تعالى على سيّدِنا موسى عليه السَّلام سيَرِدُ

ذِكرُه في الآيةِ رقم ١٥ من سُورة القَصَص (٢٨)، وذلك حينَ قَتَل سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ وهو في سنِّ الثانيةَ عشْرةَ مصريًّا عن طريقِ الخطأ، وتآمَر المِصريُّونَ على قَتْل سيّدِنا موسى عليه السَّلام، فأَخْرجَه اللهُ تعالى من مِصرَ، وأَوْصَلَه إلى سيّدِنا شُعَيْبٍ عليه السَّلام.

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾

٢٤ ـ لقدِ ابتَلَى اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلام مِرارًا، وكَتَب له الفَوْزَ والفلاحَ في هذه الابتلاءاتِ جميعًا، على سبيل المثال: إنقاذُه من القَتْل عندَ ولادتِه، وإنقاذُه من الغَرَقِ عندَما وَضَعتْه أُمُّه في صُندوقٍ وألقَتْ به في النَّهر، وإنقاذُه من القَتْل على يدِ المصريِّينَ (الأقباط) حين قَتَل مِصريًّا (قِبْطيًّا) على سَبيل الخطأِ وجاء به إلى مَدْيَن.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾

٢٥ ـ حينَ بَلَغ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ من العمُرِ أربعينَ سنةً جاء إلى جَبَل الطُّورِ الذي كان مقدَّرًا أن يُكلِّمَ اللهَ تعالى عليه، ويبعثَه نبيًّا من فوقِه.

سن الأربعين هو سن البعثة النبوية عمومًا:

يقولُ أكثرُ المفسِّرينَ في خصُوصِ هذه الآية: إنّ الأنبياءَ يُبعَثونَ عندَ سنِّ الأربعين، رَغْم أنّ هناك منَ الأنبياءِ مَن بَعَثَهم اللهُ تعالى قبلَ سنِّ الأربعين، مثلَ: سيّدِنا عيسى وسيّدِنا يوسُفَ وسيّدِنا يحيى عليهم جميعًا السَّلام، وهذا إظهارٌ لقُدرةِ اللهِ تعالى، لكنّ سُنّةَ اللهِ تعالى هي أن يُبعَثَ النبيُّ بعدَ أن يُتمَّ الأربعينَ سنةً، مثلَما يقولُ العلّامةُ أبو حَيّانَ الأندَلسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وكان عمُرُه حينَ

ذَهَب إلى مَدْيَنَ اثنَيْ عشَرَ عامًا، وأقام عشَرةَ أعوامٍ في رَعْي غنم شُعَيبٍ، ثمّ ثمانيةَ عشَرَ عامًا بعدَ بنائه بامرأتِه بنتِ شُعيبٍ، ووُلِدَ له فيها، فكَمُلَ له أربعونَ سَنةً، وهي المدّةُ الّتي عادةُ الله إرسالُ الأنبياءِ على رأسِها»[1].

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِى﴾

٢٦ ـ اختار اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ ليجعَلَه نبيَّه ورسولَه.

﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكۡرِى﴾

٢٧ ـ قال اللهُ تعالى لسيّدِنا موسى وسيّدِنا هارونَ عليهما السَّلام: اذهبَا أنتما الاثنان بآياتي، يعني: معجِزاتي ودَلائلي وأحكامِ التَّوراة، إلى فِرعَوْنَ؛ لأنه قد طَغَى، ولكنّ عليكما أن تُكثِرا من تسبيحي وذِكري، لكي تتغلَّبا على المشكلاتِ التي ستُواجِهُكما، وترتفعَ معنويّاتُكما، ولا تَنِيا في هذا أبدًا، وعليكما أن تُخاطِبا فرعَوْنَ بقَدْرٍ من اللِّين، على أملِ أن يستمعَ إلى النَّصيحة، ويخشَى عذابي.

في هذه الآيات درسُ عِبرةٍ للدُّعاة، بأنّهم حين يريدونَ تقديمَ الإسلام إلى غير المسلم، فعليهم أن يفعَلوا ذلك بعدَ الاستعدادِ الجيِّد والبحثِ الدَّقيق، وأن يذكُروا اللهَ تعالى في كلِّ حال، وأن لا يُغلِظُوا في الحديث، وإنما يختارونَ اللِّينَ؛ لأنّ الناسَ ينفِرُونَ من الغِلْظة، ويَميلونَ إلى اللِّينِ في الحديث، ويُظهِرونَ شوقًا إلى الاستماع حينَئذٍ.

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

٢٨ ـ قال سيّدُنا موسى وسيّدُنا هارونُ عليهما السَّلام ـ واضعَيْنِ في اعتبارِهما

(١) البحر المحيط.

طُغيانَ فِرعَون ـ: يا ربَّنا، نخشَى أن يَعتديَ علينا فِرعونُ حين ندعُوه إلى الهداية، وعليه قال اللهُ تعالى لهما: إنَّني معَكما يقينًا، وأسمَعُ تمامًا ما يقولُه فرعَوْنُ وأرى ما يفعَلُه، ولهذا لا تخافا من فِرعَوْن، فسوف أحفَظُكما منه، وسأُبطلُ كلَّ سلاح يستعملُه.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

٢٩ ـ يعني: اذهَبا أنتما الاثنان إلى فِرعَوْنَ وقولا له: نحن رسُولا ربِّكَ إليك، وقد جئْنا إليكَ بآيةِ النُّبوّة من عندِه، أي: المعجِزات، فأرسِلْ معَنا بني إسرائيلَ لنعودَ بهم إلى الشام، ولا تؤْذِهم أكثرَ من هذا، ورسالةُ الله تعالى إليكم أيُّها الناسُ أنْ سيكونُ السَّلامُ على منِ اتَّبع الهدايةَ، أمّا مَن كذَّب بالكلام الإلهيِّ وأعرَضَ عنه، فسيَنزِلُ عليه العذابُ.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾

٣٠ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ للفِرعَون: إنّا رسُولا ربِّكَ إليك، فقال الفِرعَوْنُ مُندهِشًا غيرَ مصدِّق: إنّني أنا ربُّ أهل مِصرَ، ولا ربَّ لي، وإن كنتُما صادقَيْنِ فيما تدَّعيان فأخبِراني: من ربُّكما، وما حقيقتُه؟

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

٣١ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ: ربُّنا هو ذلك الذي مَنَح كلَّ شيءٍ وجودَه الذي يتَّفقُ معَ بيئتِه، ثم أَوْدعَ فِطرتَه هدايةً تتوافقُ معَ مقصِد حياتِه ووسيلةِ كَسْبِه، يعني: أنّ اللهَ تعالى مَنَح الإنسانَ والحيَوانَ والنّباتَ وغيرَها وجودًا يطابقُ بيئتَها، كما أَنْعم عليها بالإمكانيّاتِ الفِطْريّة التي تقتضيها ضروريّاتُها.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾

٣٢ ـ بعدَ هذا الجوابِ المُفحِم قال الفرعَونُ مبدِّلًا وِجهةَ الحديث: حسنًا، أخبِرْني إذًا، ماذا كانت عاقبةَ المُنكِرينَ في الأُمم السابقة؟

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾

٣٣ ـ تَجاهَلَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ هذا السؤالَ الخارجَ عن الموضوع من فرعَوْن، بغَرَضِ مواصلةِ الدَّعوة إلى التوحيد، وقال: لقد كَتَب اللهُ تعالى أحوالَ الأُمم السّابقة عندَه في اللَّوح المحفوظِ لحِكمةٍ يَعلَمُها هو، وسوف يُجازِيهم طِبقًا لهذه الأحوالِ ويُحاسبُهم، لكنّ عِلمَ الله تعالى لا يحتاجُ إلى اللَّوح المحفوظ، وإنّما هو يَعلَمُ تمامَ العِلم وأكمَلَه كلَّ شيء، حيث لا مجالَ مطلَقًا للخطأِ أو النِّسيان.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾

٣٤ ـ يعني: أنّ الله تعالى هو الذي مهَّد لكم الأرضَ، حتى تستطيعوا الاستقرارَ عليها، وجَعَل لكم في جبالِها وبرِّها وبحرِها طُرُقًا تسلُكونَها، حتى يُمكنَكم توفيرُ طعامِكم وطعامِ مواشيكم وأنعامِكم، وفي هذه الأشياء كلِّها آياتٌ واضحةٌ لأصحابِ العقول، وكلُّها تشيرُ إلى وجودِ الله تعالى وتدُلُّ على وَحْدانيّـتِه.

مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ

ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾

٣٥ ـ أولُ إنسانٍ هو سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام، وهو الذي بدَأَت من عندِه سلسلةُ بني البشَر، وقد خُلِق آدمُ من تراب، ولهذا قال اللهُ تعالى مشيرًا إلى هذا الأَصْل التُّرابيِّ: لقد خَلَقْناكم من هذه الأرض، وقد استمرَّ النَّسلُ الإنسانيُّ بعدَ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام من خلالِ النُّطفة، ولأنّ الغذاءَ الذي يتربَّى عليه الإنسانُ وما فيه من نُطفةٍ يأتي من التُّراب، لهذا نُسِب الإنسانُ إلى الترابِ أيضًا (ولمزيد من التفصيل راجع الآيةَ رقم ٢ من سُورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشيةُ رقم ٢ أيضًا)، ثم يُدفَنُ الإنسانُ

بعدَ الموتِ في هذه الأرضِ أيضًا، ويومَ القيامة يُبعَثُ كذلك من هذه الأرض.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

٣٦ ـ حين عَرَض سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ معجزتَيْ نُبوّتِه، يعني: اليدَ البيضاءَ والعصَا، لم يُنكِر الفِرعَوْنُ نُبوّتَه فقطْ، وإنما قال عن المعجِزتَيْنِ: إنهما سحرٌ، ثم قال: إنك تريدُ ـ عن طريق هذا السِّحر ـ أن تُخرجَنا من مِصرَ وتستوليَ أنت عليها، ولهذا فإنّنا سنقفُ أمامَ سِحرِك هذا ونُواجهُه، فتعالَ للمواجَهة في ميدانٍ مفتوح أمامَ الجميع، ولْتحدِّد الوقتَ لهذه المواجَهة، ولا تُخلِفْ ما تقرِّرُه من موعدٍ لها.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾

٣٧ ـ قال سيِّدُنا موسى عليه السَّلام: نحدِّدُ الغدَ موعدًا للمواجَهة، وهو الوقتُ الذي يجتمعُ فيه قومُك في الميدانِ المفتوح عندَ الصَّباح للاحتفال، حتى يَرى الناسُ جميعًا في ضوءِ النهار الحقَّ والباطلَ، وهكذا استَدعَى الفِرعَونُ كبارَ السَّحَرة في قومِه ومشاهيرَهم، وجاء بهم إلى الميدانِ في الموعدِ المحدَّد.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾

٣٨ ـ أخَذ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ يَعِظُ الناسَ في هذا الميدانِ المفتوح قائلًا: لا تفتَروا على الله كذبًا بالاعتقادِ في رُبوبيّةِ الفِرعَوْن، والقولِ عن المعجِزات: إنّها سِحرٌ، وإلّا فإنّ اللهَ تعالى سيقضي عليكم قضاءً مبرَمًا عن طريقِ العذاب، ولقد فَشِل من الأُمم السابقة عليكم أولئك الذين افترَوْا على الله كذبًا.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾

٣٩ ـ بعدَ أنِ استَمعَ السَّحَرةُ إلى وَعْظِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام اختَلَفوا فيما بينَهم، وأخَذوا يتهامسُونَ معًا، فقال البعضُ منهم: هذا ساحرٌ، وقال البعضُ الآخَر: يبدو أنه نبيٌّ؛ لأنّ حديثَه ليس مِثلَ أحاديثِ السَّحَرة، لكنّهم جميعًا قالوا خوفًا من فِرعَون: إنّ هذَيْنِ ليسا بنبيَّيْنِ، وإنما ساحرانِ يريدانِ أن يُخرِجاكم من مِصرَ، ويَقْضيا على دينِكم وحضارتِكم.

﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾

٤٠ ـ أي: استَجْمِعوا اليومَ كلَّ مهاراتِكم وحِيَلِكم، واصْطَفُّوا معًا واخرُجوا إلى الميدان، حتى إذا رآكُما هذانِ خافا منكم، وتذكَّرا أنّ من يَغلِبُ اليومَ سيظَلُّ ناجحًا ومنتصِرًا أبدًا.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴾

٤١ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ للسَّحَرة: اعرِضوا أنتم أولًا كلَّ ما عندَكم من طاقةٍ مجتمِعين، ثم سأُريكم أنا قوّةَ النُّبوّة، وهكذا ألقى هؤلاءِ السَّحَرةُ بعصِيِّهم وحِبالِهم، فشَعَر سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ كأنّها ثعابينُ تتحرَّكُ هنا وهناك.

﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴾

٤٢ ـ على أيِّ حال، كان سيّدُنا موسى عليه السَّلام متيقِّنًا من أنّ هذه العِصيَّ وهذه الحِبالَ لن تستطيعَ إيذاءه؛ لأنّ اللهَ تعالى حاميه وناصرُه، ولكنْ حين خافَ

سيّدُنا موسى عليه السَّلام باعتبارِ مقتَضياتِ البشَريّة، طَمْأَنه اللهُ تعالى قائلًا: لا تَخْف، فإنك أنت المنتصِرُ لا مَحالةَ.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾

٤٣ ـ أمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ أن يُلقيَ عصاهُ، وهكذا استحالتِ العَصا إلى ثُعبانٍ ضَخْم، وابتَلَع كلَّ حِبال وعِصِيِّ السَّحَرة؛ لأنّها كانت مجرَّدَ خِداع بصَريٍّ لا أكثرَ، ولا يمكنُ أن ينجَح السِّحرُ في مواجهةِ المعجِزة.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾

٤٤ ـ عندَما رأى السَّحَرةُ معجزةَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام تَيقَّنوا أنه ليس ساحرًا، لهذا أعلَنوا إيمانَهم بربِّ سيّدِنا هارونَ وسيّدِنا موسى عليهما السَّلام، وخَرُّوا ساجدينَ لله دونَ اختيارٍ منهم، وكأنّ معجِزةَ العصا ومعرفةَ الحقِّ هي التي أَجْبَرتْهم على أن يَخِرُّوا ساجدينَ.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

٤٥ ـ قال فرعونُ: إنّني أنا ربُّكمُ الأعلى، لماذا آمنتُم به قبلَ أن آذَنَ لكم؟ يبدو أنّكم تعلَّمتُم السِّحرَ منه، وتآمَرتُم على حكومتي، وانهزمتُم عن عَمْدٍ أمامَ معلِّمِكم، ولهذا سوف أُقطِّعُ أيديَكم وأرجُلَكم من خِلافٍ، وسأُعلِّقُكم على جذوع النَّخل، وعندَئذٍ ستَعرِفونَ إن كان عذابُ ربِّ موسى أشدَّ أم عذابي أنا.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

٤٦ ـ بالرَّغْم منَ التهديدِ الخطيرِ من جانبِ الفِرعَوْن، إلا أنّ السَّحَرةَ قالوا له:

لا يمكنُنا أن نُفضِّلَك على ذلك الربِّ الذي خَلَقَنا وهدانا بعدَ أنْ شاهَدْنا المعجزات، لهذا عاقِبْنا بما تشاء، وتَذكَّرْ أنك تستطيعُ أن تؤذيَنا في هذه الحياةِ فقطْ، وسوف تنتهي سُلطتُك بموتِك، وستُبتلَى أنتَ نفسُك بعذابٍ لكُفرِك، لكنّ اللهَ تعالى باقٍ خالدٌ دائم، ولو ظلَلْنا نَعْصي خالقَنا الحقيقيَّ، فإنه قادرٌ على أن يعاقبَنا بعدَ الموتِ أيضًا.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ﴾

٤٧ ـ كان السَّحَرةُ مستعِدِّينَ للمواجَهة بدايةً طمعًا في المكافأة، ولكنْ بعدَ أنْ رأَوْا معجِزاتِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام رَفَضوا المواجَهةَ، مثلَما يَروي العلّامةُ سيّد محمود الألُوسيُّ أنه حين استَدعَى الفِرعَونُ السَّحَرةَ لمواجَهةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام قال له السَّحَرةُ: نريدُ أن نرى موسى عليه السَّلامُ أولًا وهو نائمٌ، وبالفعل أُتيحَتْ لهم هذه الفُرصة، فرأَوْا سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ نائمًا وعصاهُ تَحرُسُه، فلمَّا رأى السَّحَرةُ هذا قالوا لفِرعَون: إنّ سيّدَنا موسَى عليه السَّلامُ ليس ساحرًا؛ لأنّ الساحرَ إذا نام تعطَّل سِحرُه أيضًا، لكنّ الفِرعَونَ أَجْبَرهم على المواجَهة[1]، ثم بعدَ أنِ استمعَ السَّحرةُ إلى وَعْظِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ في الميدانِ زاد إحساسُهم بأنه ليس ساحرًا، وإنما نبيٌّ، ومواجَهةُ النبيِّ ليست جيِّدة، لكنَّهم اضْطُرُّوا إلى مواجهتِه خوفًا من الفِرعَون، وحين ابتَلَعت العصا المعجزةُ حِبالَهم على الإعلانِ وبوضوح تامٍّ آمَن السَّحَرةُ، حتى يَغفرَ اللهُ تعالى خطاياهم، وبصفة خاصّةٍ خطأَ السِّحر الذي جَعَلَهم يأتُونَ لمواجهةِ المعجِزة.

---

(١) «إنه أكرههم على المعارضة حيث روي أنهم قالوا له: أرنا موسى نائمًا، ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا: ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه». روح المعاني.

إيمان السيدة آسية زوجة الفرعون رضي الله عنها:

يقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وكانت امرأةُ فِرعَونَ تسألُ: مَن غَلَب؟ فقيل لها: غَلَب موسى وهٰرونُ، فقالت: آمَنْتُ بربِّ موسى وهٰرون. فأرسَلَ إليها فِرعَونُ فقال: انظُروا أعظمَ صخرةٍ، فإنْ مضَتْ على قولِها فألقُوها عليها، فلمّا أتَوْها رَفَعت بَصَرها إلى السّماءِ فأَبْصَرتْ منزلَها في الجنّة، فمَضَت على قولِها فانتَزَع رُوحَها، وأُلقِيَتِ الصّخرةُ على جسَدِها وليس في جسدِها رُوحٌ»[١].

دور المرأة في الإسلام:

١ ـ السيِّدةُ خديجةُ الكبرى أُمُّ المؤمنينَ رضي اللهُ عنها: اتَّفق أهلُ العِلم على أنّ أُمَّ المؤمنينَ السيّدةَ خديجةَ رضي اللهُ عنها هي أولُ مَن آمَن بسيّدِنا محمدٍ ﷺ[٢].

وكان هناك اثنانِ من الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم جميعًا أَنْفقَا كلَّ ما يملِكانِ في سَبيل الدَّعوةِ إلى الإسلام، وهما: أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ خديجةُ الكبرى رضي اللهُ عنها، وسيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه، وقد كان كلاهما من الأَثْرياءِ قبلَ أن يُسلِما، وحين انتَقَلا إلى رحمةِ الله تعالى لم يكنْ لديهما شيءٌ[٣].

٢ ـ السيِّدةُ سُمَيّةُ رضيَ اللهُ عنها: كانت السيّدةُ سُميّةُ رضي اللهُ عنها أولَ من نالت سعادةَ الشّهادةِ في الإسلام، ولمزيدٍ من التفصيل عن استشهادِها راجع الآيةَ رقم **١٠٦** من سُورة النَّحل (١٦)، وكذا الحاشيةُ رقم **٧٩** أيضًا.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «اختلف العلماء في أول من أسلم، مع الاتفاق على أن خديجة أول خلق الله إسلامًا». الكامل، ابن الأثير، **٢: ٣٧**، والسيرة النبوية، ابن هشام، **١: ٢٢٤**.

(٣) ضياء النبي، **٢: ٤٣٠**.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾

٤٨ ـ ستكونُ جهنَّمُ عاقبةَ المجرِمِ في حقِّ الله تعالى، يعني: الكافرَ، ولن تكونَ حياتُه في جهنَّمَ ممّا يمكنُ أن يَنتفِعَ بها، بسببِ العذابِ الشديد، وإنّما سيكونُ الموتُ أفضلَ من حياتِه هذه ألفَ مرّة، إذْ في هذه الحالة يتخلَّصُ من العذاب، لكنْ لا وجودَ للموتِ هناك، ولهذا ما أعجَبَ حالَ أهل جهنَّم! لا يموتونَ فيستريحوا، ولا يتمنَّونَ الحياةَ، وإنّما سيعيشونَ أذِلّاءَ مُهانِينَ في صراع بينَ الحياةِ والموت.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾

٤٩ ـ الذين يؤمنونَ بالله تعالى ويعمَلونَ الصّالحات، بمعنى: أنهم يبتعِدونَ عن العقائدِ الفاسدةِ والأعمالِ السيِّئة، هؤلاءِ لهم الدَّرجاتُ العُلَى، وسيَخلُدونَ في جنّاتِ عَدْنٍ إلى أبدِ الآبِدين.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا

مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾

٥٠ ـ عندَما لم يؤمنْ فِرعَونُ، ولم يُقْدِمْ على تحرير بني إسرائيلَ أيضًا، أمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ أنِ اصْطحِبْ بني إسرائيلَ معَك وهاجِرْ من مِصرَ ليلًا، وحين تصلُ إلى ساحل البحر، اضرِبْه بعصاكَ، وسيَنشَقُّ لك في البحرِ طريقٌ، وحينَئذٍ اعبُرِ البحرَ من هذا الطريقِ بلا خوفٍ أو تردُّد، وهكذا فَعَل سيّدُنا موسى عليه السَّلام، وحين تَبِعَه فِرعَونُ وجنودُه على هذا الطريقِ غَرِقوا جميعًا في البحر.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾

٥١ ـ يُعلَمُ منه أنّ القائدَ الذي يكونُ ضالًّا في ذاتِه، إنّما يُضِلُّ قومَه ومَن يتَّبعونَه، مثلَما غَرِق فِرعَونُ نفسُه، وأَغْرق قومَه معَه.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾

٥٢ ـ في هذه الآية ذَكَّر اللهُ تعالى بني إسرائيلَ بفَضْلِه عليهم، أي: أنه نَجّاكم من مظالم الفِرعَون، ووَعَدَ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ أن يُنزِلَ عليه التَّوراةَ فوقَ جبل الطُّور بغَرَض هدايتِكم، وأَنْزل المَنَّ والسَّلوى طعامًا لكم، حتى تشكُروا اللهَ تعالى. ولمزيدٍ من التفصيل عن المنِّ والسَّلوى راجعِ الآيةَ رقم ٥٧ من سُورة البقرة (٢)، وكذا الحاشيةُ رقم ٤٧ أيضًا.

﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾

٥٣ ـ كُلوا الطِّيبَ من الأشياء، ولا تتجاوزوا الحدَّ، بمعنى: أنْ لا تُسرِفوا في تناول الحلال، وتجنَّبوا تناولَ الحرام، وإلّا هلكتُم ودمَّركُم اللهُ تعالى.

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾

٥٤ ـ اللهُ تعالى غفورٌ رحيم، لكنّ مَن يستحقُّ مغفرتَه هو ذلك الذي يتوبُ إليه من العِصيان، ويؤمنُ به تعالى، ويعمَلُ صالحًا، ويستقيمُ على الهداية.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾

٥٥ ـ بعدَ أنْ نَجا سيّدُنا موسى عليه السَّلام من الفِرعَون أسرَعَ متَّجهًا إلى جبلِ الطُّور لتلقِّي التَّوراة، فسألهُ اللهُ تعالى: يا موسى، لمَ تركتَ قومَكَ وجئتَ مُسرعًا؟ فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: إنّ قَوْمي خَلْفي بالقُربِ منِّي، وقد جئتُ مُسرِعًا شوقًا للقائك، حتى ترضَى عنّي وأنالَ رضاك.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾

٥٦ ـ قال اللهُ تعالى لسيّدِنا موسى عليه السَّلام: بعدَ أن أتَيْتَ إلى هنا ابتَلَيْنا قومَك بفتنةٍ، وقد أَضلَّهم السَّامِريُّ.

تربية السامري:

المشهورُ أنّ اسمَ السامِريِّ كان: موسى بنَ ظُفُر، ويَنقُلُ العلّامةُ سيِّد محمود الأَلُوسيُّ روايةً عن سيّدِنا ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه عندَما وُلِد السَّامريُّ كان

الفرعَوْنُ قد أَمَر بقَتْل كلِّ حديثي الولادةِ في مِصرَ، فقامت أُمُّ السّامريِّ بوَضْعِه في غارٍ في غابةٍ لإنقاذِه من القَتْل، وأَغْلقت فَتْحةَ الغار بحجرٍ (حتى لا يراهُ أحدٌ، وظلَّت هي تتحسَّسُ الأخبارَ بينَ الفَيْنةِ والأخرى)، وكان سيِّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ يأتي بالطعام للسّامِريِّ في الغارِ بأمرِ الله تعالى، وهكذا تربَّى السَّامريُّ في الغارِ ونَشَأ فيه[1]، لكنّه لمّا كبِرَ بَلَغت به التَّعاسةُ أنْ أصبح سببًا في إضلالِ قومِه جميعًا، وقد عبَّر أحدُ الشُّعراءِ عن هذا الأمرِ فقال:

إذا المرءُ لم يُخلَقْ سعيدًا تحَيَّرتْ　　　عقـولُ مربِّيـهِ وخـاب المؤمِّـلُ

فموسـى الذي رَبّاه جِبريـلُ كافرٌ　　　وموسى الذي رَبّاهُ فِرعَونُ مُرسَلُ[2]

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾

٥٧ ـ أَنْزل اللهُ تعالى التَّوراةَ على سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ بعدَ أربعينَ يومًا، وقال له: بعدَ مجيئك إلى هنا عَبَد قومُك العِجْلَ. فغَضِب سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ كثيرًا، وغَيَّم الحزنُ على قلبِه، وعاد إلى قومِه، وقال لهم: لقد وَعَد اللهُ تعالى أن يُنزلَ التَّوراةَ لهدايتِكم، وحينَ ذهبتُ إلى جبلِ الطُّور لتلقِّي التَّوراةِ أَخَذْتُ منكم وعدًا أن تستقيموا على طاعةِ الله تعالى بعدي بقيادةِ سيِّدِنا هارونَ عليه السَّلام، ولكنْ للأسفِ الشَّديد أنّكم في خلالِ الأربعينَ يومًا كنتُم قد أَخْلفتُم ما وعدتُموني به، وأَخَذتُم تعبُدونَ العِجْلَ، فهل مَضَتْ على ذهابي من هنا فترةٌ طويلةٌ بحيث

(١) «عن ابن عباس، أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه، فكان جبريل عليه السلام يأتيه فيغذوه بأصابعه في واحدة لبنًا وفي الأخرى عسلًا، وفي الأخرى سمنًا، ولم يزل يغذوه حتى نشأ». تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير روح المعاني.

أنكم يَئستُم من عَوْدتي إليكم، أم أنّ حظَّكم التَّعِسَ تغلَّبَ عليكم، وأردتُم أن يَنزِلَ عليكم غضبٌ من ربِّكم؟

﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾

٥٨ ـ قال بنو إسرائيلَ لسيّدِنا موسى عليه السَّلام: إنّنا لم نُخلِفْ وعدَنا معَك بإرادتِنا أو عامِدينَ، فلقد غَرَّر بنا السّامريُّ، فألقَيْنا بحُلِيِّنا في النار، فانصَهرتْ، وصَنَع منها السَّامريُّ تمثالًا على شكلِ عِجْل، وأحدَثَ فيه ثُقبًا إذا مَرَّ الهواءُ فيه أحدَثَ صوتًا يشبهُ صوتَ العِجْل (ويمكنُكَ الرجوعُ في هذا أيضًا إلى الحاشية رقم ٧٥ من سُورة الأعراف (٧))، ولمَّا صَدَر صوتُ العِجل من هذا التِّمثال الجامدِ الذي لا رُوحَ فيه وسَمِعوه هَتَفوا دونَ اختيارٍ منهم: هذا هو المعبودُ الأَصْليُّ، ولقد أخطأَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ بذهابِه إلى الطُّورِ باحثًا عن المعبود.

﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴾

٥٩ ـ ما أعجَبَ بني إسرائيلَ! فلم يُفكِّروا مجرَّدَ التفكير أنّ هذا التِّمثالَ الذي لا رُوحَ فيه، والذي صنَعوهُ بأنفسِهم، لا يُمكنُه أن يُجيبَ عن كلامِ أحدٍ منهم، ولا يستطيعُ أن يَنفعَهم أو يَضُرَّهم.

وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ

فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾

٦٠ ـ حينَ أخَذ بنو إسرائيلَ يعبُدونَ العِجْلَ بعدَ ذهابِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ إلى جبلِ الطُّور، قال لهم سيّدُنا هارونُ عليه السلام: لقد فُتِنتُم بعبادةِ العِجل، فهو ليس بربِّكم، وإنَّما ربُّكم هو الرَّحمنُ الرَّحيم، وهو الذي نَجّاكم من استعبادِ الفِرعَونِ لكم.

﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

٦١ ـ ردَّ بنو إسرائيلَ على سيّدِنا هارونَ عليه السَّلام قائلينَ: إنّهم سيظَلُّونَ قائمينَ على عبادةِ هذا العِجْل في الوقتِ الراهن إلى أن يعودَ سيّدُنا موسى عليه السَّلام، وعندَها سنَرى ماذا يكونُ الموقف.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾

٦٢ ـ حينَ عاد سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ من جبلِ الطُّور ورأى بني إسرائيلَ يعبُدونَ العِجْلَ، اعترَاهُ غضَبٌ شديدٌ غَيْرةً على الدِّين، وأمسَكَ برأسِ سيّدِنا هارونَ عليه السَّلامُ وبلِحيتِه قائلًا: لماذا لم تترُكْهم وتأتِ خَلْفي عندَما رأيتَهم قد ضَلُّوا، ولو أنّ هؤلاءِ الناسَ اختاروا الضَّلالَ في وجودي، ولم يرتَدِعوا عنه رَغْم مَنْعي إياهم، لَحاربتُهم، وإذا لم تكنْ لديَّ الطاقةُ على ذلك لَاعتزلتُهم، لكنَّك لم تفعَلْ حتى واحدًا من هذَيْنِ الأمرَيْن، وخالفتَ بذلك توقُّعاتي منك.

ويقولُ حَكيمُ الأُمة المُفتي أحمَد يار خان نعيمي في تفسيرِ هذه الآية: يُعلَمُ منه أنّ اللِّحيةَ يجبُ أن تكونَ قَدْرَ قَبْضة، بمعنى أن يُمكنَ للأصابع الأربعةِ أن تقبِضَ عليها، وهذه هي سُنّةُ الأنبياء، وكان النبيُّ ﷺ يُخلِّلُ ما بيْنَ شعرِ لحيتِه أثناءَ الوضوء، وتخليلُ اللِّحية ممكنٌ إذا ما كانت طويلةٌ[1].

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «خالِفوا المشركينَ، وفِّروا اللِّحى، وأَحْفُوا الشّواربَ»[2]، وكان سيّدُنا ابنُ عُمر رضي اللهُ عنهما إذا ما حَجَّ أو اعتَمرَ أمسَكَ بلحيتِه، وقَصَّ ما زاد منها على قَبْضةِ يدِه.

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن سَمُرةَ رضي اللهُ عنه: «كان رسولُ الله ﷺ قد شَمِط مُقدَّمُ رأسِه ولحيتِه... وكان كثيرَ شَعَرِ اللِّحية»[3].

ـ يقولُ سيّدُنا يزيدُ الفارسيُّ: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ في النّوم زمنَ ابنِ عبّاس...

---

(١) تفسير نور العرفان.

(٢) البخاري، كتاب اللباس، باب ٦٤ برقم ٥٨٩٢.

(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٣٠ برقم ٦٠٨٤.

قد مَلأَتْ لحيتُه، من هذه إلى هذه، حتّى كادت تملأُ نَحْرَه»[١].

- يَروي سيّدُنا شُعيبٌ رضيَ الله عنه، عن أبيه عن جَدِّه، «أنّ النّبيَّ ﷺ كان يأخُذُ من لحيتِه من عَرْضِها وطولِها»[٢]، يعني: كان النبيُّ ﷺ يأخُذُ من لحيـتِه طولًا وعرضًا.

- يقولُ سيّدُنا عثمانُ بنُ عفّانَ رضي اللهُ عنه: «إن النّبيَّ ﷺ كان يُخلِّلُ لحيتَه»[٣].

- يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه: «إنّ رسولَ الله ﷺ كان إذا توضَّأَ أخذ كفًّا من ماءٍ فأدخلَه تحتَ حَنكِه فخَلَّل به لِحيتَه وقال: هكذا أمَرَني ربّي عزَّ وجلّ»[٤].

- يقولُ سيّدُنا أبو مَعْمرٍ رضيَ اللهُ عنه: «قلنا لخَبّابٍ: هل كان رسولُ الله ﷺ يقرأُ في الظُّهرِ والعصر؟ قال: نعم. قلنا: بمَ كنتُم تعرفونَ ذاك؟ (باعتبار أنّ القراءةَ في صلاتَي الظهرِ والعصرِ ليست جَهْريّةً) قال: باضْطرابِ لحيتِه»[٥]، يعني: أنّنا كنّا نَعرِفُ من حركةِ لحيته ﷺ أنه يقرأُ، ويُعلَمُ منه أنّ طُولَ لحيةِ النبيِّ ﷺ لم يكنْ أقلَّ من قَبْضة؛ لأنّ اللِّحيةَ القصيرةَ لا تهتزُّ أثناءَ القراءة.

- «والسُّنَّة في اللِّحية: القَبْضة»[٦]، ويَروي محمدٌ رحمَه الله في كتابِ «الآثار»، عن الإمام أبي حنيفةَ رحمةُ الله عليه قولَه: «وأمّا اللِّحيةُ فذَكَر محمدٌ في «الآثار» عن الإمام أنّ السُّنةَ أن يَقطَعَ ما زاد على قَبْضةِ يدِه»[٧].

---

(١) مسند أحمد، ١: ٣٦١.

(٢) الترمذي، أبواب الأدب، باب ١٧ برقم ٢٧٦٢.

(٣) الترمذي، أبواب الطهارة، باب ٢٣ برقم ٣١.

(٤) أبو داود، كتاب الطهارة، باب ٥٧ برقم ١٤٥.

(٥) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٢٤ برقم ٨٠١.

(٦) الدر المختار، كتاب الحظر والإباحة، فصل في البيع، ٦: ٤٠٧.

(٧) حاشية الطحاوي، باب الجمعة.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

٦٣ ـ بدأ سيّدُنا هارونُ عليه السَّلامُ في جوابِه على سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بهذه الألفاظِ لكي يُهدِّئَ من غَضَبِه، فقال: يا ابنَ أُمِّي، بمعنى: أنّي لستُ مُخالفًا لك، وإنما أنا أخوك، ولقد حاولتُ كثيرًا إعادةَ بني إسرائيلَ إلى التوحيد، قلتُ لهم: اتَّبِعوني، وارجِعوا عن عبادةِ العِجْل، فحاوَلَ أكثرُهم قَتْلي، ولم يبقَ معي سوى طائفةٍ قليلة، وسواءٌ قاتلتُهم، أم اصْطَحَبتُ هذه الطائفةَ القليلةَ وأتَيْتُك، فإنّ بني إسرائيلَ كانت ستنقسمُ إلى فئتَيْنِ، وعندَها كنتَ ستقولُ لي: إنك فرَّقتَ بينَ بني إسرائيل، لهذا اعتَبرتُ أنّ من الحِكمةِ أن أنتظرَ عودتَك، فمنَ الممكنِ أن يَرجِعَ هؤلاءِ إلى التوحيد بإفهامِك لهم. ورَغْم أنه كان هناك اختلافٌ في الرأي بيـنَ سيّدِنا موسى وسيّدِنا هارونَ عليهما السَّلامُ حولَ كيفيّةِ حلِّ هذه المسألة، ولكنّ مقصِدَ كلٍّ منهما ومهمّتَه كانت واحدةً، وهي أن يترُكَ بنو إسرائيلَ عبادةَ العِجْل ويعودوا إلى التوحيد، واختلافاتُ أهلِ العِلم عادةً تكون بهذا الشَّكل، ولهذا لا يمكنُ أن نقولَ: إنّ أحدَهما كان على خطأ.

عندَما سمعَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ الجوابَ التفصيليَّ من سيّدِنا هارونَ عليه السَّلام هدَأَ غَضَبُه وسَكَن، ودَعا اللهَ تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وكان الهدفَ من هذا الدُّعاءِ أنْ يتمَّ تلافي نتائجِ تصرُّفِه القاسي معَ أخيه، ولا يجدَ الأعداءُ فرصةً للطَّعن عليهما بأنّ الأخوَيْنِ يتشاجرانِ معًا.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾

٦٤ ـ سألَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ السَّامريَّ: ما هذه الفتنةُ التي أثرتَها؟ فأجابه السَّامريُّ: ذاتَ مرّةٍ رأيتُ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ يمتطي فرسًا، وحيثُما وَضَعتْ فرسُه قدَمَها على الترابِ اليابس نَبَت العُشبُ الأخضر، وقد رأيتُ أنا هذا الأمرَ بنفسي مصادفةً، ولم يلتفِت الناسُ إلى هذا الأمر، ففَهِمتُ أنّ هناك شأنًا خاصًّا لقَدَم هذه الفَرسِ في التراب[1]، وهكذا احتَفظْتُ بقبضةٍ من هذا التُّرابِ عندي، وعندما وضَعتُ هذا الترابَ في ذلك التِّمثال خَرَج منه صوتٌ يشبهُ صوتَ العِجْل، وهو ما كان سببًا في هذه الفتنة[2].

وقد نَقَل القرآنُ الكريمُ جوابَ السّامريِّ هذا، لكنَّه لم يؤكِّدْه، وقد مرَّ من قبلُ توجيهٌ لكيفيّةِ صدورِ صوتِ العِجْل، بأنّ السامريَّ أحدَثَ ثُقبًا في التِّمثال، بحيث إذا مرَّ الهواءُ منه خَرَج منه صوتٌ يُشبهُ صوتَ العِجْل، والصُّنّاعُ في كلِّ زمانٍ يخترعونَ مثلَ هذه الأمور، بحيث يمكنُ أن يَصدُرَ عن الأجسام التي لا رُوحَ فيها أصوات، وعندَنا اليومَ مئاتُ اللُّعَب بهذا الشكل، وتُصدرُ أصواتًا لحَيواناتٍ وطيورٍ مختلفة.

﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾

٦٥ ـ أَخْبَر سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ السَّامريَّ بالعاقبةِ الوخيمة، وأَخْرجَه من بَلاطِه، وهكذا نَزَل عليه عذابٌ في حياتِه بأنه إذا لمَسَه أحدٌ بيدِه أصابتِ الاثنَيْنِ

---

(١) «قال موسى عليه السلام للسامري: فما شأنك ياسامري، وما الذي دعاك إلى ما فعلته؟ قال: إنه رآه كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على التراب اليابس يخرج النبات فعرف أن له شأنًا». روح المعاني.

(٢) «عن ابن عباس، قال: قبض قبضة من أثر جبرائيل، فألقى القبضة على حليهم فصار عجلاً جسدًا له خوار، فقال: هذا إلهكم وإله موسى». تفسير ابن جرير الطبري.

حُمَّى، ولهذا ظلَّ السامريُّ طيلةَ عُمُرِه يقول: ابتعِدوا عنِّي وإلّا أصابَتْكم الحُمَّى، وبالتالي تَرَكَ الناسُ مخالطتَه والتعاملَ معَه تمامًا، فخَرج إلى الصَّحراء وقضَى بقيّةَ عمُرِه معَ الحَيوانات، يعني: حدَثَ له مثلَما قال سيّدُنا موسى عليه السَّلام، وهكذا لن ينجوَ أبدًا من عذابِ الآخِرةِ أيضًا.

ويُعلَمُ منه أيضًا أنّ سَيِّدَنا موسى عليه السَّلام كان يَعلَمُ عاقبةَ السامريِّ من أنه سيموتُ على الكُفر، وسوف يواجِهُ العذابَ أيضًا.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾

٦٦ ـ في الجزءِ الأول من هذه الآيةِ عَرَّف سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ السّامريَّ بعاقبتِه الوخيمة، وفي الجزءِ الثاني من الآية عَرَّفَه بتدميرِ معبودِه المزعوم بأنه سيتِمُّ نَسْفُه وإحراقُه وإلقاؤه في البحرِ فورًا وأمامَ عينَيْه، حتى يَعلَمَ من يعبدونَه أنّ المعبودَ الذي لا يستطيعُ حمايةَ نفسِه كيف يمكنُه نفْعُ الآخَرين.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾

٦٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لقد أعطَيْناك الذِّكرَ، أي: القرآنَ المَجيد، والذي يحتوي على قَصَص الأُمم السابقةِ بالإضافة إلى العقائدِ والأعمال الإسلاميّة، حتى تعتبرَ به أُمَّتُك وتَحصُلَ منه على النُّصح.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾

٦٨ ـ الذين أَعْرَضوا عن القرآنِ الكريم ولم يؤْمنوا به، سيأتُونَ يومَ القيامة وهم يحمِلونَ عبءَ كُفرِهم وعصيانِهم الثَّقيل، والذي سيكونُ مؤلمًا لهم غايةَ الإيلام، وسوف يَئِنُّونَ تحتَ وَطْأتِه إلى الأبد.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾

٦٩ ـ حين يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ بأمرِ الله تعالى في الصُّور لأولِ مرة، سيموتُ الجميعُ، وحين يَنفُخُ في الصُّورِ للمرةِ الثانية سيعودُ الجميعُ إلى الحياة، ويجتمِعونَ في ميدانِ الحَشْر، وفي ذلك اليوم تسوَدُّ وجوهُ المجرمين، أي: الكافرين، وتُصبحُ عيونُهم زُرْقًا بسببِ الخوفِ والرُّعب، وسيكونونَ في غايةِ القلقِ والخَجَل.

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾

٧٠ ـ يكاد هؤلاءِ يفقِدونَ حواسَّهم في هذا الجوِّ الرهيبِ لميدانِ الحَشْر، وسيشعُرونَ أنّ الحياةَ الدُّنيا الطويلةَ هذه كانت قليلةً للغاية، وسيتهامَسُونَ فيما بينَهم قائلين: إنّكم لبِثْتُم في الدنيا عشَرةَ أيام لا أكثرَ، بينَما سيقولُ أكثرُهم ذكاءً: إنها لم تكن عشَرةَ أيام، بل يومًا واحدًا فقط، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم كم كانت المدةُ الحقيقيّةُ، وكم سيكونُ حَدْسُهم.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾

٧١ ـ عندما كان يقالُ للكُفّار: إنّ كلَّ شيءٍ سيَفنَى يومَ القيامة، كانوا يسألونَ: أين ستذهبُ هذه الجبالُ الرَّواسي الشاهقة؟ فجاء الجوابُ في هذه الآية بأنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، وستَتطايرُ هذه الجبالُ وتتناثَرُ بأقلِّ إشارةٍ من الله تعالى وتصبحُ كأنها العِهْنُ المنفوشُ أو ذَرّاتُ الترابِ، ولن يبقَى لها أثرٌ مطلقًا.

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾

٧٢ ـ حين تتطايَرُ الجبالُ وتتناثَرُ يومَ القيامة كأنّها ذَرّاتُ الغُبار، وتجِفُّ مياهُ البحارِ والأنهارِ والينابيع، عندَئذٍ يَجعَلُ اللهُ تعالى من الأرضِ ميدانًا ممَهَّدًا ممتدًّا مستويًا، دونَ أن تكونَ فيه أيُّ ارتفاعاتٍ أو انخفاضات.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

٧٣ ـ في هذا الميدانِ الممتدِّ الممهَّدِ يومَ القيامة سينادي مَلَكٌ، وعندَئذٍ سيتَّبِعُه الناسُ جميعًا، ولن يتخلَّفَ أحدٌ منهم أو يشرُدَ هنا أو هناك، وسوف يَعُمُّ الصَّمتُ والسُّكوتُ في كلِّ اتّجاهٍ بسببِ جلالِ الله تعالى والخوفِ منه ورهبةِ الموقف، ولن يُسمَعَ شيءٌ غيرَ الهمسِ العاديِّ وأصواتِ الأقدام.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾

٧٤ ـ يومَ القيامة لن يَشفَعَ أحدٌ سوى أولئك الذيـن يَسمَحُ اللهُ لهم بذلك، وسوف يشفَعونَ لمَن كان إسلامُهم عندَ الله مقبولًا، ومن الذين سيَسمَحُ لهم بالشَّفاعة يومَ القيامة: الأنبياءُ والعلماءُ والشُّهداءُ والحُفّاظُ والمؤمنُ الصّالحُ والقرآنُ ورمضانُ والأطفالُ الصِّغارُ ذكورًا وإناثًا، وغيرُهم.

بعض الأحاديث المتعلقة بالشفاعة:

١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتَعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنّي اختَبأْتُ دعوتي شفاعةً لأُمّتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله مَن مات من أُمّتي لا يُشرِكُ بالله شيئًا»[1].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه: سألتُ النّبيَّ ﷺ أن يَشفَعَ لي يومَ القيامة، فقال: «أنا فاعلٌ». قال: قلتُ: يا رسولَ الله، فأين أَطلُبُكُ؟ قال: «اطلُبْني أوّلَ ما تطلُبُني على الصّراط». قال: قلتُ: فإنْ لم أَلْقَكَ على الصّراط؟ قال: «فاطلُبْني عندَ الميزان». قلت: فإنْ لم أَلْقَكَ عندَ الميزان؟ قال: «فاطلُبْني عندَ الحَوْضِ، فإنّي لا أخطئُ هذه الثّلاثَ المواطِن»[2].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضيَ اللهُ عنه: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «وَعَدَني ربّي أن يُدخِلَ الجنّةَ من أُمّتي سبعينَ ألفًا لا حسابَ عليهم ولا عذابَ، معَ كلّ ألفٍ سبعونَ ألفًا»[3].

٤ ـ رُوي عن سيّدِنا عثمانَ بن عَفّانَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَشفَعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثمّ العلماءُ ثمّ الشُّهداء»[4].

٥ ـ قال رسولُ الله ﷺ: «يَشفَعُ عثمانُ بن عفّانَ يومَ القيامة في مِثلِ ربيعةَ ومُضَر»[5].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٦ برقم ٣٣٨.
(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٩ برقم ٢٤٣٣.
(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنية، باب ١٢ برقم ٢٤٣٧.
(٤) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.
(٥) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٤٣٩.

٦ ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الصّيامُ والقرآنُ يشفَعانِ للعبدِ يومَ القيامة، يقولُ الصّيام: أيْ ربِّ، منَعتُه الطّعامَ والشّهواتِ بالنّهار، فشفِّعْني فيه، ويقولُ القرآن: منَعتُه النّومَ باللّيل، فشفِّعْني فيه»، قال: «فيُشفَّعانِ»[1].

٧ ـ سَمِع بعضُ الصّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّه يقالُ للوِلدانِ يومَ القيامة: ادخُلوا الجنَّة». قال: «فيقولونَ: يا ربِّ، حتّى يَدخُلَ آباؤنا وأُمّهاتُنا»، قال: «فيأتُونَ»، قال: «فيقولُ اللهُ عزّ وجلّ: ما لي أراهم مُحْبَنْطِئينَ؟ ادخُلوا الجنّة»، قال: «فيقولونَ: يا ربِّ، آباؤنا»، قال: «فيقولُ: ادخُلوا الجنّةَ أنتم وآباؤكم»[2].

٨ ـ رُوي عن سيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن زار قبري كنتُ له شفيعًا أو شهيدًا، ومَن مات في إحدى الحرمَيْنِ بَعَثَه اللهُ من الآمنينَ يومَ القيامة»[3].

ولمزيدٍ من التفصيل عن الشَّفاعةِ راجعِ الحاشيةَ رقم ٧٨ من سُورة يوسُف (١٢)، والحاشيةَ رقم ٧ من سُورة الحِجْر (١٥)، والحاشيةَ رقم ٨١ من سُورة الإسراء (١٧)، والحاشيةَ رقم ٥٩ من سُورة مريم (١٩).

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾

٧٥ ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم من يستحقُّ أن يُسمَحَ له بالشَّفاعة؛ لأنّ

---

(١) مسند أحمد، ٢: ١٧٤.

(٢) مسند أحمد، ٤: ١٠٥.

(٣) كنز العمال، ٥: ١٣٥ برقم ١٢٣٧١.

عِلمَه محيطٌ بماضي الناسِ ومستقبلِها وكلِّ أحوالِها، في حينَ أنّ عِلمَ الناس محدودٌ تمامًا، ولهذا لا يستطيعونَ الإحاطةَ بعِلم الله تعالى.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾

٧٦ ـ حينَ تُنصَبُ عدالةُ الله تعالى القادرِ المطلَقِ الحيَّ القَيُّوم يومَ القيامة، سيَحْني الناسُ جميعًا جِباهَهم أمامَ عظَمةِ الله تعالى وكبريائه، ولن يكونَ أحدٌ متكبِّرًا، وسوف يفشَلُ ـ في ذلك اليوم يقينًا ـ ذلك الذي اختار الظُّلمَ، أي: الشِّركَ في الدنيا؛ لأنّ الشِّركَ ظُلمٌ عظيمٌ ليس هناك مجالٌ للعفوِ عنه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

٧٧ ـ مَن يعَملُ الصّالحاتِ ويكونُ مؤمنًا لن يخشَى يومَ القيامة ظُلمًا ولا خسارةً؛ لأنّ ذلك اليومَ هو يومُ العَدْلِ والإنصاف، ولن يُظلَمَ أحدٌ في ذلك اليوم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾

٧٨ ـ لقد أَنْزلنا القرآنَ المَجيدَ باللُّغة العربيَّة، حتى يستطيعَ أولُ المخاطَبينَ به ـ وهم العربُ ـ فَهْمَه بسهولة، كما أننا بيَّنّا فيه ـ وبطُرُقٍ عديدةٍ ـ عقابَ الجرائم المختلفة، حتى يَفهمَ الناسُ حقيقةَ تلك الجرائم، ويتجَّنبوا ارتكابَها.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾

٧٩ ـ رَوى أبو صالح، عن سيِّدِنا ابن عبّاس رضي الله عنهما، «أنّ جِبريلَ كان يأتي النبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم بالسُّورة والآي فيَتْلوها عليه، فلا يَفرُغُ جِبريلُ من آخرِها حتى يتكلَّمَ رسولُ الله ﷺ بأوّلِها مخافةَ أن يَنْساها، فنَزلتْ هذه

الآية»[١]، يعني: لا تتعجَّلْ، ودَعْ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلام يقرَأُ الآيَةَ أو السُّورةَ كلَّها، واسمَعْها أنت جيِّدًا، ونحن سَنحفَظُها في قلبك؛ لأننا نحن الذين أَنْزلنا القرآنَ الكريم، ونحن الذين سنَحفَظُه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾

٨٠ ـ رُوي عن سيِّدِنا أنسِ بن مالك رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «الدُّعاءُ مُخُّ العبادة »[٢].

ويقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أشرفُ العبادةِ الدُّعاء»[٣].

وقد رَغَّب اللهُ تعالى ـ في الجزءِ الأخيرِ من هذه الآية ـ رسولَ الله ﷺ في الدُّعاءِ من أَجْل الزِّيادة في العِلم: ولهذا فإنّ مِن دعاءِ النبيِّ ﷺ أيضًا: «اللّهُمَّ انفَعْني بما علَّمتَني، وعلِّمْني ما ينفَعُني، وزِدْني علِمًا، والحمدُ لله على كلِّ حال»[٤].

ويَنقُلُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ هذا القولَ لابن عُيَيْنةَ: «ولم يزَلْ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في زيادةٍ حتى توفَّاه اللهُ عزَّ وجل»[٥]، بل إنّ عِلمَه وفَضْلَه ﷺ في ازديادٍ مستمرٍّ مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤].

---

(١) تفسير زاد المسير لابن الجوزي.
(٢) الترمذي، أبوب الدعاء، باب ١ برقم ٣٣٧١.
(٣) الأدب المفرد، الإمام البخاري، ٢١٠.
(٤) ابن ماجه، المقدمة: باب ٢٣.
(٥) تفسير ابن كثير.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾

٨١ ـ لو عصَى أحدٌ حُكمًا من أحكام الله تعالى بمَحْضِ إرادتِه وعن عَمْد، فإنّ هذا يُعَدُّ ذنبًا، ولكنْ إذا كان هذا العِصيانُ عن غيرِ عَمْدٍ ودونَ إرادةٍ فلا يقالُ له: ذنبٌ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ أنْ لا يقتربَ من تلك الشجرة، ولكنّ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ أكلَ من ثمارِ الشجرة، ومعَ هذا لم يكنْ ذلك ذنبًا؛ لأنّ الله تعالى قد وَضَّح هذا بقولِه: إنّ آدم قد نَسِي، ولم يَرتكبْ هذا العصيانَ بإرادتِه.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾

٨٢ ـ هل كان إبليسُ من الجنِّ أم من الملائكة، ولماذا رَفَض السجودَ لسيّدِنا

آدمَ عليه السَّلام؟ لمزيدٍ من التفصيل راجعِ الآيةَ رقم ١١ من سُورة الأعراف (٧)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٠ أيضًا.

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾

٨٣ ـ قال اللهُ تعالى: يا آدمُ عليه السَّلام، إنّ الشّيطانَ عدوُّك وعدوُّ زوجِك، ولهذا ينبغي أن تحذَرَه، فلا يخدَعنَّك ويُخرِجَنَّك من الجنَّة، فلن تشقَى في الجنّةِ من أَجْلِ الغذاءِ واللِّباس والإقامة، إذ إنّ كلَّ شيءٍ موجودٌ فيها مُعَدٌّ وجاهزٌ، ولكن إذا نَزَلتَ إلى الأرض، فسوف تشقَى وتتحمَّلُ المصاعبَ في سَبيل توفيرِ هذه الضَّروريّاتِ للحياة.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾

٨٤ ـ قال اللهُ تعالى: يا آدمُ عليه السَّلام، لن تجوعَ في الجنّة ولن تَعْرَى، ولن تَظْمأَ فيها ولن تَلفَحَك الحرارةُ، وإنما ستجدُ أمامَك على الفَوْر كلَّ ما تَطلُبُه وتتمنَّاه.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

٨٥ ـ وَسْوَس الشّيطانُ في قلبِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ بأنك إن أكلْتَ من ثمارِ هذه الشجرة، فسوف يُكتَبُ لك الخلودُ والحياةُ التي لا تنتهي، وسوف يكونُ لك مُلْكٌ لا يزولُ ولا يفنَى.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

٨٦ ـ وهكذا أكلَ الاثنانِ (سيّدُنا آدمُ والسيّدةُ حوّاءُ عليهما السَّلام) من ثمارِ الشجرة، وكان نتيجةَ ذلك أنْ زال عنهما لِباسُ الجنّة، وانكشَفت عوراتُهما،

فأخَذا يستُرانِ عوراتِهما بأوراقِ أشجارِ الجنّة، وهكذا انْخَدَع سيّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ بوَسْوسةِ الشّيطان إليه فعصَى ربَّه؛ لأنّ اللهَ تعالى نهاه عن الاقترابِ من هذه الشجرة.

كيف انْخَدع سيّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ بوَسْوسةِ الشّيطان، وإذا لم يكنْ هذا ذنبًا، فلماذا انكشَفتْ عوراتُهما إذًا، ولماذا أُخرِجا من الجنّة؟ يُمكنُك للتعرُّفِ على هذا الرجوعُ إلى الآية رقم **١٩** من سُورة الأعرافِ (٧)، وكذا الحاشيةُ رقم **١٤**.

﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾

٨٧ ـ بعدَ الخطأِ غيرِ المتعمَّد من سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام نَدِم عليه، وظَلَّ يبكي ويَطلُبُ من الله المغفرةَ، فاختارَه اللهُ تعالى للقُربِ منه ثانيةً، وقَبِلَ توبتَه، وأَنْعم عليه بالتوفيقِ الدائم إلى الهداية.

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾

٨٨ ـ قال اللهُ تعالى للملائكةِ قبلَ مولدِ سيّدِنا آدمَ عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠]، ويُعلَمُ منه أنّ اللهَ تعالى خَلَق سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ أصلًا من أَجْل أن يجعَلَه خليفةً لله على الأرض، لكنّه أسكَنَه الجنّةَ لابتلاءٍ مؤقَّتٍ أولًا، ثم أرسَلَه إلى الأرض، وبالإضافةِ إلى ذلك أَخْبرهُ أنّ بعضَ أولادِك سيكونونَ أعداءً بعضُهم لبعض، ومنهم من سيتَّبعُ الهدايةَ التي تَنزِلُ من عندي، وسيعيشونَ في الدنيا بعيدينَ عن الضَّلال، وسيَحفَظُهم اللهُ تعالى في الآخِرة من العذاب، وسيَدخُلونَ الجنّةَ في نهايةِ المطاف.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

٨٩ ـ يقولُ العلّامةُ ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآية: «﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ أي: خالَفَ أمري وما أَنْزلتُه على رسولي، أَعْرضَ عنه وتَناساهُ وأخَذ من غيرِه هداه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: في الدّنيا، فلا طُمَأْنينةَ له، ولا انشراحَ لصدرِه، بل صدرُه [ضيّقٌ] حَرِجٌ لضلالِه، وإن تَنعَّم ظاهرُه، ولِبسَ ما شاء وأكلَ ما شاء، وسَكَن حيث شاء، فإنّ قلبَه ما لم يُخلِصْ إلى اليقينِ والهدى، فهو في قلقٍ وحَيْرةٍ وشكٍّ، فلا يزالُ في رِيبةٍ يتردَّدُ. فهذا من ضَنَكِ المعيشة»[١]. ولهذا فإنّ كثيرًا من الأغنياءِ يلجَأُونَ إلى تعاطي المخدِّراتِ والخمرِ من أَجْل التخلُّص من هذا الاضطرابِ والقَلَق، بل إنّ الحالَ يصلُ بالبعضِ منهم إلى الانتحار، ويُعلَمُ من هذا أنّ سَكِينةَ القلبِ وطُمَأْنينتَه ليست في كثرةِ المالِ والثروة، وإنما في ذِكرِ الله تعالى واتِّباع أحكامِه.

وضِيقُ العيش في الدُّنيا لا يعني ـ أبدًا ـ أنّ العاصيَ لله تعالى يعيشُ في هذه الدُّنيا فقيرًا ومصابًا، وإنما معناه أنه سواءٌ كان هذا غنيًّا أم لا يَملِكُ من حُطام الدنيا شيئًا، فإنّه لن ينالَ السَّكِينةَ والطُّمَأْنينةَ؛ لأنّ من المعروفِ أنّ ضِيقَ العيشِ في الدُّنيا والابتلاءَ بمصائِبها وشدائدِها واجَهَهُ أهلُ الله وأولياؤه أيضًا، لكنّ قلوبَهم كانت مطمئنّةً، وعلى سَبيل المثال:

١ ـ يقولُ سيّدُنا سَعدُ بنُ أبي وَقّاص رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أشدُّ النّاس بلاءً الأنبياءُ ثمّ العلماءُ ثمّ الأمثَلُ فالأمثل»[٢].

يَروي سيّدُنا مُصعَبُ بن سَعْد رضي اللهُ عنه، عن والدِه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله،

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) المستدرك للحاكم، ٣: ٣٨٦ برقم ٥٤٦٣.

أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ ثم الأمثَلُ فالأمثَل، فيُبتلَى الرجُلُ على حسَبِ دينِه، فإن كان دينُه صُلبًا اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينِه رِقّةٌ ابتُليَ على حسَبِ دينِه، فما يَبرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يترُكَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ»[1].

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾

٩٠ ـ سيُبعَثُ يومَ القيامة أعمًى كلُّ مَن أَعْرضَ عن ذِكرِ الله تعالى وعن أحكامِه، وعندَئذٍ سيقولُ: يا ربِّ، لقد كنتُ في الدنيا بصيرًا، فلمَ حشرتَني اليومَ أعمى؟ وسيقولُ اللهُ تعالى: ألا تَذكُر، ألم تَر آياتِ قُدرتي؟ لكنَّك تعامَيْتَ عنها عَمْدًا، ونَسِيتَها بإرادتِك، وعقابُ هذا أنّني جَعَلتُك اليومَ مَنْسِيًّا. ولكنّ هذا سيبقَى أعمى منذ خروجِه من القبرِ إلى الحَشْر، ثم سيُعادُ إليه بصَرُه حتى يتمكَّنَ من قراءةِ صحيفةِ أعمالِه بنفسِه، وسيقولُ المَلَكُ الذي معَه: هذه (صحيفةُ أعمالِك) جاهزةٌ ومكتوبةٌ عندي: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۞ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٢-٢٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾

٩١ ـ الذي يتجاوزُ الحدَّ، ولا يؤمنُ بآياتِ ربِّه، سيبقَى محرومًا من سَكينةِ القلبِ أيضًا في الدنيا، وفي الآخِرة سيُواجهُ عذابًا شديدًا.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾

٩٢ ـ حينَ كان أهلُ مكّةَ يسافرونَ في تجارتِهم، ويرَوْنَ في طريقِهم مساكنَ الأُمم السّابقةِ المدمَّرة، لم يكونوا يأخُذونَ منها درسَ عبرةٍ بأنهم لو أَعْرضوا هم

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٥٦ برقم ٢٣٩٨.

أيضًا عن أحكام الله تعالى، فمنَ الممكنِ أن يَنزِلَ عليهمُ العذابُ مثلَما نَزَل على الأُمم العاصية من قبلُ.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾

٩٣ ـ اللهُ تعالى يُمهِلُ كلَّ قوم ظالم لفترةٍ معيَّنة حتى يُصلِحوا من أنفسِهم، لكنْ إن لم يَرجِعْ هؤلاءِ القومُ عن طُغيانِهم، عاقَبهم اللهُ تعالى على طُغيانِهم طبقًا للوقتِ المحدَّد لدَيْه، فيُعاقبُ البعضَ في هذه الدنيا، ويؤخِّرُ عقابَ البعضِ إلى يوم القيامة، لكنّ اللهَ تعالى أخَّر عقابَ المُنكِرينَ للنبيِّ ﷺ إلى الآخِرة، مثلَما جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ رحمةٌ للعالمينَ جميعًا، ونزولُ العذابِ يتنافَى معَ الرَّحمة، ولهذا لن يَنزِلَ العذابُ على هؤلاءِ حالَ وجودِه ﷺ، ولو لم يُمهِل اللهُ تعالى هؤلاءِ بفَضْل رحمتِه ﷺ، ولو لم يقرِّرْ وقتًا معيَّنًا من قبلُ، لَأنزلَ عليهم العذابَ فورًا، ولدَمَّرهم وأهلَكَهم جميعًا.

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾

٩٤ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، اصبِرْ على تكذيبِ المشركينَ لكَ وعلى إيذائهم لك، واستمرَّ في حَمْدِك لله تعالى والثناءِ عليه، وسوف يرتقي الإسلامُ سريعًا، وسوف ترضَى أنت أيضًا.

يقولُ العلّامةُ الرازي: «فالأكثَرونَ على أنّ المرادَ منه الصّلاة، وأنّ الآيةَ تدُلُّ على أنّ الصّلواتِ: الخمسُ لا أزيَدَ ولا أنقَصَ، فقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: دخَلَت الصّلواتُ الخمسُ فيه، فقبلَ طلوع الشّمس هو: صلاةُ الفجر، وقبلَ غروبِها هو: الظُّهر والعصرُ؛ لأنّهما جميعًا قبلَ الغروب، ومن آناءِ اللّيل فسبِّح: المغربُ والعشاءُ الأخيرةُ، ويكونُ قوله: ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ كالتّوكيد للصّلاتَيْنِ الواقعتَيْنِ في طرفَي النّهارِ وهما: صلاةُ الفجرِ وصلاةُ المغرب»[١].

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾

٩٥ ـ ينبغي أن يفخَرَ كلُّ مسلم بنعمةِ القرآنِ الكريم العظيمة، ولا يرغَبَ أبدًا إلى الزِّينة والجاهِ الظاهريِّ الذي يتمتَّعُ به العُصاة؛ لأنّ اللهَ تعالى إنّما أعطَى هؤلاء هذا الجاهَ وهذه العظَمةَ حتى يَبتليَهم، كما أنّ هذا كلَّه ما هو إلّا ربيعٌ لأيام قلائلَ، وسيكونُ مصيرُهم بعدَ ذلك جهنَّمَ، أما النِّعمُ التي سيُنعِمُ اللهُ تعالى بها على المسلمينَ في الآخِرة، فهي الأفضَلُ، وهي الخالدة.

يقول سيّدُنا عُمرُ بنُ الخَطّاب رضي اللهُ عنه: دخَلتُ على رسولِ الله ﷺ

---

(١) التفسير الكبير.

وهو مضطجعٌ على حصيرٍ، فجلستُ، فأدنَى عليه إزارَه وليس عليه غيرُه، وإذا الحَصِيرُ قد أثَّر في جَنْبِه، فنظَرتُ ببصَري في خِزانةِ رسول الله ﷺ فإذا أنا بقَبْضةٍ من شعيرٍ نحوَ الصَّاع ومِثلِها قرظًا في ناحيةِ الغُرفة، وإذا أفيقٌ معلَّقٌ ـ قال ـ فابتَدَرتْ عينايَ قال: «ما يُبكيكَ يا ابنَ الخطاب؟». قلت: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحَصِيرُ قد أثَّر في جَنْبِك وهذه خِزانتُك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قَيْصرُ وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسولُ الله ﷺ وصفوتُه وهذه خِزانتُك؟ فقال: «يا ابنَ الخطاب، ألا ترضى أن تكونَ لنا الآخِرةُ ولهمُ الدنيا؟»[1].

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

٩٦ ـ يُعلَمُ من هذه الآية أنّ على كلِّ مسلم أن يُقيمَ الصّلاةَ بنفسِه، وأن يَأمُرَ زوجتَه وأطفالَه بالصَّلاةِ أيضًا، وألا ينهمكَ في كَسْبِ العيشِ لدرجةٍ يُحرَمُ معَها من الصَّلاة؛ لأنّ الرازقَ الأَصْليَّ والحقيقيَّ هو اللهُ تعالى، وعاقبةُ من يخشَى اللهَ تعالى طيِّبةٌ حسَنة.

هنا تحذيرٌ للمسلم الذي لا يُقيمُ الصَّلاةَ بحُجّةِ الانشغال في كَسْبِ الرِّزق بأنّ الرازقَ هو اللهُ تعالى، كما أنه ليس من العقلِ في شيءٍ التخَلِّي عن الصَّلاةِ الباقية من أَجْل الرِّزقِ الفاني.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾

٩٧ ـ كانت آياتُ القرآنِ الكريم تُتلَى على كُفّارِ مكّةَ، وتُقَدَّمُ إليهم المعجِزات، ولكن برَغْم ذلك كانوا يقولونَ: إنّنا لم يُعرَضْ علينا شيءٌ، مع أنّ في كُتبِهم السابقةِ

---

(١) مسلم، كتاب الطلاق، باب ٥ برقم ٣٦٩٢.

دلائلَ واضحةً فيما يتعلَّقُ بنُبوّةِ النبيِّ ﷺ، ألا تكفي هذه الدَّلائلُ لأولئك المُنكِرين؟ كما أنّ القرآنَ الكريمَ بذاتِه أعظمُ معجزةٍ تُصدِّقُها كُتبُهم أيضًا.

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾

٩٨ ـ لو أنّنا أهلَكْنا كُفّارَ مكّةَ بسببِ كُفرِهم وشِركِهم قبلَ أن نُرسلَ إليهم النبيَّ الكريمَ ﷺ، لاحتَجُّوا قائلينَ: إنّنا لم يُرسَلْ إلينا رسولٌ، ولو أنّ اللهَ تعالى أرسَلَ إلينا رسولًا لاتَّبعْنا أحكامَ الله تعالى، ولَما أصبحنا أذِلّاءَ مُهانين، ولكنْ أما وقد أرسَلْنا إليهم الرسولَ ﷺ، فإنّهمُ الآنَ يطالِبونَ بمعجِزاتٍ وآياتٍ طبقًا لأهوائهم، والحقيقةُ أنهم لا يريدونَ الإيمانَ أصلًا، وإنما يجادلونَ جدَلًا عقيمًا لا أكثرَ، ولهذا ـ أيُّها النبيُّ الكريمُ ﷺ ـ عليك أن تحذِّرَهم بأنّكم إن لم تؤمنوا برَغْم هذه الآياتِ الواضحة، فانتظِروا إذًا، ونحن معَكم من المنتظِرينَ، وستقومُ الساعةُ قريبًا، وستعرِفونَ عندَها من كان منّا على الصِّراطِ المستقيم ومن كان على الضَّلال.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده
جامعة الكرَم، بريطانيا
بعدَ صلاة مغربِ يوم الثلاثاء الحاديَ عشَرَ من ربيع الأول عام ١٤٢٩هـ
الموافق الثامنَ عشَرَ من مارسَ عام ٢٠٠٨م.

ملحوظة: لم يتيسَّرْ لي وقتٌ كافٍ في الفترةِ الماضية لكتابةِ التفسيرِ بسببِ بعض الظروف الطارئة في جامعة الكرَم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٢١) سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها سورةُ «الأنبياء»؛ لأنّ فيها ذِكْرًا لكثيرٍ من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام.

كان أهلُ مكّةَ وثَنِيِّينَ مشركينَ، ولهذا ذُكِرت العقائدُ الأساسيّةُ للإسلام في هذه السُّورة بشكلٍ خاصّ، يعني: التوحيدَ والنُّبوةَ والآخِرة.

في بدايةِ هذه السُّورةِ ذُكِرتِ القيامةُ، حتى يتجنَّبَ الناسُ اللَّهوَ والعَبَثَ الدُّنيويَّ وكذا الملَذّاتُ النَّفسانيّة، ويميلوا إلى الأعمالِ الطيِّبة التي تنفَعُ في الآخرة؛ لأنّ كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموت.

واحدٌ مَن اعتراضاتِ كُفّارِ مكّةَ أنه ﷺ بَشرٌ مِثلُهم، يأكُل كما يأكلون، ويشربُ كما يشربون، فكيف يمكنُ أن يكونَ رسولًا؟ فأَخْبَرهمُ اللهُ تعالى في هذه السُّورةِ أنّ كلَّ الرسُل والأنبياءِ الذين بُعِثوا قبلَ سيّدِنا محمدٍ ﷺ كانوا بشَرًا، فإنْ لم تكونوا على يقينٍ من نُبوّتِه ﷺ فاسألوا علماءَ اليهودِ والنَّصارى، فهم أيضًا يعلَمونَ حقيقةَ أنّ أنبياءهم الكرامَ عليهمُ السَّلام، يعني: سيّدَنا موسى وسيّدَنا عيسى عليهما السَّلامُ، كانا من البشَر، وكان كُفّارُ مكّةَ يقولونَ: إنّ الملائكَةَ بناتُ الله تعالى، فأَخْبَرَهم اللهُ تعالى في هذه السُّورة أنّ الملائكَةَ ليسوا بناتِ الله تعالى، وإنما عبادُه الطائعون.

في هذه السُّورة أعلَن اللهُ تعالى أنه أرسَلَ نبيَّنا الحَبيبَ سيّدَنا محمّدًا ﷺ رحمةً للعالمينَ جميعًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاء العشاءِ من يوم الجمُعة ٢٨ مارس عام ٢٠٠٨م
الموافق ٢١ ربيعٍ الأول عام ١٤٢٩هـ

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الأنبياء (٢١)،

مكية (٧٣)، آياتها (١١٢)، ركوعاتها (٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

١ ـ مضَى زمنٌ طويلٌ بُعِث فيه مائةٌ وأربعةٌ وعشرونَ ألفًا من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، وبَدأَ زمنُ بَعثةِ النبيِّ الآخِر سيِّدِنا محمدٍ المصطفى ﷺ، ثم لن يأتيَ نبيٌّ آخرُ بعدَه، وإنّما ستقومُ الساعةُ بعدَه، مثلَما قال سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ

عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ جَمَع بينَ إصبَعيْهِ قائلًا: «بُعِثتُ أنا والسّاعةُ كهاتَيْن»[١].

والمرادُ بوقتِ الحسابِ هو: القيامةُ أو الموتُ، وهو يقتربُ منّا ساعةً بعدَ أخرى، وما أحسَنَ ما قال شاعرٌ:

ـ يُخبِرُك مرورُ ساعةٍ أيُّها الغافل، أنّ الخالقَ قد أنقَصَ ساعةً أخرى من العمُر.

ومعَ الموتِ تبدَأُ سلسلةُ الحساب، أمّا الحسابُ النهائيُّ فسيكونُ يومَ القيامة، حيثُ يذهَبُ الصّالحونَ بعدَه إلى الجنَّة، ويذهبُ الأشرارُ إلى جهنَّم، لكنّ هؤلاءِ المشركينَ منهمِكونَ في اتِّباع أهوائهم، غافلينَ عن يوم القيامة.

ولم يُعلنِ اللهُ تعالى عن الوقتِ المحدَّدِ للموتِ والقيامة، حتى يظَلَّ الإنسانُ يتجنَّبُ الذنبَ في كلِّ وقت، خوفًا من أن يأتيَه الموتُ حالَ ارتكابِه الذَّنبَ، والأحاديثُ النَّبويّةُ التاليةُ تستحِقُّ التمعُّنَ فيما يتعلَّقُ بتجنُّبِ الذنوبِ والبعدِ عنها:

١ ـ عن عبد الله بن عُمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخَذ رسولُ الله ﷺ بمَنكِبي فقال: «كنْ في الدُّنيا كأنّك غريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ». وكان ابنُ عُمرَ يقول: إذا أمسَيْتَ فلا تنتظرِ الصّباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ، وخُذْ من صحّتِك لمَرضِك، ومن حياتِك لموتِك[٢].

٢ ـ عن ابن عبّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ لرجُلٍ وهو يَعِظُه: «اغتنِمْ خمسًا قبلَ خمسٍ: شبابَك قبلَ هرَمِك، وصحّتَك قبلَ سقَمِك، وغناءك قبلَ فَقْرِك، وفراغَكَ قبلَ شُغلِك، وحياتَك قبلَ موتِك»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣٩ برقم ٦٥٠٤.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣ برقم ٦٤١٦.

(٣) المستدرك، الإمام الحاكم، ٤: ٣٤١ برقم ٧٨٤٦.

٣ ـ عن أبي سعيدٍ، قال: دخَلَ رسولُ الله ﷺ مُصَلّاهُ، فرأى ناسًا كأنّهم يكتشِرونَ، قال: «أَما إنّكم لو أكثَرتُم ذِكرَ هاذِم اللَّذّاتِ لَشَغلَكم عمّا أرى، فأكثِروا من ذِكرِ هاذِم اللَّذّات: الموتِ، فإنّه لم يأتِ على القبرِ يومٌ إلّا تكلّم فيه فيقولُ: أنا بيتُ الغُربة وأنا بيتُ الوَحْدة وأنا بيتُ التُّراب وأنا بيتُ الدُّود»[1]، وقالَ سيدُنا عبيدُ بن عمرُ رضي الله عنهما «إنّ القبرَ ليقولُ: يا ابنَ آدمَ! ماذا أعدَّدتَ لي؟ ألمْ تعلمْ أنّي بيتُ الغربةِ وبيتُ الدودِ وبيتُ الوحدة»[2].

٤ ـ عن مَعْقِل بن يَسارٍ رضي الله عنه، عن النّبيِّ ﷺ قال: «ليس من يومٍ يأتي على ابنِ آدمَ إلّا ينادَى: يا ابنَ آدم! أنا خَلْقٌ جديدٌ، وأنا عليكَ غدًا شهيدٌ، فاعمَلْ خيرًا فيّ أشهدْ لك غدًا، وإنّي لو قد مضَيْتُ لن تراني أبدًا، ويقولُ اللّيلُ مِثلَ ذلك»[3].

عذاب القبر:

١ ـ عن عبد الله، قال: قالت أُمُّ حَبيبةَ زوجُ النّبيِّ ﷺ: اللّهمّ أمتِعْني بزَوْجي رسولِ الله ﷺ وبأبي أبي سُفيانَ وبأخي معاوية. قال: فقال النّبيُّ ﷺ: «قد سألتِ اللهَ لآجالٍ مضروبةٍ وأيّامٍ معدودةٍ وأرزاقٍ مقسومةٍ، لن يُعجِّلَ شيئًا قبلَ حِلِّه أو يؤخِّرَ شيئًا عن حِلِّه، ولو كنتِ سألتِ اللهَ أن يُعيذَكِ من عذابٍ في النّار أو عذابٍ في القبرِ كان خيرًا وأفضَلَ»[4].

---

(١) الترمذي، أبواب القيامة، باب ٢٦ برقم ٢٤٦٠.
(٢) كتاب الخراج، الإمام أبو يوسف، ١٨.
(٣) التفسير المظهري، سورة هود (١١): الآية ١٨.
(٤) مسلم، كتاب القدر، باب ٧ برقم ٦٧٧٠.

٢ ـ عن أبي هريرةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال: كان رسولُ الله ﷺ يدعو: «اللّهُمَّ إنّي أعوذُ بك من عذابِ القبر، ومن عذابِ النّار، ومن فتنةِ المَحْيا والمَمات، ومن فتنةِ المسيح الدَّجّال»[١].

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

٢ ـ حين تَنزِلُ سُورةٌ جديدةٌ أو آيةٌ جديدة، وتُتلَى على المشركينَ بغَرَض هدايتِهم، كانوا يسمَعونَها كأنّها لعبةٌ من الألعاب، بمعنى: أنّهم لم يكونوا يتفكَّرونَ فيها، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ كانوا يسخَرونَ منها.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

٣ ـ هؤلاءِ الظالمونَ غافلونَ تمامًا عن الآخِرة، يتهامَسُونَ على النبيِّ ﷺ ويتآمَرونَ به، فإذا رأَوْا أحدًا يرغَبُ إلى الإسلام قالوا له: إنّ محمّدًا بشَرٌ مِثْلُك، وهو ليس نبيًّا، وإنّما هو ساحرٌ، فكيف تتورَّطُ في سحرِه هكذا عن عَمْدٍ ورغبة؟

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

٤ ـ قال النبيُّ ﷺ للمشركين: إنّ ربِّي يَعلمُ تمامَ العِلم كلَّ شيءٍ في أيِّ جانبٍ من جوانبِ الأرض، سواءٌ كان خَفِيًّا أم ظاهرًا، ولهذا فإنّ تآمُرَكم لا يخفَى عليه. يقولُ العلّامةُ القُرطُبي: «فأظهَرَ اللهُ عزَّ وجل عليه نبيَّه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم، وأمَرَه أن يقولَ لهم هذا»[٢]، وقد أَخبَرهم النبيُّ ﷺ بخبَرِ الغيبِ حين فَضَح

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٧ برقم ١٣٧٧.

(٢) تفسير القرطبي.

تهامُسَهم فيما بينَهم، وكان هذا من معجِزاتِ النبيِّ ﷺ، ومعَ هذا لم يوفَّقْ هؤلاءِ الظالمونَ أصحابُ العقولِ المظلِمة إلى الإيمان.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

٥ ـ لقد اقتَلَع صِدقُ النبيِّ ﷺ وحَقّانيّةُ القرآنِ المَجيد الكُفرَ والشِّركَ من جذورِهما، ومَن كان يسمَعُ القرآنَ المَجِيد بتمعُّن أَسْلم، وأخَذ كُفّارُ مكّةَ يُلفِّقونَ التُّهَم المختلفةَ بغَرَض إبعادِ الناس عن الإسلام، فتارَةً يقولون: هذا القرآنُ مجموعةٌ من أضغاثِ أحلامِه ﷺ، وتارَةً يقولون: إنّ هذا ليس كلامَ الله، وإنّما اختَرعَه محمدٌ ﷺ من عندِ نفسِه ونَسَبه إلى الله، وتارَة أخرى يقولون: إنه مجرَّدُ تخيُّلاتِ شاعر، ولا علاقَة له بالحقيقةِ من قريبٍ أو بعيد، ولئن كان هذا نبيًّا حقًّا، فلمَ لم يأتِنا بمعجِزةٍ مثلِ معجِزةِ العصَا واليدِ البيضاءِ كما فَعَل الرسُلُ من قَبْلِه؟

إنّ قولَ الشِّعر وسماعَه ليس عيبًا في حدِّ ذاتِه، بل على العكس، تكونُ الحقيقةُ من خلالِه مؤثِّرةً ضِعفَ ما لو كانت بغيرِه، وقد قَرأَ النبيُّ ﷺ نفسُه أشعارًا، وسَمعَ الشِّعرَ من صحابتِه الكرام أيضًا، ولكنّ الأشعارَ التي تمتلئُ بالإفراطِ والتفريط، ويصلُ فيها التخيُّلُ إلى حدِّ الكذبِ والكُفر، مِثلُ هذه الأشعارِ يَحرُمُ قولُها وسَماعُها، وقد قال القرآنُ الكريمُ عن مِثلِ هذه الأشعارِ: إنها ضَلال، ولهذا فلا علاقَة للنبيِّ ﷺ بمِثل هذه الأشعار.

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

٦ ـ الأُممُ التي أُهلِكت من قبلُ لم يؤمنوا برَغْم رؤيـتِهم للمعجِزاتِ التي طلَبوها، وبنفسِ الطريقة إذا أَرَيْنا أهلَ مكّةَ المعجِزاتِ التي طلَبوها فإنّهم معَ ذلك لن يؤمنوا؛ لأنّ القرآنَ المَجيدَ أمامَهم من البداية، وهو في ذاتِه معجزةٌ حيّةٌ خالدة، والذين يؤمنونَ تكفيهم مُعجزةٌ واحدة، أمّا الذين لا يؤمنونَ فلا تكفيهم حتى مئاتُ المعجِزات.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

٧ ـ كان كُفّارُ مكّةَ يعترِضونَ بأنّ النبيَّ ﷺ بشَرٌ مِثلُهم، يأكُل مِثلَ ما يأكلون، ويشربُ كما يشربون، فأَخْبَرهم اللهُ تعالى ـ في هذه الآية ـ بأنّ كلَّ الرُّسُل الذين أُرسِلوا من قبلِه ﷺ كانوا بشَرًا، فإنْ لم تكونوا على يقينٍ من نُبوّته ﷺ فاسألوا علماءَ اليهودِ والنَّصارى، فهم أيضًا يعلَمونَ حقيقةَ أنّ أنبياءهم الكرامَ عليهم السَّلام، يعني: سيّدَنا موسى وسيّدَنا عيسى عليهما السَّلام، كانا من البشَر.

لقد كان كلُّ الأنبياءِ الذين أُرسِلوا لهدايةِ البشَر رجالًا، ولم يكنْ من بينِهم امرأةٌ واحدةٌ أو مَلَكٌ أرسَلَه اللهُ نبيًّا، ولمزيدٍ من التفصيل في هذا الخصُوص راجع الآيةَ رقم **٤٢** من سورة آلِ عِمران (**٣**)، وكذا الحاشيةُ رقم **٢١**.

﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾

٨ ـ لم تكنْ أجسامُ الأنبياءِ كأجسام الملائكةِ حتى لا يأكلوا مِثلَهم، كما لم تكنْ خالدةً مِثلَ الله تعالى، وإنّما كان الأنبياءُ من البشَر، فكانوا يأكلونَ الطعامَ، وهم ـ بالطَّبع ـ ميِّتُون.

﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾

٩ ـ لقد حقَّق اللهُ تعالى كلَّ الوعودِ التي وَعَد بها الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلام، بمعنى: أنه نَجّى الأنبياءَ عليهمُ السَّلام ومنِ اتَّبعوهم، وأهلَكَ المكذِّبين.

﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

١٠ ـ في القرآنِ المَجِيد نصيحةٌ لكم وبيانٌ للشريعة، ولهذا ينبغي أن تتفكَّروا

فيه، وتعملوا على تحسينِ أوضاعِكم في الدُّنيا والآخرة.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾

١١ ـ لقد دمَّرنا كثيرًا من القُرى لأنّ أهلَها كانوا ظالمين، فأهلكناهم وأسكنّا مكانَهم أقوامًا آخرينَ.

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴾

١٢ ـ حينَ ظَهَرت آثارُ عذابِ الله تعالى فَرُّوا هاربينَ، وحينَئذٍ جاء صوتُ من الغَيْبِ يقول: إنّ هروبَكم لن يُنجيَ أرواحَكم، ولكنّ عليكم أن تعودوا إلى مساكنِكم والنِّعم التي تعيشونَ فيها، حتى تُسأَلوا عن هذه النِّعم التي أَنْعم اللهُ بها عليكم، وهذا السؤالُ على سَبيل السُّخرِية لا أكثرَ، وإلا فإنه بعدَ أن يُضيَّقَ خِناقُ العذاب عليهم فأيُّ جوابٍ يمكنُ أن يُجيبوا به سوى النَّدم؟

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾

١٣ ـ لمَّا لم يَجِدوا أيَّ وسيلةٍ للنَّجاة من العذابِ اضْطُرُّوا إلى الاعترافِ بما ارتكَبوا من مظالمَ وأخَذوا يتوبونَ إلى الله، لكنّ وقتَ قَبولِ التوبة عندَئذٍ يكونُ قد فات، ولهذا أهلَكَهم اللهُ تعالى وجَعَلَهم كأنّهم أكوامٌ من بقايا الحصَاد، ونيرانٌ قد خَمَدت واستحالتْ ترابًا.

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

١٤ ـ لم يَخلُق اللهُ تعالى هذه الكائناتِ بلا مَقصِد أو هدفٍ، وإنّما خَلَقَها ليتفكَّر الناسُ فيها، ويُدركوا توحيدَه عزَّ وجل، و«لو أرَدْنا فِعلَ ذلك لاتَّخذْناهُ من لَدُنّا ولكنه مُنافٍ للحِكمة فلم نَفعَلْه»[1].

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

١٥ ـ الصِّراعُ بيْنَ الحقِّ والباطل قديمٌ قِدَمَ التاريخ الإنسانيِّ نفسِه، ولكنّ الحقَّ كلَّما صارَعَ الباطلَ وهو مستعِدٌّ بكلِّ قوّته، هَزَمه وقضَى عليه، وفي هذه

---

(١) صفوة التفاسير.

الآية تحذيرٌ لكُفّارِ مكّةَ بأنّ وجودَ الله تعالى القادرِ المطلَقِ حقٌّ، وما تقولونَ عنه من كلام الباطلِ سيكونُ سببًا في هلاكِكم أنتم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾

١٦ ـ الملائكةُ مقرَّبونَ من اللهِ تعالى بشكلٍ خاصّ، وهم منهمِكونَ كلَّ وقتٍ في تسبيحِه وعبادتِه بكلِّ إخلاصٍ وشَوْق، ولا يتكاسَلونَ عن ذلك ولا يمَلُّونَ منه ولو للحظات.

قال سيِّدُنا كعبُ الأحبار رضي اللهُ عنه: «التسبيحُ لهم كالتنفُّس لنا، فكما أنّ اشتغالَنا بالتنفُّس لا يمنَعُنا من الكلام فكذا اشتغالُهم بالتسبيح لايمنَعُهم من سائرِ الأعمال»[١].

ويقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه الآية: «الملائكةُ ـ معَ كمالِ شرَفِهم ونهايةِ جلالتِهم ـ لا يَستكبِرونَ عن طاعتِه، فكيف يليقُ بالبشَرِ الضَّعيفِ التمرُّدُ عن طاعتِه؟»[٢].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾

١٧ ـ هل لدى الأشياءِ التي اتَّخذها المشركونَ آلهةٌ، طاقةٌ تمكِّنُهم من أن يمنَحوا شيئًا الحياةَ، أو أن يُحيوا ثانيةً مَن مات؟ بالتأكيد لا، فمَن كان جامدًا لا رُوحَ فيه، كيف يُمكنُه أن يُحييَ ميتًا، معَ أنّ من صفاتِ المعبودِ أن يكونَ قادرًا على الإحياءِ والإماتة[٣]، ولهذا ينبغي للمشركينَ أن يترُكوا عبادةَ هذه الأشياء، ويعبُدوا اللهَ وحدَه، فهو الذي بيدِه الموتُ والحياة.

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض قادرين على إحياء الموتى؟ كلا بل اتخذوا آلهة جمادًا لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة». صفوة التفاسير.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

١٨ ـ اللهُ تعالى واحدٌ أحَد، ولا تليقُ العبادةُ إلّا به، وهو القادرُ المطلَق، وخالقُ الكائناتِ كلِّها ومالكُها ورازقُها، كما أنّ اللهَ تعالى هو ربُّ العرشِ العظيم أيضًا، وهو منزَّهٌ عن كلِّ الشُّركاءِ الذين اتَّخَذهم المشركون.

بعض الدلائل العقلية عن التوحيد:

١ ـ خالقُ الكائناتِ هو اللهُ تعالى فقطْ:

لو سَلَّمْنا بوجودِ أكثرَ من إلهٍ، فسيكونُ هناك سؤال: هل الذي خَلَق هذه الكائناتِ إلهٌ واحدٌ فقطْ، أم أنهم جميعًا تعاونوا معًا في خَلْقِها؟ فلو أنّ الذي خَلَقَها إلهٌ واحدٌ فقطْ، فما الحاجةُ إذًا إلى وجودِ آلهةٍ أخرى؟ ولو أنّهم جميعًا تَعاونوا معًا في خَلْقِها، فليس من بينِهم إذًا واحدٌ يستحِقُّ أن يقالَ له: إلهٌ؛ لأنّ الذي يحتاجُ إلى مساعدةِ الآخَرين، كيف يُمكنُه مساعدةُ مخلوق؟

٢ ـ اللهُ تعالى ليس محتاجًا لأحد:

ولو أنّ مِن بينِ هذه الآلهةِ إلهًا يمتلكُ القُدرةَ الكاملةَ، وتحتاجُ الآلهةُ الأُخرى إلى مساعدتِه، فما حاجةُ كاملِ القُدرة هذا إلى أن يُشرِكَ معَه آخَرينَ في خَلْق هذه الكائناتِ العظيمة؟ على سبيلِ المثال: لو أنّ أحدَ العلماءِ يستطيعُ أن يخترعَ شيئًا بنفسِه، فإنه لن يتحمَّلَ أن يشتركَ معَه أحدٌ في الحصولِ على هذا الشَّرف.

٣ ـ اللهُ تعالى هو الأقوى على الإطلاق:

لو كلُّ هؤلاءِ الآلهةِ لهم نفْسُ القوّةِ والاختيار، للَزِمَ أن يحدُثَ بينَهمُ اختلاف، وحينَ يقفُ إلهٌ في مواجهةِ إلهٍ آخَرَ، ينفرطُ عَقْدُ الكائنات، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ مَا

ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٤ ـ اللهُ تعالى هو الذي يُسيِّرُ نظامَ الكائنات:

لوِ افترَضْنا أنّ هؤلاءِ الآلهةَ كلُّهم يعمَلونَ متَّفقينَ معًا، ولا يختلفُ أحدُهم معَ الآخَر، فهل يَبذُلُ جميعُهم قوّتَه في تسييرِ نظام الكائنات، أم أحدُهم فقطْ هو الذي يفعَلُ ذلك؟ فلو أنّ واحدًا فقطْ هو الذي يفعَلُ ذلك، فهذا يعني أنّ الآخَرينَ لا عملَ لهم، ولو أنّ الجميعَ يفعَلونَ ذلك، لَأثار ذلك سؤالًا: هل يُسيِّرُ هؤلاءِ الآلهةُ نظامَ الكائناتِ كلٌّ على حِدَةٍ أم لا؟ لو أنّ الإجابة بـ«لا»، لكان معناه أنهم جميعًا عاجزونَ ومحتاجون، وهو ما لا يليقُ بشأنِ الأُلوهيَّة، وإن كانت الإجابةُ أنّ كلًّا منهم يُسيِّرُ نظامَ الكائناتِ منفرِدًا عن الآخَر، ثم يُسيّرونَه مجتمِعينَ، فإنّ في هذا ضَياعًا للقوّة، واستعراضًا لها بلا معنى.

٥ ـ اللهُ تعالى ليس عاجزًا:

يقولُ العلّامةُ القرطُبي: «لو كان فيهما إلهانِ لَفسد التدبيرُ؛ لأنّ أحدَهما إن أراد شيئًا والآخَرُ ضدَّه كان أحدُهما عاجزًا»[1]، يعني: لو أنّ إلهًا أراد اليومَ أن يجعَلَ الشمسَ تُشرقُ من المغرِب، وأراد الآخَرُ أن تُشرقَ من المشرِق، وطَلَعتِ الشمسُ من المغرِب، فمعناه أنّ الثانيَ عاجزٌ، وإنْ لم تَطلُعُ من المغربِ فمعناه أنّ الأولَ عاجزٌ، والعجزُ لا يمكنُ أن يكونَ إلهًا، فلَزِمَ أن يكونَ الإلهُ واحدًا.

٦ ـ ليس هناك إلهٌ سوى الله تعالى:

يقول العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي: «ليس لجسدٍ قلبانِ، ولا لبدَنٍ نَفْسان، ولا

---

(١) تفسير القرطبي.

للسماءِ شمسان، شهِدَ الأخبارُ بواحد، وهو منتَهى الأعيان، لوحصَلَ شمسانِ لَانطمسَتِ الأركان، أَبَى النظامُ شمسًا أخرى، فكيف لا يأبَى إلهًا آخرَ، إنْ كان للقَيُّوم شريكٌ فأين شمسُه؟»(١)، وهذه حقيقةٌ بَدَهيّةٌ تمامًا، مثلَما هو واقعٌ في دُنيانا اليومَ من أنّ كلَّ بلدٍ أو مصنع أو مدرسةٍ لها رئيسٌ، والذي يَملِكُ قوةَ اتّخاذِ القرار هو الذي يكونُ رئيسًا، وإلّا فَسَدت الإدارةُ التي يقودُها.

٧ ـ من كان قبلَ الله تعالى؟

سأل أحدُ الدَّهريِّينَ (مُنكري اللهِ تعالى) الإمامَ أبا حنيفةَ رحمَه الله: لو أنّ اللهَ واحد، فمن كان قبلَه؟ فقال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: إن كنتَ تَعرِفُ العَدَّ فعُدَّ، وهكذا أخَذ الدَّهريُّ يعُدُّ حتى وَصَل إلى ثلاثة، فسأله الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: قل لي، ماذا قبلَ ثلاثة؟ فقال: اثنان. فسأله: وماذا قبلَ اثنَيْنِ؟ قال: واحد. فقال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: وماذا قبلَ واحد؟ فقال: صِفر، يعني: لا شيءَ. فقال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: وهذا هو ما نقولُه، أي: أنّ اللهَ واحدٌ، وليس قبلَه شيء.

٨ ـ اللهُ في كلِّ مكان:

سأل أحدُ الدَّهريِّينَ الإمامَ أبا حنيفةَ رحمَه الله: منَ الضَّروريِّ أن يكونَ لكلِّ موجودٍ مكانٌ يقيمُ فيه، فأين يُقيمُ الله؟ فطَلَب الإمامُ أبو حنيفةَ إناءً مليئًا باللَّبنِ وقال للدَّهري: هل في هذا الإناء زُبدةٌ؟ فقال الدَّهريُّ: نعم. سألهُ الإمامُ أبو حنيفة: في أيِّ جزءٍ من اللَّبنِ توجَدُ الزُّبدة؟ قال الدَّهريُّ: لا يمكنُ أن نُحدِّدَ ركنًا معيَّنًا؛ لأنّ الزُّبدةَ توجَدُ في كلِّ قطرةٍ من اللَّبن. فقال الإمامُ أبو حنيفة: هكذا اللهُ، موجودٌ في كلِّ مكان، ولا يمكنُ أن نحدِّدَ له مكانًا بعَيْنِه.

---

(١) تفسير روح البيان.

٩ ـ اللهُ موجود:

كان هناك عجوزٌ في الزَّمنِ القديم تَغزِلُ بمِغزَلِها، أي: تغزِلُ الخَيْطَ من القُطن، وفي نفسِ الوقت كانت تردِّدُ الشهادتَيْنِ دائمًا، فسألها أحدُ عابري السَّبيل: هل لدَيْكَ دليلٌ على وجودِ الإلهِ الذي تذكُرين؟ قالت العجوز: نعَمْ. مِغزَلي هذا دليلٌ على وجودِ الله. فقال عابرُ السَّبيل: وكيف هذا؟ قالتِ المرأة: حين أُديرُ هذا المِغزَل يدور، وإنْ لم أُحرِّكْه لا يتحرَّكُ، وبما أنّ نظامَ الكائناتِ في حركةٍ دائمة، فإنّ هذا دليلٌ على أنّ هناك مَن يُحرِّكُه ويُسيِّرُه، وهو اللهُ الواحدُ خالقُ الكائنات كلِّها ومالكُها.

١٠ ـ اللهُ واحدٌ فقط:

سأل عابرُ السَّبيل المرأةَ ثانيةً: هل لديكِ دليلٌ على أنّ مَن يُسيّرُ الكائناتِ إلهٌ واحدٌ؟ فقالتِ العجوز: دليلُه مِغزَلي أيضًا؛ لأنّي إذا أَدرْتُه وحدي دارَ بشكلٍ صحيح، وإذا أدارَه اثنانِ انقَطَع الخَيطُ (مثلَما أنّ السيارةَ إن يقُدْها واحدٌ فقط، تسِرْ بشكلٍ صحيح، وإن يقُدْها اثنانِ في نفسِ الوقت فهناك إمكانٌ لأن تتعرَّضَ لحادث)، وبما أنّ نظامَ الكائناتِ كلَّه يدورُ بنَسَقٍ معيَّن وبكلِّ سُرعتِه، فإنّ هذا يعني أنّ الذي يُسيِّرُه واحدٌ فقط، ولو كان هناك أكثرُ من إلهٍ لَانْفَرطَ عَقْدُ نظام الكائناتِ بسببِ اختلافِهم فيما بينَهم، وقد قال اللهُ تعالى في القرآنِ المَجيد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١١ ـ اللهُ لا يُرى:

قال أحدُ المدرِّسينَ الدَّهريِّينَ للتلاميذ في الفَصْل: هل أبدو لكمُ الآنَ؟ فقال التلاميذ: نعم. فقال المدرِّس: هذا يعني أنّي موجود. ثم سألَ التلاميذَ بنفس

الطريقةِ عن الكرسيِّ والمِنضَدة، وبعدَها سألَهم: هل اللهُ يبدو لكم؟ فقالو: لا. قال المدرِّس: هذا يعني أنّ اللهَ ليس موجودًا، ولو كان موجودًا لَبَدا لكم. فوقَفَ أحدُ التلاميذ وقال مُخاطِبًا باقيَ زملائه: هل يبدو لكم عقلُ المدرِّس؟ فأجابَ التلاميذُ بالنفي. فقال التلميذُ: هذا يعني أنه لا عقلَ للمدرِّس! وهكذا هناك أشياءُ كثيرةٌ لا نراها ولكنَّنا نؤمنُ بوجودِها، مثلَ: الرُّوح والهواءِ والصّوتِ والإخلاصِ والنِّفاق وغيرِها.

١٢ ـ حوارٌ بينَ مسلمٍ وكافر:

سأل كافرٌ مسلمًا: لماذا تؤمنُ بإلهٍ لا يبدو لك؟ فسأله المسلمُ عن اسم جدِّه الأعلى وقال: هل رأيتَ جدَّك الأعلى؟ قال الكافر: إنّني لم أرَ حتى قبرَه؛ لأنه كان يقيمُ في بلدٍ آخَرَ بعيد. قال المسلم: إذا لم تكن قد رأيتَهُ فلماذا تقولُ عنه: إنه جَدُّك؟ قال الكافر: لقد سمعَ من أبويَهْ وأقارِبه. قال المسلم: أليس من الممكنِ أن يكذبَ عليك أولئك الذين أخبَروك عن جدِّك الأعلى؟ ولكنّنا سَمِعنا عن اللهِ تعالى من إنسانٍ صادق (سيّدِنا محمّد ﷺ) شَهِد بصِدقِه حتى أعداؤه، وكان كلُّ من يَعرِفُه ومن لا يَعرِفُه يناديه بالصّادقِ الأمين.

١٣ ـ نحتاجُ إلى الله:

ذاتَ مرّة اشتَركَ وفدٌ من الشّبابِ والفتياتِ من أديانٍ مختلفةٍ في نقاشٍ على شاشةِ تلفزيون بي بي سي، وكان موضوعُ النِّقاش: هل هناك حاجةٌ إلى الله؟ قالت فتاةٌ: يمكنُ أن يقَع الخطأُ من أيِّ إنسان، وحين يُخطئُ الإنسانُ لأولِ مرّة في حياتِه يَلومُه ضميرُه، وفي بعضِ الأحيان يكونُ الخطأُ مُخجِلًا وفظيعًا بحيث

لا يُحبُّ الإنسانُ أن يُخبرَ به حتى والدَيْه، ولا يَرى من المناسبِ كذلك أن يُخبرَ أصدقاءه عنه، ويبقَى وحدَه في قلقٍ شديدٍ يكادُ يفجِّرُ دماغَه، وفي مثلِ هذه الأحوال قد يَضْطَربُ الإنسانُ لدرجةٍ تجعَلُه يُقبلُ على الانتحار، أو يَسيرُ طيلةَ عمُرِه على طريقِ الإجرام.

ولكنْ إن كان هذا الإنسانُ مؤمنًا بالله تعالى، فمَن يختَلي بنفسِه ويبكي أمامَ الله تعالى ما أرادَ اللهُ له أن يبكيَ، ويعترفُ بذنبِه، ويتوبُ إلى الله منه، ويَعزِمُ على أنْ لا يرتكبَ هذا الذَّنبَ مستقبَلًا، ويأمُلُ في أن يغفرَ اللهُ له ذنبَه برحمتِه، ويبدأُ انطلاقةً جديدةً في رحلةِ حياتِه، ولهذا يحتاجُ كلُّ إنسانٍ إلى الله تعالى لكي ينجوَ من المصائبِ والقلق.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾

١٩ ـ اللهُ تعالى قادرٌ ومختارٌ مطلَق، وهو منزَّهٌ عن كلِّ نَقْص وعيبٍ وظُلم وجَوْر، ولا يخلو أيُّ فعل من أفعالِه من حِكمة، ولهذا لا يمكنُ أن يُسألَ عن أيِّ قولٍ من أقوالِه أو أيِّ فعل من أفعالِه، كما أنه حاكمُ الكلِّ، ولا أحدَ حاكمٌ له يُمكنُ أن يسألَه، ولكنّ بني الإنسان جميعًا عبادُه، وطاعتُه واجبةٌ عليهم، ولهذا سوف يَسألُ هؤلاءِ جميعًا عن أقوالِهم وأفعالِهم.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾

٢٠ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، قلْ للمشركينَ: لقد سَمِعتُم الآنَ دليلًا بسيطًا وسَهْلَ الفهمِ فيما يتعلَّقُ بالتوحيد، لكنْ لو كان لدَيْكم دليلٌ على منِ اتَّخذتُموهم

آلهةً من دونِ الله فأْتُوا به، معَ أنّ الكتابَ الذي أُنزِلَ علَيّ، والكتُبَ التي أُنزِلت من قَبْلي على الأنبياءِ الكرام السابقينَ عليهمُ السَّلام، لا توجَدُ بها ولو مجرَّدُ إشارةٍ عن هؤلاءِ الآلهة، والحقيقةُ أنه ليس لديهِم أيُّ دليلٍ على هؤلاءِ الآلهة، وإنّما هم يُعرِضونَ عن الحقِّ بسببِ العنادِ والجَهْل لا أكثرَ.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

٢١ ـ جاء بيانٌ للدَّليل العَقْليِّ على توحيدِ الله تعالى في الآية رقم **٢٢**، والآنَ جاء بيانُ الدَّليل النَّقْليِّ عليه في هذه الآية، يعني: أنّ كلَّ الأنبياءِ السابقينَ عليهم السَّلام، كُتِب في كتُبِهم أنّ العبادةَ لا تليقُ إلّا بالله تعالى وحدَه، ولهذا ينبغي أن تعبُدوه وحدَه.

الكتابُ المقدَّسُ والتوحيد:

التعاليمُ الأساسيّةُ والمركزيّةُ لأيِّ كتابٍ سَماويٍّ هي أنّ اللهَ واحدٌ، ولا يليقُ بالعبادةِ سواهُ، وهو متفرِّدٌ واحدٌ أحَدٌ ليس كمِثلِه شيءٌ، وإذا تأمَّلْنا الكتابَ المقدَّسَ الموجودَ في أيامِنا لَوجَدْنا تصوُّرَ الله تعالى في مواضعَ شتَّى منه، وأمامي الآنَ (الكتابُ المقدَّسُ الحّيّ: The Living Bible)، طبعة **١٩٧٥**م البريطانية، وهذه بعضُ الإحالاتِ منه:

١ ـ أيُّها الربّ، إنّك عظيمٌ ومتَعالٍ بحيث أنّنا لم نسمَعْ عن أيِّ إلهٍ آخَرَ مثلِك، وليس هناك إلهٌ سواكَ(١).

---

(١) How great are you, Lord God! We have never heard of any other god like you. And there is no other god. (**2** Samuel: **7**: **22**: P. **313**)

٢ ـ أنت، وأنت فقطِ اللهُ الواحد، أنت الذي خَلقتَ السّمواتِ والجنّةَ والأرضَ والبحارَ وكلَّ شيءٍ يعيشُ في وُسعتِها، وأنت ربُّهم جميعًا، والملائكةُ جميعًا يعبُدونَك[١].

٣ ـ ثُم أخَذَه الشّيطانُ (أي: سيّدَنا عيسى عليه السَّلام) إلى قمّةِ جبلٍ شاهقِ الارتفاع، وجَعَله يَرى أُممَ العالَم وعظَمتَهم وجاهَهم، وقال له: لوِ انحنَيْتَ فقط وأدَّيتَ ليَ العبادةَ فسأُعطيكَ كلَّ هذا. فقال له سيّدُنا عيسى عليه السَّلام: اغرُبْ أيُّها الشيطان؛ لأنّ الصُّحفَ المقدَّسةَ تقولُ بأنّ عليك أن تَعبُدَ ربَّك اللهَ فقط، وتطيعَه هو وحدَه[٢].

٤ ـ سأل أحدُ أساتذةِ الدِّين سيّدَنا عيسى عليه السَّلام: ما أهمُّ حُكم بينَ الأحكام؟ فأجابَه سيّدُنا عيسى عليه السَّلام: اسمَعْ يا إسرائيلُ، أولًا: أنّ اللهَ ربَّنا واحدٌ فقط، وعليك أن تحبَّ هذا اللهَ من قلبك ورُوحِك وعَقْلِك وكلِّ طاقتِك... فقال له الأستاذ: عظيمٌ أيُّها السيِّد، لقد قلتَ حقًّا، إنّ اللهَ واحدٌ فقط، وليس هناك غيرُه[٣].

---

(١) You alone are God. You have made the skies and the heavens, the earth and the seas, and everything in them. You preserve it all: and all the angels of heaven worship you. (Nehemiah: **9**: **6**: P. **491**).

(٢) Next Satan took him to the peak of a very high mountain and showed him the nations of the world and all their glory. "I' ll give it to you", he said, "if you will only kneel and worship me".
Get out of here, Satan", Jesus told him. "The Scriptures say, "Worship" only the Lord God. Obey only him". (Matthew: **4**: **8** to **10**: P. **886**).

(٣) One of the teachers of religion asked, "Of all the commandments, which is the most important?" Jesus replied, "The one that says, "Hear, O Israel! The Lord God is the one and only God. And you must love him with all your heart and soul and mind and strength..."

٥ ـ ذاتَ مرّة، خَطَب سيّدُنا عيسى عليه السَّلام، ثم رَفَع رأسَه إلى السَّماءِ وقال في الحضرةِ الإلهيّة: إنّ الطريقَ للحصُول على الحياةِ الأبَديّة هو أن يؤمنَ الإنسانُ بكَ إلهًا واحدًا حقًّا، وبالمسيح نبيِّك المرسَل على الأرض[١].

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾

٢٢ ـ كانت بعضُ قبائلِ العربِ تعتقدُ في أنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، فجاء البيانُ في هذه الآية بأنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن الوَلَد، وأنّ الملائكةَ ليسوا بناتِه، وإنّما عبادُه الأحِبّاءُ المقرَّبون، وأدبُهم واحترامُهم في الحضرةِ الإلهيّة أنّهم لا يتفوَّهونَ بشيءٍ بغيرِ رضى الله تعالى وإذْنِه، ويلتزمونَ بالعمل بأحكام الله دائمًا، ويُعلَمُ منه أنّ الملائكةَ معصُومونَ؛ لأنّهم لا يعصُونَ حُكمَ الله تعالى أبدًا.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾

٢٣ ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم ماضيَ الملائكة ومستقبَلَهم وظاهرَهم وباطنَهم، وقد أَذِن لهم بالشَّفاعة، لكنّ الملائكةَ يشفَعونَ لمن رضيَ اللهُ عنه.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ قال ابنُ عبّاس: هم أهلُ شهادةِ أنْ لا إلَه إلّا الله. وقال مجاهدٌ: هم كلُّ مَن رضيَ اللهُ عنه، والملائكةُ يَشفَعونَ غدًا في الآخِرة كما في صحيح مسلمٍ وغيرِه، وفي الدّنيا أيضًا، فإنّهم يستغفرونَ للمؤمنينَ ولمَن في الأرض»[٢]. ويُعلَمُ منه أنّ الملائكةَ سيَشفَعونَ يومَ القيامة أيضًا بالإضافةِ إلى

The teacher of religion replied, "Sir, you have spoken a true word in saying that there is only one God and no other". (Mark: **12**: **28** to **32**: P. **941**).

(١) And this is the way to have eternal life- by knowing you, the only true God, and Jesus Christ, the one you sent to earth. (John: **17**: **3**: P. **1018**).

(٢) القرطبي.

الأنبياءِ عليهمُ السَّلام والعلماءِ والشُّهداءِ وغيرِهم.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٢٤ ـ رَغْم أنّ الملائكةَ معصُومونَ وأَحِبّاءُ لله تعالى، إلّا أنّ من يتمرَّدُ منهم ويتَحدَّى اللهَ تعالى فإنّ جزاءه جهنَّم، وسيُعاقَبُ مثلَما سيعاقَبُ الظالمونَ الآخرون.

يقولُ سيّدُنا قَتادةُ رضي اللهُ عنه: «﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وإنّما كانت هذه الآيةُ خاصّةً لعدوِّ الله إبليسَ لمّا قال ما قال، لَعَنه اللهُ وجَعَلَه رجيمًا، فقال: ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[١]، ورَغْم أنّ إبليسَ كان من الجنِّ، لكنّه كان يُعَدُّ من الملائكةِ لكثرةِ ملازمتِه لهم.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾

٢٥ ـ أَلَا يتفكَّرُ الكُفّارُ في قُدرةِ الله تعالى بأنّ الأرضَ والسّماءَ في بدايةِ الأمر كانتا متلاصقتَيْنِ، ثم فَصَلَهما اللهُ تعالى عن بعضِهما، وأصبح بينَهما نظامٌ قويٌّ من الفضاءِ والهواء، وقد زَيَّنَتِ الشمسُ والقمرُ والنُّجومُ السماءَ، بينَما يَرسُمُ الإنسانُ والحقولُ والحَيوانُ والأنهارُ والجبالُ مظاهرَ خَلّابةً على الأرض، ألا يؤمنُ هؤلاء المشركونَ بتوحيدِ الله تعالى بعدَ أن يرَوْا كلَّ هذا النظامِ الرائع؟

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

٢٦ ـ بينَ الماءِ والأحياءِ علاقةٌ قويّةٌ ودائمة، فكلُّ ما نراهُ من الأحياءِ وسيلةُ خَلْقِهِ قطرةٌ من النُّطفة، أي: الماء، ثم إنّ وسيلةَ بقاءِ هذه الأحياءِ ونموِّها وتطوُّرِها هو الماءُ أيضًا، بمعنى: أنّ الأشياءَ التي تأكلُها الأحياءُ أو تشربُها تَدخُلُ ـ بشكلٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشرٍ ـ ضمنَ الماء.

على العكسِ من ذلك، فإنّ خَلْقَ الملائكةِ كان من النُّور، والجنِّ من النار، لكنَّنا لا نَراهم، أمّا سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام فقد خُلِقَ من الطِّين، والسيّدةُ حَوّاءُ خُلِقت من ضِلع سيّدِنا آدمُ عليه السَّلام، وخُلِق سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ من نَفْخة، ولم يكنْ للماءِ دخلٌ في خَلْقِه مطلقًا، والحقيقةُ أنّ مولِدَ سيّدنا عيسى عليه السَّلامُ بمثابةِ التَجلِّي لقدرةِ الله تعالى، ولكلِّ قاعدةٍ بعضُ المستثنَيات، ولهذا يَصدُقُ عليها الحُكم الكُليُّ باعتبارِ الأكثَريّة.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾

٢٧ ـ جَعَل اللهُ تعالى الجبالَ في الأرضِ لتحفَظَ توازنَها، وهذه الجبالُ لا تمنعُ

الأرضَ من الدَّوران، لكنّها تحميها من الاهتزازِ والارتعاشِ إلى حدٍّ ما، وتكونُ سببًا في تقليلِ كثرةِ وحِدَّةِ الزَّلازِل.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

٢٨ ـ لم يجعَلِ اللهُ تعالى الجبالَ الشاهقةَ جُدرانًا صَخْريّةً بحيث لا يستطيعُ من يعيشونَ في جهةٍ منه الذهابَ إلى الجهةِ الأخرى، وإنّما جعَلَ بينَها بوّاباتٍ ومعابرَ ومسافاتٍ خاليةً، حتى يُمهِّدَ الناسُ لأنفُسِهم طُرُقًا بينَها تمكِّنُهم من التواصُل معَ بعضِهم.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾

٢٩ ـ السَّماءُ العظيمةُ الفَسِيحةُ التي جَعَلَها اللهُ تعالى فوقَ الأرض بمثابةِ السَّقفِ لها، لم يَجعَلْ لها جُدرانًا أو أعمِدةً تُقيمُها، ومعَ ذلك تقفُ هذه السَّماءُ منذُ آلافِ السِّنينَ محفوظةً قويّةً، ثم إنّ الشمسَ والقمرَ يدورانِ كلٌّ في مداره في السَّماءِ بطريقةٍ غايةٍ في النِّظام بحيث لم يَحدُثْ في دَورانِها أيُّ خلَل، وهذه كلُّها آياتٌ تدُلُّ دِلالةً واضحةً على توحيدِ الله تعالى وقدرتِه، لكنّ المشركينَ لا يتفكَّرون.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

٣٠ ـ الشمسُ والقمرُ والكواكبُ الأُخرى تَدُورُ في أفلاكِها، فما الفَلَك؟ وهل الفَلَكُ والسّماءُ شيءٌ واحد؟

عندَ أكثرِ المفسِّرينَ: الفَلَكُ والسَّماءُ شيئانِ مختلفان، فالسَّماءُ في العُلا، والأفلاكُ إلى أسفلَ، مثلَما يقولُ العلّامةُ الأَلُوسيُّ بأنّ الفَلَكَ «هو مَوْجٌ مكفوفٌ

تحتَ السّماءِ يجري فيه الشمسُ والقمرُ. وقال الضَّحّاك: هو ليس بجِسم، وإنّما هو مدارُ هذه النُّجوم»[1].

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾

٣١ ـ لم يَألُ الكُفّارُ جُهدًا في مخالفةِ الإسلام، وحينَ لم ينجَحوا في ذلك، أخَذوا يُطَمْئِنُونَ قلوبَهم بكلام لا معنى له قائلين: لا بأسَ، إنّ محمَّدًا على أيِّ حالٍ سيموتُ يومًا من الأيام، وسوف تنتهي حركتُه هذه من نفسِها، وحينَئذٍ نَزَلتْ هذه الآيةُ التي قيلَ فيها للكُفّار: صحيحٌ أنه لم يُكتَبِ الخلودُ لبشَرٍ قبلَ النبيِّ ﷺ، والنبيُّ ﷺ أيضًا لن يَخلُدَ في هذه الدُّنيا، ولكنّ هذا ليس أمرًا يُسعِدُكم؛ لأنّكم أنتم أيضًا لن تَخلُدوا في هذه الدُّنيا.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

٣٢ ـ جاءتِ الإشارةُ في هذه الآيةِ إلى ثلاثةِ أشياءَ:

١ ـ كلُّ شيءٍ حيٍّ سيذوقُ الموتَ إنْ عاجلًا أم آجلًا.

٢ ـ ستستمرُّ سلسلةُ الابتلاءاتِ للإنسان طالما كان على قَيْدِ الحياة.

٣ ـ كلُّ إنسانٍ سيَرجِعُ إلى الله تعالى ليحاسبَه.

ويُعلَمُ منه أنّ كلَّ إنسانٍ سيموتُ حتمًا، وسوف يُحاسَبُ على أعمالِه يومَ القيامة، لهذا لا يليقُ بأيِّ عاقل أن يُدمِّرَ حياتَه الخالدةَ من أَجْل حياةٍ لأيام معدودة. ولمزيدٍ من التفصيل عن الموتِ راجع الآيةَ رقم ١٨٥ من سُورة آل عِمران (٣)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٣١.

---

(١) تفسير روح المعاني.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾

٣٣ ـ كان الكُفّارُ يسخَرونَ من النبيِّ الكريم ﷺ؛ لأنه كان يُنكرُ آلهتَهم التي لا تَضرُّهم ولا تنفَعُهم، معَ أنّ المستحِقَّ للسُّخْرِيَة في هذا الخصُوص هم الكُفّارُ أنفسُهم؛ لأنّهم هم الذين يُنكِرونَ وجودَ الله الرَّحمن ربِّهم وخالقِهم.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾

٣٤ ـ لأنّ الإنسانَ خُلِق عَجُولًا، لهذا يَسألُ الكُفّارُ: إذا كنّا مستحِقِّينَ للعذابِ بسببِ رفضِنا للإسلام، فلمَ لا يَنزِلُ هذا العذابُ علينا إذًا؟ وعليه نَزَلت هذه الآيةُ بأنّ اللهَ تعالى قد حدَّد لكلِّ عذابٍ وقتَه لحِكمةٍ عندَه، وحين يقتربُ هذا الوقتُ المحدَّدُ سيُريكم علاماتٍ عليه، وحينَئذٍ ستندَمُونَ، ولن تجِدوا طريقًا يُنْجيكم من هذا العذاب، مثلَما حدَثَ معَهم في غزوةِ بدر.

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

٣٥ ـ كان الكُفّارُ يُنكرونَ القيامةَ، وكانوا يعتقدونَ أنه لا وجودَ لِما يسمَّى بيوم القيامة، وأنه لا حياةَ إلّا هذه الحياةُ وتنتهي اللُّعبة، ولهذا كانوا يَسألونَ ساخرينَ: لو كنتَ نبيًّا حقًّا، فلمَ لا تأتينا بالعذابِ الذي تخوِّفُنا منه، ومتى يَنزِلُ هذا العذابُ بنا؟ وفي هذه الآيةِ طَمْأَنةٌ لأهلِ الإسلام بأنّ الحقيقةَ هي أنّ الكُفّارَ لا يَعلَمونَ بعذابِ يوم القيامة، ولهذا يتعجَّلونَه، وحين تُحيطُ بهم نارُ جهنَّم ولا يمُدُّ أحدٌ لهم يدَ المساعدة، عندَئذٍ سيندَمونَ، ولكنّ نَدَمَهم هذا لن يفيدَهم بشيءٍ إذْ ذاك.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

٣٦ ـ ستقومُ الساعةُ بَغْتةً، مما سيَطيرَ بلُبِّهم، وعندَئذٍ لن يستطيعوا تأخيرَ القيامة، ولن يُعطَوْا مُهلةً ليتوبوا، ولهذا فإنّ هناك صورةً واحدةً فقطْ للنَّجاة من عذابِ القيامة، وهي أن نتوبَ من عصيانِنا في هذه الدُّنيا، ونصبحَ عبادًا طائعينَ لله تعالى.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

٣٧ ـ كان كُفّارُ مكّةَ يسخَرونَ من النبيِّ ﷺ، وفي هذه الآيةِ تسرِيةٌ عن النبيِّ ﷺ بأنّ هذا ليس بالأمرِ الجديد، فلقدِ استُهزئَ بالرُّسُل من قبلِك، لكنّ العذابَ الذي كانوا يسخَرونَ بسببِه من الأنبياءِ السّابقينَ عندَما يحِينُ وقتُه في نهايةِ الأمرِ فسوف يُهلِكُ هذا العذابُ الكُفّارَ ويُدمِّرُهم.

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

٣٨ ـ الخطابُ هنا لمشركي مكّةَ بأنّ طُغيانَكم يقتضي أن يَنزِلَ العذابُ عليكم، لكنّ اللهَ تعالى قد أمهَلَكم لكي تتوبوا وتُصلحوا من أنفسِكم، وإذا نَزَل عليكمُ العذابُ فَوْرًا في أيِّ وقتٍ ليلًا أو نهارًا فلن يستطيعَ أحدٌ أن يُنجيَكم منه، وبالتالي كان ينبغي لكم أن تستغِلُّوا هذه المُهلَة، وأن تشكُروا اللهَ تعالى عليها، لكنّ ما أعجَبَكم من جاحِدين، إذ لا ترغبونَ في مجرَّدِ ذِكرِ الله تعالى.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾

٣٩ ـ كان مشركو مكّةَ يُنكِرونَ عذابَ القيامة، وكانوا يعتقدونَ أنّهم حتى على افتراضِ نزولِ العذابِ عليهم، فإنّ أصنامَهم ستُنجِيهم من هذا العذاب، وقد رَدَّ اللهُ تعالى عليهم في هذه الآية، بأنّ هذا سوءٌ في الفَهْم لديهِم، فالأصنامُ لا طاقةَ لها حتى على إنقاذِ نفسِها، ولا تستطيعُ حتى إبعادَ ذبابةٍ تقفُ عليها، فكيف ستساعدُ أولئك المشركينَ إذًا؟ كما أنّ هذه الأصنامَ لا تحظَى بتأييدٍ ونُصرةٍ من الله تعالى بحيث يستطيعونَ مساعدةَ هؤلاءِ المشركين، وفي هذا الخصُوص يقولُ القاضي ثناءُ الله باني بتي: «ولا يَصحَبُهم منّا نَصْر، كما يَصحَبُ لِمَن يشفَعُ عُصاةَ المؤمنينَ من النبيِّينَ والملائكةِ والصَّالحين»(١).

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

٤٠ ـ كان أهلُ الجزيرةِ العربيّة يحترمونَ أهلَ مكّةَ بسببِ وجودِ الكعبة بها، وهو ما وفَّر لأهلِ مكّةَ وآبائهم وأجدادِهم حياةً رغِدةً من فترةٍ طويلة، لكنّهم لم

---

(١) التفسير المظهري.

يشكروا اللهَ تعالى على هذه المُهلةِ وهذه النِّعمة، وانما اغترُّوا بمتاع الدُّنيا إلى درجةِ أنّهم أنكَروا نبيَّ الله تعالى، وأخَذوا يحلُمونَ بهزيمةِ المسلمين، وفي هذه الآية يقولُ اللهُ تعالى: عليكم أن تتعقَّلوا وتتمعَّنوا في الأمورِ قليلًا، فكلُّ قبيلةٍ من القبائل العربيّةِ تتحوَّلُ إلى الإسلام، وحدودُ الإسلام تتَّسعُ يومًا بعدَ يوم، بينَما تَضِيقُ الأرضُ على الكُفرِ أكثرَ وأكثرَ، فهل لا يزالونَ على خطإهم في الفَهْم من أنهم سيتَغلَّبونَ على المسلمين؟ ويُعلَمُ منه أنّ هذه الآيةَ نَزلت في المدينةِ المنوَّرة؛ لأنّ القبائلَ العربيّةَ بدأتْ تدخُلُ في الإسلام بعدَ مجيئهم إلى المدينةِ المنوَّرة.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾

٤١ ـ عمَلُ النبيِّ هو تبليغُ رسالةِ الله تعالى، وإنذارُ العُصاة بسُوءِ العاقبة، لكنّ عُميانَ القلوبِ إن لم يستمِعوا إلى هذه الرِّسالة فلا ذنبَ للنبيِّ في ذلك.

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

٤٢ ـ الآنَ هؤلاءِ أصَمُّوا آذانَهم عن الرسالةِ الإلهيَّة، ويُطالبونَ بسُرعةِ نزولِ العذاب، ولكنْ إن مسَّهُم قليلٌ من العذابِ طارت عقولُهم، وفقَدوا صوابَهم صارخينَ: إنّهم كانوا بالفعل ظالمين.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾

٤٣ ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أعمالَ كلِّ إنسانٍ، حَسَنِها وسيِّئها، ويستطيعُ الحُكمَ دونَ وزنِ هذه الأعمال، لكنه يَزِنُها حتى يَعلَمَ الناسُ كيف كان عمَلُهم، وأنهم لم يَظلِمْهم أحدٌ.

رُويَ عن سيّدِنا أنسٍ رضي الله عنه «إنّ مَلَكًا موكَّلًا بالميزانِ، فيؤتَى بابنِ آدمَ فيوقَفُ بينَ كِفّتي الميزان، فإنْ رَجَح نادَى المَلَكُ بصوتٍ يُسمع الخلائقَ: سَعِد فلانٌ سعادةً لا يشقَى بعدَها أبدًا، وإن خفَّ نادى المَلَكُ: شَقِي فلانٌ شقاوةً لا يسعَدُ بعدَها أبدًا»[١].

ورَغْم أنه لا وجودَ ظاهريًّا للأعمال ولا جسَدَ لها، لكنّ هناك روايةً تقولُ: إنّ الأعمالَ الحَسَنة تتجسَّدُ في أشكالٍ بيضاءَ، بينَما تتجسَّدُ الأعمالُ السيِّئةُ في أشكالٍ سوداءَ وقبيحة، وسوف توزَنُ هذه الأشكالُ[٢]. على أيِّ حال اللهُ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، ويستطيعُ أن يَزِنَ الأعمالَ في أيِّ صورةٍ شاء.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

٤٤ ـ أعطَى اللهُ تعالى سيّدَنا موسى وسيّدَنا هارونَ عليهما السَّلامُ كتابًا مُبِينًا، أي: التَّوراةَ، وهي تُميِّزُ بينَ الحقِّ والباطل، ونصيحةٌ للمتَّقين.

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾

٤٥ ـ جاء في هذه الآيةِ بيانٌ لصِفتَيْنِ من صفاتِ المتَّقين، يعني: رَغْم أنّهم لم يَروا اللهَ تعالى؛ لأنّ اللهَ تعالى لا تراهُ عيونُ البشَر، لكنّهم معَ ذلك يخشَوْنَ غضَبَ الله تعالى وعذابَ القيامة، وهم ـ بسببِ هذه الخَشْية ـ لا يعصُونَ اللهَ تعالى.

﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

٤٦ ـ كما أنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ التَّوراةَ نصيحةً، كذلك أَنْزل اللهُ تعالى القرآنَ

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) «قيل: تظهر الاعمال بصور جوهرية: مشرقة إن كانت حسنات، ومظلمة إن كانت سيئات». روح المعاني.

الكريم، فهو أيضًا نصيحةٌ عظيمةٌ، فإذا كنتُم تؤمنونَ بأنّ التَّوراةَ كتابُ الله تعالى، فلماذا لا تؤمنونَ بالقرآنِ إذًا؟

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾

٤٧ ـ أَنْعم اللهُ تعالى بالنُّبوّةِ على سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ قبلَ أن يُنعِمَ بها على سيّدِنا موسى وسيّدِنا هارونَ عليهما السَّلام، واللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ يمتلكُ المقدرةَ الكاملةَ لأداءِ فريضةِ النُّبوّة.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

٤٨ ـ حين سألَ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قومَه: لماذا تعبُدونَ هذه الأصنامَ، وليس لديكم أيُّ دليل على حَقّانيَّـتِها؟ أجابوه قائلين: إنّهم وَجَدوا آباءهم وأجدادَهم لها عابدين، فسألَهم سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: إنّ تقليدَ الآباءِ والأجدادِ في شيءٍ ليس دليلًا على حَقّانيّةِ هذا الشيء، وإنّما يُعلَمُ منه أنّ آباءَكم وأجدادَكم كانوا في ضلالٍ مُبين مثلَكم، فمن كان والدَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام؟ للإجابة عن هذا السؤال راجعِ الآيةَ رقم ٧٤ من سُورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشيةُ رقم ٧٠ أيضًا.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

٤٩ ـ كان هؤلاءِ يعبُدونَ الأصنامَ منذُ فترةٍ بعيدة، ولم يكنْ في قلوبِهم أيُّ تردُّدٍ تُجاهَ عبادةِ الأصنام، وحين سَمِعوا من سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ مخالفتَه للأصنام أُسقِطَ في أيديهم وقالوا له: هل تقولُ صدقًا بالفعلِ أم أنّك تمزَح؟ فقال لهم: إنّني أشهَدُ بكلِّ صِدقٍ أنّ ربَّكم واحدٌ فقط، وهو اللهُ تعالى، ودليلُ هذا أنه هو خالقُ السّماءِ والأرضِ وربُّكم.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴾:

٥٠ ـ أَقْسَم سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ بالله تعالى عاقدًا العَزْمَ في قلبِه على أنه حينَ يخرُجُ هؤلاءِ المشركونَ من معبَدِ أصنامِهم، وأجِدُ فرصةً سانحةً، فسوف أُحطِّمُ أصنامَهم، وهنا يقولُ جمهورُ المفسِّرين: إنه ذاتَ يوم خَرَج الناسُ جميعًا من المدينة بغَرَضِ الاحتفالِ بأحدِ أعيادِهم، فحَمَل سيّدُنا إبراهيمُ مِعوَلَه وحَطَّم الأصنامَ جميعًا، لكنّه تَرَك أكبرَ هذه الأصنامِ دونَ تحطيم، ووَضَع المِعوَلَ على كتِفِ هذا الصَّنم، حتى يَفهَمَ الناسُ أنّ هذا الصَّنَم الأكبرَ هو الذي قام بهذه الحركة! أو أن يَخْجَلوا من أنفُسِهم بأنه إذا كان هذا الصَّنمُ لم يستطعْ إنقاذَ الأصنام الصَّغيرة التي تحيطُ به، فكيف يمكنُه إنقاذُ مَن يعبُدونَه؟

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴾:

٥١ ـ حين عادَ الناسُ منَ احتفالِهم عندَ المساءِ غَضِبوا غضَبًا شديدًا ممّا رأَوْا وقالوا: من هو الظالمُ الذي فَعَل هذا بآلهتِنا؟ وقال بعضُهم: لقد سَمِعنا فتًى يَذكُرُهم بسُوء، واسمُه إبراهيمُ عليه السَّلام.

﴿ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾

٥٢ ـ قال الناسُ: أحضِروا ذلك الشابَّ هنا. وهكذا اعتَقَل جنودُ النَّمرودِ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام وأحضَروه، فسألوه: هل أنتَ فعلتَ هذا بآلهتِنا؟

﴿ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾

٥٣ ـ أجابَهم سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قائلًا: الفأسُ على كتِفِ الصَّنَم الكبير،

وبالتالي فإنه هو الذي فَعَل هذه الفَعْلَة، أو اسألوا هذه الأصنامَ المُحطَّمةَ إذًا من فَعَل بهم هذا؟ والظاهرُ أنّ ما قاله سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ كذبٌ؛ لأنه هو الذي حَطَّم هذه الأصنامَ، ولكنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أراد بقولِه هذا أن يُثبتَ عَجْزَ هذه الأصنام في الحقيقة، بمعنى: أنها إذا لم تستطعْ أن تُنقذَ نفسَها، ولا أن تَدُلَّ على مَن حَطَّمها، فكيف يمكنُ أن تكونَ آلهةً؟ سَمِع الناسُ هذا الجوابَ فقال بعضُهم لبعض: بما أنّ الفأسَ موجودةٌ بالفعل عندَ الصَّنمِ الأكبر، فمنَ الظُّلم إذًا أن نتَّهمَ إبراهيمَ عليه السَّلام، وإذا لم تستطعْ هذه الأصنامُ أن تُنقذَ نفسَها، فمنَ الظُّلم أيضًا أن تُتَّخذَ آلهةً، وهكذا خَجِلوا من أنفُسِهم قائلين: يا إبراهيم، إنك تَعلَمُ أنّ الأصنامَ لا تتكلَّم، فكيف نسألُها؟

قال اللهُ تعالى في شأنِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ومَن قال عنه اللهُ تعالى: إنه نبيٌّ صادقٌ، لا مجالَ لأن يَصدُرَ عنه كذبٌ، ولكنْ مسموحٌ بمِثْلِ هذه الألفاظِ التي تحمِلُ معنيَيْنِ طبقًا للظروف، وإليك بعضَ الأمثلةِ على هذا:

١ ـ حين هاجَر النبيُّ ﷺ من مكّةَ المكرَّمةِ، أعلَن أهلُ مكّةَ أنّ مَن يُرشِدُنا عن مكانِ محمّدٍ ﷺ سنُعطيه مائةَ ناقةٍ مكافأةً له على ذلك، وحين غادَر النبيُّ ﷺ غارَ ثَوْر معَ رفيقِ سفَرِه سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيق رضي اللهُ عنه، سأل رجلٌ أبا بكرٍ قائلًا: مَن هذا الذي معَك؟ فقال سيّدُنا أبو بكرٍ الصّدِّيقُ رضي الله عنه: هذا هو الذي يدُلُّني على الطريق. وهكذا من يستمعُ إلى هذا القولِ سيَفهَمُ منه الدَّليلَ على الطريقِ الدُّنيويِّ، بينَما أراد به سيّدُنا أبو بكرٍ الصّدِّيقُ رضي الله عنه طريقَ الإسلام والخير[1].

٢ ـ عن أنسِ بن مالكٍ، أنّ رجُلًا استَحمَلَ رسولَ الله ﷺ فقال: «إنّي حاملُكَ

---

(١) «فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا بين يديك؟ فيقول: هذا الذي يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير». سبل الرشاد، ٣: ٣٥٨، وتفسير زاد المسير.

على وَلَدِ النّاقة»، فقال: يا رسولَ الله، ما أصنَعُ بوَلَدِ النّاقة؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «وهل تَلِدُ الإبِلُ إلّا النُّوق؟»[١]، ففَهِم هذا الشّخصُ أنّ النبيَّ ﷺ يتحدَّثُ عن صغيرِ الناقة، بينَما النبيُّ ﷺ يقصِدُ ولدَ الناقة.

٣ ـ يقولُ سيّدُنا الحَسَنُ رضي اللهُ عنه: أتت عَجُوزٌ إلى النّبيِّ ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، ادعُ اللهَ أن يُدخلَني الجنّةَ، فقال: «يا أُمَّ فلانٍ، إنّ الجنّةَ لا تَدخُلُها عجوزٌ» قال: فوَلّت تبكي، فقال: «أخبِروها أنّها لا تَدخُلُها»[٢] وهي عجوزٌ، إنّ اللهَ تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]، فقد فَهِمتْ تلك العجوزُ أنّ النبيَّ ﷺ يَقصِدُها بما قال، فبَكَتْ، لكنّ النبيَّ ﷺ قَصَد أنّ العَجوزَ لا تَدخُلُ الجنةَ؛ لأنّ كلَّ مَن يدخُلونَ الجنّةَ يكونونَ شبابًا، وستكونُ أعمارُهم ما بينَ ٣٠ و٣٣ عامًا.

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه: إن رجلًا من أهل البادية، كان اسمُه زاهرًا، وكان يُهدي إلى النبيِّ ﷺ هديةً من البادية، فيُجهِّزُه النبيُّ ﷺ إذا أراد أن يَخرُج. فقال النبيُّ ﷺ: «إنّ زاهرًا باديتُنا ونحن حاضِروه»، وكان ﷺ يحبُّه، وكان رجُلًا دميمًا، فأتاه النبيُّ ﷺ يومًا وهو يبيعُ متاعَه، فاحتَضَنَه من خَلْفِه وهو لا يبصُره. فقال: من هذا؟ أرسِلْني، فالتفَتَ، فعَرَف النبيَّ ﷺ فجَعَل لا يألو ما ألصَقَ ظهرَه بصدرِ النبيِّ ﷺ حين عَرَفه، فجَعَل النبيُّ ﷺ يقول: «من يشتري هذا العبدَ؟»، فقال: يا رسولَ الله، إذًا واللهِ تجِدُني كاسدًا، فقال النبيُّ ﷺ: «لكنْ عندَ الله لستَ بكاسدٍ»، أو قال: «أنت عندَ الله غالٍ»[٣]. والظاهرُ أنّ المرادَ بالعبدِ هو: الغُلام، لكنّه كان ذلك الشَّخصَ الحُرَّ، وكان النبيُّ ﷺ يقصِدُ: عبدًا لله.

---

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٥٧ برقم ١٩٩١.

(٢) شمائل الترمذي، باب في صفة رسول الله ﷺ، ٢: ١١١.

(٣) مسند أحمد، ٣: ١٦١، وشرح شمائل الترمذي، باب في صفة مزاح رسول الله ﷺ، ٢: ١٠٧.

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

٥٤ ـ قال سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: هل من العقلِ أن تتَّخذوا ممَّن لا يملِكُ أن ينفَعَ أو يضُرَّ إلهًا؟ إن كنتُم لا تستوعبونَ شيئًا بسيطًا كهذا فخسِئتُم إذًا أنتم ومن تعبُدون.

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

٥٥ ـ عندما أقام سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ الحُجّةَ على عَجْز الأصنام، وأَفْحَمهم عن الجواب، رَكِبَهم العِنادُ والتعصُّب، وقالوا لبعضِهم: لقد أُهينَت آلهتُنا كثيرًا، وإنْ أرَدْنا أن نقدِّمَ لها شيئًا فعلينا أن نُحرِّقَ إبراهيمَ حيًّا، حتى لا يتجرَّأَ أحدٌ مستقبَلًا على إهانةِ أصنامِنا.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

٥٦ ـ يقولُ المفسِّرون: «لمّا أرادوا إحراقَ إبراهيمَ جَمَعوا له حَطَبًا مدةَ شهر، ثم جَعَلوه في حُفرةٍ من الأرض وأَضْرَموها نارًا، فكان لها لهبٌ عظيمٌ، حتى إنّ الطائرَ لَيمُرُّ من فوقِها فيحترقُ من شدّةِ وَهَجِها وحرِّها، ثم أَوْثَقوا إبراهيمَ وجَعَلوهُ في مِنجَنيقٍ ورَمَوْه في النار، فجاء إليه جِبريلُ فقال: ألكَ حاجةٌ؟ قال: أمّا إليكَ فلا، فقال جبريلُ: فاسأَلْ ربَّك، فقال: «حَسْبي من سؤالي عِلمُه بحالي» (لأنّ الدُّعاءَ عندَ الابتلاءِ بمثابةِ النَّجاةِ منه) فقال الله: يا نارُ كوني بَرْدًا وسَلامًا على إبراهيم، ولم تَحرِق النارُ منه سوى وِثاقِه»[١].

وجاء في الرِّواياتِ التاريخيّة، أنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ مَكَثَ في النارِ سبعةَ أيام، وكان يقول: إنّني لم أجِدْ راحةً في حياتي كالتي وَجَدتُها خلالَ هذه

(١) صفوة التفاسير، تفسير القرطبي.

الأيام السبعة[١]، وذاتَ يوم «نَظَر نُمرودُ وأشرَفَ على إبراهيمَ من صَرْح له، فرآهُ جالسًا في رَوْضةٍ والمَلَكُ قاعدٌ الى جَنْبِه وما حولَه نارٌ تحرِقُ الحطَبَ، فناداه: يا إبراهيم، كبيرُ إلهِك الّذي بَلَغَتْ قُدرتُه إنْ حال بينَك وبينَ ما أرى يا إبراهيم، هل تستطيعُ أن تَخرُجَ منها؟ قال: نعم. قال: هل تخشَى إن أقمتَ فيها أن تَضُرَّك؟ قال: لا. قال: فقُمْ فاخرُجْ منها. فقام إبراهيمُ يمشي فيها حتى خَرَج منها»[٢].

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾

٥٧ ـ أرادوا إحراقَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في النار، لكنّ اللهَ تعالى حَفِظَه في هذه النارِ الحارقة، وكانت هذه معجِزةً عظيمةً لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام.

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾

٥٨ ـ كان سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ ابنَ أخ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وكان قد آمَنَ به، ولهذا لم يتَوانَ أهلُ العراقِ في إيذائهما معًا، فأمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا إبراهيمَ وسيّدَنا لوطًا عليهما السَّلامُ بالهجرةِ من العراقِ إلى الشام وفِلَسطينَ، فأقام سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ في فِلَسطينَ، في حينَ أَرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ نبيًّا إلى «سَدُوم»، وقد بارَكَ اللهُ تعالى في أرضِ الشام دينيًّا ودُنيويًّا، فقد جاء إليها كثيرٌ من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، حيث حَصَل الناسُ منهم على بركةِ الهداية، وتتميَّزُ الأرضُ هناك بالخُضرةِ واليُنوعة، كما يتميَّزُ الطَّقسُ أيضًا بالاعتدال.

---

(١) «وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام، وقال إبراهيم: ما كنت أيامًا قط أنعم مني من الأيام الّتي كنت في النار». التفسيرالمظهري.

(٢) التفسير المظهري.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾

٥٩ ـ دَعا سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ في شيخوختِه اللهَ تعالى أن يَرزُقَه الوَلَدَ، فاستجابَ اللهُ تعالى لدعائه ورَزَقَه بسيّدِنا إسحاقَ عليه السَّلام، وأَنْعم عليه بحفيدٍ مِثلِ سيّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام، وكانا من الصَّالحين.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾

٦٠ ـ جَعَل اللهُ تعالى من سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا إسحاقَ وسيّدِنا يعقوبَ عليهمُ السَّلامُ أئمّةً للناس، أي: جَعَلهم أنبياءَ لهم، وأوحَى إليهم أنِ ادُعوا الناسَ إلى فعلِ الخيرِ وإقامِ الصَّلاة، وكان هؤلاءِ جميعًا عابدينَ لله تعالى، ويقومونَ بإرشادِ الناسِ طبقًا لأحكامِه جلَّ وعَلا.

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾

٦١ ـ كان قومُ سيّدِنا لُوطٍ عليه السَّلام يسكُنونَ في سَدُوم، وكانوا أصحابَ سلوكٍ غايةٍ في السُّوء، وقد أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا لوطٍ بالعِلم والحِكمة والنُّبوة، وحاوَلَ سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ أن يمنَعَ هؤلاءِ من فعلِ السُّوءِ والخبائثِ هذه، ولكنْ لمّا لم يَرجِعوا عمّا يرتكبونَ من الفواحشِ أهلَكَهم اللهُ تعالى بأمطارٍ من الحجارةِ من عندِه، وتفضَّل اللهُ تعالى على سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلام وأهلِ الإيمانِ معَه، وأَخْرجَهم سالمينَ من تلك القرية قبلَ أن يُنزلَ عليها العذابَ.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

٦٢ ـ ظلَّ سيِّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ يدعو قومَه طيلةَ تسعِمائةٍ وخمسينَ عامًا،

وذلك قبلَ سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا لوطٍ عليهما السَّلام، وحينَ لم يؤمنْ به قومُه برَغْم هذه الفترةِ الطويلةِ من الدعْوة، وعَمَدوا إلى الإمعانِ في تكذيبه وإيذائه، دَعا عليهم سيّدُنا نوحٌ في الحضرةِ الإلهيَّة قائلًا: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وهكذا استجابَ اللهُ تعالى لدُعاءِ سيّدِنا نوح عليه السَّلامُ وأغرقَ الكافرينَ في الماء، وأنجَى سيّدَنا نوحًا والمؤمنينَ من أهلِ بيتِه من الغَرَق ومن إيذاءِ الكُفّارِ لهم.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾

٦٣ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ بالنُّبوّة، وكان سيّدُنا سليمانُ عليه السَّلامُ ابنَه، وأَنْعم اللهُ تعالى عليه بالحُكم والنُّبوةِ أيضًا بعدَ سيّدِنا داودَ عليه السَّلام، كما أَنْعم اللهُ تعالى عليهما (الأبِ وابنِه عليهما السَّلام) بالعِلم والحِكمة.
وذاتَ يوم رُفِعت قضيّةٌ من القضايا إلى سيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ يقولُ عنها المفسِّرون: «تَخاصَم إلى داودَ رجُلانِ دَخَلت غَنَمُ أحدِهما على زَرْع الآخَر باللَّيل فأفسَدتْه فلم تُبقِ منه شيئًا، فقضَى بأنْ يأخُذَ صاحبُ الزَّرع الغَنَمَ، (حتى يمكنَ تلافي الخسارةِ التي أصابَتْه) فخَرج الرجُلانِ على سُليمانَ وهو بالباب فأخبَراه بما حَكَم به أبوه، فدَخَل عليه فقال: يا نبيَّ الله، لو حَكَمتَ بغيرِ هذا كان أرفَق للجميع! قال: وما هو؟ قال: يأخُذُ صاحبُ الغَنَم الأرضَ فيُصلِحُها ويَبذُرُها حتى يعودَ زرعُها كما كان، ويأخُذُ صاحبُ الزَّرع الغَنَمَ وينتفعُ بألبانِها وصُوفِها ونَسْلِها، فإذا خَرَج الزَّرعُ رُدَّت الغَنَمُ إلى صاحبِها والأرضُ إلى ربِّها، فقال له داودُ: وُفِّقتَ يا بُنيّ، وقَضَى بينَهما بذلك»[(١)].

وطِبقًا لحُكم سيّدِنا داودَ عليه السَّلام حُرِم صاحبُ الغَنَم من أغنامِه إلى

---

(١) صفوة التفاسير.

الأبد، بينما لم يُحرَمْ أحدٌ ممّا يملِكُه طبقًا لحُكم سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، ولهذا كان الحُكمُ الثاني هو الأفضَلَ، وقدِ اجتَهد كلا النبيَّيْنِ عليهما السَّلامُ في هذا الحُكم، ورَجَع سيّدُنا داودُ عليه السَّلامُ عن اجتهادِه، وحَكَم طبقًا لاجتِهادِ ابنِه، وكان عُمُرُ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام إذْ ذاك أحدَ عشَرَ عامًا فقطْ[١]، وقد أَنْعم اللهُ عليه منذُ طفولتِه بمقدرةٍ غيرِ عاديّة على اتِّخاذِ القرار.

حينَ يَحكُم مجتهدٌ في أمرٍ ما بإخلاصٍ فإنّ اللهَ يُثيبُه على حُكمِه، سواءٌ كان حُكمًا صحيحًا أم حُكمًا خاطئًا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواهُ أبو قَيْس رضي اللهُ عنه: «إذا حَكَم الحاكمُ فاجتَهدَ ثم أصابَ فله أَجْرانِ، وإذا حَكَم فاجتَهدَ ثم أخطَأَ فله أَجْرٌ»[٢]، والمرادُ بالأَجْريْنِ: أَجْرُ الاجتهاد، وأَجْرُ الحُكم الصَّحيح، والمرادُ بالأَجْر الواحدِ: أنه سيُعطَى ثوابَ اجتهادِه، ولا ثوابَ الحُكم الصحيح.

الاجتهاد في العصر الحاضر:

المسائلُ العَصْريّةُ التي لم تُذكَرْ في كتُبِ الفقهِ السابقة، مثلَ: الصّلاةِ على مكبِّر الصّوت، والصّلاةِ في القطارِ والطائرة، وإعلانِ رؤيةِ الهلال من خلال الإذاعة، وتشريح جُثَثِ الموتَى، وغيرِها من المسائل، يجوزُ الآنَ الاجتهادُ للتوصُّل إلى حُكمِها ومعرفتِه[٣].

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

٦٤ ـ يقولُ المفسِّرون: إنّ اللهَ تعالى قد مَنَح صوتَ سيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ

---

(١) «قيل: إن سليمان يوم حكم كان ابن إحدى عشرة سنة». التفسير المظهري.

(٢) البخاري، كتاب الاعتصام، باب ٢١.

(٣) تفسير تبيان القرآن.

قدرًا عظيمًا من الجمالِ والتأثير، بحيثُ أنّ الطيورَ كانت تتوقَّفُ في الهواءِ لتستمعَ إليه عندَما يقرأُ الزَّبورَ وتُسبِّحُ اللهَ معَ تسبيحِه، بل إنّ الجبالَ كذلك كانت تسبِّحُ معَه، وكانت هذه معجِزةَ سيّدِنا داودَ عليه السَّلام، والمعجِزةُ تقالُ لِما يُعجِز العقلَ الإنسانيَّ، مثلَ: حديثِ الأحجار والأشجارِ والحَيواناتِ إلى النبيِّ ﷺ، وكانت هذه إحدى معجزاتِه ﷺ.

مَرَّ النّبيُّ ﷺ على أبي موسى الأشعَريِّ وهو يَتْلو القرآنَ من اللَّيل، وكان له صوتٌ طيّبٌ [جدًّا]. فوَقفَ واستَمع لقراءتِه، وقال: «لقد أُوتيَ هذا مَزاميرَ آلِ داودَ» (يعني: أنّ لديه بعضًا من حُسنِ الصَّوتِ الذي كان لدى سيّدِنا داودَ عليه السلام). قال: يا رسولَ الله، لو عَلِمتُ أنّك تسمعُ لَحبَّرتُه لك تحبيرًا[1]. ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ تزيينَ الأعمالِ لكي يراها النبيُّ ﷺ ويسمَعها ليس من الرِّياء في شيء؛ لأنّ رضا النبيِّ ﷺ من رضا الله تعالى.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾

٦٥ ـ ذَكَر اللهُ تعالى في الآيةِ السّابقة معجزةَ الصّوتِ التي أَنْعم بها على سيّدِنا داودَ عليه السَّلام، وهو الذي كانت الطيورُ والجبالُ تتوقَّفُ لسماعِه وتشاركُه في تسبيحِه، وفي هذه الآية ذِكرٌ لمعجزةِ الحديدِ الذي كان يَـلِـينُ في يدَيْهِ عليه السَّلام، بحيثُ يستطيعُ أن يصنعَ منه دروعًا غايةً في القوّةِ وخِفّةِ الوزن، لكي تحفَظَ الناسَ في المعاركِ من هجوم الأعداءِ عليهم، وهنا خطابٌ لقوم سيّدِنا داودَ عليه السّلام قائلًا: ألا تشكرونَ اللهَ تعالى على هذه الدُّروع الحديثةِ التي تَحميكم، والتي أَنْعم اللهُ بها عليكم عن طريقِ سيّدِنا داودَ عليه السلام؟

---

(١) تفسير ابن كثير، السنن الكبرى للإمام البيهقي، ١٠: ٢٣٠.

يقولُ المفسِّرون: إنّ اللهَ تعالى أَلانَ لسيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ الحديدَ بحيث كان يصنَعُ منه الدُّروعَ دونَ أن يُضْطرَّ إلى صَهرِه في النار، مثلَما يصنعُ الإنسانُ الأوانيَ من الطِّين(١).

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ احتقارَ المِهَن التي يمتهِنُها الإنسانُ من أَجْل كسب لقمةِ عَيْشِه جَهلٌ، ومُنافٍ لتعاليم القرآنِ الكريم. يقولُ العلّامةُ القُرطُبي: «كان داودُ عليه السَّلامُ يصنَعُ الدُّروعَ، وكان يأكلُ من عَمل يدِه، وكان آدمُ عليه السَّلامُ حَرّاثًا، ونوحٌ عليه السَّلام نَجّارًا، ولقمانُ عليه السَّلامُ خَيّاطًا، وطالوتُ عليه السَّلامُ دبّاغًا»(٢).

ورَغْم أنّ نبيَّنا الكريمَ ﷺ لم يَمتهِنْ مهنةً بعَيْنِها بصفةٍ خاصّة، لكنّه رعَى الغَنَم، ورقَّع الملابسَ الممزَّقةَ، وغَسَل الملابس، وخَسَف النِّعال، وسافَر إلى الشام بغَرَض التجارة، ولهذا لا ينبغي لأحدٍ أن يحتقرَ أيَّ عملٍ أو مهنة؛ لأنّ نبيَّنا الكريمَ ﷺ عَمِل في أعمالٍ متعدِّدة تُعتبرُ حقيرةً في أيامِنا هذه، فكلُّ عملٍ ومهنةٍ شريفة يمتَهِنُها الإنسانُ بغرضِ كسبِ القُوتِ تستحِقُّ الثناء.

طلب الرزق الحلال:

١ ـ قال رسولُ الله ﷺ فيما رَواهُ عنه سيّدُنا المِقدامُ رضي اللهُ عنه: «ما أكَلَ أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكُلَ من عملِ يدِه، وإنّ نبيَّ الله داودَ ـ عليه السَّلامُ ـ كان يأكُلُ من عملِ يدِه»(٣).

٢ ـ يقولُ سيّدُنا كعبُ بن عَجُرةَ رضي الله عنه: مرَّ على النّبيِّ ﷺ رجلٌ، فرأى

(١) «إن الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كأنه طين». التفسير الكبير.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) البخاري، كتاب البيوع، باب ١٥ برقم ٢٠٧٢.

أصحابُ رسولِ الله ﷺ من جَلَدِه ونشاطِه، فقالوا: يا رسولَ الله، لو كان هذا في سبيلِ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنْ كان خَرَج يسعَى على ولَدِه صغارًا فهو في سَبيلِ الله، وإن كان خَرَج يسعَى على أبوَيْنِ شيخَيْنِ كبيرَيْنِ فهو في سَبيل الله، وإن كان يسعَى على نفسِه يعفُّها فهو في سَبيل الله، وإن كان خَرَج رياءً ومُفاخَرةً فهو في سَبيل الشّيطان»[١].

٣ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا آدمَ بعِلم ألفِ حِرفة، وقال له: «قُلْ لولَدِك وذُرِّيَّتِك: إنْ لم تصبِروا فاطلُبوا الدُّنيا بهذه الحِرَف، ولا تَطلُبوها بالدّين، فانّ الدِّينَ لي وحدي خالصًا، وَيْلٌ لمَن طَلَب الدّنيا بالدِّين وَيْلٌ له»[٢].

﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴾

٦٦ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا سليمانَ عليه السَّلامُ بمعجزةِ تسخيرِ الريح، فكان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ يجلسُ هو ووزراؤه على العرش، ويأمُر الريحَ ليذهبَ بهم حيث شاء، وهكذا كان عليه السَّلامُ يطوي المسافةَ التي تستغرقُ شهرًا في السَّفَر في ساعاتٍ قلائل، ليصلَ إلى الهدفِ المنشود، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢]، ولم يكنْ سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ ينظُر أثناءَ الرحلةِ يَمْنةً أو يَسْرة، وإنما كان يَحْني رأسَه تعظيمًا لله تعالى، وينشغلُ بذِكرِه[٣].

---

(١) المعجم الكبير، ١٩: ١٢٩.

(٢) كنز العمال، ١٠: ٢٠٦ برقم ٢٩٠٩١، البدر المنير، الإمام الشعراني، ٢٨٩ برقم ١٥٠٧.

(٣) «وهو مطأطىء رأسه ما يلتفت يمينًا ولا شمالاً تعظيمًا لله عز وجل وشكرًا». تفسير ابن كثير.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾

٦٧ ـ المرادُ بالشّياطين: الجِنُّ المتمرِّدُ الذين سَخَّرهم اللهُ تعالى لسيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، وكان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلام يُكلِّفُهم بأعمالٍ صعبة لا يمكنُ أن يقومَ بها الإنسان، كما كانوا يَغُوصونَ في أعماقِ البحار لاستخراج اللآلئ وغيرِها، وهذا الجنُّ وإن كان متمرِّدًا، لكنّ اللهَ تعالى جَعَل عليهم ملائكةً يراقبونَهم، حتى لا يتجرَّأوا على عصيانِ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾

٦٨ ـ يقولُ المفسِّرون: «كان أيوبُ نبيًّا من الرُّوم، وكان له أولادٌ ومالٌ كثير، فأذهبَ اللهُ مالَه فصَبَر، ثم أهلَكَ الأولادَ فصَبَر، ثم سَلَّط البلاءَ والمرضَ على جسمِه فصَبَر، فمرَّ عليه ملأٌ من قومِه فقالوا: ما أصابَه هذا إلا بذنبٍ عظيم، فعندَ ذلك تضرَّعَ إلى الله فكشَفَ عنه ضُرَّه، ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: أكثرُهم رحمةً فارحَمْني، ولم يُصرِّحْ بالدُّعاءِ ولكنّه وَصَف نفسَه بالعجزِ والضَّعف، ووصَفَ ربَّه بغايةِ الرحمة ليرحَمه، فكان فيه من حُسن التلطُّفِ ما ليس في التصريح بالطلب، ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي: أجَبْنا دعاءه وتضرُّعَه، ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ أي: أزَلْنا ما أصابَه من ضُرٍّ وبلاءٍ، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ قال ابنُ مسعود: مات أولادُه وهم سبعةٌ من الذكورِ وسبعةٌ من الإناث، فلما عُوفيَ أُحيوا له ووَلَدتْ له امرأتُه سبعةَ بنينَ وسبعَ بنات»[1].

﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾

٦٩ ـ في قصّة سيّدِنا أيوبَ عليه السَّلامُ نصيحةٌ للعابدين، بأنه إذا ما واجهَتْهم

---

(١) صفوة التفاسير.

المشاكلُ والمصائبُ في الطريقِ إلى اللهِ تعالى عليهم أن يَصبِروا متذكِّرينَ في ذلك المصائبَ التي واجَهها سيِّدُنا أيوبُ عليه السَّلام.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

٧٠ ـ لقد واجَه سيِّدُنا إسماعيلُ وسيِّدُنا إدريسُ وسيِّدُنا ذو الكِفْل ابتلاءاتٍ شديدةً، لكنّهم صَبَروا على كلِّ هذا، فأدخَلَهم اللهُ تعالى في رحمتِه الخاصّة.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾

٧١ ـ أرسَل اللهُ تعالى سيِّدَنا يونُسَ عليه السَّلامُ نبيًّا إلى نِينَوَى في العراق، وقد نَهَى عليه السَّلامُ أهلَ نِينَوَى عن الشِّرك، ودَعاهم إلى التوحيد، لكنّهم كذَّبوه، وازدادوا طُغيانًا وعصيانًا، فأنذَرَهم سيِّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ بالعذاب، مؤكِّدًا لهم أنّ العذابَ سينزِلُ عليهم في غضونِ ثلاثةِ أيام، وغَضِب هو عليهم، وتَرَكهم ورَحَل من عندِهم، ولم ينتظِرْ وحيًا من الله تعالى للقيام بهذه الهجرة، ورَغْم أنّ الهجرةَ من مناطقِ أمثالِ هؤلاءِ المشركينَ المعانِدينَ أمرٌ طيِّب، لكنّ الذي يليقُ بالنبيِّ هو انتظارُ الوحيِ منَ اللهِ تعالى.

يقولُ العلّامةُ الرازي: «فرَكِبَ معَهم، فلمّا تلجَّجتِ السّفينةُ تكفَّأَتْ بهم وكادوا أن يغرَقوا، فقال الملّاحونَ: هاهنا رجلٌ عاصٍ أو عبدٌ آبِقٌ؛ لأنّ السّفينةَ لا تفعَلُ هذا من غيرِ ريحٍ إلّا وفيها رجلٌ عاصٍ، ومِن رَسْمِنا أنّا إذا ابتُلينا بمثلِ هذا البلاءِ أن نقترعَ، فمَن وقَعتْ عليه القُرعةُ ألقَيْناهُ في البحر، ولأَنْ يغرقَ أحدٌ خيرٌ من أن تغرقَ السّفينة، فاقترَعوا ثلاثَ مرّاتٍ فوقَعتِ القُرعةُ فيها كلِّها على يونُسَ عليه السّلام، فقال: أنا الرّجلُ العاصي والعبدُ الآبِق، وألقَى نفسَه في البحر، فجاء

حوتٌ فابتَلَعه، فأوحَى اللهُ تعالى إلى الحوتِ: لا تُؤْذِ منه شعرةً، فإنّي جعلتُ بطنَك سِجنًا له ولم أجعَلْه طعامًا لك»[١].

خَرَج سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ دونَ أن ينتظرَ وحيًا من الله تعالى، وكان يتصوَّرُ أنه لا يرتكبُ بذلك خطأً، ولهذا لن يؤاخِذَه اللهُ تعالى على هذا، ولكنّه شَعَر وهو في بطنِ الحوتِ أنه قد أخطأَ في اجتهادِه بالخروج قبلَ أن يَنزِلَ إليه حُكمٌ من الله بالهجرة، ولهذا اعتَرف بخطأِه، ودَعا اللهَ وهو في ظُلماتِ بطنِ الحوت، واستجابَ اللهُ دعاءه، فأَخْرجَه الحوتُ من جَوْفِه وألقَى به على شاطئِ البحر.

فضل دعاء سيدنا يونس عليه السلام:

١ ـ قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سَعدٌ رضيَ اللهُ عنه: «دعوةُ ذي النُّونِ إذ دَعا وهو في بطنِ الحوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فإنه لم يَدْعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلا استجابَ اللهُ له»[٢].

٢ ـ ذاتَ مرّة، قال النبيُّ ﷺ لأصحابِه: «ألا أُخبِرُكم بشيءٍ إذا نَزَل برجلٍ منكم كَرْبٌ أو بلاءٌ من بلايا الدّنيا دَعا به يُفرَّج عنه؟» فقيل له: بلى، فقال: «دعاءُ ذي النُّون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[٣].

﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٧٢ ـ قال اللهُ تعالى:

١ ـ ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

---

(١) التفسير الكبير.
(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٢ برقم ٣٥٠٥.
(٣) المستدرك للحاكم، ١: ٦٨٥ برقم ١٨٦٤.

٢ ـ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

٣ ـ ﴿لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ويُعلَمُ من الآياتِ المذكورةِ أنّ اللهَ تعالى لا يَهدي الظالمين، وأنّ لعنةَ الله تنزِلُ على الظالمين، وأنّ الظالمَ لا يمكنُ أن يكونَ نبيًّا، لكنّ الجزءَ الأخيرَ من هذه الآية هو ما قاله سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلام: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

والآنَ إذا اعتقدَ أيُّ مسلم أنّ سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلام كان ظالمًا، فإنه بذلك يَكفُرُ والعياذُ بالله، وهنا يَبرُزُ سؤالٌ فَحْواه أنّ سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلام استَعمَل هذه الألفاظَ لنفسِه، وبيَّنها اللهُ تعالى في القرآنِ المَجيد، فلماذا لا نستطيعُ نحن أن نقولَ مِثلَ هذا؟

والحقيقةُ أنه حين يَستعمِلُ اللهُ تعالى لنفسِه لفظًا لا يَليقُ معناه الظاهريُّ بشأنِه تعالى، ينبغي أن نقومَ بتأويلِه، مثلَما استعمَل اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم لنفسِه ألفاظًا مثلَ السُّخْرِيَة من المنافقين، والمَكْرِ معَهم وكذا الخِداعُ، وهي لا تليقُ بشأنِ الله تعالى، لهذا نترُكُ معناها الظاهريُّ، ونقصِدُ إلى المعنى الذي يَليقُ بعظَمةِ الله تعالى. وبنفسِ الطريقة، إذا استَعمَل اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم أو في الحديثِ النبويِّ الشّريفِ لفظًا ما فيما يتعلَّقُ بنبيٍّ من الأنبياء، أو استَعمَل النبيُّ لفظًا ما لنفسِه ممّا لا يَليقُ معناه الظاهريُّ بشأنِ النبيِّ، يجبُ علينا تأويلُه، واللهُ تعالى هو المالكُ للأنبياءِ، ويستطيعُ أن يقولَ لهم ما يشاء، والأنبياءُ خاصّةُ الله من عبادِه، ويستطيعونَ التعبيرَ عن عَجْزِهم وتواضُعِهم أمامَ الله تعالى كما يُحِبُّون، لكنْ لا يجوزُ لنا نحن أن نقصِدَ إلى معنًى لا يَليقُ بشأنِهم وعظَمتِهم.

والسؤالُ الآنَ: لماذا استَعمَل سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلام هذه الألفاظَ الصَّعبةَ

---

(١) المستدرك للحاكم، ١: ٦٨٥ برقم ١٨٦٤.

لنفسِه؟ والجوابُ عن هذا أنّ تقوى النبيِّ تكونُ من الرِّفعة بمكانٍ بحيث يشعُر بأنّ الهَفْوةَ البسيطةَ بمثابةِ الخطأِ العظيم، ولهذا اعتَبَر سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ هفوتَه البسيطةَ هذه خطأً عظيمًا وقال عن نفسِه: إنه ظالم، وهذا من تواضُعِه لله تعالى، ودليلٌ على عظَمتِه وكمالِه، أمّا إن قال عنه مسلمٌ: إنه ظالم، سيكونُ هذا دليلًا على كُفرِه وحماقتِه.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾

٧٣ ـ كانت زوجةُ سيّدِنا زكريَّا عليه السَّلامُ عاقرًا، وكبِرَ سِنُّه، ولم يكنْ لدَيْه أولادٌ، وذاتَ يوم دعا اللهَ سبحانه وتعالى أن يَرزُقَه الولَدَ لكي يكونَ وارثًا لعلوم النُّبوّةِ من بعدِه، واستجابَ اللهُ تعالى دعاءه، ورزَقَه ابنًا هو سيّدُنا يحيى عليه السَّلام، وكان من المُسارِعينَ في الخير، والمتواضِعينَ لله عزَّ وجل، فإذا دعا اللهَ تعالى فكأنّه يأمُلُ في رحمةِ الله من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ يخشَى غضَبَه. ولمزيدٍ من التفصيل عن سيّدِنا زكريّا وسيّدِنا يحيى عليهما السَّلام راجع الآياتِ من ٣٨ إلى ٤١ من سورة آل عِمران (٣)، والآياتِ من ١ إلى ١٥ من سُورة مريَم (١٩).

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

٧٤ ـ كانت السيّدةُ مريَمُ عليها السَّلامُ عفيفةً طاهرة، وقد هيَّأ اللهُ تعالى لها ولادةَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بغيرِ أبٍ، وبمجرَّدِ نفخةٍ من جبريلَ الأمين، وبهذا أصبحتِ السيّدةُ مريَمُ وابنُها آيةً على قدرةِ الله تعالى أمامَ الدُّنيا كلِّها. ولمزيدٍ من التفصيل عن السيّدةِ مريَمَ وسيّدِنا عيسى عليهما السَّلام راجعِ الآياتِ من ٤٢ إلى ٦١ من سورة آل عِمران (٣)، وكذا الآياتُ من ١٦ إلى ٣٦ من سورة مريَم (١٩).

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

٧٥ ـ يقولُ العلّامةُ الصّابوني في تفسيرِ هذه الآية: «﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: دِينُكم ومِلّتُكم التي يجبُ أن تكونوا عليها أيُّها الناسُ مِلّةٌ واحدةٌ غيرُ مختلفة، وهي مِلّةُ الإسلام، والأنبياءُ كلُّهم جاءوا برسالة التوحيد، قال ابنُ عباس: معناه: دينُكم دينٌ واحد. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ أي: وأنا إلهُكم لا بَرَّ سِواي فأَفْرِدوني بالعبادة»[(١)].

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾

٧٦ ـ دَعا الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلامُ جميعًا إلى التوحيد، ولكنّ الناسَ اختَلَفوا في دينِهم بمرورِ الزَّمن، وتفرَّقوا شِيَعًا، وفي النِّهاية سيَرجِعونَ جميعًا إلى الله تعالى، حيث سيشاهدونَ بأنفسِهم ما الصَّحيحُ وما الخطأ.

اثنتان وسبعون وثلاث وسبعون فرقةً:

١ ـ قال رسولُ الله ﷺ فيما رواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «تفرّقتِ اليهودُ على إحدى وسبعينَ أو اثنتَيْنِ وسبعينَ فرقةً، والنّصارى مثلُ ذلك، وتَفترِقُ أُمّتي على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً»[(٢)]، وهذا حديثٌ حسَنٌ صحيح.

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: قال رسولُ الله ﷺ «...وإنّ بني إسرائيلَ تفرَّقتْ على ثِنتَيْنِ وسبعينَ مِلّةً، وتفترقُ أُمّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملّةً، كلُّهم في النّار، إلّا ملّةً واحدةً»، قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[(٣)].

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) الترمذي، أبواب الإيمان: باب ١٨ برقم ٢٦٤٠.

(٣) الترمذي، أبواب الإيمان: باب ١٨ برقم ٢٦٤١.

فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾

٧٧ ـ العملُ الصّالحُ الذي يعمَلُه المؤمنُ لا يَضيعُ هباءً، وإنما يُكتَبُ في صحيفةِ أعمالِه، وسيلقَى ثوابَه وأَجْرَه يومَ القيامة تأكيدًا.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾

٧٨ ـ الذين أهلَكَهم اللهُ تعالى بسببِ إصرارِهم على الكُفرِ انتهتْ ساعاتُ المُهلةِ

التي مَنَحهم اللهُ إياها من أَجْل التوبة، ولهذا لم يَعُدْ من الممكنِ الآنَ أن يُعادوا إلى الدُّنيا ثانيةً، وإنّما سيُبعَثُونَ يومَ القيامة للحساب، ومن علاماتِ قُرب قيام الساعة: خروجُ يَأْجُوجَ ومَأْجُوج، والذين سينتشِرونَ في كلِّ أنحاءِ العالَم بسرعةٍ وكثافةٍ عدَديّةٍ كبيرة، وسيبدو عندَها وكأنّ جيوشَ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ تنحدرُ من كلِّ جبلٍ وتلٍّ، ويَعِيثونَ في كلِّ جوانبِ الأرض فسادًا ودمارًا، ولمزيدٍ من التفصيل عن يَأْجُوج ومَأْجوجَ راجع الآيةَ رقم **٩٤** من سُورة الكهف (١٨)، وكذا الحاشيةُ رقم **٧٥**.

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

٧٩ ـ بعدَ خروج يَأْجوجَ ومَأْجوجَ سيكونُ قيامُ الساعةِ قدِ اقترَبَ تمامًا، وسيصيبُ الكافرينَ دهشةٌ عظيمةٌ عندَما يَروْنَ أهوالَ يوم القيامة، وسيَصرُخونَ قائلين: ليتَنا لم نَغفُلْ، ولقد بيَّن الأنبياءُ الكرامُ لنا كلَّ شيءٍ بتفصيلٍ ووضوح، ولكنَّنا نحن الذين ظلَمْنا أنفُسَنا، ولم نعتبرْ من كلامِهم أو نأخُذْ منه النصيحة.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾

٨٠ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ للمشركينَ بأنّهم وكلَّ ما يعبُدونَه من دونِ الله تعالى سيَدخُلونَ جهنَّمَ، ولو أنّ آلهتَهم حقيقةً تستحقُّ العبادةَ لَما دَخلوا جهنَّم، بينَما هم لن يدخلوا جهنَّمَ فقطْ، وإنما سيكونونَ وَقُودًا لها، وسيكونُ ضجيجُ صُراخِهم واستغاثاتِهم في جهنَّمَ مرتفعًا لدرجةٍ لا يَفهَمُ معَها أحدٌ ماذا يقولون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

٨١ ـ حين نَزلت الآيةُ رقم **٩٨** من هذه السُّورة قال مشركو مكّةَ: إنّ سيّدَنا

عيسى وسيّدَنا عُزَيرًا عليهما السَّلامُ يُعبَدانِ أيضًا، فهل سيَدخُلانِ النارَ أيضًا؟ وعندَئذٍ نَزَلت هذه الآيةُ، يعني: أنّ سيّدَنا عيسى وسيّدَنا عُزَيرًا لم يُرغِّبا أحدًا أو يَدعُواهُ لعبادتِهما، ولذا فهما ليسا مسئولَيْنِ عن هذا الشِّرك، ولهما الخيرُ والجنّةُ بفَضْلِ توحيدِهما وتقواهُما، وسيكونانِ أبعدَ ما يكونانِ عن جهنَّمَ بحيث لا يَسمَعانِ لها صوتًا، لكنّ الفِرعَونَ والنَّمرودَ وغيرَهما ممَّن ادَّعى الأُلوهيّةَ لنفسِه سيَدخُلونَ جهنَّمَ يقينًا، وسيكونونَ وَقودًا لها معَ الحجارةِ مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

٨٢ ـ عندَما يُبعَثُ عبادُ الله المقرَّبونَ من قبورِهم يومَ القيامة، لن تُحزِنَهم أهوالُ يوم القيامة ولن تُخيفَهم في شيءٍ، وإنّما ستستقبِلُهم الملائكةُ على أبوابِ قبورِهم، وعلى أبوابِ الجنّة أيضًا، وسيبشِّرونَهم بأنّ هذا هو اليومُ الذي وُعِدتُم من قبلُ، وسوف يُنعَمُ عليكمُ اليومَ بأَجْرٍ عظيم لقاءَ حَسَناتِكم بحيث تسعَدونَ غايةَ السَّعادةِ حينَ ترَوْنَ هذا الأَجْر.

رُويَ عن سيّدِنا ابن عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ على كُثْبانِ المِسك لا يَهُولُهم الفَزَعُ الأكبرُ يومَ القيامة: رجلٌ أَمَّ قومًا وهم به راضُون، ورجلٌ كان يؤذِّنُ في كلِّ يوم وليلةٍ، وعبدٌ أدّى حقَّ الله وحقَّ مَواليه»[1].

---

(١) تفسير الدر المنثور.

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

٨٣ ـ سوف يَطوي اللهُ تعالى السَّماءَ يومَ القيامةِ مثلَما يَطْوي كاتبٌ ورقةً كتَبَها ويُدخِلُها في غلافِها، ومثلَما خَلَق اللهُ تعالى بني الإنسان لأوّلِ مرة، سيبعَثُهم ثانيةً يومَ القيامة، وهذا وعدٌ منَ الله تعالى، واللهُ تعالى مُتِمٌّ وعدَه يقينًا.

يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنه: «يَطوي اللهُ السّمواتِ السَّبعَ بما فيها من الخليقة، والأرَضينَ السّبعَ بما فيها من الخَليقة، يَطْوي ذلك كلَّه بيمينِه، يكونُ ذلك كلُّه في يدِه بمنزِلةِ خَرْدلة»[1].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾

٨٤ ـ كَتَب اللهُ تعالى في الزَّبورِ أيضًا ـ بعدَ الوَعْظِ والنصائح ـ أنّ الصّالحينَ هم وَرَثةُ الأرض، وعندَ أكثرِ المفسِّرينَ المرادُ بالأرض هنا: هو أرضُ الجنّة؛ لأنّ ذِكرَ البعثِ من القبورِ والإحياءِ من جديد، أي: الآخرة، قد وَرَد في الآيتَيْنِ السابقتَيْنِ على هذه الآية، وهو دليلٌ واضحٌ على أنّ الأرضَ التي يجري الحديثُ حولَها الآنَ ليست أرضَ هذه الدنيا، وإنّما هي أرضُ الجنّةِ بعدَ البعثِ من جديد، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤]. ما أحسنَ ما قاله العلّامةُ القُرطُبيّ: «أحسَنُ ما قيل فيه أنه يرادُ بها أرضُ الجنّة؛ لأن الأرضَ في الدُّنيا قد وَرِثَها الصّالحونَ وغيرُهم»[2].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم.
(٢) تفسير القرطبي.

كما نَقَل العلّامةُ الرازي في تفسيرِه مقولةً مشهورةً يقولُ فيها: «ويقالُ في الأَثر: المُلْكُ يبقَى معَ الكُفر ولا يبقَى مع الظُّلم، فمعنى الآية: وما كان ربُّك ليُهلِكَ القُرى بظُلمٍ، أي: لا يُهلِكُهم بمجرَّدِ شركِهم إذا كانوا مُصلِحينَ يعاملُ بعضُهم بعضًا على الصَّلاح والسَّداد. وهذا تأويلُ أهل السُّنّةِ لهذه الآية، قالوا: والدّليلُ عليه: أنّ قومَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشُعَيبٍ إنّما نَزَل عليهم عذابُ الاستئصالِ لمّا حَكَى اللهُ تعالى عنهم من إيذاءِ النّاس وظُلم الخَلْق»[1]، يعني: أنّ أولئك الناسَ إمّا أنهم كانوا يغتصِبونَ حقوقَ بعضِهم، أو أنّهم كانوا يعتَدُونَ على الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام وعلى أهلِ الإيمان، ويَظلِمونَهم، والعذابُ في هذه الدُّنيا لا يكونُ بسببِ الكُفر والشِّركِ فقطْ؛ لأنّ العقابَ الأساسيَّ والكاملَ للكُفرِ والشِّرك هو نارُ جهنَّم، والذي سيتمُّ تنفيذُه في الآخِرة، وطالما بقيَ المسلمونَ متَّبعينَ للإسلام عاملينَ به، يعني: يَعدِلونَ معَ الناس ويكونونَ مُنصِفينَ معَهم، سيبقُونَ مُسيطرينَ على الأرض غالبينَ فيها، وإذا أَعْرضوا عن هذا العدلِ والإنصاف تخَلَّى عنهم النَّصرُ والغَلَبة، وتراجَعوا وزالوا.

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾

٨٥ ـ أَنْزل اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ هدايةً للبشَرِ جميعًا، لكنّ الذين يحصُلونَ على هذه الهداية هم أولئك الذين يتَّقونَ اللهَ تعالى. ومفهومُ هذه الآيةِ تقريبًا هو: أنّ رسالةَ الهداية في القرآنِ الكريم عامّةٌ للجميع، لكنّ الذين يحصُلونَ على الهداية من هذه الرِّسالة هم العابدون.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

٨٦ ـ الحمدُ لله ربِّ العالَمين، فهو الذي أرسَل نبيَّنا الحَبيبَ سيّدَنا محمدًا ﷺ

---

(١) التفسير الكبير، سورة هود (١١): الآية ١١٧.

رحمةً للعالمين، يعني: كلُّ من كان ربُّه الله، سيّدُنا محمدٌ ﷺ رحمةٌ له، ويقولُ العلّامة الأَلوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وكونُه ﷺ رحمةً للجميع باعتبارِ أنه عليه الصّلاةُ والسَّلامُ واسطةَ الفَيْض الإلهيِّ على الممكِنات على حسَبِ القوابل، ولذا كان نورُه ﷺ أولَ المخلوقات، ففي الخبرِ: أولُ ما خَلَق اللهُ تعالى نورَ نبيِّك يا جابر، وجاء: اللهُ تعالى المُعطي وأنا القاسم... لأنه ﷺ إنّما بُعِث رحمةً لكلِّ فردٍ فردٍ من العالَمين: ملائكتِهم وإنْسِهم وجنِّهم ولا فَرْقَ بينَ المؤمنِ والكافر من الإنس والجنِّ في ذلك، والرحمةُ متفاوتةٌ ولبعضٍ من العالَمين المُعَلَّى والرَّقيبُ منها»[١].

بعض الأحاديث المتعلقة برحمة النبي الكريم ﷺ:

١ ـ عن أبي هريرة، قال: قيل: يا رسولَ الله، ادْعُ على المشركين، قال: «إنّي لم أُبعَثْ لَعّانًا وإنّما بُعِثتُ رحمةً»[٢]، وعدَمُ دعاءِ النبيِّ ﷺ عليهم دليلٌ على رحمتِه.

٢ ـ ذاتَ مرَّة أرسَل اللهُ تعالى مَلَكَ الجبالِ إلى النبيِّ ﷺ قائلًا: إن شئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخْشَبَيْنِ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلم: «بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم مَن يَعبُدُ اللهَ وحدَه لا يُشركُ به شيئًا»[٣].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريـرةَ رضي اللهُ عنه: قال رسـولُ الله، ﷺ: «إنّمـا أنا رحمةٌ مُهْداةٌ»[٤].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ بَعثَني رحمةً وهدًى للعالَمين»[٥].

---

(١) تفسير روح المعاني.
(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٢٤ برقم ٢٥٩٩.
(٣) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٧ برقم ٣٢٣١.
(٤) دلائل النبوة، الإمام البيهقي، ١: ١٥٨.
(٥) مسند أحمد، ٥: ٢٥٧.

٥ ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: ما سُئل النّبيُّ ﷺ عن شيءٍ قطُّ فقال: «لا»[١].

٦ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: ما ضَرب رسولُ الله ﷺ شيئًا قطُّ بيدِه ولا امرأةً ولا خادمًا إلّا أن يجاهدَ في سبيل الله[٢].

٧ ـ تقولُ السيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بينَ أمرَيْنِ قطُّ إلّا أخذ أيسرَهما، ما لم يكنْ إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ النّاس منه، وما انتَقَم رسولُ الله ﷺ لنفسِه في شيءٍ قطُّ، إلّا أن تُنتهكَ حُرمةُ الله، فيَنتقِمُ بها لله»[٣].

٨ ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما: أَقْبَلْنا معَ رسولِ الله ﷺ من سَفَرٍ، حتّى إذا دُفِعنا إلى حائطٍ من حيطانِ بني النّجّار، إذا فيه جملٌ لا يَدخُلُ الحائطَ أحدٌ إلّا شَدَّ عليه، قال: فذَكَروا ذلك للنّبيّ ﷺ، فجاء حتّى أتى الحائطَ، فدعا البعيرَ، فجاء واضعًا مِشفَرَه إلى الأرضْ، حتّى بَرَكَ بينَ يدَيْه، قال: فقال النّبيُّ ﷺ: «هاتوا خِطامَه»، فخَطَمَه، ودَفَعه إلى صاحبِه، قال: ثمّ التفتَ إلى النّاس، قال: «إنّه ليس شيءٌ بينَ السّماءِ والأرض، إلّا يَعلَمُ أنّي رسولُ الله، إلّا عاصيَ الجنِّ والإنس»[٤].

﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴾

٨٧ ـ يعني: أنّ النبيَّ ﷺ قال لمشركي مكّةَ: إنّ الوحيَ الذي يأتيني خلاصتُه أنّ الذي تَليقُ به العبادةُ هو إلهٌ واحدٌ فقطْ، وهو اللهُ تعالى، فهل تؤمنونَ بالله الواحدِ أم لا؟ وإذا لم تؤمنوا بالله الواحد، فإنّي قد أَخبرتُكم ـ بصورةٍ واضحةٍ تمامَ الوضوح ـ أنّ العذابَ سيَنزِلُ عليكم بالضَّرورةِ بسببِ شِركِكم وإيذائكمُ

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٩ برقم ٦٠٣٤.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٢٠ برقم ٢٣٢٨.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب ٨٠ برقم ٦١٢٦.

(٤) مسند أحمد، ٣: ٣١٠، وسنن الدارمي، المقدمة، باب ٤ برقم ١٨.

المسلمين، لكن متى يَنزِلُ هذا العذابُ؟ هل في هذه الدُّنيا في شكلِ غزوةِ بَدْر، أم في الآخِرة بعدَ الحساب؟ هذا ما لا أعرِفُه أنا، إلى أن يُطلِعَني اللهُ عليه.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾

٨٨ ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم الكُفرَ الصَّريحَ للمشركين، ومؤامراتِهم الخَفِيَّة ضدَّ المسلمين، وسوف يُعاقبُهم طبقًا لكلِّ هذا.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾

٨٩ ـ بالرَّغم من ظُلم المشركينَ وجَوْرِهم، فإنّ التأخيرَ في نزولِ العذابِ الإلهيِّ عليهم قد يكونُ بقَصْدِ ابتلائهم، حتى يُعيدوا النظَرَ فيما يفعَلون، أو أنّ هناك وقتًا لمؤاخَذتِهم تمَّ تحديدُه من قبلُ، ولهذا أراد بقاءهم واستفادتَهم الدُّنيويّةَ حتى ذلك الوقتِ المقرَّر.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

٩٠ ـ عندما لم يؤمنِ المشركونَ برَغْم دعوتِهم بشكلٍ كامل، دعا النبيُّ ﷺ قائلًا: يا ربِّ، هؤلاءِ المشركونَ لا يقتنعونَ بلُغةِ الأدِلّةِ والبراهين، وليس هناك مَن يُستعانُ به في مواجهةِ عنادِهم سوى ذاتِك العَلِيّة، ولهذا كما أنّ حُكمَك في كلِّ أمرٍ هو الحقُّ دائمًا، لهذا لِتحكُمْ أنت الآنَ بيني وبينَ هؤلاءِ المشركين، بحيث ينتصرُ الحقُّ بصورةٍ واضحة. وهكذا بدَأَ تراجُعُ المشركينَ وزوالُهم بعدَ غزوةِ بَدْر بدرجةٍ وصَلتْ بهم في نهايةِ الأمر أنِ اضْطرَّتْهم إلى تسليم الكعبةِ المعظَّمة ومكّةَ المكرَّمةِ للمسلمين.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم: إنجلترا.
بعدَ صلاة العصر من يوم الجمُعة التاسع من مايو ٢٠٠٨م
الموافق الثالث من جُمادى الأولى ١٤٢٩هـ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٢٢) سُورَةُ الحَجِّ

بعضُ آياتِ هذه السُّورة مكِّيّة، نَزَلت في آخِر العهدِ المكِّي، وبعضُ آياتِها مَدَنيّة، نَزَلت بعدَ الهجرةِ إلى المدينة في بدايةِ العهدِ المَدَنيِّ، ولهذا يَرى البعضُ أنّ هذه السُّورةَ مكِّيةٌ، بينَما يَرى البعضُ الآخَرُ أنها مَدَنيّةٌ، لكنّ جمهورَ المفسِّرين على أنها مجموعةٌ من الآياتِ المكِّيّة والآياتِ المَدَنيّة[١].

اسم السورة:

اسمُ هذه السُّورة هو (الحَجُّ)؛ لأنّ اللهَ تعالى أَخبر في الآيةِ رقم **٢٧** منها أنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ حينَ أكمَل بناءَ الكعبة، نادَى في الناس بالحجِّ بأمرِ الله تعالى، وبالتالي وَصَل صوتُه إلى كلِّ أرجاءِ الأرض، بحيث سَمِعتْه النُّطَفُ في الأصلاب، والأَجِنّةُ في الأرحام، وقالوا مُجِيبينَ هذا النداءَ: لبَّيْكَ اللهُمَّ لبَّيْك[٢].

مضامين السورة:

الكُفّارُ لا يؤمنونَ بالآخِرة، ولا بالبعثِ بعدَ الموت، وفي بدايةِ السُّورةِ جَرى

---

(١) «قال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكي ومنها مدني». القرطبي.

(٢) «فنادى على جبل أبي قبيس: يا أيها الناس، إن ربكم بنى بيتًا، وأوجب عليكم الحج إليه، فأجيبوا ربكم. والتفت بوجهه يمينًا وشمالًا وشرقًا وغربًا، فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجال وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك». التفسير المنير.

إفهامُهم بأنّ اللهَ تعالى كما يُحيي الأرضَ البُورَ المَواتَ بإنزالِ المطرِ عليها، فهو قادرٌ أيضًا على إحياءِ بني الإنسانِ بعدَ الموت، ولذا ينبغي لهم أن يتخَلَّوْا عن عنادِهم وصَلَفِهم لكي ينجوَ من عذابِ الآخرة، وأن يؤمنوا بتوحيدِ الله تعالى وبالحياة الآخِرة.

ظلَّ المسلمونَ يتحمَّلونَ ظُلمَ الكُفّار لهم لأكثرَ من ثلاثةَ عشَرَ عامًا ويصبِرونَ عليه، وفي هذه السُّورة أَذِنَ اللهُ تعالى للمسلمينَ أن يَدفَعوا القوّةَ بالقوة، وفي نفسِ الوقت وَعَدَهم بالنُّصرةِ والتأييد، بمعنى: أنّ من يَنصُرُ دينَ الله تعالى ينصُرُه اللهُ أيضًا.

لو ظلَّ شعبٌ واحدٌ غالبًا دائمًا لَأصابَه الكِبَرُ إلى درجةٍ تجعَلُه يُقدِمُ على تدميرِ أماكنِ عباداتِ الشُّعوبِ والأُمم الأُخرى، أي: الخانقاهاتِ والكنائسِ والمساجد، ولهذا أَذِنَ اللهُ تعالى باستخدام القوّةِ ردًّا على مَن يعتدي بها، بغَرَض حِفظِ التوازُنِ بينَ الشُّعوب والأُمم، وحتى تستطيعَ كلُّ أُمّةٍ أداءَ عباداتِها في أماكنِ العبادةِ الخاصّة بها طبقًا لمعتقَداتِها، ولا يُقدِمَ أحدٌ على هَدْم أو تدميرِ دُورِ عبادةِ الآخَرين.

وفي الآية رقم ٤١ من هذه السُّورة جاء بيانٌ لبعضِ مسئوليّاتِ الحُكّام المسلمين، بمعنى: أنّهم إنْ أصبَحوا على رأسِ السُّلطة في الأرضِ، ينبغي لهم أن يقيموا الصّلاةَ، ويؤتوا الزَّكاةَ، ويَأمُروا بالمعروفِ وينهَوْا عن المنكر.

وفي هذه السُّورة جاء ذِكرُ توحيدِ الله تعالى وقُدرتِه بطُرُقٍ عديدة، كما جاء ذِكرُ عَجْزِ أولئك الذين يَعبُدُهم المشركونَ من دونِ الله تعالى، بمعنى: أنّهم

لا يستطيعونَ مجتمِعينَ خَلْقَ ولو ذبابةٍ، ولو سَلَبَهم الذُّبابُ شيئًا ما استطاعوا استعادَتَه منه، ولا يمكنُ أن تَليقَ العبادةُ بأمثالِ هذه الأشياءِ العاجزةِ المجبورة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العصرِ من يوم السبت العاشرِ من مايو ٢٠٠٨م
الموافق الرابعَ من جُمادى الأولى ١٤٢٩هـ.

❊ ❊ ❊

سُورَةُ الحَجِّ (٢٢)،

مدنية (١٠٣)، آياتها (٧٨)، ركوعاتها (١٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾

١ ـ نَقَل الحافظُ ابنُ كَثير في تفسيرِ هذه الآيةِ حديثًا طويلًا رواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال فيه رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ لمّا فَرَغ من خَلْق السّمواتِ والأرض خَلَق الصُّورَ، فأعطاهُ إسرافيلَ، فهو واضعُه على فيه، شاخصٌ ببصَرِه إلى العرش، ينتظرُ متى يؤمَرُ». قال أبو هريرة: يا رسولَ الله، وما الصُّور؟ قال: «قرنٌ»، قال: فكيف هو؟ قال: «قرنٌ عظيمٌ يُنفَخُ فيه ثلاثُ نفَخات، الأُولى: نفخةُ الفَزَع، والثّانية: نفخةُ الصَّعْق، والثّالثة: نفخةُ القيام لربِّ العالَمين، يَأمُرُ اللهُ إسرافيلَ بالنَّفخةِ الأُولى فيقول: انفُخْ نفخةَ الفَزَع. فيفزَعُ أهلُ السّموات وأهلُ الأرض، إلّا من شاء الله، ويأمُرُه فيمُدُّها ويُطَوّلُها ولا يفتَرُ، وهي الّتي يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [ص: ١٥] فيسيِّرُ اللهُ الجبالَ، فتكونُ سَرابًا، وتَرُجُّ الأرضُ بأهلِها رجًّا، وهي الّتي يقولُ الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٨]، فتكونُ الأرضُ كالسَّفينةِ الموبَقةِ في البحر، تضربُها الأمواجُ تكفَؤُها بأهلِها، وكالقنديلِ المعلَّقِ بالعرشِ ترجِّحُه الأرواحُ، فيمتَدُّ النّاسُ على ظهرِها، فتذهَلُ المَراضع، وتضَعُ الحوامل. ويشيبُ الوِلْدان، وتطيرُ الشّياطينُ هاربةً، حتّى تأتيَ الأقطارَ، فتلقّاها الملائكةُ فتضربُ وجوهَها، فترجعُ، ويُولّي النّاسُ مُدبرين، ينادي بعضُهم بعضًا، وهو الّذي يقولُ اللهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ * يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣]، فبينَما هم على ذلك إذِ انصدعَتِ الأرضُ من قُطرٍ إلى قطرٍ، فرأَوْا أمرًا عظيمًا، فأخذَهم لذلك

من الكربِ ما اللهُ أعلمُ به، ثمّ نَظَروا إلى السّماءِ فإذا هي كالمُهْل، ثمّ خُسِف شمسُها وخُسِف قمرُها، وانتَشَرت نجومُها، ثمّ كُشِطَت عنهم»، قال رسولُ الله ﷺ: «والأمواتُ لا يَعلَمونَ بشيءٍ من ذلك». قال أبو هريرة: فمَنِ استثنَى اللهُ حين يقولُ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، قال: أولئك الشّهداء، وإنّما يصِلُ الفزَعُ إلى الأحياء، أولئك أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقون، وَقاهم اللهُ شرَّ ذلك اليوم وآمَنَهم، وهو عذابُ الله يبعَثُه على شِرار خَلْقِه، وهو الّذي يقولُ الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «هي الزَّلزَلةُ المعروفةُ التي هي إحدى شرائطِ الساعة التي تكونُ في الدُّنيا قبلَ يوم القيامة؛ هذا قولُ المجهور»[2]، وقد قال القرآنُ الكريمُ عن هذه الزَّلزَلة: إنها شيءٌ عظيمٌ قاسٍ، يَذهَلُ عقولُ الناس عندَ رؤيةِ أهوالِه ويُعطِّلُها مثلَما تُعطِّلُها نَشْوةُ الخمر، معَ أنّ هذا ليس نشوةَ خمرٍ، وإنما الخوفُ والرُّعبُ من العذاب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾

٢ ـ كان النَّضرُ بن الحارثِ كافرًا قاسيَ القلب سيِّءَ الخُلُق كثيرَ الجِدال، وكان يدَّعي أنّ الإنسانَ عندَما يموتُ ويصيرُ ترابًا، لا يَقدِرُ اللهُ تعالى على بَعْثِه مرةً أخرى، وعليه نَزَلت هذه الآيةُ[3]، بمعنى: أنه كان يُجادلُ بغيرِ دليلٍ علميّ، ويتّبعُ الشيطانَ.

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) «المراد النضر بن الحارث، قال: إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابًا». القرطبي.

يقولُ العلّامةُ الصابونيُّ: إنّ حُكمَ هذه الآية عامٌّ، وأنّ من يُجادلُ في ذاتِ الله تعالى وصفاتِه بغيرِ دليل فإنه متَّبِعٌ للشّيطان[1].

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

٣ ـ بسبب تمرُّدِ الشّيطانِ وعصيانِه كَتَب اللهُ تعالى في لوحِ تقديرِه أنّ من يتولَّى الشّيطانَ، أي: يتَّبِعُ الوساوسَ الشّيطانيةَ، فإنّ الشّيطانَ سوف يُضِلُّه، ويجعَلُه يسيرُ على الطريقِ إلى جهنَّم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾

٤ ـ لو كنتُم تشُكُّونَ في الآخِرة وفي البَعْثِ بعدَ الموت، فتَفكَّروا في خَلْقِكم، فكما خَلَقَكم اللهُ تعالى لأولِ مرّةٍ من الطِّين، يستطيعُ أيضًا أن يَخلُقَكم ثانيةً بنفسِ الطريقة.

وأحدُ معاني خَلْق الإنسانِ من الطِّين: أنّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ الأولَ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلام من الطِّين، وأنتُم أولادُ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ هذا، ولهذا فإنّ أصلَكم أنتُم أيضًا من الطِّين. والمعنى الثاني: أنّ الغذاءَ الذي تتناولونَه من الثِّمارِ والخُضرواتِ أيضًا تَنبُتُ من الأرض، والحيَواناتِ التي تأكلونَ لحومَها تتربَّى هي أيضًا على محاصيلِ الأرض، ومن هذه الأغذِية تتكوَّنُ النُّطفةُ التي تستقرُّ في رَحِم الأُمِّ وتكونُ سببًا في ولادةِ الإنسان، ولهذا فإنّ أصلَكم ـ بناءً على هذا ـ هو الطِّين. على أيِّ حال، خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ الأولَ من الطِّين مباشرةً، وخَلَق أولادَ آدمَ من الطِّين أيضًا ولكنْ بواسطةٍ وبشكلٍ غيرِ مباشر، وفي الحالتَيْنِ أصلُ كلِّ إنسانٍ هو الطِّين.

---

(١) «والآية عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين». صفوة التفاسير.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

٥ ـ عندَما يلتقي الحَيوانُ المَنويُّ للرجُل ببُوَيْضةٍ للمرأة، يكونُ هذا اللقاءُ هو بدايةَ خَلْق الإنسان، وتتحوَّلُ هذه البُويْضةُ بعدَ فترةٍ إلى عَلَقة، أي: دم ذي قِوام متماسِك، ثم يتحوَّلُ هذا بدَوْرِه إلى قطعةٍ من اللَّحم، وحين يتَّخذُ شكلَ الإنسانِ بعدَ ذلك فإنّ هذا الجنينَ أحيانًا يكونُ متكاملَ الأعضاء والنموِّ بفَضْل الجِيناتِ المختلفة للحَيوانِ المَنويِّ والبُوَيْضة، وبالتالي يتشكَّلُ إنسانٌ قويُّ البِنية، وأحيانًا يكونُ الجنينُ ناقصَ النموِّ، فيولَدُ إنسانًا معاقًا ومشوَّهًا[١]، وعن طريقِ هذه المراحل التدريجيَّة نُظهِرُ قدرتَنا، حتى تُدركوا أنّ اللهَ الذي خَلَق من قطرةٍ لا رُوحَ فيها دمًا، ثم خَلَق من الدَّم لحمًا، ثم نَفَخ فيه الرُّوحَ وجَعَله إنسانًا حيًّا، يستطيعُ أن يعيدَ الرُّوحَ إلى الإنسانِ الميِّت ويُحيِيَه من جديدٍ، كما أنّنا نَخلُقُ من نشاءُ من الأطفال في صُورةٍ كاملة بعدَ أن نُقِرَّه في رَحِم أُمِّه لفترةٍ معيَّنة، ونُسقطُ من نشاءُ من الأجِنّة من رَحِم الأُمِّ قبلَ أن يُكملَ فترةَ نموِّه.

رُوي عن سيِّدِنا عبدِ الله بن مسعودٍ رضي اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ أحَدكم يُجمُع خَلْقُه (نُطفةً) في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمّ يكونُ عَلَقةً (دمًا متخثِّرًا) مثلَ ذلك، ثمّ يكونُ مُضغةً (قطعةَ لحم) مثلَ ذلك، ثمّ يَبعثُ اللهُ مَلَكًا، فيؤمَرُ بأربع كلماتٍ، ويقالُ له: اكتُبْ عمَلَه ورزقَه وأَجَلَه وشقيٌّ أو سعيدٌ. ثمّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ»[٢]. ويُعلَمُ من هذا أنّ المَلَكَ يَعرِفُ ـ بإخبارِ الله تعالى له ـ متى يأتي هذا الجنينُ الذي هو في بطنِ أُمِّه إلى الدنيا، وكيف سيكونُ عَملُه، وماذا سيكونُ

(١) «مخلّقةٍ وغير مخلّقةٍ: مصوّرة معالم الخلقة أو غير مصوّرة، أو مسوّاة لا نقص فيها ولا عيب، أي: تامة الخلق، وغير مسوّاة». التفسير المنير.

(٢) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٦ برقم ٣٢٠٨.

مستوى رزقِه (المالِ والثروةِ والعِلم والحِكمة)، ومتى يموتُ، وهل سيكونُ شقيًّا أم سعيدًا؟ وكما أنّ الملائكةَ يعرِفونَ كلَّ هذا بإخبارِ الله تعالى لهم، فإنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ والأولياءَ الصّالحينَ أيضًا يعرِفونَ الغيبَ بإخبارِ الله تعالى لهم على سَبيل المعجزةِ والكرامة، ولمزيدٍ من التفصيل في هذا الخصُوص راجعْ تفسيرَ الآية رقم ٣٤ من سُورة لُقمان (٣١).

﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾

٦ ـ يأتي الإنسانُ إلى هذه الدُّنيا في شكلِ طفلٍ ضعيف، يكونُ محتاجًا في نموِّه الجِسمانيِّ والذِّهنيِّ إلى الآخرين، وحين يَشِبُّ هذا الطِّفلُ ويصيرُ شابًّا تكونُ أعضاءُ جسمِه قويّةً وقُدراتُه الذِّهنيّةُ في أَوْجِها، ثم يموتُ البعضُ بينَ مرحلةِ الطُّفولةِ والشَّيخوخة، والبعضُ يصِلُ إلى مرحلةٍ من الشَّيخوخةِ هي أرذَلُ العمُر، حيث تكونُ أعضاؤه الجِسمانيّةُ في غايةِ الضَّعف، بما يجعَلُه محتاجًا إلى الآخَرينَ في تلبيةِ احتياجاتِه مثلَ الطِّفلِ الصغير، كما تكونُ ذاكرتُه أيضًا في غايةِ الضعف، بحيث ينسَى المعلوماتِ الخاصّةَ بذاتِه.

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾

٧ ـ في الجزءِ الأوّل من هذه الآية جاء ذِكرٌ لمراحل الخَلْق الإنسانيِّ في بطن الأُمِّ، وفي الجزءِ الثاني منها جاء ذِكرُ مراحلِ الطُّفولة وحتى الشَّيخوخة، وفي هذا الجزءِ الأخير جاء بيانُ البعثِ يومَ القيامة، بمعنى: أنه كما أنّ الأرضَ تكونُ يابسةً ومَواتًا، ولا أثرَ فيها لنباتٍ أو محصُولٍ مزروع، ثم يُنزِلُ اللهُ تعالى المطرَ على هذه

الأرضِ المَواتِ فيجعَلُها خضراءَ يانعةً، كذلك عندَما يموتُ الإنسانُ ويصيرُ ترابًا، وتَنعدمُ فيه آثارُ الحياة، فإنّ اللهَ تعالى يأمُر بنَفْخ الصُّور فيحيا هذا الإنسانُ من جديد، ولهذا فإنّ قيامَ الساعة والبعثَ هو عيْنُ الحقِّ، والله تعالى قادرٌ على كلِّ شيء.

قال أبو رَزين العُقَيْليُّ رضي اللهُ عنه: قلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيي اللهُ الموتى؟ وما آيةُ ذلك في خَلْقِه؟ قال: «أَما مرَرْتَ بوادي أهلِك مَحْلًا؟» قال: بلى، قال: «أمَا مَررْتَ به يهتَزُّ خَضِرًا؟» قال: قلت: بلى، قال: «ثمّ مرَرْتَ به مَحْلًا؟» قال: بلى، قال: «فكذلك يُحيي اللهُ الموتَى، وذلك آيتُه في خَلْقه»[1].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾

٨ ـ نَزَلتْ هذه الآيةُ في حقِّ أبي جَهْل[2]، يعني: أنه يُجادلُ في ذاتِ الله تعالى وصفاتِه بغيرِ دليلٍ علميٍّ أو عَقْلي، أو حتى دليلٍ سَماويّ، وحين لا يستطيعُ أحدٌ تقديمَ دليلٍ عَقْليٍّ أو نَقْليّ، فإنه بدَلًا من أن يخجَلَ من نفسِه وعَجْزِه، يتكبَّرُ ويُصِرُّ على رأيه، وينشَطُ في سَبيل إضلالِ الآخَرين، ولهذا سيصيبُه الخِزيُ في هذه الدنيا، وهكذا أهلَكَ اللهُ تعالى أبا جهلٍ وأَخْزاه في معركةِ بَدْر، وحين يُلقَى به في نار جهنَّمَ يومَ القيامة، سيقالُ له: إنّ اللهَ لم يَظلِمْك؛ لأنّ اللهَ تعالى عادلٌ لا يَظلِمُ أحدًا، وإنّما هذا جزاءُ أفعالِك السيِّئة التي ارتكبتَها أنت، ولو لم تكذِّبِ النبيَّ ﷺ، وعَمِلتَ الصالحاتِ لَما واجَهتَ هذا العذابَ اليومَ، ولذا فإنّ هذا هو حصادُ ما زَرَعتَ في الدُّنيا تحصُدُه اليومَ.

---

(١) مسند أحمد، ٤: ١١ برقم ١٥٧٦١.

(٢) «نزلت هذه الآية في أبي جهل». التفسيرالكبير.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾

٩ ـ في هذه الآياتِ بيانٌ لمثالٍ على ذلك المسلم المُذَبذَبِ الذي لا يؤمنُ إيمانًا كاملًا بدينِ الإسلام، وإنّما يقفُ على حافةِ الشكِّ، وحين ينالُ فائدةً دُنيويّةً تراه يَمدَحُ الإسلامَ ويُثني عليه، وإذا حَلَّ به ابتلاءٌ أَعْرضَ عن الإسلام وتحوَّلَ إلى الكُفر، ومثلُ هذا الشّخصِ يظَلُّ محرومًا في الدُّنيا من ثقةِ المسلمين، ويبقَى محرومًا من رحمةِ الله تعالى في الآخِرة.

يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، قال: كان الرّجلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإنْ وَلَدتِ امرأتُه غلامًا، ونَتَجت خَيْلُه قال: هذا دينٌ صالحٌ، وإن لم تلدِ امرأتُه ولم تَنتُجْ خيلُه قال: هذا دينُ سُوءٍ»[١].

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾

١٠ ـ أيًّا كان مَن يُعبَدُ من دونِ الله تعالى القادرِ المطلَق فإنه لا يَملِكُ نفعًا ولا ضَرًّا لأحد، وبالرَّغم من ذلك فإنّ من يأمُلُ نفعًا من هذا المعبودِ الباطلِ يكونُ في قمّةِ الضَّلال؛ لأنّ من الوَهْم، بل وفي حُكم المستحيل، أن ينفَعَه هذا المعبودُ الباطل، في حينَ أنّ الضُرَّ منه قريبٌ وواضح، بمعنى: أنه سيكونُ محرومًا في الدُّنيا من مالِ الغنيمة، وفي الآخِرة سيكونُ محرومًا من الجنّة، كما أنه حين يَرى معبودَه يحترقُ معَه يومَ القيامة بنار جهنَّم سيُناديهِ قائلًا: كم أنت صديقٌ سيِّئ! تحترقُ بنارِ جهنَّم، وأدخَلَتني أنا أيضًا معَك فيها.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾:

١١ ـ يقولُ الإمامُ الرازي في تفسيرِ هذه الآية: «إنّ حُسّادَه وأعداءَه (أي: النبيِّ ﷺ) كانوا يتوقَّعونَ أنْ لا ينصُرَه اللهُ وأن لا يُعليَه على أعدائه، فمتى شاهدوا أنّ اللهَ نَصَره غاظَهم ذلك»[٢]. والآنَ إنْ أراد أحدُهمُ النَّجاةَ من غمِّه وغضَبه هذا فإنه يَصعَدُ إلى مكانٍ مرتفع ويقفزُ من فوقِه منتحرًا، وبهذا ينتهي غمُّه وغضَبُه معَ نهايةِ حياتِه، أمّا إن بقيَ على قيْدِ الحياة فإنه سيبقَى يحترقُ في نارِ غيظِه وحِقدِه

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الحج (٢٢): باب ٢ برقم ٤٧٤٢.
(٢) التفسير الكبير.

كلَّما رأى ما يحقِّقُه النبيُّ ﷺ من إنجازاتٍ عظيمة؛ لأنّ اللهَ تعالى قد وَعَد النبيَّ ﷺ بالفَتْح والنُّصرة، واللهُ لا بدَّ مُتِمٌّ وَعْدَه ومُنجِزُه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾

١٢ ـ أَنْزل اللهُ تعالى القرآنَ المَجِيدَ بالدَّلائل الواضحة، وبفَضْل هذا القرآنِ يكونُ المستحِقُّ لهداية اللهِ تعالى هو ذلك الذي يعمَلُ على إرضائه دائمًا، وقد جاء هذا المفهومُ في آيةٍ أخرى قال فيها اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

١٣ ـ اليومَ يدَّعي المسلمُ واليهوديُّ وعابدُ النُّجوم والمَجُوسيُّ والمُشركُ أنه على حقٍّ، والباقونَ على باطل، وفي القرآنِ الكريم الدّلائلُ الواضحةُ على صِدق الإسلام وحَقّانيّتِه، وبالرَّغم من ذلك فإنّ مَن يتفكّرونَ في هذه الدّلائل ويتمعَّنُونَ فيها ثم لا يؤمنونَ بالإسلام، ويَحكُمُ اللهُ بعقابِهم يومَ القيامة، سيَعلَمُ كلُّ واحدٍ منهم حينَئذٍ أنّ الدِّين الإسلاميَّ فقطْ هو الحقُّ، وأنّ حُكمَ الله بذلك ليس مجرَّد كلامٍ سَمِعه، فهو نفسُه شاهدُ عِيان على كلِّ شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

١٤ ـ قال النَّحّاسُ: «أصلُ السُّجودِ في اللُّغة: الاستسلام والانقيادُ لله عزَّ وجلّ»[1]،

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٦.

والمرادُ بسجودِ كلِّ شيءٍ في السّماءِ والأرضِ باعتبارِ اللُّغة: أنه ملتزِمٌ بحُكم الله تعالى، وأنه لا يتجاوَزُ القواعدَ والضّوابطَ الموضوعةَ له.

أمّا إن قَصَدْنا المعنَى الاصطلاحيَّ للسُّجودِ مثلَما نسجُد في الصَّلاة، فيمكنُ أيضًا أن يكونَ معناه: أنّ كلَّ شيءٍ يسجُد بطريقتِه، ولكنّنا لا نفهَمُ كيفيّةَ سجودِه، مثلَما نعرِفُ أنّ كلَّ شيءٍ في السماءِ والأرضِ يسبِّحُ اللهَ تعالى، ولكنَّنا لا نُدركُ كيفيّةَ هذا التسبيحِ.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾

١٥ ـ بنو الإنسانِ قسمان؛ أكثرُهم الذين يخضَعونَ للأحكام الإلهيَّةِ ويُظهِرونَ عبُوديَّتَهم لله تعالى ويُعبِّرونَ عنها عمليًّا، ويطبّقُونَه في شكلِ وضع رءوسِهم على الأرض ساجدينَ في عبادةِ الله تعالى، وأمثالُ هؤلاءِ الطائعينَ يُدخلُهم اللهُ تعالى الجنّةَ في عزٍّ ووقار. أمّا الذين لا يعترفونَ بالأحكام الإلهيَّة، ولا يسجُدونَ لله عابدينَ له، فإنّ أمثالَ هؤلاءِ العُصاةِ كُتِب عليهمُ العذابُ، وسيَدخُلونَ جهنَّمَ في خِزْي شديد، والجنُّ أيضًا قسمانِ مثلُ البشَر؛ لأنّ بعضَهم مؤمنٌ والبعضُ الآخَرُ كافر.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ ﴾

١٦ ـ مَن هذانِ الفريقان؟ يقولُ بعضُ المفسِّرين: إنّ فريقًا منهم هم المسلمون، والفريقُ الثاني هم غيرُ المسلمينَ عمومًا، أي: اليهودُ والنَّصارى وعَبَدةُ النُّجوم والمَجُوسُ أو المشركون، وهم الذين كان يدورُ بينَهم الجدَلُ حولَ التعاليم الإسلاميّة، لكنّ الحديثَ الذي ذَكَره الإمامُ مسلمٌ في آخِر كتابِه «صحيح مسلم»، يُقسِمُ فيه سيّدُنا

أبو ذرٍّ رضي اللهُ عنه قائلًا: «إنّ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نَزَلت في الّذين بَرَزوا يومَ بدرٍ: حمزةَ وعليٍّ وعُبيدةَ بنِ الحارث (على الجانبِ الإسلاميِّ) وعُتبةَ وشَيْبةَ ابنَيْ ربيعةَ والوليدِ بن عُتبةَ (من جانبِ الكُفّار)»(١).

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾

١٧ ـ في هذه الآياتِ الأربعة (من الآية رقم ١٩ إلى الآية رقم ٢٢) ذَكَر اللهُ تعالى ثلاثةَ أقسام من العقابِ للكُفّارِ يومَ القيامة:

١ ـ سيُلبَسونَ ثيابًا من نار، يعني: كما أنّ اللِّباسَ يغطِّي جسمَ الإنسان، كذلك تُحيطُ النارُ بجسمِه كلِّه من الجوانبِ الأربعة.

٢ ـ سيُصَبُّ على رءوسِهم ماءٌ شديدُ الغَلَيان، سيَشْوي جلودَهم، بل وما في بطونِهم أيضًا.

٣ ـ ستُسحَقُ رءوسُهم بمقامعَ من حديد، وحين يحاولونَ الخروجَ من النارِ من شدّةِ الألم يُعادُونَ إليها ثانيةً، ويقال لهم: إنّ النارَ مستقرُّكم الأبَديّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) مسلم، كتاب التفسير، باب ٧ برقم ٥٧٦٢.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾

١٨ ـ الأساورُ الذَّهبيّةُ واللُّؤلؤُ والملابسُ الحريريَّةُ ترتديها النِّساءُ في هذه الدُّنيا، ولا تجوزُ للرجال، ولكنّ المؤمنينَ من الرِّجالِ سيُحَلَّوْنَ في الجنّةِ بالذهبِ والحرير.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾

١٩ ـ السببُ في دخولِ أهلِ الإيمان الجنّةَ وتنعُّمِهم بنِعَمِها هو أنّهم عندَما هُدوا في الدُّنيا إلى كلمةِ التوحيـدِ الطاهرة، وإلى طريـقِ الإسـلام العزيـز، آمَنوا بتوحيدِ الله عزَّ وجلَّ من أعماقِ قلوبِهم، والتزَموا مخلِصينَ تمامَ الإخلاص بمبادئ الإسلام الذَّهبيّة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾

٢٠ ـ عندَما مَنَع مشركو مكّةَ النبيَّ ﷺ والصَّحابةَ الكرامَ رضيَ اللهُ عنهم من دخولِ المسجدِ الحرام في عام الحُدَيْبيَة (العام السادسِ للهجرة)، نَزَلت هذه الآيةُ[1]، يعني: الذين يمنَعونَ غيرَ المسلمينَ من دخولِ الإسلام، ويمنَعونَ المسلمينَ من زيارةِ المسجدِ الحرام، معَ أنّ للمقيمينَ والمسافرينَ الحقَّ بالتَّساوي في المجيءِ إلى المسجدِ الحرام، ومن يُرِدِ الظُّلمَ في المسجدِ الحرام سيُواجِهُ عذابًا أليمًا، والذَّنبُ معيوبٌ في كلِّ مكان، لكنّه مضاعَفٌ في المسجدِ الحرام؛ لأنّ فيه معصيةً لله تعالى من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ إهانةً للمسجدِ الحرام.

---

(١) «قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: نزلت الآية في أبي سفيان بن حربٍ وأصحابه حين صدّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية عن المسجد الحرام عن أن يحجّوا ويعتمروا». التفسير الكبير والقرطبي.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾

٢١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ الغِفاريُّ رضي اللهُ عنه: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضع أوّلَ؟ قال: «المسجدُ الحرام»، قلتُ: ثمّ أيُّ؟ قال: «ثمّ المسجدُ الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون»(١).

ويُعلَمُ منه أنّ البَنَّاءَ الأولَ للمسجدِ الحرام هو سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام، وأنّ البَنَّاءَ الأولَ للمسجدِ الأقصَى كان أحدَ أبناءِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، ثم تَهدَّم مبنَى بيتِ الله في طُوفانِ سيّدِنا نوح عليه السَّلام، ومُحِيت آثارُه، فأرشَدَ اللهُ تعالى سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ إلى مكانِه، وقام سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ ببناءِ الكعبةِ ثانيةً بأمرِ الله تعالى، كما أنّ مبنَى المسجدِ الأقصَى قد تهدَّم هو الآخَرُ في طُوفانِ نُوح عليه السَّلام، فبَناهُ ثانيةً سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلام.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٤٠ برقم ٣٤٢٥.

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

٢٢ ـ المقصودُ بتطهيرِ وتنظيفِ بيتِ الله تعالى هو: أن تُنظَّفَ عِمارتُه من الترابِ والغُبار، وتُطهَّرَ بيئتُه من الكُفرِ والشِّرك، بحيث تطمئنُّ به قلوبُ وأنظارُ العابدين، ويَسجُدونَ لله تعالى الخالقِ الحقيقيِّ بكلِّ اطمئنانٍ وسَكِينة، ويُعلَمُ منه أنّ الاحتفاظَ بالمساجدِ نظيفةً طاهرةً هو حُكمُ الله تعالى، وسُنّةُ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، كما أنه يجبُ أن يكونَ القائمونَ على أمرِ المساجد صالحينَ متَّقين.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

٢٣ ـ يقولُ سيِّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «لمّا فَرَغ إبراهيمُ من بناءِ البيتِ قيل له: أذِّنْ في الناسِ بالحجِّ، قال: يا ربِّ، وما يَبلُغُ صوتي؟ قال: أذِّنْ وعليَّ الإبلاغ، فصَعِد إبراهيمُ على جَبَل أبي قُبَيْس وصاح: يا أيُّها الناس، إنّ اللهَ قد أمَرَكم بحجِّ هذا البيتِ ليُثيبَكم به الجنّةَ، ويُجيرَكم من عذابِ النار، فحُجُّوا، فأجابَه مَن كان في أصلابِ الرجال، وأرحام النِّساء: لبَّيْكَ اللهُمَّ لبَّيْك»[١]، ويقولُ مجاهدٌ: «فما حجَّ إنسانٌ ولا يحُجُّ أحدٌ حتّى تقومَ السّاعةُ إلّا وقد أسمَعَه ذلك النّداءَ، فمَن أجابَ مرّةً حجَّ مرّةً، ومن أجابَ مرّتَيْنِ أو أكثرَ فالحجُّ مرّتَيْنِ أو أكثرَ على ذلك المقدار»[٢].

لقد أصبح السَّفَرُ في أيامِنا هذه سهلًا ميسَّرًا بفَضْل الطائراتِ والسُّفُن، لكنْ في الزمنِ الماضي كان الناسُ يسافرونَ سفَرًا طويلًا في صُورةِ القوافل مشيًا على الأقدام ومُمْتَطِينَ ظهورَ الجمال، وكانت الجمالُ هي الأخرى تصابُ بالضَّعفِ والهُزال من كثرةِ الأسفارِ واستمراريَّتِها. على أيّةِ حال، سواءٌ كانت الحياةُ البسيطةُ والمركَبُ

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) التفسير الكبير.

البسيطُ كما في العهدِ القديم، أو الحياةُ المليئةُ بالمشاغلِ والمركَبُ السَّريعُ كما في العصرِ الحديث، فإنّ عددَ الزائرينَ لبيتِ الله الحرام في ازديادٍ مستمرٍّ.

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾

٢٤ ـ الفائدةُ الأساسيّةُ للحجِّ والهدَفُ الرئيسُ له هو مغفرةُ الذُّنوبِ ونَيْلُ رضى اللهِ تعالى، مثلَما قال سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقول: «مَن حجَّ لله فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ رَجَع كيومَ وَلَدتْه أُمُّه»(١)

وبالإضافةِ إلى الفوائدِ الدِّينيّةِ العظيـمةِ في اجتمـاعِ الحجِّ العظيـم، يمكنُ تحصيلُ فوائدَ دُنيويّةٍ منه أيضًا، ولو التزَم الحُكّامُ المسلمونَ بالحجِّ كلَّ عام، لاتَّخذَ الحجُّ شكلَ مؤتمرِ قمّةٍ سَنويٍّ لرؤساءِ العالَم الإسلاميِّ، فيجلسونَ معًا عن قُرب، ويتناقشونَ في المشاكلِ التي تواجِهُ المسلمينَ، مثلَما كان كلُّ حُكّام الولاياتِ والأقاليم على مستوى العالَم الإسلاميِّ يجتمعونَ معًا في مكّةَ في موسِم الحجِّ على عهدِ الخلفاءِ الرّاشدينَ، ويتشاوَرونَ فيما بينَهم بخصُوص أحوالِ كلِّ إقليم، ولكنْ للأسفِ الشّديد نَسِي المسلمونَ فيما بعدُ الأهميةَ العالميّةَ للحجِّ.

﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾

٢٥ ـ أيامُ النَّحر:

للأُضحيةِ ثلاثةُ أيام، يعني: يومُ العاشر والحاديَ عشَرَ والثانيَ عشَرَ من ذي الحِجّة، لكنّ الذَّبحَ في اليوم الأولِ هو الأفضَل(٢).

---

(١) البخاري، كتاب الحج، باب ٤ برقم ١٥٢٢.

(٢) «أيام النحر ثلاثة أفضلها أولها». القدوري: الجوهرة النيرة.

حيوان الأضحية:

تجوزُ الأُضحيّةُ بثلاثةِ أنواعٍ من الحيَوانات، يعني: الغنمَ والبقرَ والجاموسَ، ثم الجِمالَ، وتَدخُلُ فيها ذكورُها وإناثُها على السَّواء، والتَّضحيةُ بالبقرِ والجِمالِ يكونُ عن سبعةِ أفرادٍ لكلٍّ[1].

حكم الأضحية:

تجبُ الأُضحيّةُ على المسلم ـ رجلٍ أو امرأةٍ ـ إذا كان حرًّا مقيمًا يملِكُ ما يُضحِّي به، ولاحظِ الأحاديثَ النَّبويَّة التاليةَ في هذا الخصُوص:

١ ـ عن أبي هريرةَ، أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن كان له سَعةٌ ولم يُضَحِّ فلا يَقْرَبَنَّ مُصَلّانا»[2].

٢ ـ عن ابنِ عُمر، قال: أقام رسولُ الله ﷺ بالمدينة عَشْر سنينَ يُضَحّي[3].

٣ ـ عن أنسِ بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النّبيُّ ﷺ: «مَن ذَبَح قبلَ الصّلاةِ فإنّما ذَبَح لنفسِه، ومَن ذَبَح بعدَ الصّلاةِ فقد تمَّ نُسُكُه، وأصابَ سُنّةَ المسلمين»[4].

وهناك أُضحيةٌ أُخرى، وهي التي يُضحِّي بها الحُجَّاجُ في الحَرَم، وهم لا يُصَلُّونَ عيدَ الأضحى، لكنّ الأضاحيَ المذكورةَ في الأحاديثِ النَّبويّةِ السّابقةِ هي الأضاحي التي يَذبَحُها المسلمونَ في كلِّ بقاع الأرضِ كلٌّ في منطقتِه بعدَ صلاةِ

---

(١) عن جابر بن عبد الله، أنّ النّبيّ ﷺ قال: «البقرة عن سبعةٍ، والجزور عن سبعةٍ». أبوداود، كتاب الضحايا، باب ٧ برقم ٢٨٠٨.

(٢) ابن ماجه، أبواب الأضاحي، باب ٢ برقم ٣١٢٣.

(٣) الترمذي، أبواب الأضاحي، باب ١١ برقم ١٥٠٧.

(٤) البخاري، كتاب الأضاحي، باب ١ برقم ٥٥٤٦.

عيدِ الأضحى، وهي سُنّةٌ عن النبيِّ الكريم ﷺ؛ لأنه ﷺ كان يُضحِّي كلَّ عام بعدَ صلاةِ عيدِ الأضحى.

فضل الأضحية:

١ ـ عن عائشةَ، أنّ النّبيَّ ـ ﷺ ـ قال: «ما عَمِل ابنُ آدمَ يومَ النَّحْر عمَلًا أحبَّ إلى الله عزَّ وجلّ من هراقةِ دمٍ (ذَبْح الحيَوان)، وإنّه لَيأتي يومَ القيامة بقرونِها وأظلافِها وأشعارِها (يعني: أنّ كلَّ هذه الأشياءِ تكونُ في حسَناتِ المضَحِّي)، وإنّ الدَّمَ ليقعُ من الله عزَّ وجلّ بمكانٍ قبلَ أن يقعَ على الأرضِ، فطِيبوا (أيُّها المسلمون) بها نَفْسًا»[1].

٢ ـ عن زيدِ بن أرقَم، قال: قال أصحابُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ: يا رسولَ الله، ما هذه الأضاحيّ؟ قال: «سُنّةُ أبيكم إبراهيمَ»، قالوا: فما لنا فيها يا رسولَ الله؟ قال: «بكلِّ شعرةٍ حسَنةٌ». قالوا: فالصُّوفُ يا رسولَ الله؟ قال: «بكلِّ شعرةٍ من الصُّوفِ حسَنةٌ»[2].

لحوم الأضاحي:

المستحَبُّ هو تقسيمُ لحوم الأضاحيِّ إلى ثلاثةِ أقسام؛ قسمٌ لأصحابِ البيت، وقسمٌ يُتَصدَّقُ به، وقسمٌ يوزَّعُ على الأصدقاءِ والأحباب، وقد قال النبيُّ ﷺ: «فكُلوا وادَّخِروا وتَصدَّقوا (أي: من لحوم الأضاحي)»[3].

---

(١) ابن ماجه، أبواب الأضاحي، باب ٣ برقم ٣١٢٦.

(٢) ابن ماجه، أبواب الأضاحي، باب ٣ برقم ٣١٢٧.

(٣) مسلم، كتاب الأضاحي، باب ٥ برقم ٥١٠٣.

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾

٢٦ ـ بعدَ الإحرام يمتنعُ على الحاجِّ قصُّ الشَّعَرِ والأظافرِ والتعطُّرُ والاغتسالُ بغيرِ ضرورة، والحُجّاجُ رجالًا ونساءً يُحرِمونَ يومَ الثامِن من ذي الحِجّة من المسجدِ الحرام، ويَظَلُّونَ في سَفَر مستمرٍّ أيامَ الثامنِ والتاسع والعاشر، أي: لثلاثةِ أيام، وبالتالي تجتمعُ على الجِسم آثارُ الحرارةِ والعرَقِ والغُبارِ والتُّرابِ وغيرِها، ولهذا جاء الإرشادُ بأنْ يتحَلَّلوا من الإحرام يوم العاشرِ من ذي الحِجّة بعدَ الذَّبح، ويَحلِقوا رءوسَهم ويغتسِلوا ويُنظِّفوا أجسادَهم ممّا عَلِق بها، ويتعطَّروا، ولو كان أحدُهم قد نَذَر نذرًا، على سَبيل المثال: أن يَنذُرَ لو أنّ الله تعالى أكرَمَه بسعادةِ الحجِّ سيُصلِّي اثنتَيْ عشْرةَ ركعةً نَفْلًا، فعليه أن يوفيَ نَذْرَه، وغيرُ ذلك، ثم يَنشغلَ في أداءِ بقيّةِ مناسكِ الحجِّ.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾

٢٧ ـ المرادُ بالبيتِ العتيقِ: بيتُ الله، والمرادُ بهذا الطَّوافِ: الزِّيارةُ، وهذا ركنٌ من أركانِ الحجِّ وفرضٌ كذلك، وهذا الطَّوافُ يمكنُ أن يؤدَّى يومَ العاشِر والحاديَ عَشَر والثانيَ عَشَر من ذي الحِجّة.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾

٢٨ ـ المرادُ بحُرُماتِ الله تعالى ـ بصفةٍ عامّة ـ أحكامُ الله تعالى والأماكنُ المقدَّسة والمتَّقُونَ من الناس، لكنّ المرادَ بحُرُماتِ الله هنا: الأعمالُ المخصُوصةُ للحجِّ، وكذا الأماكنُ المخصُوصةُ له، على سَبيل المثال: بيتُ الله والطَّوافُ به، والصَّفا والمَرْوةُ والسَّعيُ بينَهما، ومنًى وعرَفاتٌ والقيامُ فيهما، وحيَوانُ الهَدْي وذَبْحُه، فأداءُ كلِّ هذه الأعمالِ بكلِّ أدبٍ واحترام، وكذا احترامُ الأماكنِ المقدَّسةِ

يكونُ موجِبًا للأَجْرِ الأفضَلِ في الآخِرة بالنِّسبة للسّادةِ الحُجّاج من الرِّجالِ والنِّساء على السَّواء.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

٢٩ ـ حرَّم مشركو العربِ العديدَ من الأنعام على أنفُسِهم بسببِ عقائدِهم الباطلة مثلَ: البَحِيرةِ والسائبةِ وغيرِهما، وهنا يُخبِرُ اللهُ تعالى المسلمينَ أنّ هذه الأنعامَ حلالٌ لكم، ما عدا تلكَ الحيَواناتِ التي جاء بيانُ حُرمتِها في القرآنِ الكريم والحديثِ النَّبويِّ الشّريف، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٢ والحاشيةَ رقم ٩ في تفسير الآيةِ الأُولى والثالثة من سُورةِ المائدة (٥).

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾

٣٠ ـ المرادُ بنجاسةِ الأوثانِ: عبادةُ غيرِ الله تعالى، والمرادُ بقولِ الزُّور رَغْم أنه يمكنُ أن يكونَ كلُّ قولٍ كذِبًا، لكنّ المرادَ هنا هو: كلامُ الكُفّارِ الممتلئُ شِركًا، والذي ينسُبونَه إلى الله تعالى، كقولِهم: إنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، وإن أكْلَ لحوم البَحِيرةِ والسائبةِ حرامٌ، وغيرِهما، ولهذا ينبغي للمسلمينَ تجنُّبُ كلِّ الأقوالِ والأفعالِ التي يَشُوبُها الشِّرك.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾

٣١ ـ لِتَثبُتْ على توحيدِ الله تعالى، ولْتُعرِضْ عن كلِّ باطل، ولا تُشرِكْ معَ الله أحدًا.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

٣٢ ـ مَثلُ الذي يُشركُ كمَثَلِ مَن سَقَط من السَّماء، فنَهشَتْه الطيورُ الجارِحةُ

وهو لا يزالُ يَهوِي من عَلٍ حتى شَوَّهت منظرَه، وإذا أَفْلَت من هذه الطيورِ ألقَتْ به الرِّيحُ بقوّةٍ في مكانٍ بعيد، فتمزَّق جسَدُه أشلاءً، وبعدَ الموتِ أيضًا ستُواجِهُ روحُ الشّخص السيِّئ الخِزْيَ والإذلالَ أيضًا، فيُلقَى بها من علياءِ السماءِ إلى قَعْرِ القبر، مثلَما جاء في الحديثِ الشّريف الذي رَواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النبيِّ ﷺ: «الميّتُ تَحضُرُه الملائكةُ، فإذا كان الرّجُلُ صالحًا قالوا: اخرُجي أيّتُها النّفسُ الطّيّبةُ كانت في الجسَدِ الطّيِّب، اخرُجي حَمِيدةً وأبْشِري برَوْحٍ ورَيْحان، وربٍّ غيرِ غَضْبان، فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتّى تَخرُج، ثمّ يُعرَجُ بها إلى السّماءِ فيُفتَحُ لها فيقال: مَن هذا؟ فيقولون: فلانٌ. فيقال: مرحبًا بالنَّفْس الطّيّبةِ كانت في الجسَدِ الطّيّب، ادخُلي حَميدةً، وأَبْشِري برَوْحٍ ورَيْحان وربٍّ غيرِ غَضْبان، فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتّى يُنتَهى بها إلى السّماءِ التي فيها اللهُ عزَّ وجلّ، وإذا كان الرّجُلِ السُّوءُ قال: اخرُجي أيّتُها النّفْسُ الخبيثةُ كانت في الجسدِ الخَبيث، اخرُجي ذَميمةً وأبْشِري بحميمٍ وغَسّاقٍ، وآخَرَ من شَكْلِه أزواجٌ. فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتّى تَخرُجَ، ثمّ يُعرَجُ بها إلى السّماءِ فلا يُفتَحُ لها، فيقال: مَن هذا؟ فيقال: فلانٌ. فيقال: لا مرحبًا بالنّفْس الخبيثةِ كانت في الجسَدِ الخبيث، ارجِعي ذَميمةً، فإنّها لا تُفتَحُ لكِ أبوابُ السّماء، فيُرسَلُ بها من السّماءِ ثمّ تَصيرُ إلى القبر»[1].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾

٣٣ ـ قال اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم عن الصَّفا والمَرْوة: إنها من شعائرِ الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وكذا قال عن حيَوانِ الأُضحية: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦]، ورَغَّب في

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣١ برقم ٤٢٦٢.

تعظيمِها، وفي هذه الآيةِ يقولُ اللهُ تعالى: إنّ الشخصَ الذي يُعظِّمُ شعائرَ الله فإنّ هذا التعظيمَ منه دليلٌ على تقواه، وعلى العكسِ من ذلك الشّخصُ الذي لا يُعظِّمُ شعائرَ الله عامدًا متعمِّدًا، ويَهتِكُ حُرمتَها، فإنّ فعلَه هذا يُعَدُّ دليلًا على أنّ قلبَه يخلو من خوفِ الله تعالى.

ويُعلَمُ منه أنّ الأشياءَ التي تتعلَّقُ بعبادِ الله الصّالحين، أو بأداءِ أحكام الله تعالى، إنّما هي من آياتِ الله الخاصّة، بمعنى أنّ تعظيمَ الصَّفا والمَرْوة، وحيَواناتِ الهّدْي، ومنًى وعَرَفات، وبيتِ الله والمساجدِ الأُخرى، وأَضْرحةِ الأنبياءِ والأولياء، وصُندوقِ التبرُّكات الخاصِّ بسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ وغيرِها، يُعَدُّ دليلًا على تقوى القلب، والقولُ بأنه شركٌ يخالفُ التعاليمَ القُرآنيّةَ، ولفَهْم حقيقةِ ذلك ينبغي معرفةُ الفَرْق بينَ العبادة والتعظيم، ولمزيدٍ من التفصيل راجع حواشيَ الآية **١٥٨** والآيةَ **٢٤٨** من سورة البقرة (**٢**).

﴿ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾

٣٤ ـ الأُضحيّةُ التي يَصطحبُها الحاجُّ أو المعتمِرُ بنيّةِ ذَبْحِها في الحَرَم يُطلَقُ عليه «الهَدْي»، أي: حيَوانُ التَّضحية، وللإنسانِ الحقُّ في الاستفادةِ من الأنعام التي سَخَّرها اللهُ تعالى للركوبِ وللألبان، لكنّ الحيَوانَ الذي يُخصّصُه للهَدْي لا تجوزُ الاستفادةُ منه في أيِّ مجالٍ آخَرَ؛ لأنه عندَما تمَّ تخصيصُ هذا الحيَوانِ لله تعالى بشكلٍ خالص، لا يصحُّ الاستفادةُ منه بشكلٍ شخصي؛ لأنّ هذا الحيَوانَ أصبح بذلك من شعائرِ الله التي يجبُ تعظيمُها، ويتنافَى معَ تعظيمِه الركوبُ عليه، أو حَمْلُ الأثقالِ فوقَه بما يؤلمُه ويؤذيه، أو يجعَلُه نحيفًا قليلَ السُّمنة، مثلَما قال مُجاهد: «﴿ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ قال: الركوبُ واللَّبنُ والوَلَد، فإذا سُمِّيت بدَنةً أو هَدْيًا ذهبَ كلُّه»[1]، لكنّ الاستفادةَ من حيَوانِ الهَدْي عند

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

الضَّرورة جائزٌ، على سَبيل المثال: لو أنّ شخصًا ساق جَمَلًا ليذبَحه هَدْيًا، وكان هذا الشخصُ يسيرُ على قدمَيْه، وليس لديهِ حيَوانٌ آخرُ يركَبُه، وأصبح من الصَّعب عليه أن يواصلَ السَّيرَ على قدمَيْه، فإنه ـ في هذه الحالةِ من الضَّرورة ـ يمكنُه أن يمتطيَ ظهرَ هذا الجَمَل. يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما عندما سُئل عن ركوبِ الهَدْي: سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقول: «اركَبْها بالمعروفِ إذا أُلجِئْتَ إليها حتّى تجدَ ظهرًا»[1].

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾

٣٥ ـ مكانُ ذَبْح الهَدْي بالقُربِ من بيتِ الله، والمرادُ به: كلُّ حَرَم مكّةَ، سواءٌ ذُبِح في منًى أم في أيِّ مكانٍ آخرَ من مكّة[2]، وباختصار: من الضَّروريِّ ذبحُ الهَدْي في حدودِ الحرم، ولا يجوزُ ذبحُه خارجَ حدودِ الحرم، أمّا ما عدا الهَدْيَ فإنّ الذّبحَ الواجبَ على الأغنياءِ يمكنُ أن يكونَ في أيِّ مكان، ولا يُشترَطُ ذبحُه في حدودِ الحرم، مثلَما يَذبَحُ مسلمو العالَم كلٌّ في بلدِه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ

---

(١) مسلم، كتاب الحج، باب ٦٥ برقم ١٣٢٤.

(٢) «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ في موضع الحال، أي: منتهية إلى البيت، والمراد به: ما يليه بعلاقة المجاورة فإنها لا تنتهي إلى البيت نفسه وإنما تنتهي إلى ما يقرب منه». روح المعاني.

ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾

٣٦ ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ حُكمَ الذَّبح في الإسلام ليس أمرًا جديدًا، وإنّما هي سلسلةٌ ممتدَّةٌ موجودةٌ لدى الأُمم السابقةِ أيضًا، حيث كانوا مأمورينَ بأن يَذكُروا اسمَ الله تعالى عندَ الذَّبح؛ لأنّ العبادةَ لا تليقُ إلّا بالله تعالى الواحدِ الأحدِ فقطْ، وطاعتُه لازمة.

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

٣٧ ـ في آخِر الآيةِ السّابقة جاءتِ البُشرى بالجنّةِ للمتواضِعين، وفي هذه الآيةِ جاء بيانُ أربع صفاتٍ لهم، يعني: حينَ يُذكَرُ اللهُ تعالى أمامَهم ترتعدُ قلوبُهم خَشْيةً من جَلال الله، وإن حَلَّت بهم المصائبُ لا يخافونَ ولا يَضْطَرِبون، وإنما يصبِرون، ويقيمونَ الصّلاةَ، ويُنفقونَ ممّا رَزَقَهم اللهُ تعالى على فعلِ الخير.

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ ﴾

٣٨ ـ الجِمالُ المخصَّصةُ للتّضحية بها ذبحًا تُعَدُّ من شعائرِ الله أيضًا، ولكم فيها خيرٌ في الدُّنيا والآخِرة، ففي الدُّنيا تأكلونَ لحومَها، وفي الآخِرة ستكونُ هذه سببًا لنجاتِكم.

وطريقةُ ذَبْحِها: أن تَربِطوا قدَمها اليُسرى الأماميّةَ معَ فَخذِها، وتجعلوها تقفُ على الأرجُل الثلاثةِ الباقية، ثم تضربوها برُمح في عنُقِها وأنتم تَذكُرونَ اللهَ

تعالى، فيسيلُ دمُها، وحين تَسقُطُ على الأرضِ بعدَ خروج روحِها، فاقطَعوا من لحومِها، وكلوا وأطعِموا الفقراءَ والمحتاجينَ من لحومِها، سواءٌ سألوكُم العطاءَ أم لم يسألُوكم.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

٣٩ ـ جَعَلَ اللهُ تعالى الجَمَلَ تابعًا للإنسانِ مسخَّرًا له، رَغْمَ طولِه المُفرِط وضخامةِ حجمِه، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يشكُرَ اللهَ تعالى على هذه النِّعم.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾

٤٠ ـ بيَّنت هذه الألفاظُ فلسفةَ الذَّبح، يعني: أنّ لحمَ الذَّبيحة لا يَصِلُ إلى اللهِ تعالى، وإنما يأكلُه الإنسانُ، لكنّ الذي يَصِلُ إلى الله تعالى هو تقوى قلوبِكم، بمعنى إلى أيِّ مدًى نفَّذتُم حُكمَ الله تعالى مخلِصينَ، وبقَدْرِ ما يزيدُ الإخلاصَ في أعمالِ الإنسانِ بقَدْرِ ما يزيدُ أَجْرُه على هذه الأعمال.

وبالإضافةِ إلى الذَّبح، فإنّ هذه أيضًا هي فلسفةُ العباداتِ الأخرى، على سبيل المثال: لا تَصِلُ إلى اللهِ الحركاتُ التي نؤدِّيها في الصلاة، والجوعُ الذي نعانيه في الصِّيام، وإنما تَصِلُه تقوى قلوبِنا، أي: إلى أيّ مدًى أدَّينا حُكمَ الصّلاةِ والصِّيام مخلِصينَ، مثلَما وَرَد عن النبيِّ ﷺ فيما يلي:

١ ـ عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكنْ ينظُرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم»[1].

٢ ـ عن عُمرَ بن الخطابِ رضي اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّما الأعمالُ بالنِّيات، وإنّما لكلِّ امرئٍ ما نَوى»[2].

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٠ برقم ٢٥٤٦.

(٢) البخاري، بدء الوحي، باب ١.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾

٤١ ـ لقد سَخَّر اللهُ تعالى لكم الحيَواناتِ الضَّخمةَ، وأَنْعم عليكم بالهدايةِ والقُدرةِ على تسخيرِها، لهذا عليكمُ أن تتبيَّنوا عظَمةَ الله تعالى على ما مَنَحكم من هذا التفضيل، وحين تذبَحونَ هذه الحيَواناتِ عليكم أن تَذكُروا اسمَ الله تعالى عند ذَبْحِها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

٤٢ ـ في السَّنَةِ السادسةِ للهجرة توجَّه النبيُّ ﷺ مع ما يقرُبُ من ألفٍ وأربعِمائة من أصحابِه بغرضِ أداءِ العُمرة، فأَوْقفَهم كُفّارُ مكّةَ عندَ الحُدَيْبِيَة، ومنَعوهم من دخولِ المسجدِ الحرام، وهو ما جاء ذِكرُه في الآيةِ رقم (٢٥)، والظاهرُ أنّ المسلمينَ تألَّموا لذلك كثيرًا، ولهذا بشَّر اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ في هذه الآية الكريمة بأنّ اللهَ تعالى سيدافعُ عن الذين آمَنوا، وسوف يقضي على سيطرةِ كُفّارِ مكّةَ الخائنينَ الجاحدينَ على مكّة، وهكذا ـ وبعدَ عامَيْنِ فقطْ، وفي العام الثامنِ للهجرة ـ لقيَ كُفّارُ مكّةَ هزيمةً ساحقةً، بحيث أصبحتِ الغَلَبةُ في مكّةَ كلِّها للمسلمين.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

٤٣ ـ عندَما أعلَن نبيُّنا الحَبيبُ ﷺ أنّ ربَّنا هو اللهُ تعالى فقطْ، أخَذ كُفّارُ مكّةَ، الذين يعبُدونَ مئآتِ الآلهة، في إيقاع الظُّلم بالمسلمين، وكان الصّحابةُ الكرامُ رضي اللهُ عنهم «يأتُونَ رسولَ الله ﷺ بينَ مضروبٍ ومَشْجوح، ويتظلَّمونَ إليه فيقولُ لهم: اصبِروا، فإنّي لم أُومَرْ بقتالِهم، حتى هاجَروا، فأُنزِلت هذه الآيةُ، وهي أولُ آيةٍ أُذِن فيها بالقتالِ بعدَما نُهِيَ عنه في أكثرَ من سبعينَ آيةً»[1]، حتى يتمكَّنَ المسلمونَ من استعمالِ القوّةِ في الدِّفاع عن أنفسِهم، وفي نفسِ الوقت أعلَن أنه بالرَّغم من أنّ عددَ المسلمينَ في هذا الوقتِ قليلٌ قياسًا بعدَدِ الكفّار، لكنّ اللهَ تعالى سيَنصُرُ أهلَ الإيمان.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ﴾

٤٤ ـ ظَلَّت سُنّةُ الله تعالى أنه عندَما يصلُ قومٌ ظالم إلى قمّةِ ظُلمِهم، فإنّ اللهَ تعالى يُسلِّطُ عليهم قومًا آخرينَ يقضُونَ على هذا الظُّلم، وهذا فَضْلٌ خاصٌّ من الله تعالى على الأرض؛ لأنه إنْ ظلَّ قومٌ ظالمٌ واحدٌ في السُّلطة دائمًا، فإنه سيوقعُ ظلمًا

---

(١) صفوة التفاسير.

عظيمًا بالأقوام الضَّعيفة، بل إنه سيهدمُ دُورَ عبادتِهم أيضًا، ولو لم يأذَنِ اللهُ تعالى لأهلِ الحقِّ، أي: للموحِّدينَ بالله، بالجهاد، ولو لم تُجاهد الأُممُ السابقةُ ضدَّ الأُمم الطاغية، لَما نَجَت دورُ عبادةِ أيِّ دينٍ من الأديان، ولَما بَقِيت دُورُ العبادةِ في زمن سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ قائمةً، ولَما نَجَت من الهَدْم دُورُ العبادةِ في زمنِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾

٤٥ ـ الذين يَنصُرونَ دينَ الله تعالى بإخلاصٍ وصِدقٍ فإنّ اللهَ تعالى ينصُرُهم، مثلَما حدَثَ في غزوةِ بَدْر، حيث اضْطَرَّ جيشٌ قِوامُه ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ رجلًا أعزلَ جيشًا من ألفِ رجلٍ مسَلَّحينَ إلى الفِرار، ونحن اليومَ في حاجةٍ مرةً ثانيةً إلى أن نَخلُقَ بداخِلنا إخلاصَ وصِدقَ أهلِ بدر:

ـ اخلُقْ جوَّ بدرٍ الآنَ أيضًا وستَنزِلُ الملائكةُ صفوفًا من الأفلاكِ لتنصُرَك.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾:

٤٦ ـ شأنُ أهلِ الإيمانِ أنه حينَ يُنعِمُ اللهُ تعالى عليهم بحُكم بلدٍ من البلاد، فإنّهم يؤسِّسونَ نظامًا يساعدُ على إقامةِ الصّلاة، وإيتاءِ الزكاة، والأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المنكَر، ثم بعدَ ذلك يفوِّضونَ الأمورَ كلَّها لله تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو المالكُ الحقيقيُّ للقوّةِ والغَلَبة، ورَغْم أنّ هذا حُكمٌ عامّ، لكنّ المحقِّقينَ يستنتجونَ أن المرادَ منه هم الخلفاءُ الراشِدونَ رضوانُ الله عليهم، وهم الذين ضَرَبوا المَثَل العمَليَّ في تنفيذِ النِّظام الإسلاميِّ على الأرض[1]، وقد جاء العديدُ من الحُكّام العادلينَ

(١) «وهو صفة الخلفاء الرّاشدين الّذين مكّنهم الله في الأرض، وهم: أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعليٌّ رضي الله عنهم، ولم يكن في الأرض غيرهم». أحكام القرآن للجصاص وتفسير القرطبي.

الصّالحينَ بعدَ الخلفاءِ الرّاشدين، لكنّ نظامَ الخيرِ والفلاح الذي أقامَه الخلفاءُ الراشدونَ رضيَ اللهُ عنهم لا نجدُ له مثالًا عندَ مَن جاء من بعدِهم.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

٤٧ ـ في هذه الآيةِ تسريةٌ عن قلبِ المصطَفى ﷺ، بأنّ كُفّارَ مكّةَ يكذِّبونَك، وهذا ليس بالأمرِ الجديد، إذ إنّ الأُمَم السابقةَ أيضًا كذَّبت رُسُلَها، وكنتُ أمنَحُهم مُهلةً، ولكنْ عندما انتَهى وقتُ المُهلة أَنْزلتُ عليهم عذابًا قضَى على كلِّ أثرٍ لهم في الوجود. وبنفْسِ الطريقة، إن لم يستفِدْ أهلُ مكّةَ من هذه المُهلة التي أعطاها اللهُ لهم، ولكنْ لأنّك رحمةٌ للعالَمينَ جميعًا، فإنّه لن يَنزِلَ عليهم العذابُ مثلَما حدَثَ معَ الأُمم السّابقة حالَ وجودِك بينَهم، إذ إنّ هذا يتنافَى معَ شأنِ كونِك رحمةً، ومعَ ذلك ستنتهي سيطرةُ أهلِ مكّةَ قريبًا من مكّة، وسيَدخُل الناسُ في دِين الله أفواجًا.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾

٤٨ ـ التاريخُ شاهدٌ على أنّ الأُمَم التي لم تستفِدْ من المُهلةِ التي أعطاها لهم اللهُ تعالى، وحان وقتُ نزولِ العذابِ عليهم، تهدَّمت قُراهم وأصبحتْ والأرضَ سواءً، كما تهدَّمت آبارُهم وقصورُهم أيضًا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

٤٩ ـ ألم يرَ أهلُ مكّةَ في أسفارِهم أطلالَ قُرى ومساكنِ الأُمم السابقة، وألم يسمَعوا قَصصَ دمارِهم، حتى يَعرِفوا عاقبةَ الظُّلم؟ لكنّ الظالمينَ يرَوْنَ كلَّ شيء،

وعيونُهم ليست عَمْياء، وإنّما قلوبُهم هي العمياءُ في الحقيقة، وهم لا يعتبِرونَ من الأحداثِ السابقة بالتمعُّن فيها.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

٥٠ ـ كان مشركو مكّةَ يتساءلونَ: لماذا لم يَنزِل العذابُ عليهم إن كانوا على خطأٍ؟ ولهذا يُخبِرُهم اللهُ تعالى في هذه الآية بأنّ وعدَ الله حقٌّ، وأنّ العذابَ سيَنزِلُ عليكم يقينًا، لكنّ ازدهارَ الأُمم وانحطاطَها لا يكونُ في أيام أو شهور، وإنّما يستغرقُ ذلك قرونًا. وهناك تفسيرٌ آخَرُ لهذا، وهو: أنهم قد نَزَل عليهم العذابُ في هذه الدنيا بالفعلِ في صُورةِ معركةِ بَدْر، حيث هَزَم جيشٌ من العُزَّل قِوامُه ثلاثُمائة وثلاثةَ عشَرَ رجلًا جيشًا من ألفِ رجُل مسلَّح هزيمةً منكَرة، وقَتَلوا منهم سبعينَ رجلًا، وأَسَروا سبعينَ آخَرين، وسيَنزِلُ العذابُ عليهم في الآخِرة بحيث سيكونُ اليومُ الواحدُ فيه يَعدِلُ خمسينَ ألفَ سنة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

لكنّ مِثلَ هذا اليوم بالنِّسبة لأهل الإيمانِ سيكونُ أقلَّ من وقتٍ تؤدَّى فيه صلاةٌ مفروضةٌ واحدة[١]، ولكنْ كيف سيكونُ الحسابُ يومَ القيامة لكلِّ الناس من لَدُن آدمَ عليه السَّلامُ وحتى قيام الساعة، وكم سيستغرقُ ذلك من الوقت؟ للإجابةِ عن هذا بالتفصيل راجعِ الآيةَ رقم ٦٢ من سُورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشيةُ رقم ٦٠.

---

(١) قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذى نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا». مسند أحمد، ٣: ٧٥.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾

٥١ ـ يعني: مهما كانت المُهلةُ التي أمنَحُها للقوم الظالمينَ فإنّهم لن يُفلتوا من أَخْذي، وفي نهايةِ الأمر سيَرجِعُ الجميعُ إليَّ.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

٥٢ ـ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ سيَغفرُ اللهُ تعالى لهم، وسيُنعمُ عليهم برزقِ العزِّ والوقارِ في الجنّة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾

٥٣ ـ الذين يعمَلونَ دائمًا على تكذيبِ آياتِ الله تعالى بقَصْد أن يُعجِزوا أهلَ الإيمان ويُفشِلوهم سيَدخُلونَ جهنَّمَ يقينًا.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾

٥٤ ـ عندَما كان النبيُّ ﷺ يَتْلو آياتِ القرآنِ الكريم، كان الشيطانُ يُلقي بالشُّكوكِ والشُّبُهاتِ حولَ تلك الآياتِ في قلوبِ المنكِرينَ والمُذَبذَبين من الناس، وهكذا كانوا يقومونَ بإثارةِ اعتراضاتٍ مختلفة، مثلَما جاء في موضع آخَرَ من القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وعليه طَمْأنَ اللهُ تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ بأنّ هذا ليس بالأمرِ الجديد، إذْ كان الشّيطانُ يُلقي بالوَساوسِ والشُّبُهاتِ في قلوبِ الناس من الأُمم السابقةِ حين كان أنبياؤهم ورُسُلُهم يَتْلُونَ الآياتِ.

وفي هذا الخصُوص نُقِلت قصّةٌ من اللَّغو ناتجةٌ عن عَدَم احترازِ بعض السّادةِ البُسَطاءِ السُّذَّج، يعني: أنه بتأثيرٍ من وساوسِ الشّيطانِ خَرَج من لسانِ النبيِّ الكريم ﷺ قولُه: إنّ الشّفاعةَ مأمولةٌ أيضًا من الأصنام ـ والعياذُ بالله ـ لكنّ الباحثينَ أَثْبتوا أنّ هذه القصّةَ لا أساسَ لها من الصِّحة ولا أصلَ لها، كما أنّ إجماعَ الأُمّةِ أيضًا على أنّ النبيَّ ﷺ معصومٌ بشكلٍ كاملٍ في تبليغِه كلامَ الله تعالى، ولا يمكنُ أن يَصدُرَ عنه خطأٌ ولو على سَبيلِ الخطأ؛ لأنه لو كان هذا ممكنًا لَأصبحت الأحكامُ والآياتُ، بل والدِّينُ كلُّه، موضعَ شكّ، ولكنْ من الممكنِ أن يكونَ أحدُ الجالسينَ في مجلسِه ﷺ من المشركينَ أو المنافقينَ قد نَطَق هذه الكلماتِ، والمشركونَ كثيرًا ما يُطلقونَ مِثلَ هذه الاتّهاماتِ الملَفَّقة، والتي لا تؤثِّرُ بأيِّ حال من الأحوال على الوَحْيِ الإلهيِّ ولا على تلاوةِ النبيِّ ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل راجعْ هذا الموضعَ في تفسيرِ ضياءِ القرآن.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾

٥٥ ـ كلما ألقَى الشّيطانُ الوساوسَ والشُّكوكَ في قلوبِ الناس، كان اللهُ تعالى يمحو هذه الوساوسَ الشّيطانيَّةَ بآياتٍ محكَماتٍ أخرى، فيقوى إيمانُ الناسِ ثانيةً.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾

٥٦ ـ يعني: أنّ الذين يَضِلُّونَ بسببِ ما يُلقيه الشّيطانُ من وساوسَ وشُكوكٍ وشُبُهاتٍ هم فقطِ الذين في قلوبِهم مرضُ النِّفاق، أو أولئك الذين قَسَتْ قلوبُهم من كثرةِ الظُّلم وشدّةِ المخالفة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

٥٧ ـ القدرةُ التي أعطاها اللهُ للشّيطان على إلقاءِ الوساوسِ والشُّكوكِ في القلوب، إنما هي من جانبٍ وسيلةٌ لابتلاءِ المنكِرينَ والمُذَبْذَبينَ، ومن جانبٍ آخَرَ وسيلةٌ لتقدُّم أهلِ العلم وأهل الحقِّ في نورِ الهداية؛ لأنّ أهلَ العلم حين يتدبَّرونَ معانيَ الآياتِ القرآنيّة تتيقَّنُ قلوبُهم من صِدق القرآن، ويؤمنونَ به على أنه الحقُّ، وببركةِ هذا الإيمانِ يُنعمُ اللهُ تعالى عليهم بأن يُسيِّرَهم على الطريقِ المستقيم الذي يأخُذُهم إلى الجنة.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾

٥٨ ـ الكُفّارُ لا يتدبَّرونَ القرآنَ بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم، وسوف يَظَلُّونَ

دائمًا مبتَلَيْنَ بوساوسِ الشّيطانِ وشكوكِه، إلى أن تأتيَهم الساعةُ بَغْتةً، أو يَنزِلَ عليهم عذابٌ يقضي عليهم قضاءً مبرَمًا.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

٥٩ ـ الحقيقةُ أنّ الحُكمَ اليومَ أيضًا للهِ تعالى يقينًا، وإنّما الكثيرُ من الناس في أيامِنا هذه لا يؤمنونَ بهذه الحاكميَّة، لكنّ الجميعَ سيَرى عمَليًّا ـ يومَ القيامة ـ بأنّ الحُكمَ فعلًا لله تعالى، وأنّ الصّالحينَ سيَدخُلونَ الجنّةَ بفَضْلِ أعمالِهم الصّالحة، وسيَدخُلُ الأشرارُ النارَ بسببِ أعمالِهم السيِّئة.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

٦٠ ـ الذين خَرَجوا من ديارِهم بغَرَض الجهاد، سواءٌ استُشهِدوا في المعاركِ أو ماتوا مِيتةً طبيعيّةً، سوف يَرزُقُهم اللهُ تعالى في الجنّةِ برزقٍ حسَن ومستقَرٍّ عظيم يَسعَدونَ به ويَفرَحونَ له.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

٦١ ـ من ظُلِم فله الحقُّ في أن يأخُذَ الحقَّ ممَّن ظَلَمَه بقَدْرِ الظُّلم الذي وَقَع عليه، على سَبيل المثال: لو أنّ زيدًا كَسَر سِنًّا لبكْر، فيحِقُّ لبكرٍ أن يكسِرَ سنًّا لزَيْد، وهكذا تكتملُ مقتَضَياتُ العدلِ والإنصاف، ولكنْ لو أنّ زيدًا استَشاطَ غضبًا، واعتدَى ثانيةً على بكر، وكسَر سنًّا أخرى له، فإنّ بكرًا في هذه الحالة مظلومٌ، واللهُ تعالى سوف ينصُرُ بكرًا، بمعنى: لو أنّ الظالمَ لم يَلقَ عقابَ ظُلمِه في الدنيا، فإنه لن يستطيعَ الإفلاتَ في الآخِرة من العقابِ، وسيكونُ عليه أداءُ حقِّ مَن ظَلَمَه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾

٦٢ ـ في الآيةِ السابقة أعلَن اللهُ تعالى أنه سينصُرُ المظلومين، وكان المسلمونَ مظلومينَ في تلك الأيام.

وفي الآياتِ التالية بيَّنَ اللهُ تعالى آياتِ قُدرتِه التي تدُلُّ على أنه القادرُ المطلَق، يعني: كما أن اللهَ تعالى يأتي بظلام اللّيل بعدَ ضوءِ النهار، ويأتي بضوءِ النّهارِ بعدَ ظلام اللّيل، فإنّ الإسلامَ والكُفرَ بنفس الطريقة يتبادلانِ الغَلَبَة، ولكنّ الوقتَ الذي سيَنقشِعُ فيه ظلامُ الكُفر تمامًا قدِ اقترب، وشمسُ الإسلام على وَشَكِ الشروق، وبالفعل، حَدَث هذا، إذْ رَفرَفَت رايةُ الإسلام بعدَ سنواتٍ قليلةٍ على شبهِ الجزيرةِ العربيّة كلِّها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾

٦٣ ـ اللهُ تعالى حقٌّ، والحقُّ دائمًا منتصرٌ مرفوعُ الهامة، وما يعبُدُه هؤلاءِ المشركونَ من دونِ الله تعالى باطلٌ، ولا يمكنُ أن تكونَ نهايةُ الباطلَ سعيدةً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

٦٤ ـ اللهُ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمةِ بمخلوقاتِه، ويَعرِفُ تمامَ المعرفةِ ما يحتاجونَه، ولهذا يُنزِلُ الماءَ من السماءِ لتخضَرَّ الأرضُ وتَيْنع، حتى يتهيَّأ للإنسانِ والحَيوانِ ما يحتاجونَه من الغذاء.

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ بأنه مثلَما أنّ الأمطارَ تتكوَّنُ من أَبْخِرةِ الماءِ فتسقُطُ على الأرضِ الجافّة، فتخضَرُّ وتَيْنَعُ في غضونِ أيام قليلة، بنفس الطريقةِ فإنّ أمطارَ التوحيد التي تَنزِلُ على قلوبِ الناس المضْطَربة بفَضْل دعوةِ النبيِّ ﷺ، سوف تُهيِّئُ لهذه القلوبِ قريبًا الطُّمَأْنينةَ والسَّكينةَ بذِكرِ الله تعالى.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

٦٥ ـ شأنُ الله تعالى وعظَمتُه أنه المالكُ الحقيقيُّ لكلِّ شيءٍ في السماءِ والأرض، والمخلوقاتُ كلُّها محتاجةٌ إليه، وهو غيرُ محتاج لأحد، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى يستحِقُّ كلَّ حمدٍ وثناء.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ

يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾

٦٦ ـ اللهُ تعالى رؤوفٌ بالناسِ غايةَ الرَّأْفة، فقد سَخَّر كلَّ ما في الأرض، والسُّفُنَ في البحارِ للناس، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَنْعم على الإنسانِ بالعقل والحِكمة، ممّا يُمكِنُه ـ بفضلِها ـ الاستفادةُ من كلِّ شيءٍ في الأرضِ والسماء.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

٦٧ ـ اللهُ تعالى أمسَكَ السّماءَ فلا تقَعُ على الأرض، ولكنْ حين يأذَنُ اللهُ تعالى ستَسقُطُ السماءُ على الأرضِ مفتَّتةً[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾

٦٨ ـ خَلَقَكم اللهُ تعالى من نُطفةٍ لا رُوحَ فيها، ثم سيُميتُكم بانتهاءِ فترةِ حياتِكم المقرَّرةِ لكم، ثم سيُحييكم ثانيةً يومَ القيامة لحسابِكم وثوابِكم وعذابِكم.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾

٦٩ ـ في الآياتِ السابقة ذَكَر اللهُ تعالى نِعَمَه، يعني: أنه سَخَّر كلَّ شيءٍ في الأرض من أَجْل فائدةِ الإنسان، وجَعَله تابعًا له، وبالتالي ينبغي لكلِّ إنسانٍ أن يسجُدَ شكرًا في حضرةِ المتفضِّل الحقيقيِّ عليه، لكنّ أكثرَ الناسِ جاحدونَ

(١) «﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: إلا إذا شاء، وذلك عند قيام الساعة». صفوة التفاسير وتفسير البيضاوي.

ناكرو الجميل، برَغْم هذه النِّعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾

٧٠ ـ أعطَى اللهُ تعالى كلَّ أُمةٍ نظامَ شريعةٍ خاصًّا طبقًا لأحوالِها وظروفِها الخاصّة، والتي تختلفُ في بعضِ الأشياءِ عن بعضِها، ومثلَما كان نظامُ شريعةِ الإنْجيل مختلفًا عن نظام شريعةِ التَّوراة، بنفس الطريقةِ فإنّ نظامَ شريعةِ القرآنِ (الإسلام) مختلفٌ عن نُظُم الشرائع السّابقة، ولهذا ليس منَ المناسبِ أن يجادلَ أحدٌ في نظام شريعةِ الإسلام؛ لأنه مثلَما نُسِخَت الشّريعةُ الموسَويّة بمجيءِ الشّريعةِ المسيحيّة، فإنّ كلَّ الشرائع السّابقةِ نُسِخت جميعًا بمجيءِ الشّريعةِ المحمَّديّةِ على صاحبِها أفضَلُ الصّلاةِ وأتمُّ التسليم.

وفي الجزءِ الثاني من هذه الآية طَمْأَن اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ أنّ لا تهتمَّ بجدالِهم، وإنّما عليك أن تواصلَ دعوتَهم إلى الإسلام؛ لأنّ الإسلامَ ـ فقطْ ـ هو الطريقُ المستقيم، وهو الذي تسيرُ أنت عليه.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

٧١ ـ يعني: لو أصرَّ هؤلاءِ على جدالِك برَغْم الدّلائلِ والبراهين، فقُلْ لهم فقط: إنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أعمالَكم، وهو الذي سيَحكُمُ في اختلافاتِكم يومَ القيامة، ولهذا سيتَّضحُ الحقُّ والباطلُ في ذلك اليوم.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «في هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علَّمَه اللهُ عبادَه في الرّدِّ على مَن

جادَلَ تعنُّتًا ومِراءً، ألّا يُجابَ ولا يُناظَرَ ويُدفعَ بهذا القولِ الّذي علَّمه اللهُ لنبيِّه ﷺ»[1].

كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ائتمِروا بالمعروف وتَناهَوْا عن المنكر، حتّى إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا وهوًى متَّبَعًا ودُنيا مؤْثَرةً وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِه، فعليكَ بخاصّةِ نفسِك ودَعِ العوامَّ»[2].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

٧٢ ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم كلَّ شيءٍ في السماءِ والأرض، وليس أعمالَ أولئك المنكِرينَ فقطْ، وكَتَب عِلمَ كلِّ شيءٍ في اللَّوح المحفوظِ لحِكمةٍ عندَه، ولا يَصعُبُ على الله تعالى عِلمُ كلِّ هذه الأشياءِ التي لا حَصْرَ لها، والحُكمُ طبقًا لها، ثم تنفيذُ هذا الحُكم، فاللهُ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

٧٣ ـ هذه الأشياءُ التي يعبُدُها هؤلاءِ المشركونَ من دونِ الله تعالى، لا يوجَدُ لديهم دليلٌ نَقْليٌّ من أيِّ كتابٍ سَماويٍّ يُثبِتُ كونَها آلهةً، كما أنه لا يوجَدُ دليلٌ عَقْليٌّ لديهم يُمكِنُهم به إثباتُ ذلك، ولهذا فإنّ المشركينَ هم الظالمون، وحينَ يلقَوْن جزاءَ ظُلمِهم يومَ القيامة لن يجدوا مَن يُنقذُهم من هذا الجزاء.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

٧٤ ـ عندَما كانت آياتُ القرآنِ الكريم تُتلَى أمامَ الكُفّار، فإنّهم كانوا يَستشِيطُونَ

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة المائدة (٥): برقم ٣٠٥٨.

غضبًا، وتبدو على وجوهِهم شواهدُ عَدَم الرضا، ويبدُونَ وكأنّهم سيَهجُمونَ على المسلمينَ الذين يَتْلُونَ هذه الآياتِ، وعليه يُنبِّهُ اللهُ تعالى الكُفّارَ بأنّكم تُقَطِّبونَ وجوهَكُم الآنَ لمجرَّدِ سماعِكم آياتِ القرآن، ولكنْ سيأتي الوقتُ الذي ستواجِهونَ فيه حالاتٍ أكثرَ إيلامًا إنْ لم تتوبوا اليومَ من كُفرِكم، وهي نارُ جهنَّم التي وَعَد اللهُ الكُفّارَ بها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾

٧٥ ـ جاء في هذه الآيةِ بيانٌ لمثالٍ على عَجْز الأصنام، يعني: أنّ الأصنامَ كلَّها مجتمِعةً لا تستطيعُ أن تَخلُقَ ذبابةً، بل إنّ الذُّبابةَ لو سَلَبْتهم شيئًا لَما استطاعت هذه الآلهةُ أن تستعيدَ هذا الشيءَ المسلوبَ منها، وكما أنّ هذهِ الآلهةَ عاجزةٌ ضعيفةٌ

لا حِيلةَ لها، فإنّ مَن يعبُدونَها ويعتقدونَ فيها أيضًا ضُعفاءُ عاجزونَ لا حِيلةَ لهم، والحقيقةُ أنّهم لم يُقدِّروا قُدرةَ الله تعالى العظيمةَ حقَّ قَدْرِها، وإلّا لَما انحَنَوْا أمامَ هذه الآلهةِ العاجزة.

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾

٧٦ ـ اختارَ اللهُ تعالى بعضَ الملائكةِ لتبليغ رسالتِه، مثلَما اختارَ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ لتبليغ الوَحْي إلى الرُّسُلِ والأنبياءِ عليهم السَّلام، واختارَ سيّدَنا عِزْرائيلَ عليه السَّلام لتبليغ رسالةِ الموتِ إلى الناسِ وقَبْض أرواحِهم، وبنفسِ الطريقة، اختارَ اللهُ تعالى الأنبياءَ والرُّسُلَ لهدايةِ البشَر، واختيارُ هذَيْنِ القسمَيْنِ من الرسُل (من الملائكةِ ومنِ البشَر) يَرجِعُ إلى اللهِ سبحانَه وتعالى ويتوقَّفُ على رضاه، فهو الذي يَعلَمُ تمامَ العِلم ظاهرَ وباطنَ كلِّ إنسانٍ وكلِّ مَلَكٍ، ويَحكُم فيه طبقًا لقُدراتِه وإمكانيّاتِه.

﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾

٧٧ ـ إذا كان اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم ظاهرَ وباطنَ كلِّ إنسان، وكلَّ أمورِ هذا الإنسانِ، ومعاملاتُه تعودُ إلى الله تعالى، فأين يذهبُ الإنسانُ إذًا بعصيانِه لله تعالى، وكيف يَنْجو من عذابِ الله تعالى؟ ولهذا ينبغي لكلِّ إنسانٍ أن يُطيعَ اللهَ تعالى لكي ينالَ رضاه.

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾

٧٨ ـ أحسَنَ اللهُ تعالى إلى المسلمينَ وتفضَّل عليهم بأنْ فضَّلهم على الأُمم كلِّها، وبالتالي فإنّ هذا التكريمَ يقتضي أن يبذُلَ المسلمُ كلَّ ما في وُسعِه لرِفعةِ

الحقِّ ونُصرتِه، وأن لا يألوَ جُهدًا في سَبيل ذلك. فما المرادُ بالجهاد؟ وما هي أقسامُه؟ لمزيدٍ من التفصيل راجعِ التعريفَ بسُورة التوبة (٩).

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾

٧٩ ـ أحكامُ الإسلام جميعُها سهلةٌ ميسَّرةٌ قابلةٌ للتنفيذ، وليس فيها حُكمٌ صعبٌ لا يستطيعُه الإنسان؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يُكلِّفُ نفسًا إلا وُسعَها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾

٨٠ ـ بما أنّ العربَ والنبيَّ الكريمَ ﷺ من نَسْل سيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، لهذا فإنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام هو جَدُّهم جميعًا، كما أنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أيضًا جَدُّ سيّدِنا يعقوبَ وسيّدِنا موسى وسيّدِنا عيسى وغيرِهم من الأنبياءِ عليهمْ جميعًا السَّلامُ، ولهذا يحترمُه غيرُ العربِ احترامَهم للأبِ، وهنا يُخبرُ اللهُ تعالى العربَ أنّ دينَ الإسلام الذي جاء به سيّدُنا محمَّدٌ ﷺ ليس دينًا جديدًا، وإنّما هو دينُ أبيكم سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، الذي لا مكانَ فيه لعبادةِ غيرِ الله تعالى، وكان سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ أيضًا مسلمًا، ودعا لذُرِّيتِه بالبقاءِ على الإسلام والتمسُّكِ به، وقد سَمّاكمُ اللهُ تعالى في الكتُبِ السّابقة وفي القرآنِ الكريم أيضًا المسلمينَ، والحقيقةُ أنّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ جميعًا، وكذا المؤمنونَ بهم، كانوا من المسلمينَ، لكنّ اللهَ تعالى اختَصَّ بهذا اللّقب أُمّةَ سيّدِنا محمّد ﷺ.

﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾

٨١ ـ يقولُ السيِّدُ محمود الألُوسيُّ: «وَرَد أنه يؤتَى بالأمم وأنبيائهم فيقالُ لأنبيائهم: هل بَلَّغْتُم أُممَكم؟ فيقولون: نعَمْ، بَلّغناهم، فيُنكِرونَ، فيؤتَى بهذه الأُمةِ

المسلمة فيشهَدونَ أنهم قد بَلَّغوا، فتقولُ الأُممُ لهم: من أين عرَفتُم؟ فيقولونَ: عرَفْنا ذلك بإخبارِ الله تعالى في كتابِه الناطقِ على لسانِ نبيِّه الصادق»[1].

ويقولُ سيِّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يُدعَى نوحٌ يومَ القيامة، فيقولُ: لَبّيْكَ وسَعْدَيْكَ يا ربّ. فيقولُ: هل بَلَّغتَ؟ فيقولُ: نعم. فيقالُ لأُمّتِه: هل بَلَّغَكم؟ فيقولونَ: ما أتانا من نذيرٍ. فيقولُ: مَن يشهَدُ لك؟ فيقولُ: محمّدٌ وأُمّتُه. فتَشهَدونَ أنّه قد بَلَّغ». ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فذلك قولُه جلّ ذكرُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسَطُ: العَدْلُ»[2].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الظهر من يوم السبت ٢١ يونيه ٢٠٠٨م
الموافق ١٧ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ.



(١) تفسير روح المعاني.
(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة (٢): باب ١٣ برقم ٤٤٨٧.

فهرس المطالب التفصيلي
للمجلد الثالث
(من سورة يوسف إلى سورة الحج)

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
كان سيدنا يعقوب عليه السلام يعلم أن سيدنا يوسف عليه السلام على قيد الحياة	١٢	٨٧	٧٢	٦٣
عاد البصر إلى سيدنا يعقوب عليه السلام بفضل قميص سيدنا يوسف عليه السلام	١٢	٩٦	٧٨	٦٧
سيدنا يوسف عليه السلام أول أنبياء بني إسرائيل	١٢	١٠٠	٨٠	٦٩
أين قبر سيدنا يوسف عليه السلام؟	١٢	١٠٠	٨٠	٦٩
قوم سيدنا لوط عليه السلام	١٥	٦١	٢٧	١٥٩
قوم سيدنا لوط عليه السلام	١٥	٧٣	٣٢	١٦١
قوم سيدنا شعيب عليه السلام	١٥	٧٨	٣٣	١٦١
قوم سيدنا صالح عليه السلام	١٥	٨٠	٣٥	١٦٢
هل كان سيدنا الخضر عليه السلام نبيًّا أم وليًّا؟	١٨	٦٠	٥٢	٣٣١
هل سيدنا الخضر عليه السلام لا يزال حيًّا؟	١٨	٦٠	٥٢	٣٣١
أين مجمع البحرين؟	١٨	٦٠	٥٢	٣٣١
واقعة سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما السلام	١٨	٦٠	٥٢	٣٣١
كان عند سيدنا الخضر عليه السلام العلم اللدني، أي علم الغيب	١٨	٦٥	٥٧	٣٣٨
دعا الأنبياء الكرام عليهم السلام بالجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
بعض الأنبياء الكرام عليهم السلام لن يكون لديهم من آمن بهم	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
اللحية سنة الأنبياء عليهم السلام	٢٠	٩٢	٦٢	٤٢٨
سيشفع الأنبياء والعلماء والشهداء	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
اجتهاد سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما السلام	٢١	٧٨	٦٣	٤٨٧

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
السيدة سمية هي أول الشهداء في الإسلام	١٦	١٠٦	٧٩	٢١٥
أول شهيدة في الإسلام السيدة سمية رضي الله عنها	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
سيشفع الأنبياء والعلماء والشهداء	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
لا تبقى أماكن العبادة لأي دين سالمة بغير الجهاد	٢٢	٤٠	٤٤	٥٣٧
الدعاء				
أفضل وقت للدعاء هو ليلة الجمعة ووقت السَّحَر	١٢	٩٨	٧٨	٦٧
طلب الدعاء بالمغفرة من الصالحين	١٢	٩٨	٧٨	٦٧
طريقة الدعاء	١٢	١٠١	٨١	٧١
القَدَرُ يتغير بالدعاء	١٣	٣٩	٤٨	١١٠
لا يصعد الدعاء بغير الصلاة على النبي ﷺ	١٥	١٧	١٣	١٥١
رفع الصوت وخفضه في الدعاء	١٧	١١٠	١٠٧	٢٩٨
الدعاء والذِّكْرُ بصوت خفيض	١٩	٣	٣	٣٦٢
النِّعَمُ كلها يمكن أن تُنالَ بدعاء أحباء الله تعالى	١٩	٥٣	٤٦	٣٨٠
الدعاء بالزيادة في العلم	٢٠	١١٤	٨٠	٤٣٨
الدعاء مخ العبادة	٢٠	١١٤	٨٠	٤٣٨
الدعاء أعظم عبادة	٢٠	١١٤	٨٠	٤٣٨
يصير الصعب سهلاً بدعاء سيدنا يونس عليه السلام	٢١	٨٧	٧١	٤٩٣
المساجد				
عُمَّارُ المساجد في ظل العرش	١٢	٣٣	٣٠	٣٦
لا يخاف إمام المسجد يوم القيامة	٢١	١٠٣	٨٢	٥٠٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
يظل ثواب الصالحات التي كان يعملها المريض حال صحته قائمًا	١٩	٧٦	٦٣	٣٨٧
تولد في قلوب عامة الناس محبة الولي	١٩	٩٦	٧٧	٣٩٣
سيدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
سيكون يوم القيامة بالنسبة لأهل الإيمان بمثابة لحظات قليلة	٢٢	٤٧	٥٠	٥٤٠
الجنة والنار				
ستكون العربية لغة أهل الجنة	١٢	٢	٢	١٩
سيزول حقد الدنيا من قلوب أهل الجنة	١٥	٤٧	٢٤	١٥٧
لن يدخل الجنة متكبر	١٦	٢٢	١٤	١٧٤
ستكون لغة القبر والحشر والجنة هي اللغة العربية	١٨	٤٩	٤٢	٣٢٦
دعا الأنبياء عليهم السلام أيضًا بالجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
أعمار أهل الجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
صفوف أهل الجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
الأكثر تكريمًا بين أهل الجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
جنة الفردوس	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
اطلبوا جنة الفردوس	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
الصراط فوق جهنم	١٩	٧١	٥٩	٣٨٥
سيمر كل فرد فوق الصراط	١٩	٧١	٥٩	٣٨٥
سيدخل سبعون ألفًا الجنة بغير حساب	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
كل واحد من السبعين ألفًا معه سبعون ألفًا	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

أولًا: كتب التفاسير

(١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).
(٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).
(٧) جامع البيان (تفسير الطبري/ تفسير ابن جرير): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).
(٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).
(١٠) تفسير البيضاوي: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).
(١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.
(١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٣) التفسير المظهري: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٤) تفسير نعيمي: المفتي أحمد يار خان نعيمي، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨م (١٠ مجلدات).

(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١م (١٤ مجلدًا).

(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).

(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٧ مجلدات).

(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢م.

(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).

(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.

(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بكـ ڈپو، الهند.

(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٢٦) تفسير الكشاف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.

(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).

(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.

(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).

(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).

(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپنى لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).

(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزى مكتبه إسلامى ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).

(٣٦) تفسير عثماني: شبير أحمد عثماني، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).

(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.

(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.

(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانيًا: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٦) سنن أبي داوود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤م (٢٥ مجلدًا).

(٥٢) المستدرك: الإمام الحاكم النيشابوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (٤ مجلدات).

(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (مجلدان).

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.
(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م (٤ مجلدات).
(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.
(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).
(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١١ مجلدًا).
(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).
(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مراجع أخرى:

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.
(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧٥م (مجلدان).
(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).
(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.
(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

(٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.
(٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م (٧ مجلدات).
(٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠م (١٥ مجلدًا).
(٧٧) الفتاوى العالمگيرية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٨ مجلدات).
(٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٨٣) بهارِ شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
(٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣م.
(٨٥) اسلامى عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩م.
(٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥م (١٦ مجلدًا).
(٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (١٠ مجلدات).
(٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
(٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

(٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
(٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيدمي، لاهور، باكستان.
(٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
(٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
(٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
(٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
(١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
(١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
(١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
(١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، (١٠ مجلدات).
(١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
(١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
(١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
(١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

(١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
(١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).
(١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
(١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
(١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
(١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.
(١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
(١٢٤) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).
(١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
(١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
(١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراني، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
(١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
(١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.
(١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.
(١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.
(١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.
(١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كرهـ، يوبي، الهند.
(١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.
(١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications 200 UK Swansea.
(١٤٣) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

ثالثًا: المراجع الإنجليزية

(144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.
(145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.
(146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.
(147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.
(148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.
(149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).
(150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.
(151) The Living Bible: British Edition, 1975.
(152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

(153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.

(154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.

(155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.

(156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.

(157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.

(158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.

(159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.

(160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.

